غالب هلسا

سلطانة

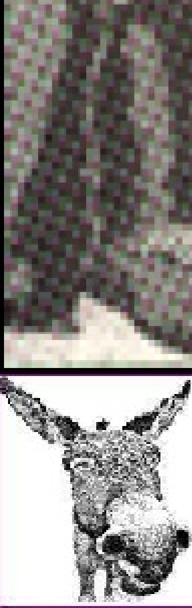
http://abuabdoalbagl.blogspot.com

أبو عبدو البغل

الأعمال الروائية الكاملة 3

غالب هلسا

سلطانة
الروائيون

أزمنة

بدعم أمانة عمّان الكبرى
البنك الأهلي الأردني

Abu Abdo Al Bagl

رقم الإجازة المتسلسل : سلطانة (٢٢٠٩/١١/٢٠٠١)، الروائيون (٢٢١٢/١١/٢٠٠١)
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية : سلطانة (٢٣٨١/١١/٢٠٠١)،الروائيون (٢٣٨٠/١١/٢٠٠١)

سلطانة (ردمك) ISBN 9957-09-086-0
الروائيون (ردمك) ISBN 9957-09-084-4

☐ سلطانة: الطبعة الثانية 2003
(ط١ 1987 دار الحقائق ، بيروت).
☐ الروائيون: الطبعة الثانية 2003
(ط١ 1988 دار الزاوية ، دمشق).

جميع الحقوق محفوظة بموجب اتفاق وعقد ©

أزمنة ®
أزمنة للنشر والتوزيع
تلفاكس : ٥٥٢٢٥٤٤
ص.ب : ٩٥٠٢٥٢
عمّان ١١١٩٥ الأردن
شارع وادي صقرة، عمارة الدوحة، ط ٤

All rights reserved. No Part of this book may be reproduced, stored in all retrieval system or trasmitted in any form or by any mean without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة ، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

☐ لوحة الغلاف: غسان أبو لبن(الأردن).
☐ تصميم الغلاف : أزمنة (الياس فركوح) .
☐ فرز أفلام الغلاف: الشروق.
☐ التنضيد الضوئي: أزمنة (إحسان الناطور، نسرين العجو).
☐ تاريخ الصدور : شباط 2003.

المحتويات

تقديم الناشر ٥
غالب هلسا .. سيرة مختصرة ٧
سلطانة ٩
الروائيون ٤٧٧

Abu Abdo Al Bagl

Abu Abdo Al Bagl

غالب هلسا.. من جديد

تُعدّ الأعمال الروائية للكاتب الراحل غالب هلسا(١٩٣٢ ـ ١٩٨٩) أكثر النتاجات الأدبية الأردنية إلفاتاً في القرن العشرين. فهي تحظى بمكانة رفيعة داخل السرد الروائي العربي ، وبتقدير خاص من لدن القراء والكتّاب والنقّاد العرب على السواء .

ومع ذلك ، لم يتسنَ للعديد من أبناء آخر جيلين من هؤلاء الإطلاع على روايات هلسا جميعها؛ إذ صدرت هذه في سنوات متباعدة وأمكنة متفرقة ، ولم يحظَ أغلبها حتى بطبعات ثانية ذات انتشار واسع يتفق مع قيمتها وأهميتها ، كما أن أيّاً منها لم يصدر في بلد الكاتب . وبالنتيجة ؛ فلقد باتَ تُراث غالب هلسا الروائى الخصب ينتسب إلى الذاكرة الخاصة بالأفراد الذين اطلعوا عليه يوماً ، أكثر مما يتتابع متجدداً في الواقع الأدبي المتصل بدوام الحضور العياني لنصوصه : هذا الواقع الذي يفسح ـ ويا للمفارقة ـ مساحة تتسع باستمرار حول انجازات هلسا ، الأدبية والفكرية ، في حين يتم تداول نسخ محدودة أو مصورات رديئة من كتبه بين قرائه الشغوفين.

من هنا أخذت دار أزمنة بعمان على عاتقها إنجاز هذا المشروع الأدبي الضخم والملحّ، ألا وهو إصدار الأعمال الروائية الكاملة لغالب هلسا ، معاً ، ووضعها بين أيدي القراء بعامة ، ودارسي الأدب والرواية بخاصة ، بعد أن كانت قد أعادت طبع ونشر مجموعتيه القصصيتين في العام الماضي .

وتجدر الإشارة إلى أن هذا المشروع ما كان له أن يتحقق ، هكذا ومرةً واحدة ، لولا الدعم الكريم والمتفهم الذي أتاحه البرنامج الثقافي المشترك بين أمانة عمّان الكبرى والبنك الأهلي الأردني . لقد جسّد هذا الدعم ، بحد ذاته ، مثالاً على القدرات المؤثرة والفاعلة التي بإمكان مؤسسات المجتمع المدني توفيرها لازدهار الحياة الثقافية ، لحظة وعيها لدورها المساهم فيها. فهي شريكٌ منخرطٌ وإنْ بدت ، للغافلين من بعض أصحاب القرارات ، أنها تبحر في مياه اخرى .

وإن دار أزمنة بعمان لتفخر لأنها تقدّم اليوم ، للقراء الأردنيين والعرب ، الأعمال الروائية الكاملة لغالب هلسا في ثلاثة مجلدات :

المجلد الأول ، ويضم : (الضحك) و(الخماسين) و (السؤال) .

المجلد الثاني ، ويضم : (البكاء على الأطلال) و (ثلاثة وجوه لبغداد) .

المجلد الثالث ، ويضم : (سلطانة) و (الروائيون) .

وهكذا نكون ، ولأول مرة ، قادرين ، قراءً ودارسين ، على مقاربة التجربة الروائية الخصبة لراحلنا الكبير ، كمثقف متميز ، على نحو متكامل يمكننا من إستنطاقها ، واستلهامها ، ونقدها ؛ الأمر الذي سيطلق ، حتماً ، ديناميةً جديدة في الحركة الأدبية الأردنية والعربية .

* * *

ولئن لم يكن غالب هلسا ، مثقّفاً صاحب موقف ونتاج تفكير حُرّ ، المصادَر الوحيد من لَدُن أصحاب القرارات ضمن المعطى الثقافي ـ السياسي في وطننا العربي ؛ إلاّ أنّه مثّلَ سؤالاً مقلقاً وحالةً عالقةً لجميع مثقفي بلده ، الحريصين على حريّة التفكير والتعبير حرصهم على أنفسهم وعلى انتمائهم الوطني العميق ، فكان العملُ باتجاه كسر الطوق غير المبرّر ، وإعادة إبداعات (إبن البلد) إلى البلد وإلى أبنائه، ولإرساء حجر أساس لإعمار العلاقة بين الأدب والحرية .

ولأن الزمن ، باشتراطاته المتغيّرة ، لا يتوقّف عند مفهوم واحد يحلّل بالمطلق أو يحرّم بالمطلق ؛ ولأن مفردات الديموقراطية والحريّة وكرامة الإنسان، كشعار إجتماعي ـ سياسي مرفوع ، يجب أن تخلق تجليّاتها المنسجمة معها على صعيد الممارسة كي تتوفّر المصداقية، كان أن اجتازت كافةُ الأطراف امتحانَ التوافق والانسجام الصعب .. فطُبعت أعمالُ الرجل المتغرّب عن بلده في بلده ، واستعاد البلدُ أعمالَ إبنِه ليطرحها من جديد على محيطها العربي حيث الرئةُ أكبر والرؤيةُ أوسع . كأنّما هو بذلك ، على نحوٍ ما ، يطبعُ كلمةَ اعتذار ، وينشُر تأكيدَ اعتبار .

إنّها خطوة ، كما نأمل ، من أجل خطوات في مسيرةٍ طويلة.

وإنّه لفعلٌ نُقرُّ بأثره الإيجابي ونؤكّد ، في الوقت نفسه ، على شُكرنا لجميع الذين ما كان لهذا المشروع أن يخرجَ على هذه الصورة لولا حرصهم ، وجهدهم ، وتفهّمهم الواعي ، وشجاعتهم أولاً وأخيراً.

الناشر

عمّان في ٨/ ١/ ٢٠٠٣

غالب هلسا

ـ وُلد في قرية ماعين جنوب عمّان بتاريخ ١٩٣٢/١٢/١٨ (تُفيد الدكتورة سلوى العمد بأنّ غالب ذكر لها أنّه وُلد في الثالث من هذا الشهر) ، وتوفي في دمشق في ١٩٨٩/١٢/١٨.

ـ تلقى تعليمه في مدرسة ماعين الإبتدائية ، ثم في مادبا ، ثم في مدرسة المطران في عمّان.

ـ في سن الرابعة عشر شارك في مسابقة للقصة وفاز بالجائزة الأولى (سبعة دنانير) ، ونشر في مجلة مدرسته (المطران) مقالتين، الأولى حوارية قصصية والثانية عن الاشتراكية والدولية الثانية.

ـ أنهى المرحلة الثانوية عام ١٩٥٠ ، وتوجه إلى بيروت لاستكمال دراسته في الجامعة الأميركية/قسم الصحافة، غير أنّه اعتُقل في طرابلس ثم طُورد في بيروت لنشاطه ضد زيارة المندوب الأميركي روبسون إلى لبنان.

ـ التحق بالحزب الشيوعي الأردني عام ١٩٥١، وسُجن في سجن المحطّة ـ عمّان، ومُعتقل الجفر الصحراوي ، ثُم فُرضت عليه الإقامة الجبرية في مادبا. كما اعتُقل في العراق خلال وجوده هناك عام ١٩٥٤ لانتسابه إلى التنظيم الطلاّبي التابع للحزب الشيوعي العراقي، ليتم ترحيله إلى الأردن.

ـ إثر ذلك غادر إلى القاهرة ـ الجامعة الأميركية (١٩٥٤) ليدرس الصحافة ويُنهيها عام ١٩٥٨.

ـ أقام في القاهرة مُنذ ذلك الوقت عاملاً في وكالة الصين الجديدة للأنباء، ووكالة الأنباء الألمانية ، ولم يغادر مصر إلاّ بعد

أن أجبرته السلطات على ذلك عام ١٩٧٦ بعد توقيفه لاحتجاجه (إسوةً بمثقفين مصريين) ومعارضته للنهج السياسي الذي اتبعه السادات . ويجدر التنويه إلى أنّه اعتُقل في مصر عام ١٩٦٦ ستة أشهر لاشتراكه في أنشطة المنظمات اليسارية المصرية في تلك السنوات. كما أنّه تلقّى تدريباً عسكرياً عام ١٩٥٦ وتوجّه إلى الإسماعيلية ليساهم في مقاومة العدوان الثلاثي (بريطانيا وفرنسا وإسرائيل) على مصر.

(آخر عهد له مع الأردن كمقيم عام ١٩٥٦)

ـ أقام في بغداد إثر طرده من مصر لمدة ثلاث سنوات، حيث نشط كاتباً في صحافة الحزب الشيوعي العراقي ومجلة الأقلام .

ـ انتقل إلى بيروت ليعيش فيها تجربة المقاومة والحصار والحرب، ثم غادرها إلى عدن على ظهر إحدى البواخر في أيلول ١٩٨٢ مع المقاتلين الفلسطينيين ومنها إلى أثيوبيا ثم إلى برلين ، وبعدها استقرّ في دمشق عام ١٩٨٣ حتى وفاته فيها في ١٨/١٢/١٩٨٩.

Abu Abdo Al Bagl

سلطانة

Abu Abdo Al Bagl

Abu Abdo Al Bagl

القسم الأول

القرية

Abu Abdo Al Bagl

١

بقايا أحلام، تسبق الصحو عادة. رغبات ملتاعة وأحلام يقظة تهاجمه في اللحظات المترددة بين النوم واليقظة. أحلام تلك اللحظات تكون سريعة، غائمة، مجرّد أمثلة توضيحية للرغبات. آنذاك، يكون الجسد ذاتاً وموضوعاً، إذ يخلق التلامس بين أعضاء الجسد ما ينوب عن جسد آخر في حالة اليقظة. يخلق متعة محرّمة. تصبح المخدّة واللحاف وكل ما يمكن الإمساك به وتحريكه جزءاً من الجسد، امتداداً له.

تلك لحظات متعة خالصة (بالطبع، يقبع على حدودها، منتظراً، صغيراً جداً، وقاتماً: الوعي بأنّ تلك المتعة وهم).

الاستيقاظ لحظة انفصال مؤلم، لحظة يتحدّد الجسد ويشعر أنّه مستقل ـ مستقل عن ذلك الدفء الحنون الذي يحيطه به الفراش، عن ذلك الملمس الذي للحاف والبيجامة والذي يشبه جسداً يحتويه، عن ذلك الأمان التام الخالي من كل خوف. الاستيقاظ، بمعنى من المعاني، عملية جراحية يتم فيها بتر امتدادات الجسد، لا استعادتها.

الاستيقاظ لا يأتي فجأة، ولكنه يصارع محاولات العودة إلى الخدر. الرغبات وأحلام اليقظة والدفء تندفع بإغواء محاولة احتواء اليقظة، ولكن طابعها المكرّر، والممل يجعل هجمتها ضعيفة الأثر. اليقظة واجب اجتماعي تدوس تحت قدميها لحظات الضعف.

هكذا استيقظ جريس.

٢

صحوت من النوم على عالم بلا أصوات. الصمت فقط، وفضاء أسمر. كان

ذلك مخيفاً بعض الشيء، ومليئاً باحتمالات متعددة. اليقظة أصبحت، بالنسبة لي، قفزة إلى المجهول. تساءلت، وأنا في خدر النوم: أين أنا؟ في عمّان، أم في القرية؟ أم هل تحقق أحد الأحلام المستحيلة؟ حاولت العودة إلى النوم، ولكنني لمحت القنطرتين الكبيرتين، اللتين يرتكز عليهما سقف الدار، وسواد مخازن الحبوب والتبن الذي يتوه في ظلمة لا نهائية، والسقف الأسود. حاولت ألاّ ألتزم بتحديد المكان، فشددت اللحاف على رأسي، ومنحت منفذاً صغيراً لدخول الهواء، وناديت النوم ليحتويني. ولكنني كنت سائراً في طريق التنبّه. اقتنعت بعد قليل أن لا فائدة. كان ذلك حين حزمت أمري وقررت: أنا في القرية.

درت في الدار بلا هدف، كأنني أحاول استكشافها. كانت حزمة من ضوء الشمس تنساب من طاقة في السقف، راسمة بقعة شبه مستديرة على أرضية الدار الطينية. كانت تزحف ببطء نحو البساط الصوفي، الذي تتخلّله خطوط عريضة سوداء وبنيّة وبيضاء. كثيراً ما انحنيت فوق هذه البقعة الضوئية، أراقبها. أدهشني أنها ترتعش طيلة الوقت.

كنت أتمدّد على البساط وأجعل البقعة الضوئية تسقط في عينيّ، وأحاول أن أرى السماء:

كانت البقعة تقوم، بالنسبة لي، مقام الساعة. كان نصفها على البساط والنصف الآخر كان محنياً على الأرض. إذاً، فالساعة قد تجاوزت التاسعة، والشمس الآن تغمر الحوش كلّه، وأمّي قد انصرفت منذ ساعة، على الأقل لتشرب القهوة المرّة وتتبادل الأحاديث مع نساء القرية. كنّ في كل يوم يتجمّعن في بيت من البيوت، وكانت الأحاديث تدور حتى وقت الغداء. عندها يتذكرن بيوتهن وأعمالهن المنزلية، فيغادرن.

سرت نحو باب الدار الكبير. فتحته، فصرّ صريره المعتاد ـ في البداية يكون كصرخة ثم يتحوّل إلى أنين. كانت السماء عالية، شديدة اللمعان، تكاد تكون بيضاء. بعض الحدادي تحلّق في السماء. بدت متوقّفة عن الحركة، تعاين الأرض تحتها. هوت واحدة منها بسرعة هائلة، ورأيت بعين الخيال العصفور بين مخالبها. حاولت أن أحدّد حوش البيت الذي هوت إليه، ولكنني لم أستطع.

على قـمّـة الجبل، الذي تكوّن القـرية نطاقاً حـوله، كـان قـبر عليّ، جدّ الحـارة الإسـلامية، ينهض مـستطيلاً، وفي قـاعدته درجـتان، كنا نجلس عليـهـمـا في فـتـرة الصباح. بجواره تقع كنيسة الروم الأرثوذكس، وهي شبه مهجورة، عدا يوم الأحد. لقد تحوّل معظم السكان الأرثوذكس إلى الكاثوليكية. كان بيتنا يلي الكنيسة مباشرة.

عندما فتحت باب الدار بدت أمامي بوضوح الهضبة المقابلة، التي يفصلها عن قريتي سـهل ضـيّق ووادي. على الهـضـبـة يكوّم الفـلاحـون حـصـادهم من القـمـح والشعير. شاهدت البيادر، وفوقها خيول ربط خلفها لوح الدراس. وفوق اللوح يقف الدرّاس، والفرس تجر الإثنين. كـان هنالك بغـال وحـمـيـر ونسـاء وأطفـال وصلتني أصواتهم بمجرّد وقوعهم في مجال النظر.

تجمّع الدجاج حولي وعلا زعيقه. أمسكت عصا القصيب الطويلة وأخذت ألوّح بها في الهواء وأصيح: كش، كش. فتح الكلب عينين دامعتين، أطلق همهمة حلقية خافتة، ثم عاد إلى نومه.

عدت إلى الداخل، فتحت درج المائدة. لقيت ثلاث بيضات، وحبة طماطم كـبـيـرة، وكـأسـاً فـيـه حليب، وقطعـة من الجبن المالح. أخـذت أعـدّ إفطاري ببطء واستمتاع. أشعلت وابور الجاز ووضعت سمناً في الغلاية، وعندما أخذ السمن يتفزز ويصخب وضعت قطعة الجبنة فيه، وشرائح عريضة من الطماطم، ثم فقست البيضات الثلاث. عندما أصبح الطعام جاهزاً وضعت إبريق الشاي فوق الوابور.

تناولت الإفطار، وشربت الشاي، وأنا أعيش أحلام يقظة ممتعة. يحدث ذلك كلما تناولت الإفطار وحدي. كـان حلم اليقظة إعـادة صيـاغـة لأحـداث لـم تصل إلى نهـايتهـا بسبب تردّدي وخوفي من الفضيحة. في هذه المرّة رأيتني أجلس عندما دعتني فدوى لدخول الدار والجلوس، ولكنني اعتذرت ومضيت. أرى نفسي وقد دخلت وجلست، وهي تجلس أمامي، وأقول لها حديثاً تعلم منه أنني أحبّها. سوف أحكي لها عن الرواية التي أقرأها، وسوف أحدّثها عن المدرسة الداخلية في عمّان التي أدرس فيها.

Abu Abdo Al Bagl

٣

استمرت أحلام اليقظة طويلاً، وكذلك تناولي الإفطار. وعندما انتهيت أخذت أذرع أرض الدار. أخذ حلم اليقظة يفقد حدّته، ووددت لو أنني أستطيع الخروج.

لا يوجد مكان أذهب إليه. فأصحاب الدكاكين الذين كانوا يرحبون بزيارتي عند بداية قدومي من عمّان، يضعون صندوقاً من الخشب أمام باب الدكان، وينادون زوجاتهم ليعددن لي الشاي، ويقدّمون لي سيجارة، قد تعوّدوا عليّ الآن. أصبحوا يعاملونني كواحد منهم. بل إنّ بعضهم ألمح بشكل غير مباشر أنّ الجلوس على أبواب الدكاكين يقطع الرزق.

كما امتنعت عن زيارة أصدقائي، في مثل هذا الوقت، واكتفيت بالمرور عليهم ساعة العصر لنقوم بنزهتنا اليومية على الطريق الرئيسي الذي يخترق حقول الحنطة، ويمتد غرباً، لنصل إلى حافة الجبل المطل على الأغوار. شعرت بأنّ زيارتي لهم تحرجهم. ربما كان سبب ذلك اضطرارهم لتقديم الشاي، وكان ذلك يثير مشاحنات صغيرة مع أمهاتهم، تصلني أطراف منها، وأنا جالس على حصيرة في الحوش؛ أو ربما لأنني كنت أحملق في نساء البيت برغبة لا أستطيع إخفاءها. أو ربما لكوني لا أمتّ - أنا وعائلتي - بصلة قربى إلى أحد في القرية. كل ما أعلمه أنني أخذت أشعر أن تكرار زياراتي غير مرغوب فيه تماماً.

تصاعد البخار كثيفاً من إبريق الشاي، وأخذ غطاؤه يرقص ويطقطق بإيقاع متسارع، فأنزلته عن الوابور ووضعت فيه السكر والشاي، وأخفضت شعلته، حتى يغلي ببطء.

أخذت أشرب الشاي، وأنا أذرع الدار. أشعلت سيجارة فأحدثت دواراً ممتعاً. وأخذت أحلم بخضرا. كان المشهد يبدأ ببطء، ثم ينتهي إلى الالتحام الجسدي. انتبهت فجأة إلى المرأة التي تقف بباب الدار. كانت خضرا. ثقل تنفسي وخشن صوتي. قلت:

- تفضلي.

قالت:

ـ صباح الخير يا أستاذ.

قررت أن أكون حازماً هذه المرّة. اقتربت منها وأنا أبتسم، وقلت:

ـ ما فيه حدا في الدار.

كان حلقي جافاً، وخرج كلامي بتأتأة خشنة. كنت أنتظر استجابة فورية، كأن تحتضنني وتعلن عن رغبتها. ما زالت البسمة المضيئة، الملتبسة تشع من عينيها، وظلّت صامتة، قلت:

ـ فيه شاي...

واختنق الكلام في فمي.

قالت إنها تريد اقتراض ثلاثة أرغفة خبز. لمست يدها وأنا أعطيها الخبز. استدارت وانصرفت. تبعتها إلى الحوش وأنا أنوي أن أقول لها إنني أحبها، أو شيئاً كهذا. لما رأتني أتبعها نظرت إليّ بعينين لعوبتين وقالت بلهجة ودودة:

ـ خليك جوّه يا خوي عن هالنار.

قلت:

ـ بدي أسكّر باب الحوش وراكي.

أغلقت باب الحوش، وأنا ألوم نفسي لأنني أضعت فرصة كنت أحلم بها منذ زمن.

٤

ما الذي حدث لخضرا؟ كانت هي البادئة.

كان أهل القرية قد اتجهوا كلهم غرباً، أعني الحارة الغربية التي تقطنها قبائل العوازم. فقد كان هنالك عرس تخللته معركة، فمضى أهل حارتنا، وأهل الحارة القبلية ليصلحوا المتعاركين، أو للفرجة. وكنت وحيداً.

حدث ذلك قبل أسبوعين. كنت وحيداً في الدار، أقرأ رواية «العبرات» للمنفلوطي. وهي، كما هو معروف، مأخوذة عن رواية ألكسندر دوما «سيدة

الكاميليا». حتمية انتهاء العلاقة بين السيدة وحبيبها كانت تعتصر قلبي بالألم. أمّا مشهد موت السيدة فقد جعلني حزيناً حتى الاختناق. كانت «عبراتي» تتساقط دون محاولة لإيقافها أو كفكفتها.

ثم أخذت أذرع الدار وأعيد بناء الرواية، متقمّصاً شخصية الحبيب. من خلال أحلام اليقظة خلقت نهاية سعيدة. لم يزل حزن النهاية المأساوية، بل تحوّل إلى شفافية. ثم رأيت خضرا تقف أمامي، قالت:

ـ ما فيه حدا في الدار.

لم يكن سؤالاً، بل تقريراً لواقع. وأضافت بصوت غريب هامس، مختنق:

ـ سكّرت باب الحوش بالزند.

كان وجهها مخطوفاً. أعني عيناها معلّقتان بعينيّ، ووجهها قد هرب منه الدم، وشفتاها تنفرجان قليلاً. وكانت تتنفّس بصعوبة، وبتلاحق سريع. كنت أنظر إليها، وأقول لنفسي «إنها خائفة». كانت تقف هكذا، دون حركة، تتوقع شيئاً مني لم أكن أدركه على وجه اليقين. هل.. ؟ وفاجأني الخوف. كان خوفاً من سقوط مريع، من القيام بخطوة لا سبيل للتراجع عنها.

قلت:

ـ إيش بدك؟

كنت أريد الوضوح قبل كل شيء.

أصبح وجهها قانياً، له لمعة، وأسبلت عينيها، قالت:

ـ سلامتك.

واستدارت متجهة إلى باب الدار. وفجأة خطر لي أنني فقدتها، وأنّ عليّ أن أسرع خلفها قبل أن تصل باب الحوش. ولكنني بقيت في مكاني مشلول الحركة.

استعدت قدرتي على الحركة. توقعت أن أراها واقفة في الحوش تنتظر. لم يكن هنالك أحد في الحوش. وكان بابه مفتوحاً. منذ تلك اللحظة، ورغم العديد من النساء اللواتي عرفتهن، ظلّت خضرا في داخلي رغبة لا تنطفئ.

عادت أمي عند الظهر لتعدّ لي طعام الغداء. خلال ذلك كانت تحكي لي أنباء القرية. كنت في العادة أستمع إليها دون أن أعلّق، أو حتى وأنا أواصل القراءة. سألتها:

ـ عند مين كان الاجتماع؟.

وكان ذلك أسلوباً في التهكّم يرفعني في نظرها، ويتحوّل إلى طرفة تحكيها لصديقاتها. قالت:

ـ عند الحوارنة. بنتهم إجت من عمّان. اللي بتشتغل عندهم بصيّفوا في رام الله.

كانت تضع اللحمة على الوابور. وجاءت جارتنا صبحا وجلست على عتبة الباب. كانت قصيرة وسمينة، ووجهها دائماً أحمر وعرقان، كأنها سارت مسافة طويلة. قالت لأمي:

ـ شفت البنت الخدّامة! يا خيتي صايرة مثل القمر.

قالت أمي:

ـ خشي اقعدي جوّه.

ـ خلّيني هون. بدي شويّة هوا.

قالت أمي موجهة الكلام لي:

ـ جايبة معاها كلب زغير، وقال ما بوكل غير لحمة. قال لها أبوها: «يا ست أميرة، إحنا مش لاقيين الخبز، نقوم نطعم الكلب لحمة!».

ضحكت صبحا وهي منصرفة إلى مراقبة البيادر. قالت بعد قليل:

ـ بيدر أبو حبة متل ما هوه.

ضحكت أمي وقالت:

ـ قعدت معانا البنت شوية، وبعدين قامت وقالت: «أنا عندي صناع» قال يعني

Abu Abdo Al Bagl

رأسها بوجعها.

قلت:

ـ صداع.

سألت صبحا:

ـ إيش هيه؟

قلت وأنا أحاول أن أؤكّد كل حرف:

ـ صوداع، صداع.

ضحكت صبحا وقالت:

ـ إنتو أهل عمّان.

ثم توجّهت إلى أمي وقالت:

ـ قال الكلب اسمه، إيش اسمه؟

ـ ماكس.

قالت أمي. ثم قالت لي بحنو وكأنها تناغي طفلاً:

ـ وزغير الكلب. قد القطّة. وشعره أبيض وطويل مثل صوف الخروف. شعره مغطي عيونه.

نهضت صبحا. دعتها أمي للبقاء للغداء، فقالت:

ـ وأنا عندي عيال يا اختي، وصار وكت غداهم.

وانصرفت.

قلت لأمي إنّ خضرا اقترضت ثلاثة أرغفة. فقالت:

ـ البنت الدايرة، ليش تعطيها؟

غضبت. أمي دائماً توجه الإهانات إلى كل فتاة تشعر أنني أميل إليها. تخاف عليّ من السقوط كأنني فتاة بكر، وكان ذلك يثير أعصابي: تريدني أن أكون دائماً ابنها الصغير. قلت:

ـ أكذب يعني؟

ـ خبزهم وسخ.

Abu Abdo AlBagl

ـ أطعميه للكلب.

لم تردّ. وواصلت القراءة متجهماً. حاولت أمي أن تسترضيني. قالت:

ـ سألتني أميرة عنك «كيف حال المستر؟» وقالت إنها شافتك في السوق، في عمّان، وكان بدها تسلم عليك، لكنك ما شفتها.

ـ حصل الشرف يا ستي.

سرّت أمي للطريقة المتعالية التي قلت بها ذلك. ضحكت وقالت:

ـ قلت لها: مستحيل لو جريس شافك ما يسلّم عليك. قالت «سلّمي على المستر وخلينا نشوفه».

وضحكت أمي، لتستثير ضحكي. لم أضحك، رغم أنني نسيت هجومها على خضرا، لأنني كنت أشعر بالاشمئزاز.

Abu Abdo Al Bagl

١

نبح الكلب نباحاً متزناً، ليس فيه ذلك التلاحق الذي يتوجّه به إلى الغرباء. سمعت صوت بطرس يقول:

ـ إخص، إخص من كلب. ما أنت عارفني.

يبدو أنهما تعارفا، فقد أخذ الكلب يطلق نبحات قصيرة، متألمة معتذرة. ثم ركن إلى الصمت. ثم رأيت بطرس يقف بباب الدار طويلاً، نحيلاً، أسمر، له عينان سوداوان جميلتان تظللهما رموش طويلة غزيرة، وشارب صغير أسود في وجه مستطيل. كان يضحك. قال:

ـ قال مش عارفني قال.

أشعلت وابور الجاز ووضعت إبريق الشاي عليه. أخذ بطرس يتحدّث مع أمي عن أميرة:

ـ هذي يا خالتي لابسة على آخر موضة.

سألته:

ـ أنت شفتها؟

ـ لا. بقولوا.

وحكت له أمي عن كلب أميرة الصغير وأنه لا يأكل إلاّ اللحم، وسؤالها عني، موردة تفصيلات جديدة لم أسمعها من قبل، فتوجه إليّ وهو يضحك:

ـ بتسأل عن المستر، هاه؟

ضايقني ذلك. فانصرفت إلى إعداد الشاي. سمعته يقول:

ـ والله يا خالتي لو بناتنا يتعلّمن ويلبسن على الموضة، والواحدة منهن تتغندر

غير يصيرن أحلى من بنات عمّان.

تذكّرت ما قالته أمي عندما رأت امرأة طلت شفتيها بالروج. قالت:

ـ مثل القطة اللي أكلت عيالها.

أمسك بطرس بالكتاب الذي كنت أقرأه وأخذ يتهجّى:

ـ مدام بوفاري. عن إيش الكتاب هذا؟

ـ كتاب تاريخ.

كان به نهم للمعرفة التي لا تكلّف جهداً، ويفضّلها على شكل حكاية يستطيع أن يرويها، ليبهر بها أقرباءه الكثيرين. قال:

ـ ما أنا عارف. لكن عن تاريخ العصر الوسيط؟

قالت أمي:

ـ يا ابني يا بطرس، جريس مخلّي شغلته وعملته القراية.

قال بطرس:

ـ والله يا خالتي لو أهلنا فتّوا علينا نص المصاري اللي صرفتوها على جريس كان الواحد طلع يعرف انجليزي.

كان بطرس يدرس في الثانوية الحكومية في عمّان، والتي أعلم أنّ مستوى تدريسها للغة الإنجليزية كان جيداً. إن قدرة بطرس على الاستيعاب كانت هي المشكلة.

بعد أن شربنا الشاي، ارتديت ملابسي وسرنا في الشارع الرئيسي للقرية الذي يتخللها من بدايتها حتى نهايتها من الشرق إلى الغرب. البيوت على الجانبين تختفي وراء أسوار من الحجارة والطين، وأمامها أو تحت الدكاكين. كنت أتمنى أن نقطع هذه المسافة عبر القرية صامتين، حتى أتملّى النساء الجالسات على أبواب الحيشان. والأطفال وهم يمارسون ألعابهم. ولكن بطرس كان يبدأ حديثاً بصوت مرتفع، يحتكره وحده. وكان يستعمل تعابير مثل (الحياة الاجتماعية والسياسية)، أو يذكر أسماء كتّاب أعلم أنه لم يقرأ لهم إلاّ القليل: طه حسين، ومصطفى لطفي المنفلوطي، والعقّاد الذي كان يقول عنه إنه معقّد مثل اسمه. وكنت أعلم أننا بمجرّد أن نغادر

القرية، ويختفي جمهور المستمعين من أهل القرية فسوف يسألني بالحاح ولهفة عن الكتاب الذي كنت أقرأه، وسوف يطلب مني أن ألخّصه له.

كان مستمراً في حديثه الذي لم أكن أصغي إليه. وكنا نقترب من مجموعة من النساء يجلسن على بوابة حوش تنفتح على الشارع. نادتنا امرأة منهن:

ـ تعالوا إنتو المتعلّمين اللي قاريين في عمّان.

أدار بطرس وجهه بعيداً. قلت:

ـ خير إن شا الله!

قال بطرس:

ـ إمشي يا شيخ.

قالت المرأة:

ـ شفتوا المدمزيل بنت الأكابر قايدة كلبها؟

ضحكت بقية النساء. كانت خضرا تصوّب نحوي نظرات تبرق بضحكة خجولة. هل تعود غداً لرد الأرغفة الثلاثة؟ كنت أرتعش.

قالت المرأة:

ـ إيش فايدة علمكو، لـمّا الواحد منكو يطلع مشوار ويخلّي كلبه وراه.

نظرات خضرا أفقدتني التركيز، فلم أجد ما أقوله. كان بطرس ينظر إلى الجهة الأخرى. خرج سمعان من دكانه وقال:

ـ محسوبك مسكت الكلب ورميت له خبزة. المدمزيل المتربية في مطابخ عمّان قالت لي (وأخذ يقلّد صوتها) بلاش بياخة يا سمعان. الكلب مش متعود على الخبز الناشف.

قالت إحدى النساء:

ـ إحنا ما بطلع لنا نصير كلاب.

وقالت أخرى:

ـ يا ريتك يا سمعان كلب عند أميرة.

قال:

Abu Abdo Al Bagl

ـ من فمك لباب السما يا ختي.

اقترب سمعان مني ومن بطرس وهو يكوّر يديه على صدره وقال:

ـ أما بزاز يا اخوان الصفا. . .

ارتفعت أصوات النسوة:

ـ إخص، إخص. .

وعلا ضحكهن، كانت خضرا تبتسم وقد تضرّج وجهها بحمرة لامعة، جعلت عينيها أشدّ حلكة. لمح بطرس نظرة خضرا إليّ، فقال:

ـ بيه! يا للا يا شيخ.

كان كأمّ غيورة.

٢

دخلنا الحارة الغربية. رجال يتجمّعون أمام الدكاكين ردوا تحيّتنا دون تعليق. امرأتان تجلسان على عتبة دار تنفتح على الشارع. ردّتا على تحيّتنا بتحفّظ. يبدو أنّ حكاية أميرة لم تصلهم، أو ربما اعتبروها شأناً خاصاً بالحارة الشرقية.

خلّفنا القرية وراءنا. على يميننا كان ذلك المنخفض المحاط بالصخر، والمحميّ بأشجار صغيرة دائمة الخضرة من حرارة الشمس، ونظرات العابرين. ومضة تذكّر لسعت القلب. هنا في هذا المنخفض، عندما كنّا أطفالاً، اختبأت أنا وأميرة. نامت على ظهرها وقالت تمدّد فوقي وسوف أنجب طفلاً. كانت تخيفني. قلت الطفل يأتي بعد الزواج. قالت: هكذا يتزوّجون. ثم قالت:

ـ وجهك صار أحمر، أحمر، مثل البنت.

لم أحك ذلك لبطرس. لم يكن النمط الذي تروي له مثل هذه الحكايات. لن يرى فيه إلاّ بذاءة مطلقة.

سرنا بين حقول القمح. مساحات واسعة على اليمين قد حصدت، تجوس فيها خراف بطيئة الحركة. الحقل الذي يليه كان يتم حصاده. الحصّادون ينحنون بمناجلهم

ويقطفون جرزة سنابل، وأخرى، حتى تصبح كومة صغيرة يسمونها الغمر. خلفهم لاقطات السنابل، يجمعن ما يتخلّف عن الحصادين.

عند مرورنا استقامت أجساد الحصّادين، وبدت وجوههم عرقانة، سمراء، مرهقة. وتوقفت اللاقطات، وأخذ الجميع يراقبوننا. كانوا دائماً يتعجّبون من مسيرتنا، في هذا القيظ، بلا سبب. لماذا تتعبون أنفسكم دون سبب؟ كانوا دائماً يسألوننا.

ألقينا التحية عليهم بسرعة:

ـ الله يعطيهم العافية.

وردَّت أصوات متفرّقة:

ـ الله يعافيهم.

ـ فاتكو الشر يا أساتذة.

قلت:

ـ خير؟

قال:

ـ بنت مثل قرص الجبنة وكلبها معاها.

ضحكت الفتيات.

واصلنا السير. كان بطرس غاضباً. قال:

ـ عقليات تافهة يا أخي.

كنت أعجب للسبب الذي يدعو بطرس لكل هذا الترفّع عن أهل القرية، رغم أنّ عائلته تنتمي إلى الفئات الفقيرة التي تشكّل أغلبية أهل القرية.

عند نهاية المنطقة الزراعية وبداية المرتفع الصخري كانت تقوم خيمة سوداء صغيرة. عندما اقتربنا خرج رجل من الداخل ودعانا لشرب الشاي. ألحّ الرجل، ولكننا رفضنا. وواصلنا السير.

بعد مسيرة قصيرة فوق أرض وعرة انتهت الهضبة فجأة إلى انحدار طويل وسحيق يمتد عشرات الكيلومترات، إلى الأغوار، أكثر مناطق العالم انخفاضاً. في

Aboul Abdo Al Bagl

القاع نهر الأردن يسرع نحو البحر الميّت. ثم يعاود الغور الصعود حتى يصل إلى جبال القدس.

جلسنا على الصخرة المعتادة نتأمّل المشهد. رغم أنني كل يوم أطالع هذا المشهد ولكن فرحي به لم يكن ينتهي. كنت أحلم أنني في يوم ما، سوف أعود لأستقر في القرية، وأبني بيتاً ـ قلعة ـ على حافة الهضبة. كان البيت ـ في خيالي ـ يحتوي على أقبية، وممرات سريّة، وتحيطه حديقة بها أشجار عملاقة وسور.

البحر الميّت عند العصر مرآة مصقولة، شديدة اللمعان. أفرش كفي ـ عندما أطالعه ـ فوق عينيّ لأحميهما من قسوة الضوء. وأتذكّر الصدمة التي تشبه لطمة على العينين عندما سبحت في هذا البحر الكثيف الأملاح، ثم وأنا أخرج منه بجسد لامع بالفسفور. تعيش عيناي الآن هذه الصدمة. أقول لنفسي: «فليكف بطرس عن الكلام. إنه الغروب». ولكنني لا أجرؤ على قول ذلك له.

تنحدر الشمس قليلاً فيتحوّل البحر إلى مساحة حمراء كابية، كأن الضوء يتولّد من عمق الماء، مبلولاً، كابياً. ثم تغمره ظلال جبال القدس ليصبح صفحة سوداء.

الأفق الغربي ازدحم بغيوم ورديّة. روعة المشهد فرضت نفسها على بطرس فصمت. اختفت الغيوم الأرجوانية ليحل محلها ضوء بلّوري أخذ يشحب، ومعه تزداد السماء عمقاً، والأفق اتساعاً. كان الليل بطيء القدوم، إذ امتلأ الفضاء بهذا الضوء الشفّاف الناعم.

ثم تغيّر المشهد. جبال القدس التي كانت كتلة سمراء صمّاء انفجرت بعشرات الأضواء الكهربائية. أضواء تتلاحق في خطوط مستقيمة، وتتوزّع في نقاط متباعدة. بدت كقطع كريستال في ضوء الغروب، تضيء لذاتها.

حزن شفّاف وأشواق إلى عالم مليء بالحياة، طاهر وجميل، عالم لا يعرف الملل، أخذت أحلم بمدن شوارعها من زجاج، ببحر كبير وناعم، ببهجة الناس، والتواصل الذي لا ينتهي.

وأطالع القدس وأستعيد الحكايات التي سمعتها من العائدين منها، حكايات الجنود، والتجّار، وزوّار كنيسة القيامة. هل أعود بعد هذا إلى القرية، والليل، والوحدة، والملل؟

نهض من فوق صخرتنا عائدين. اختنق فأجد متنفساً في الشعر. أخذت أتلو قصائد لقيس بن الملوّح وذي الرمّة. كان بطرس يردّد:

ـ بلاغة، يا أخي، بلاغة!

ويلحّ عليّ أن أعيد ما قلته حتى يحفظه. كنت أعرف الفكرة النفعية وراء لجاجته. كا ن يريد حفظ هذه الأبيات حتى يرصّع بها موضوعات الإنشاء العربي في السنة الدراسية القادمة.

ودّعت بطرس عند باب داره، دون أن نتّفق على لقاء قادم. سيأتي غداً، دون موعد، على أيّة حال. لقد ملأني بالضجر وأثار أعصابي.

٣

ليل القرية مشحون بالخوف. إنّه جزء من تراث هذه القرية الجبلية التي كانت معرّضة لغزوات البدو المحيطين بها. والليل مسكون. الموتى ينهضون من قبورهم عندما تغيب الشمس ويزحمون القرية. حضورهم أقوى ما يكون في الأحلام أو الصمت. وهم يأتون لأسباب متعددة: لمجرّد معرفة ما يحدث، الشكوى من الإهمال والنسيان، التسرية عن الحزانى... أو قد يجيئون لأسباب شريرة: وعد للأم أو الأخت أو الأب بلقاء قريب ودائم، اتهام هذا أو ذاك بأنه سبب موته، أو المطالبة بارواء العطش للدم. أهل القرية يسمعون أنينهم يتخلل ليل القرية، ويستمر الليلة بعد الليلة، أنين من يتعذّب ويعاني آلام الاحتضار، أو هم قد يتقمّصون كلباً ليبلغ رسالة عن موت قريب. يتوجّه الكلب إلى بيت المنذور للموت ويظل ينوح (في قريتي يقولون يجوح) دون انقطاع، وأحياناً يتخذ الذين ماتوا قتلاً شكل (المفاول)، فمن الموقع الذي سقط فيه قتيلاً يمسك الدم المسكوب بالحجارة ويقذف المارة بها.

ويزدحم الليل، خاصة الأماكن المهجورة، والكهوف، بأرواح شريرة ومزعجة، تباغت من يقترب لترعبه، أو لتقوده إلى الجنون.

وأخوض في الليل، متصوّراً أنّ لكل من حولي من بشر وما حولي من أشياء عيوناً تراني ولا أراها. إحساس بالحصار يتولاني، إحساس بأنّ كل خطوة مجازفة.

يناديني صوت من جوف الليل :

ـ وش هالزول؟

أرد :

ـ صاحب :

وأواصل السير مفتقداً بطرس بجواري . هنا يستعاد ليل الطفولة : رعب خالص ، وكل شيء يحمل تهديداً ما .

أدخل البيت . أمي تفاجأ بي واقفاً . تشهق وتقول :

ـ باسم الصليب ، ورشم الصليب .

ـ مسا الخير .

ـ مسا الخير . ما حسّيت فيك وأنت داخل .

السراج موضوعة فوق الخزانة التي يوضع فيها الخبز والطبيخ . الدار الواسعة بقنطرتيها العاليتين ، والمخازن التي يوضع فيها التبن والقمح والشعير ، والأقبية التي يخزّن فيها الحطب ، وفوقها المصاطب التي ننام عليها في الشتاء ، محتجبة وراء ستائر . . وأمي وهي جالسة بثيابها السوداء ؛ كل ذلك ولّد في داخلي إحساساً خانقاً بالوحدة .

قلت :

ـ وحدك ؟

لم يكن ضرورة للسؤال . في المساء نكون دائماً وحيدين .

ـ تعشّيت؟

سألتها . قالت :

ـ أتعشى من حالي؟

على نحو ما ، كان ردّها يحمل ريح الفاجعة . وكيف تتعشّين عندما أكون في عمّان ، في المدرسة؟ كيف تمضين الليل وحيدة في هذه الدار الواسعة ، والحجرات المتناثرة في ثلاثة أحواش؟

يخطر لي في مثل هذه اللحظات أن أعود للقرية، وأتزوّج، وأملأ البيت عليها بالأطفال.

٤

عشائي كالإفطار، والغداء غالباً، مكوّن من البندورة والبيض والجبن، مع الشاي. هنالك بعض الإضافات أحياناً: زيتون، باذنجان مخلل، خيار، عنب. أكلت دون شهية، بدافع الواجب فقط. أخذت أمي تغريني بأن أتم الرغيف، وخلال ذلك تحكي حكايات عن القرية أيام زمان. آمنة، التي أصبحت الآن عجوزاً، عندما كانت فاتنة القرية. وروت قصائد شاعر القرية بها؛ الزنجي الذي كان مملوكاً لأحد عشّاقها.

حكايات آمنة لا تنتهي، وأمي خلالها ترسم صورة لقرية ملأى بالفرسان، وبالسهرات التي تمتد طويلاً، والحكايات التي تروى... ليالي الشتاء التي يحلو فيها السهر.

هل هي ضجرة مثلي؟

لا يبدو ذلك. لأنها أخذت تستعد للنوم دون توتّر.

انتهينا من العشاء وذهبت أمي لتنام.

لم يكن هنالك من مكان أذهب إليه. فأخذت أذرع أرض الدار. استعدت مشهد الغروب، ونهر الأردن يجري في ذلك القاع السحيق. والبحر الميّت، وعند استرجاع صورة القدس أحسست برغبة في مغادرة القرية بأسرع ما يمكن. ثم أخذت أفكّر في خضرا (ستجيء غداً حتماً). رأيتني أستقبلها، أمسك يدها، أضمّها... وأحسست بانحلال في داخلي، برغبة في الاسترخاء على الفراش. أحلام يقظة الجنس تزهر وتخصب في الفراش.

وأميرة؟

أحسست بها منافسة، لا حبيبة. ملابسها وكلبها المضحك! أعود إلى خضرا، وخطواتي تثقل. تحول التفكير فيها إلى عذاب لا يفضي إلى شيء. أنظر إلى الساعة.

Abdul Abdo Al Bagi

تقترب من التاسعة.

ثم أويت إلى فراشي.

أعلم أنّ النوم بعيد. ولكن ماذا أفعل؟ الليل مليء بالضجيج، وأنا أنام على سطح الدكّان المطل على الشارع. نباح الكلاب، طنين البعوض، صرخات الدجاج النائم في الخن، في الحوش، قصيرة جارحة، وصراخ الدّراسين على الهضبة المقابلة، وظلالهم العملاقة تتحرّك بسرعة البرق حول كلوبات الضوء الباهرة، وهم ينتظرون هبوب الهواء لتذرية السنابل المدروسة، وفصل القمح فيها عن التبن.

كان استجلاب النوم معاناة مؤلمة. نهاري الخالي من الفرح بدا لي يقظة قصيرة بين فترتي نوم تمتدان كدهر. لقد تكوّنت لديّ عادات ثابتة في فترة الأرق هذه. أبدأ بتعداد النساء اللواتي رأيتهن. لا أذكر الأسماء كلها، بل أكتفي بأنّ أذكر المرأة العابسة مثلاً، أو ذات الثوب الأزرق، أو تلك التي رأيتها للمحة خاطفة وهي تمرق بسرعة. يختلط عليّ الحساب، فأعيد العد. أفعل ذلك أكثر من مرّة، وفي كل مرّة تكون النتيجة مختلفة.

ثم تركّزت أفكاري على خضرا. كانت أفكاراً طاهرة. نجلس في ذلك المنخفض الواقع غرب القرية، مختفين بين الشجر. ألمسها فقط وأتحدّث إليها. أنظر إلى العينين، أرتوي بالضوء المتدفّق منهما. ألمس الرموش بشفتي.

عند تلك الملامسة يتصاعد الوجد ليصبح نحيباً، أشكو مرارة البعد، العذاب الذي أعانيه حين لا أراها، منتظراً انبجاس الدمع من عينيها. يتكرّر المشهد مرّات عديدة حتى يفقد حدّته. وعندما استعيده من جديد يتحوّل إلى مشهد جنسي. إنه يتصاعد، وينتهي بالعادة السريّة. يعقب ذلك الشعور بالتقزز من جسدي والندم. تظهر فدوى رقيقة صامتة، تنظر بعينين واسعتين. استبعدها. أنا لا أستحقّها. إنني ملوّث. أتحوّل إلى مشاهد العنف. فدوى شاهدة بعيدة، محايدة. أعود جريحاً بعد المعركة، فتقترب. تلمس وجهي بيدها، فتبرز خضرا... يعود المشهد الجنسي، وممارسة العادة السريّة مرّة أخرى.

ثم أتمدّد مفرغاً وحزيناً، وجسدي غريب عنّي، ما زال النوم بعيداً. وماذا بعد؟ لا شيء. لا شيء. ضجر حتى الموت.

أتكىء على كوعيّ وأواجه أمي التي تنام قريباً مني . أستطيع أن أرى وجهها على ضوء النجوم. كانت تتمدّد على ظهرها مفتوحة العينين. في الليل تنام مفتوحة العينين، تسمع كل ما يدور حولها. عندما يكون هنالك خطر ما تنهض واقفة. حكت لي أنها نهضت من فراشها ليلة مفزوعة . كان أبي مستيقظاً . سألها : ما لها ؟ قالت : رجل بين ا لخراف. وخرجت ، ورأت على التو رجلاً ينهض ويركض مبتعداً. قال أبي: أحسست بحركة غريبة، ولكنني ظننته كلباً.

أحياناً تصحو في الليل فجأة. تجلس في فراشها تصغي بإمعان. أسألها : ماذا حدث ؟ فتجيب أنها تسمع بكاء بنات غيث. وبنات غيث كائنات غريبة، مبهمة، تنتحب قبل أن يموت إنسان ما . سمعتها أمي مرّة قبل أن يموت أخي، ومرّة أخرى قبل أن يموت أبي. وتقول بوجه مرتعب:

ـ حوش يا رب، حوشي يا مريم العذرا.

عندها تدخل البيت وتضيء شمعة أمام أيقونة العذراء مريم، وتتمتم «السلام عليك يا مريم، يا ممتلئة نعمة، الرب معك ، مباركة أنت بين النساء، مباركة أنت بين النساء، ومباركة ثمرة بطنك يسوع . . .».

يحيط بي الموت على شكل رائحة ؛ رائحة بخور وجسد بدأ يتحلّل، ورائحة شموع. ويولد حلم اليقظة مستعاراً من مشاهد من أفلام، وروايات، وذكريات. أعيش مع والدي الذي أصبح فقيراً، وحزيناً جداً، لأنّ أمي الارستقراطية الجميلة تزوّجت رجلاً آخر. وهي تتعذّب بسببي، لأنّ والدي منعها من رؤيتي. كل متع الحياة، الثروة والمركز الاجتماعي ، والأولاد والبنات، لا تساوي شيئاً مقابل أن تراني.

بشكل غير مفهوم تصبح امرأة أخرى غير أمي. تصبح إنسانة رقيقة تضحّي بكل شيء من أجل أن تتزوجني. زوجها القاسي وأهلها يمنعونها من رؤيتي . نهرب من باريس ـ كنا في باريس بلدة غادة الكاميليا ـ ونعيش في قرية أوروبية صغيرة.

يصبح ذلك كلّه مملاً. تتوهج الرغبة في داخلي. غداً، من المؤكد غداً سوف تأتي خضرا. يسرع الإيقاع. لن أتردّد. لن أتردّد. لن أتردد. أمسك يدها، وأضع يدي الأخرى على ظهرها. أداعب ظهرها . تضع رأسها في صدري. . .

ملمس جسدها يثيرني إلى أقصى حد. أمارس العادة السريّة مرّة أخرى . شعور بالخواء والندم يعقب ذلك .

النجوم حوّلت مواقعها، والصمت يعم القرية . انطفأت الكلوبات على الهضبة المقابلة .

صمت عميق كالموت .

وما زال النوم بعيداً .

Abu Abdo Al Bagl

١

صحوت مبكراً. وجه خضرا ماثل أمامي نقي حلو، امتداد لأحلامي. هبطت من سطح الدكان إلى الحوش. الشمس لم تطلع بعد، والعتمة ما تزال معلّقة كأنها دخان على الجبال الغربية. الفجر فرح أحمر في الأفق الشرقي. وعود يوم جديد. هل يحدث شيء؟ ماذا حدث للناس، تناسوا كل شيء سوى جمع النقود، والنزوح إلى عمّان؟

لحن حزين كالبكائية يتردد في داخلي وأنا أسير في الحوش. حوش صامت كبير كأنه أطلال قوم مضوا. أسمع دقّات المهباش عند جيراننا، يتردد الإيقاع في داخلي، ينظّم خطواتي، وعلى الفور أتخيّل أنني أشم رائحة القهوة. تصلني أصوات الاستيقاظ من النوم: صراخ الأطفال، تذمّر البنات، والأم ترد زاعقة بأعلى صوتها.

حطّ علي ثقل كالبكاء المحتجز. أمي وأنا نسكن وحدنا هذا الحوش الكبير بدُوره الثلاث. منذ وقت ليس ببعيد ـ سبع سنين أو أكثر قليلاً ـ كان الحوش مزدحماً بالبقر والغنم، وكان هنالك حصان، وحمار، وجمل، وكثيراً ما تكون هنالك خيول الضيوف. والدور ممتلئة: أخي الأكبر وزوجته وبناته الثلاث. إنه موظف في الكرك الآن، وقد اشترى بيتاً، وأرضاً بعد أن أخذ حصته من الميراث. وأخي الثاني الذي غادر القرية منذ خمس سنوات، ولم يعد، ولم نسمع عنه شيئاً. نعلم أنه في مكان ما في الضفة الغربية. وكان هنالك مرابعان اثنان مع زوجتيهما، يعملان في أرضنا مقابل الحصول على خُمس المحصول. كانت العائلتان تسكنان في الحجرات الصغيرة، في الحوش الغربي.

كنت أصحو على دقات المهباش. أبي يطحن القهوة منغّماً دقاته، وعلى صوت الضيوف وهم يتحدّثون بأصوات خشنة. أطلّ من باب الدار المخصصة للضيوف.

يدعوني الضيوف للدخول:

ـ تعال يا وْليد.

أنظر إلى أبي. فيهز رأسه، ويقول:

ـ خُش سلّم.

أصافح الضيوف المتكئين على الوسائد. يدخل أحد الضيوف ويُخرج بعض قطع الحلوى ويضعها في يدي، ويقول:

ـ خذ.

يطلب أحد الضيوف مني أن أتلو إحدى القصائد التي تعلّمتها في المدرسة. يهزّ أبي رأسه علامة الموافقة. فأقف في وسط المضافة، وألقي:

رأيـــت أمـــس نحلـــة صفـــراء مثـــل الذهـــب

ألقيها على الطريقة التي تعودناها في المدرسة. أذكر عنوان القصيدة، واسم الشاعر بصوت لا يكاد يسمع ثم يعلو صوتي علواً مفاجئاً، وألوّح بذراعيّ على استقامتهما بسرعة وكأنني أمارس لعبة رياضية. يمتدحني الضيوف، ويبشرون أبي بمستقبل عظيم لي.

كانت أمي تقف أمام باب الدار ترمي العلف للدجاج، وتنادي: تيعة، تيعة، تيعة. فتقبل أفواج الدجاج متحمّسة، وهي تطلق صرخات قصيرة، حادّة، متتالية. عندما رأتني أمي قالت:

ـ صاحي بكير يا بنيي.

ثم أردفت ضاحكة:

ـ نام بكّير، وقوم بكّير، وشوف الصحة كيف بتصير.

قلت لها إنني سأذهب إلى السوق لأشتري العنب والبندورة. قالت:

ـ الله يقويِّك يا بنيّي.

قلت:

ـ استنّي لما أرجع نفطر مع بعضنا.

احتقنت عيناها بالانفعال، ولم تقل شيئاً. امتلأ قلبي بالعطف عليها: وحيدة

Abu Abdo Al Bagl

تعيش في هذه الدور الخالية، حتى أعود إليها في الإجازة الصيفية. أية حياة!

سرت في الشارع. القرية استيقظت من سباتها. أعلى الأصوات في هذه الساعة أصوات النساء، نحيلة، حادة، عصبية. تتطاير عبارات تصك السمع: يا بنت ما مسخّمة، يا ملطّمة... يا أم عين بيضا...!

أغراني الصباح بمواصلة السير حتى وصلت طرف القرية الغربي. في الطريق كنت ألتقي ببعض النساء المسنات، مسرعات بثيابهن السوداء، وعصبة الرأس. عندما كن يرينني، يلقين تحية الصباح، ويتساءلن:

ـ خير إن شا الله. وين مبدّر؟

أرد:

ـ خير. طالع مشوار.

يرمقنني بتعجّب ويمضين.

والرجال يسيرون ثقال الخطى، عيونهم نصف مغمضة بسبب ضوء الشمس، والماء الذي غسلوا وجوههم به ما زال عالقاً بأطراف أنوفهم، وتجويفي العينين، وباللحى. يلح بعضهم في دعوتي لتناول الإفطار، أو شرب الشاي، بعد أن يسألوني عن سبب تبكيري. كان من المستحيل مواصلة السير مع هذه الاستفسارات ونظرات التعجّب. فعدت إلى السوق.

حياة السوق على أشدّها كأنها بدأت من ساعات. قرب أبواب الدكاكين يجلس لصق الحائط رجال مسنّون، يفترشون الأرض، ويتكئون على الجدار المحاذي للدكان. كانوا يتحدّثون بأصوات مرتفعة، وينادون المارة رجالاً ونساء، ويسألونهم عن أي شيء يخطر لهم، بلهجة آمرة، شاكية، مستنكرة.

استوقفني مزعل، وقال لي عبر لحيته الكثيفة:

ـ صباح الخير يا أستاذ. قرّب.

ـ صباح الخير.

قلت واقتربت. قال:

ـ شفتك مبدّر رايح الحارة الغربية. عسى ما فيه شي.

ـ لا . كنت بتمشّى .

ـ ومتعّب نفسك عالفاضي؟

وانصرف عني .

تجّار الخضار قد صفوا صناديقهم الخشبية الملأى بالبندورة والكوسا والعنب والخيار والفقّوس، ووضعوها خارج أبواب الدكاكين، وأمامها وقف صبيان يصرخون بأصواتهم الحادّة: تفرّج وشوف، بندورة، بندورة. التاجر اليمني كان يقف قصيراً، نحيلاً، غامق السمرة، ينظّم نداءه المعروف، بلهجته الغريبة :

ـ حلاوة تعلك، وراحة تهفت، وبندورة كنّها خدود النصرانيات!

ويضحك بعض المارّة .

بعض النساء، يرتدين أثواباً سوداء، تعلق بها أطفال صامتون، كنّ يحملن سلالاً قديمة، وبوجوه تلمع بالعرق يتصايحن مع الباعة، مطالبات بتخفيض الأسعار، متهمات أصحاب الدكاكين بأنهم يغشّون في الوزن .

اشتريت حاجتنا من الخضار والفاكهة وعدت إلى البيت . عندما دخلت من باب الحوش سمعت أمي تنوح ببكائيات وتبكي :

يا نمر يـا ابـو عيـن حمـرا   يا للّـي كلامـك بيـع وشـرا

يا مربـي قليـلات الحيـا

أهل البلى ما اكثـر عدمكـو   حجـاج مكـة خيـر منكـو

شهريـن والثالـث لفـوا

وتتنهّد وتنشج . أدركت أنها انتظرتني طويلاً، وعندما شعرت بالملل أخذت تكنس الدار وتنوح وتسلّي نفسها . وهي لا تجيد من الأغاني سوى البكائيات . كان ذلك النواح يؤدي دائماً إلى بكاء حقيقي . وعندما تكون في مثل هذه الحالة يصعب إسكاتها . تتوقف قليلاً، ثم يغلبها اللحن فتستسلم له . كانت تلح عليّ :

ـ يا ابني خليني أنوّح شوية، من شان خاطر أبوك .

ولكنني أمنعها بعصبية من مواصلة البكاء ، لأنني أعرف أنّ البكاء يعقبه صداع شديد يستمر طيلة اليوم . وأحياناً تلتهب عيناها . مسحت دموعها بكمّ ثوبها الواسع وقالت :

ـ طوّلت يا بنيي .

كان صوتها مختنقاً . قلت :

ـ طلعت مشوار زغير .

ـ ربنا يحنّن عليك .

٢

عندما أصبحت وحيداً في الدار واصلت القراءة في رواية (مدام بوفاري) . كانت زوجة الصيدلي تشكو للطبيب أن زوجها يقضي وقتاً طويلاً في المطبخ ، ويكثر من تناول المأكولات الدسمة . قالت للطبيب إنها تعتقد أنّ هذا سوف يجعل دم زوجها كثيفاً ، فيرد الطبيب :

ـ ليس الكثيف هو دمه يا سيدتي .

ويبتسم الطبيب لنكتته التي لم تفهمها السيدة .

أعجبني هذا الجزء من الرواية ، فأعدت قراءته مرة أخرى ، وأنا أضحك . ثم خجلت من ضحكي .

لم تعد بي رغبة في القراءة . وددت بقوة أن أكلّم أحداً . لماذا لا يأتي بطرس؟ أخذت أتمشّى في الدار وأغني :

ليا وليا يا سارة   يا علبة العطّارة

بكرة بتصير الغارة   وكل شاب ياخد له بنيَّه

وخضرا؟ توقفت عن الغناء . أصبحتُ إصغاءً محضاً . أصغي بكل حواسي لصوت خطواتها في الحوش . هل باب الحوش مفتوح؟ يغلق من الداخل ، ولا يوجد أحد غيري في الداخل . قد تظنه مغلقاً؟ بإمكانها أن تدق الباب . تدق الباب ؟ والمارة ، والناس؟ وأواصل السير بحذر حتى لا يفوتني الصمت . عدم مجيئها يعني أنها غير مهتمة برد الأرغفة الثلاثة . وما دام هنالك حجة لحضورها فامتناعها عن المجيء يدل أنها لا ترغب بي .

أرهقني الحذر وإرهاف السمع. هذا الانتظار السخيف لن يأتي بها. حين تجيء، وكما حدث في المرّتين السابقتين، سوف أجدها بباب الدار. التوتر جعلني أدور في الدار بلا هدف. أشد ستارة المصطبة وأنظر خلفها لأتأكد أنّ المصطبة ما تزال هناك. هنا ستمدّد أنا وخضرا.

خرجت إلى الحوش. الكلب يغطّ في نعاسه. فتح عينيه عندما اقتربت. كانتا حمراوين بسبب النعاس والهرم. أنّ أنّة نحيلة، وهمهم، حرّك ذيله ببطء شديد، ثم عاد إلى سباته الممتع. قفزت أمامي دجاجة وزعقت بعنف، واستمرّت في زعيقها دون توقّف، وكأن مطرقة من الحديد تدق لوحاً من الصفيح. حدثت ضجة عامة بين الدجاج. الرؤوس مرتفعة، والريش منتفش، والعيون شقراء تحدّق بنظرات ثابتة، وهي تنطلق مسرعة نحوي. صحت:

ـ كش، كش.

ولكنها أحاطت بي تكاكي مطالبة بالعلف. أبعدتها عني وأنا أشاركها الصراخ. هذا ما كان ينقصني.

سرت نحو باب الحوش. فتحته قليلاً حتى لا يحدث أي التباس. وأنا عائد توقفت أمام باب المضافة المغلق (أكاد أسمع استعدادهم للحركة المتوقعة: يقفون ببطء، حفيف القنابيز والعباءات وهي تهبط على أجسادهم عند النهوض، أقدامهم تدب بطيئة على الأرض... انفجار الترحيب الجماعي بالقادم الجديد، رائحة القهوة في أنفي، وطعم الحامض الحلو أحسّه في حلقي).

فتحت الباب ودخلت. وكأنني دخلت مكاناً لم أره من قبل. لم أكن أتصوّر أن تفعل العناكب كل هذا. خيوطها قد أخفت السقف بنسيج متداخل، متواز، ومتقاطع، وانساب النسيج على الجدران، وأخفى الزوايا؛ وما تزال العناكب دائبة تفرز خيوطها.

لم أستطع أن أتقدّم أكثر من خطوات قليلة. على الزاوية التي على يساري كومة تبن، وفي صدر الحجرة ألواح خشبية يغطيها التراب، وبعض أشولة الشعير المسندة إلى الجدار. بدت المضافة صغيرة ومظلمة. بدا لي ذلك مستحيلاً وفاجعاً، إذ كانت صورتها في خيالي واسعة جداً، مضيئة، ونظيفة. شعرت بالاختناق من الغبار،

وتعاسة الحجرة، وهزيمة الذكرى. تبعتني دجاجة إلى الحجرة، مثيرة الغبار. طردتها وأغلقت الباب خلفي.

دخلت الدار. لم أكن أرغب في القراءة. مارست بعض التمارين الرياضية، فانساب العرق داخل عيني. واجتاحني غضب واحتجاج هائلان: لن يمضي هذا اليوم كبقية الأيام، لن يمضي بانتظار خضرا التي لا تأتي، وممارسة تفريج جنسي ميكانيكي، يعقبه الندم، والتقزز من جسدي، والحلم الأبله بأم أرستقراطية. سأذهب إلى أي بيت، وسأتحدّث كما أشاء. لن أكترث بغضب الأصحاب لأنني أحدّق في النساء. سوف أقول أشياء لم يسمعوا بها من قبل، ولن أدع الحديث المكرور عن التجّار الذين سافروا إلى عمّان، وأثروا، يدور بلا نهاية. سأعطي الأطفال بضعة قروش. لن يكونوا خاسرين. لم أعد أرغب في حضور خضرا. ولكنها، إن جاءت، فسوف أضمّها ـ حتى لا أندم فيما بعد على إضاعة الفرصة ـ ثم أطلب إليها أن تأتي غداً، وفي كل يوم. سوف أطلب ذلك منها بحسم. شعرت أنني قادر على فعل أيّ شيء.

ارتديت ملابسي بسرعة. وأغلقت باب الدار ووضعت المفتاح في شق في الجدار تعرفه أمي.

في الشارع رأيت عدداً من الحمير يقف أمام باب الحوش. كانت حميراً هرمة، رأيتها في الحارة الغربية في الصباح. واندهشت: إذ كيف استطاعت أن تقطع هذه المسافة كلها مع أنني لم أرها أبداً تسير، وإنما تدور حول نفسها ببطء مميت. أراها في بعض الأحيان ترعش جسدها لتطرد الذباب المتجمّع على جروحها المتقيّحة، فتبدو جلودها وكأنها ثياب تعبث بها ريح قوية. وكان جميل ينام أمام دكانه، مفتوح الفم، وقد وقفت بعض الذبابات على شفته المتدليّة، وعلى جفنيه. كان يمسك منشة في يده، وقد مدّ قريباً من الباب ورقاً مصمغاً لاصطياد الذباب. في الطرف الآخر من الشارع، المقابل للدكان أناخ بدوي جمله، وأنزل شوالي ملح على الأرض وأخذ ينادي بصوت أجش:

ـ الملح، الملح، يا زينك يا الملح.

كان البدوي يلبس كوفية متسخة، برز من مقدّمتها شعر كثيف وخطه الشيب، وعقالاً رفيعاً. وكان حافي القدمين يرتدي ثوباً يصل إلى ركبته.

رجال مسنّون، بيض اللحى، جلسوا في ظل الدكان صامتين، عيونهم تائهة، ومغمضة. على الهضبة المقابلة كان الدارسون يقفون فوق ألواح خشبية، تجرّها بغال أو خيول هرمة، مكدّشة، ويدورون فوق طرحة القمح، ويغنون:

دوري يـا حمـرا يـا لوّاحـة   دوري ياما احلى خد الفلاحة

وصوت فتاة يرتفع من حيث لا أدري يغني:

يا ام الكندرة والكعـب لولـو   بطّلـت اتجوز روحوا قولـوا له

٣

رأيتها مقبلة من بعيد. نفذت إليّ كأنني لمست شريطاً مكهرباً. تسير وكأنها في طريقها إلى فوق، إلى السماء. ليست كالأخريات تنجرُّ أقدامهن على الأرض. والجسد الفارع تحسّ به تحت الثوب رشيقاً، متدفقاً، صلباً، بانحناءاته واستداراته المكتملة. بالعينين المشحونتين بمغناطيسية سائلة تدعوك إلى الالتصاق تعلّقت عيناي. في الوجه التائه دعوة بذيئة. ليست دعوة معابثة، ولكنها توق إلى الالتحام بجسد آخر لا حيلة لها فيه. جسد يدعو باستسلام وكأنه قدر.

عندما اقتربت انجذبت إليها ومددت يدي لمصافحتها قبل أن أحيّيها. تشبّثت يدها بيدي. قلت:

ـ كيف حالك يا سلطانة؟

كان عليّ أن أقول «أم أميرة» بدلاً من «سلطانة»، وأن أضيف إلى سؤالي السؤال عن أميرة. ولكن حلقي كان جافاً، والكلام يخرج كالفحيح. يدها ما زالت في يدي تضغط عليها. قالت:

ـ الحمد لله. زينة.

قلت:

ـ وأميرة؟

قالت بصوت مبحوح، كأنها تشكو:

ـ ما زرتها.

ثم تأملتني وقالت بنفس الصوت المبحوح الشاكي، ولكنه صوت خرج مع تنهيدة:

ـ صرت كبير، زلمة.

ثم أضافت هامسة:

ـ زورنا. زورنا؟

داعبت يدي، ثم انفلتت يدها. توقفت قليلاً وبدت أنها تريد أن تقول شيئاً. ترددت. ثم انصرفت.

كان عليّ أن أتكئ على جدار قريب. كنت أرتعش، وكانت ركبتاي تنثنيان. عندما استدرت لأعود للبيت رأيتها تلتفت خلفها التفاتة سريعة، ثم انحرفت يميناً إلى الحارة العليا.

دخلت البيت. تمددت، إذ لم أستطع مواصلة الوقوف. أحسست بالحمى تملأ رأسي، ثم استغرقت في نوم مليء بالكوابيس.

Abu Abdo Al Bagl

١

اليوم الأحد. استيقظت عند الفجر. حلقت لحيتي، وأخرجت بذلتي الجديدة من الحقيبة، وقميصاً نظيفاً، استعداداً للذهاب إلى الكنيسة. أمي أشعلت منذ الفجر شمعة موضوعة في قدح من الفخّار به زيت أمام أيقونة العذراء. وعند الفجر وقفت تصلي أمامها طالبة الرحمة لموتانا، والرأفة بالأحياء. كان صوتها عميقاً يخيف.

كانت أمي منذ الصباح الباكر قد أعدّت ذكرانية العذراء. سلقت القمح، ووضعت السليقة في صينية كبيرة بعد أن مزجتها بالسكر الناعم، ورصّعت سطحها بقطع الحلوى المختلفة الألوان، وغرست عدداً من الشموع فيها. سوف يتم توزيعها على المصلين ليطلبوا الرحمة والمغفرة للأموات.

أيقونة العذراء يبدو فيها وجه العذراء بلون أسود تغشاه خضرة غامقة، والهالة التي تحيط بالرأس مصنوعة من فضّة قاتمة، محفورة بنقاط تشكّل دائرتين غير تامتين، الواحدة في داخل الأخرى. والثوب الذي تلبسه يشبه أثواب القرويات الفلسطينيات، طرّز صدره حتى العنق بخطوط حمراء مسوّدة، متقاطعة لتشكّل مربعات ومعينات.

أجمل ما فيها يداها اللتان تضمان الطفل يسوع، الذي يحدّق مندهشاً بعينين واسعتين. كانتا يدين كبيرتين، ذات أصابع طويلة وأنيقة. أما وجهها بعيون لوزية سوداء، وفم صغير، فقد كان يعبّر عن الخوف: وجه قروية فلسطيية تعبر شارعاً مزدحماً بالسيارات المسرعة.

أدارت أمي وجهها نحوي، وهي ماضية في ترديد صلاتها: «يا والدة الإله، صلي لأجلنا، نحن الخطاة.. يا قديسة مريم...» ثم عادت بنظرتها الخاشعة وتلاوة صلاتها إلى الأيقونة.

كانت الأيقونة من خشب أسود، وقد أصبح أسود، أملس. وقد علّقتها أمي على

جدار المصطبة الغربية، فوق الموضع الذي تنام فيه في الأيام الباردة. وكانت أمي تخص العذراء بصلاتها ومطالبها. أما المسيح والخضر فكانت تقدّم إليهما الزيت والشموع فقط. في ساعات الضيق كانت أمي تعاتب العذراء، كما لو كانت صديقة مخلصة أخلّت بوعدها. وفي بعض الليالي كانت العذراء تظهر لأمي في أحلامها وتعتذر. وفي اليوم التالي تظل الشمعة مشتعلة طول النهار أمام الأيقونة.

شعرت بانقباض للظلمة وهذه الصلاة التي لا تنتهي. خرجت إلى الحوش ووقفت خلف سوره أراقب الشارع والبيادر. رأيت الأب صليبا مقبلاً من طرف الحارة الشرقية، حيث يسكن، تتقدّمه لحيته الهائلة التي تخلّلها الشيب، وسرعة مشيه تجعل ثوبه الكهنوتي الأسود ينحسر، فتبدو، للحظات، ساقاه القويتان. رآني، فمال برأسه إلى الوراء حتى خشيت أن تسقط كلوسته من على رأسه، وناداني بصوت مرتفع، عريض، عميق:

ـ صباح الخير يا جريس.

ـ صباح الخير يا أبونا.

قال بلهجة آمرة:

ـ يالله، قدامي على الصلاة.

ـ بكّير يا أبونا.

أخذ يقلّدني:

ـ بكّير يا أبونا، بكّير يا أبونا. اسم الله واسم الصليب على الأم اللي جابتك. يالله بقولّك.

ثم قهقه وأضاف:

ـ قول لأمك تحضّر السليقة، ذكرانية العذرا، وخلّيها تشتري بخمس قروش زيت، وإلاّ والله ما بقول إسم واحد من موتاكم.

ومع علمي بأنه يمزح إلاّ أنني أجبته:

ـ كل شي حاضر يا أبونا، وفطورك عندنا كمان.

قال بصوت صاخب:

ـ يا ولد يا جريس، لا تتعلّم البخل من أمّك. بيض وغرّقه بالسمن، وسلاطة وطفّحها بالزيت. عمي يا عمي.

ثم استدار نحو الهضبة التي تتكون عليها البيادر، وجعل من كفّيه بوقاً، وأخذ يصيح بأعلى صوته:

ـ يا ولد يا فرحان، وأنت يا فريح، يا متري، يا خليل، يا عيسى. كلكو فكوا عن الدواب.. سامعين؟ فكّوا عن الدواب، وقدامي على الصلاة. اليوم الأحد. سامعين؟ الأحد.

ثم التفت نحوي بوجه أحمر عرقان من الجهد، وقال بنفس الصوت الذي كان ينادي به الدرّاسين:

ـ بعدك واقف؟ قدّامي.

قفزت من فوق السور وسرت إلى جواره.

٢

منذ خمس عشرة سنة رُسّم الأب صليبا قسيساً أمام دهشة الجميع. كانت فكرة الطائفة الأرثوذكسية عن القسس قد تكوّنت عبر القسيس السابق، الذي توفي عن عمر يزيد ـ في تقدير البعض ـ عن مائة عام. البعض يقولون إنه مات وهو أكبر من ذلك بكثير. من يدري؟ الرجل كان يونانياً، وكان عجوزاً جداً منذ مجيئه للقرية. وظلّ قسيساً وعجوزاً جداً لمدة تزيد عن أربعين عاماً. حين كان أهل القرية يرونه في أواخر أيامه يمشي في الشارع، متكئاً على عصاه، التي تكاد تبلغ طوله، كان ـ أهل القرية ـ يقولون: «الرجل ألّف» أي بلغ الألف عام. وبالطريقة التي كانوا يقولون بها هذه العبارة تشعر وكأنهم يتساءلون: متى يموت؟

كأنَّ في استمراره بالحياة على هذا النحو شيئاً غير مقبول. بل إنّ البعض قد قال ذلك صراحة: هل يريد هذا الرجل أن يعيش عمره وعمر غيره؟ ولكن العقلاء كانوا يردّون على ذلك باستنكار: خافوا ربكم يا عالم، الأعمار بيد الله. ويذكّرون الجميع أنّ الله قدّر الأعمار، لا يوم زائد، ولا يوم ناقص. ولكن هؤلاء أنفسهم كانوا

Abdo Al Bagl

يمازحون الخوري العجوز قائلين: هل نسي الموت طريقه إليك؟ فكان يرد مبربراً كلاماً غير مفهوم.

هذه كانت فكرة الطائفة الأرثوذكسية عن القسيس. أكّدها أن خوري الكاثوليك عجوز وجاف، وصغير الجسد. لذلك رشّح أهل القرية الأرثوذكس للمنصب شاباً اسمه خليل. كان يجيد القراءة والكتابة بخط جميل، وكان يعمل خادماً في الكنيسة. كان يعيش هو وأمّه العجوز من قطعة أرض صغيرة، ومن إعطاء أيّ دروس خاصة لبعض الأطفال. وكان معروفاً عنه أنه يستطيع رسم صورة أي شخص يطلب منه ذلك. له، باختصار، صفات رجل الدين، كما يتصوّره أهل القرية؛ مسالم وساذج، له صوت جميل يرتّل به الأناشيد الكنسية باللغتين العربية واليونانية ـ دون أن يعرف اليونانية طبعاً ـ يحفظ مقاطع كاملة من الأناجيل.

كان ضعفه يغري الصبية به، وكثيراً ما شوهدت أمه، حاملة عصاها، وهي تركض في طرقات القرية خلف الصبية، شاتمة ذيول أمهاتهم، مردّدة:

ـ أبعدوا عن هاليتيم ربنا يسخطكو.

ولم تكن الأم تقل سذاجة عن ابنها، ولكن أهل القرية كانوا يعتقدون أنها ماكرة.

حين شاع في القرية أنّ خليل سوف يُرسَّم كاهناً أطلق لحيته، وأصبح وقوراً جداً، يُمضي يومه ممارساً للطقوس الكنسيّة. جاء بمبخرة وبخور لا أحد يدري من أين، وكان يقف في وسط الدار، يؤرجح المبخرة إلى الأمام والخلف، راسماً شارة الصليب في الهواء، ويقول بصوته الجميل:

ـ ذوكسيس برو سخمن (السلام لجميعكم).

فترد أمه:

ـ سيكريي. (ومع روحك أيضاً).

وتكون الأم راكعة، محنية الرأس تتمتم بصلاة غير مسموعة، وهي ترسم شارة الصليب مرّات لا حصر لها. وإذا دخل عليهما أحد الدار، أومأ له خليل ـ بوضع سبابته على شفتيه ـ أن يصمت، ثم يعيد طقوس الصلاة أمامه.

أما الأب صليبا فقد كان مشهوراً عنه في ذلك الوقت بأنه لص، وابن ليل، ورجل نساء ـ قيل، همساً بالطبع، إنّه كان له حكاية مع سلطانة قبل الزواج وبعده ـ

وإنّه كان يشرب الخمر بإسراف. حكي الكثير عن شجاعته وقوته الجسدية الخارقة. حكى مرّة أبي أنّهم كانوا يسمرون في إحدى الليالي الباردة. من تلك الليالي التي إذا ألقيت ماء خارج الشبّاك يتجمّد قبل أن يصل إلى الأرض. وتراهن صليبا معهم أن يقدّموا له رطل حلاوة (الرطل يساوي ثلاثة كيلوغرامات) وهو مستعد مقابل ذلك أن يخرج عارياً، ويفرك جسده بالثلج ويعود، الجميع قالوا سوف تموت حتماً. قال :

ـ أنا؟

وخلع ملابسه على الفور، وخرج من الباب. غاب وقتاً طويلاً فقال الجميع الرجل تيبّس من البرد ومات. ونهضوا ليأتوا به، وإذا به داخل ينفض الثلج عن جسده، ثم توجه إليهم قائلاً:

ـ هاه، وين رطل الحلاوة؟

وأكلها على قعدة واحدة.

لذلك لم يصدّق الناس آذانهم عندما سمعوا أنه ينوي أن يصبح قسيساً.

ـ أنت ؟ خوري؟

قال إنه تاب عن كل شيء، ولكن ذلك لم يكن هنالك ما يؤكده. وكان إعلانه عن رغبته غريباً حقاً. فقد دخل دار خليل الذي كان يمارس طقوس الصلاة. أومأ خليل بوقار إلى صليبا طالباً إليه أن يصمت، وتأهب لتكرار الطقوس. ولكن صليبا تقدّم منه، وانتزع المبخرة من يده، وانهال بسلسلتها الحديدية على مؤخرة خليل. هجمت عليه الأم وحاولت أن تبعده عن ابنها، ولكنه ركلها بقدمه، ثم أمسك بأذن خليل وأرغمه على كتابة عريضة ـ لم يكن صليبا يجيد القراءة والكتابة ـ على لسان أهل الطائفة يطالبون فيها المطران برسم صليبا عبد المسيح قسيساً لقريتهم، بعد وفاة القسيس السابق وخلو مكانه. أطاع خليل ووقّع غالبية أبناء الطائفة على العريضة، رجالاً ونساء. وهكذا أصبح أبونا صليبا خورياً لطائفة الروم الأرثوذكس في القرية.

أما خليل فقد اختفى عن مجالس القرية وطرقاتها. أغلق باب داره عليه وكانت أمّه تشاهد وهي تغادر الدار بعد أن تغلق بابها خلفها وتعود مسرعة، ومن شقوق الباب كان يُرى دخان المبخرة يتسرّب، وصوت خليل ينبعث من الداخل بقوة مردداً الأناشيد الكنسية. كان يبدو أنّه يتحدّى صليبا الذي لم يعد يعيره اهتماماً. وإذا دقّ أحد عليه

الباب، تردّ الأم من خلف:

ـ مين ما تكون تكون، ما بدنا حدا.

في البداية كان الخوري صليبا يعتقد أن مسيح الأرثوذكس يعيش صراعاً مع مسيح الكاثوليك. وفي السهرات التي كانت تنعقد في بيته كان يبرهن للحضور على تفوّق مسيحه بأحداث قاطعة. فيقول إنّ سليم، حداد القرية، وهو كاثوليكي، قال له الأب صليبا:

ـ بتباطح؟

وتماسكا، واستنجد كل منهما بمسيحه، وفي ثوان قليلة كان سليم ملقى على الأرض. ورغم أن الجميع يعلمون أن الخوري صليبا كان قادراً على إلقاء كل من يعرفونه أرضاً. حين ينطلق الشبان ضاحكين، كان بعض الرجال المسنين يبتهلون.

ـ قدوس، قدوس.

وكانت عزيز الملطوشة حاضرة عندما روى الخوري ما حدث، فرفعت ذراعيها إلى أعلى وصاحت:

ـ يا رب اهدم صلاة الكاثوليك على رؤوسهم، يا قديسة مريم، يا والدة الإله...

والملطوشة صفة لعزيز وليست اسماً. وهي، كما يقال اضطرب عقلها عندما نظرت في المرآة في الظلام.

ولكن الأب صليبا تغيّر مع الأيام. اقتحم بيت خليل واسترضاه وجعله قندلفت. لبس وظيفته وأصبح لطيفاً مع الناس، يستمع لمشكلاتهم، ويسعى لحلها. وتخلّى عن مهاجمة مسيح الكاثوليك. أصبح يقول إنّ هنالك مسيحاً واحداً، ولكن الكاثوليك خرجوا عن كنيسة الرب.

وارتفع قدر الأب صليبا عندما جاء جماعة من المبشّرين الأمريكيين إلى القرية. لم يكن أحد يعلم عنهم شيئاً سوى إشاعة تقول إنهم يعتبرون العذراء مريم امرأة مثل بقية النساء. كان واحد منهم أمريكياً يتكلّم العربية برطانة غريبة. قابلهم الأب صليبا واستمع إليهم. أغرقوه بتفصيلات لم يفقه منها شيئاً. إلى أن قال لهم:

ـ ووالدة الإله؟

قال الأمريكي:

ـ إننا نحترمها كثيراً.

ثم أخذ يقول كلاماً تصوّر الأب صليبا أنه يشير إلى أنّ العذراء امرأة كبقية النساء. رسم الأب صليبا علامة الصليب على وجهه وأمسك بياقة المتحدّث وقال إنّ عليه أن يغادر القرية، ولا يعود أبداً، والأمريكي، بوجه محتقن وعينين جاحظتين، يتساءل:

ـ ولكن ماذا حدث؟ ولكن ماذا حدث؟

قال الأب صليبا:

ـ مثل بقية النساء؟ هاه؟

ودفع الرجل إلى سيارته، وتبعته المجموعة.

وعندما انتقد الأب غريغوريوس الأسلوب الفظ الذي يعالج به الخوري الأرثوذكسي الأمور، ثارت عليه طائفته نفسها. قالوا له:

ـ كله إلاّ مريم العذرا.

وكان شبان القرية يسهرون في بيت الخوري، يسمرون ويشربون القهوة المرّة. وعندها كانوا يروون له حكاية الخوري الذي وعد امرأة أن يزورها بالليل، بعد أن قالت له إنّ زوجها مسافر. وعندما جاء طلبت إليه أن يخلع ملابسه ففعل. بعد قليل طرق زوجها الباب، فأخفت القسيس في الخزانة، وأخفت ملابسه. وظلّ سجيناً حتى الصباح. وفي الصباح أعلن الزوج أنه سيبيع الخزانة وأنّ المشتري قادم بعد قليل. وظلّ الزوجان يعذّبان القسيس ويسخران منه.

كان الأب صليبا يبتسم ويقول:

ـ هذا خوري الكاثوليك.

ويضحك الجميع، ويروون حكايات مماثلة. أما خليل فيحتد ويطلب إليهم أن يتوقفوا عن العبث بالمقدسات؛ فيهدئ الخوري ثورته ويقول:

ـ ليش تزعل يا خليل. هذول هُمَّه الكاثوليك هيك.

٣

عندما وصلت باب حوش الكنيسة كان الجرس الأول يدق. رأيت خليل واقفاً تحت قبته العالية. وجهه أحمر، متقلص بالمجهود الذي يبذله، لامع بالعرق، وهو يمسك بحبل الجرس بكلتي يديه ويجذبه إلى أسفل.

كان الأب صليبا قد سبقني ليستكمل ارتداء ملابسه الكهنوتية، البيضاء، الموشاة بالقصب، وكان قد طلب إليّ أن أمرّ ببيت متري الكسيح، وأستعجل ولَدَيه ليشعلا الشموع، ويقفا بها أمام الهيكل. وكانا يقومان، أيضاً، بإشعال الشموع أمام المذبح، القائم خلف الهيكل. وعندما استدرت لأناديهما، رأيتهما يتسابقان إلى باب حوش الكنيسة.

أخذت الكنيسة تمتلئ بسرعة. الشيوخ يدخلونها متمتمين: «كيريا لاييصون. يا رب ارحم، يا رب ارحم» ويرسمون إشارة الصليب بأصابعهم الثلاثة مضمومة - الإبهام والسبابة والوسطى - على الجبين، ثم على الصدر، ثم الجانب الأيمن وبعده الأيسر. بعض العجائز كن يزدن على ذلك بالركوع أمام الهيكل، ورسم إشارة الصليب عدة مرات، ثم يقبّلن الصليب، ويَرجعن إلى الدكك الخشبية التي يجلس عليها المصلون.

بعض القادمين كانوا بملابس العمل، ذرات التبن ما تزال ملتصقة بوجوههم، التي ينزّ العرق منها. فلاحون آخرون قد تأنّقوا للمناسبة. لبسوا قمبازاً نظيفاً، وكوفية حريرية بيضاء، تخالط لونها زرقة النيلة الخفيفة، وقد تدلّت منها أهداب على شكل كرات صغيرة، يشدها إلى الرأس عقال أسود، رفيع.

أما النساء فقد ارتدين ثوب الطلعة الأسود، أبو غزالين، وجُبَّة خضراء، أو كحلية، أو زرقاء، وأحطن نحورهن بالمقْنع الأسود؛ وعلى الرأس عُصابة سوداء، أو قد تكون على الطريقة الحورانية موشاَة بقصب أحمر. الشابات والفتيات ارتدين فساتين من الحرير الصناعي، فاقعة الألوان، وقد ضاعت تفاصيل الجسد بسبب الثوب الواسع. معظمهن عاريات الرؤوس، وقد انساب الشعر، الكستنائي غالباً، على جانبي الوجه، أو إلى الخلف حراً، أو على شكل جديلتين. المتزوجات منهن، كنّ

يضعن على رؤوسهن مناديل زرقاء أو حمراء، أو خضراء، لها أهداب كثيفة مطرَّزة بالخرز ـ الأزرق غالباً، لأنّ الخرزة الزرقاء تحمي من العين الشريرة . كانت عيونهن تتابع طقوس الصلاة بيقظة واحترام. غير أنّه، بين حين وآخر، تصدر حركة التفاتة من رأس إحداهن، تواجه فيها نظرت الشبان المحدّقة. وتتظاهر الفتاة أنها تطرد ذبابة أزعجتها، أو أنها تتابع مسيرة صبيان الهيكل، يتقدّمهم الخوري، وهم يحملون الصليب الكبير المذهب، والشموع، أما الخوري فيحمل المبخرة. . . تراقبهم وهم يدورون حول المصلين ، ابتداء من الهيكل، وعودة إليه.

ثم تتابعت مجموعات الطلبة التي تدرس خارج القرية، أو خارج البلاد، والذين يقضون إجازاتهم الصيفية في القرية. وهم قد بالغوا في التأنّق. فالبنطلون الواسع قد كُوي وأصبحت ثنيته دقيقة كحد الموس. والقمصان البيضاء، ذات ياقات عريضة، منشّاة وصلبة. واللحية التي أرخيت طيلة الأسبوع قد حُلقت، وأضفت على الوجوه مزيجاً غريباً من شحوب الجزء الأسفل من الوجه، وسمرة الوجنتين والجبين . كانوا يرسمون إشارة الصليب مرة واحدة، ويجلسون بعدها على أطراف الدكك الخشبية، وعيونهم تتجه بنظرات جانبية سريعة نحو قسم النساء.

كانت موعظة الخوري مركَّزة على مد الخضر، وهي كمية من القمح تساوي اثني عشر كيلوغراماً ونصف الكيلو من القمح، يتوجّب على كلّ عائلة أن تقدّمها للكنيسة. قال إنّ الحصاد انتهى، والدراس قارب على الانتهاء ولم يقدّم أي كان مدّ الخضر. قال إنّ الخضر الأخضر هو وراء القحط الذي اجتاح البلاد في عام ١٩٤٧ ، لأنّ الكثيرين قد امتنعوا عن تقديم حصة الخضر في السنة السابقة للقحط.

وأضاف أنّه في هذه الأيام تتكرّر نفس المسألة. فعندما ذهب خليل إلى بعض التجّار، قالوا : لن ندفع. لن ندفع واذهب وبلّط البحر؛ هذا ما قالوه. وعندما ألحّ خليل، قالوا:

ـ أرسل إلنا الخضر وإحنا بنحاسبه.

قال، أرسل إلنا الخضر، قال. الخضر لا يحتاج إلى قمحكم، ولكنه يأمر بتوزيع القمح على المحتاجين، وجزء منه يذهب لمصروفات الكنيسة (لم يسمع أحد أنّ الخوري قد وزّع قمحاً على المحتاجين).

وأضاف أنّ الخضر الأخضر لا يعرف الرحمة إذا غضب، وكما أغمد رمحه في قلب الحوت، سوف يفعل الشيء ذاته بالساخرين به.

صدرت ضحكة من قسم الشبان، وتلتها ضحكات. دارت عينا الخوري بغضب، ثم زعق:

ـ بتضحك؟ سوسة تكسّر سنانك.

دارت رؤوس الشيوخ باستنكار، قال أحدهم:

ـ لعنة الله عليكو من عيال.

استدارت رؤوس الفتيات ونظرن إلى الشباب بتمعّن. كن مبتسمات. رأيت خضرا تنظر إليّ بوجه ضاحك يحيطه شعرها الأسود الذي تسرّب من المنديل الحريري الأزرق. في وجهها كلام. أسبلت جفنيها للحظة بإشارة تواطؤ. ابتسمت لها وهززت رأسي. كان قلبي يدق بعنف.

زغدني بطرس الذي يجلس بجواري وهمس:

ـ شفتها؟

قلت:

ـ أيوه.

دون أن أحاول أن أعرف عمن يتحدّث. واصل الخوري موعظته، لكنني لم أعد أصغي. التفتت خضرا نحوي وألقت نظرة سريعة، برّاقة، كأنها تقول: «لن نتردد الآن»، ثم عادت تنظر أمامها، مقربّة ما بين حاجبيها كأنها تخفي ضحكة. كنت أرتعش بالنظرة التي انغرست في قلبي كالخنجر.

قال بطرس هامساً:

ـ ملكة جمال العالم.

وعندما كنا نغادر الكنيسة أعاد بطرس سؤاله إن كنتُ قد رأيتها، ورداً على نظرتي المتسائلة، قال بحنق:

ـ أميرة يا زلمة.

وندمت فعلاً لأنني لم أرها.

ولكننا عندما توقفنا مع مجموعة من الطلبة اجتذبت انتباهي على الفور. كان لها ذاك القوام الفارع، والعنق الشامخ المستقيم، وقد برز النهدان بإثارة وبصنعة ابنة المدينة المدرّبة على إبراز مفاتنها. كان لها طلعة تبهر، وتجعلك تتابعها. ولكن ما شدّني إليها كان العينان. كانتا لوزيتين، سوداوين، تسطعان بقوة، وفيهما تلك النظرة التي تنظر إليك مباشرة، وقد استعدَّت لاستقبالك. في الأنف والفم ذلك الاسترخاء، الذي يرافق انفعالاً يُسرِّع التنفّس ويطبع الوجه بطابع الرغبة الجامحة. بطابع الانتظار لعناق والتحام بالجسد الآخر. فتاة تنتظر من يغتصبها. وأخذ قلبي يدق بعنف: «بحق الله! أنّ لها وجه سلطانة». كنت قد نسيت سلطانة تماماً منذ ذلك اللقاء في الشارع. أثارتني وأخافتني إلى حدّ أنني لم أعد قادراً على استرجاع نظرة ذلك الوجه الملتاث بالرغبة، وحركة اليد وهي تداعب يدي.

وها هي أميرة. لم تعد تشبه في شيء الفتاة النحيلة السمراء التي كنت ألعب معها. هذه امرأة ينبعث منها، بل يسيل منها، شيء معيب وبذيء، يلامس كل من يقع في دائرتها. لاحظت أنّ جميع من معي قد توقفوا عن الكلام وأخذوا ينظرون إليها مباشرة وبرغبة صريحة. كان بطرس ينظر إليها وإليّ وقد أخذ العرق يسيل على امتداد وجهه. التقت عيناي بعينيها، فتجمّدت أنا. لا أدري كم من الوقت مضى والعيون الأربع تتحاور، وهي تقول شيئاً أعجز عن فهمه، وأنا عاجز عن الحركة والكلام. ثم أضاء وجهها فجأة ورفعت يدها ملوّحة، وصاحت:

ـ هاي جوني!

هل تحاول تذكيري بشيء ما؟ إنني أنا الذي علّمتها على ترديد هذه العبارة، كنت أقول لها: «هاي جوني» فتقول:

ـ أنيْ زلمة؟ جوني إسم زلمة.

تقدّمت وصافحتها، وقلت:

ـ كيف حالك يا أميرة؟ كيف الصحة؟

ابتسمت وقالت:

ـ منيحة.

لا أدري لماذا توقعت أن يكون صوتها مختنقاً، فاحّاً، كصوت سلطانة، وهي

تدعوني لزيارتها. قلت:

ـ وكيف أحوالك؟

قالت:

ـ زعلانة منك.

ـ ليش؟

قالت إنها رأتني في الشارع، في عمّان، ولم أسلّم عليها. قلت: لم أركِ، لماذا لم تسلّمي أنت؟ قالت: ولكنك لا تسير، بل تطير. ثم همست لي:

ـ وقلت لماما رايح تزورنا وما زرتنا.

هذه امرأة أخرى مختلفة عن سلطانة، تعلّمت كيف تلعب بالرجال، وتسيطر عليهم.

صافحت الفتيات الأخريات، وكن يردِّدن بميكانيكية:

ـ الحمد لله، الحمد لله...

ورغم ارتباكي الشديد ضغطت يد خضرا وأبقيتها في يدي، وأحسست باليد طرية، تجاهد أن تنسحب.

وعندما انتهيت من مصافحة الفتيات اقتربت أميرة مني وهمست قرب أذني:

ـ هاي هيه معشوقتك؟

اقترابها مني وكلماتها تمّت بألفة وثقة أدهشتاني.

سرت مع بطرس. لم يقل شيئاً. بدا كالغاضب. وعندما وصلنا بيته دخل دون أن يودّعني. قلت:

ـ العصر.

هزّ رأسه ودخل.

Abu Abdo Al Bagl

١

عدت إلى الدار. كانت أمي قد أعدّت الدار: كنستها، ورشّتها بالماء، وفرشتها بالأبسطة الملوّنة. وألقت عدداً من الفرشات للضيوف المميّزين. كما نثرت الوسائد في مختلف الأماكن حتى يستطيع الجالس أن يتكىء، وقد بدأت في إعداد القهوة المرّة.

لن يأتي أحد، عدا الأب صليبا، بعد الصلاة مباشرة. ففي يوم الأحد لا يأكل الذاهب للكنيسة أو يشرب شيئاً استعداداً لتناول القربان المقدّس، حتى يغمس الخوري قطعة صغيرة جداً من الخبز بالنبيذ الذي في كأس القربان المذهب، المزخرف، ويقول، نيابة عن المسيح:

- خذوا اشربوا، هذا هو دمي؛ خذو وكلوا هذا هو جسدي.

ويضع قطعة الخبز الصغيرة في فم المتقدّم لتناول القربان. بعد ذلك يحلّ المسيح في جسد الذين تناولوا القربان.

بعد قليل دخل الأب صليبا بصخب. أجلسته أمي - بعد أن خلع حذاءه - في صدر الدار، فوق أحد المراتب. قال:

- بقول لجريس، يا ولد يا جريس لا تتعلّم البخل من أمّك.

ردّت أمي:

- إحنا ناس على قدّ الحال يا خوري. لو ما دبّرنا بنموت من الجوع.

قهقه الأب صليبا وقال:

- سياسية يا عم، سياسية.

أشعلت أمي وابور الجاز، أعدّت الشاي والبيض المقلي بالسمن، وأعدّت السلطة ووضعت الطعام أمامنا. أقسم عليها الأب صليبا أن تشاركنا الطعام، فجلست بعد

ممانعة.

قال الأب صليبا:

ـ إلك البيض يا جريس وإلي السمن.

بعد لقمات قليلة شبعت أمي، فحملت كأس الشاي وجلست بعيداً عنّا. وأخذ الخوري يغمس قطعة كبيرة من الخبز، يرويها بالسمن، ثم يلتهمها بسرعة فائقة؛ وكان يخادعني وينهش قطعاً من البيض. على أيّة حال كان الطعام كثيراً. أحسست بانفتاح شهيتي للطعام، وصرت أنافس الخوري ـ دون نجاح ـ في الإقبال على الأكل. أشارت أمي لي بأن أسرع في الأكل حتى لا يلتهم الأب المقدّس الطعام كلّه. أبديت ضيقي من إشارات أمي بعبوس علها تكفّ.

ونحن، الاثنين، نتناول الطعام دخل عدد من العجائز، يحملن غلايين، طويلات القصبة ـ يبلغ طولها أكثر من متر بقليل ـ من الدفلاء، وفي رأسها حجر أسود، عليه نقوش، يوضع في داخله الدخان المحلي، الهيشي. دعاهن الأب صليبا لمشاركتنا الطعام، وساندته أمي في دعوته، ولكنهن اعتذرن، وأقسمن أنّهن أفطرن، ورحن يحكين تفاصيل وحكايات تثبت ذلك. «نفسي هفتني على المقطوع بالكبسة، فقلت: يا بنت». وهكذا.

ورغم أنّ الأب صليبا تناول كمية وافرة من الطعام إلاّ أنّه خلّف جزءاً من كل صنف. وكان هذا من آداب اللياقة في قريتنا.

شرب كوزاً من الماء بعد أن انتهى، وتجشأ، ثم أخذ يرشف الشاي بصوت مرتفع.

قال:

ـ سُفرة دايمة.

ثم:

ـ الحمد لله رب العالمين.

ورسم إشارة الصليب على وجهه.

وانصرف بعد قليل.

امتلأت الدار بالرجال والنساء. دارت عليهم القهوة، فأبدوا إعجابهم بصنعها.

ساد المرح والتعليقات عندما دخل صبح. كان يكفي أن يقول أي شيء لنضحك. وهو مع هذا لم يكن مهرّجاً، فقد كان أهل القرية يعاملونه باحترام ومودة.

دار الحديث في البداية حول الإشاعة التي ترددت في القرية مؤخراً حول أن الحكومة تنوي افتتاح مدرستين للطلاب والطالبات، بالإضافة إلى المدرستين الكاثوليكيتين. ولكن صبح أدار الحديث حول أميرة، إذ قال:

ـ وين يبنوا؟ في العرصة إلّي ورا القبور؟

وابتسم. عندها أدرك الحاضرون أنّه يتحدّث عن أميرة لأنها تسكن في المنطقة المحاذية للعرصة، أخذوا يضحكون، ثم يدارون ضحكهم لأنّ الخوض في الأعراض يثير خوف أهل القرية.

قالت عجوز:

ـ يا رب استر ولايانا.

ثم أحنت رأسها وأخذت تجذب الأنفاس من غليونها. أدركت أنها قالت أكثر مما يجب.

قال صبح:

ـ والله يا عمي إحنا تقلّطنا كثير. واحد قال، والعهدة عالقايل، إنه شاف واحدة من بناتنا ماشية في السوق مع واحد مدني.

حاول أحد الحاضرين أن يغيّر الموضوع، قال:

ـ المقصود. بعت حمارك يا صبح؟

ـ لا.

ردّ صبح دون اهتمام، فتبيّن للسائل أن صبح قد قرّر أن يستمر في هذا الموضوع، فتثاءب، مدارياً ارتباكه وقال:

ـ سترك يا رب.

قالت العجوز التي طلبت من الله، منذ قليل، أن يستر الله ولاياها، بكثرة حجبها قليلاً دخان غليونها:

ـ والله غير ربنا يسخطنا.

ولم يكن واضحاً إن كانت تحتج على الحديث الدائر، أم على مسلك أميرة.

هنا تدخلت الخورية صبحا زوجة الخوري صليبا، قالت:

ـ الخوري بقول، والله إذا الناس ما حسّنوا ممشاهم غير محلة السبعة وأربعين ترجع مرّة ثانية.

قال صبح:

ـ والخوري إيش عرّفه يا خورية؟

ردّت الخورية بعدوانية:

ـ لا، أنت اللي بتعرف.

قال أحد الحاضرين:

ـ الزلمة بسأل. حُرُم السؤال؟

قالت الخورية:

ـ لا. بِتْمهزأ، ما بِسْأل.

قال صبح:

ـ بَسأل يا بنت الحلال. الخوري، يعني، عنده تليفون بكلّم ربنا فيه؟ وإلاّ، يعني كيف بعرف؟

كلمة «تليفون» جعلت الحاضرين يضحكون. كانت الخورية بلا أسنان، فابتلعت شفتيها وجحظت عيناها. وارتفعت بعض الأصوات:

ـ جاوبي يا خورية. الزلمة بسأل. جاوبي.

أحسّت الخورية أنهم يهزؤون بها فحاولت تغيير الموضوع. ولكن إنسانة في سذاجة الخورية فقط تستطيع أن تعلن وتفجّر موضوعاً حسّاساً يحاول الجميع لمسه بحذر وتجنّب الحديث الصريح فيه. قالت:

ـ والله البنت هذي أميرة غير ربنا يسخطها.

قالت أمي:

ـ انجنّيت يا خورية؟ إيش هذا الكلام؟

ردّت الخورية بعصبية :

ـ والله غير يسخطها! والله غير يسخطها!

قال صبح :

ـ ليش ؟

قالت أمي :

ـ غيّروا هالسيرة .

قالت الخورية :

ـ وأميرة بذخت . الفلسطينيين لما بذخوا ربنا سخطهم .

وكانت هذه الفكرة شائعة بين أفراد الجيل القديم في القرية . ففي القرية يوجد منذ زمن طويل عدد من الفلسطينيين الذي يمتلكون الأراضي الزراعية، التي يزرعونها قمحاً، ودوراً للسكن؛ كما أنّ لهم بيوتاً وأرضاً يزرعونها زيتوناً وتيناً وعنباً . وكانوا متوافقين مع أهل القرية في كل شيء . ولكن خلال الحرب العالمية الثانية أصبحت فلسطين مركزاً اقتصادياً هاماً بالنسبة لبريطانيا في فترة الحرب، فارتفع المستوى الاقتصادي للفلسطينيين . أصبحوا يلبسون الأحذية في غير المناسبات، ويأكلون بتأنق لم يعتده أهل القرية . لقد كانت أبسط مظاهر الترف في القرية تعتبر تحدّياً للرب . ومن هنا شاعت فكرة أنّ الرب غاضب على الفلسطينيين .

قالت الخورية :

ـ آه، الفلسطينيين بذخوا . بذخوا .

لاحقها صبح :

ـ كيف بذخوا؟

قالت :

ـ بذخوا والسلام .

ـ كيف ؟

بدت المعاناة واضحة في وجهها المدوّر الصغير . صمتت فترة وفمها الخالي من الأسنان يتحرّك في محاولة فاشلة للكلام . ثم جحظت عيناها وأخذ عنقها يتحرّك

كأنها تحاول ابتلاع شيء توقّف في حلقها، ولا تستطيع. أثارت شفقة البعض، ولكن صبح ألحّ، فقالت فجأة:

ـ بذخوا . بشربوا سكاير.

لم يضحك أحد. حتى صبح بدا الذهول واضحاً على وجهه، وقال بنبرة جادّة:

ـ لكن الأردنيين بشربوا سكاير.

أوضحت الخورية رأيها. قالت إنّ الأردنيين يشربون السجاير من الدخان المحلي (الهيشي) بعد أن يلفوها بأيديهم، بينما يشتريه الفلسطينيون، حتى يومنا هذا، وكأنّ الرب لم ينذرهم بما فيه الكفاية، في علب جاهزة، أنيقة.

وأكّدت:

ـ بطروا.

اعترض عودة الله، وأنا أعرف أنّه جاد في اعتراضه:

ـ طيب الموظفين في عمّان بشربوا سكاير في علب.

فردّت الخورية:

ـ مش كل الموظفين.

كان غباؤها يثير الضيق، فحوّلوا الحديث إلى موضوع آخر: المدرستان الموعودتان. ولكن أحد الحاضرين قال:

ـ مش كل الموظفين؟ وكمان مش كلّ الفلسطينيين.

فالتقطت الخورية الخيط:

ـ والموظفين يعني هيك اللي بشربوا سكاير، يعني، هيك (وأشارت بكفيها أنها تعني علب السجاير الجاهزة) كمان ربنا سخطهم.

قال عودة الله:

ـ سخطهم، سخطهم، بلاش هالسيرة.

فقالت:

ـ سخطهم، ماشيين في أسواق عمّان مفاريع من غير حطّة وعقال، وراس الواحد مثل راس الحمار.

قالت أمي:

ـ فيه حدا بنادي عليك برّه.

التفتت الخورية إلى صِبح وقالت:

ـ والله كلامي هذا على أذنك يا جارة. هذاك يوم شفتك وسكارتك طولها شبر.

ضحك صبح باستغراق، وسادت تعليقات مرحة. نهضت الخورية، وهي تئن بسبب ألم مفاصلها، وقالت:

ـ حدا بنادي عليّ؟

وخرجت.

٢

كان زواج صليبا بصبحا مسألة غريبة. وحقيقة الأمر أنّه لم يتقدّم هو للزواج، وكيف له ذلك في مثل سنّه، بل إنّ أمه هي التي زوّجته. كان وحيدها ـ خلّفت ثلاثة عشر صبياً وبنتاً ماتوا كلهم بالحصبة المسمّاة أبو طحيّل (الأغلب أنها الزائدة الدودية) وبأمراض أخرى لا أسماء لها، فعزمت ـ الأم ـ أن تملأ بأولاده البيت. الأب لم يعترض.

كان عمر صليبا في ذلك الحين أحد عشر عاماً. زوّجته من بنت خالها صبحا التي بلغت من العمر خمسة وعشرين عاماً. بلغت هذا السن المتقدّم دون زواج لسبب بسيط، هو أنّ أحداً لم يتقدّم للزواج منها. كان الخال صاحب أملاك وكريماً، وقد نال احترام القرية كلها، ولكن أحداً لم يطلب البنت، التي بدا أنها سوف تعيش حتى نهاية حياتها عانساً، إلى أن خطرت الفكرة في ذهن أم صليبا.

لم يكن عند أم صليبا أية أوهام حول البنت. لم تكن جميلة، وكانت خجولة إلى حد لا يصدّق. تتلعثم ويحمرّ وجهها ويغشاها العرق أمام حتى إخوتها وأخواتها الأصغر سناً. يكفي أن تحدّثها وتنظر في عينيها حتى تفقد القدرة على الكلام والحركة. ولكن للبنت حسناتها. فهي حمارة شغل. العمل داخل البيت لم يكن واجباً، بل متعة

تهرب إليها من الناس، ومن كلام أمها اللاذع «يا بايرة» تقول لها حين تغضب. وأمها امرأة ولاّدة، وهي سوف تكون كذلك دون شك.

وقبل الزواج بعدّة أيام اختلت الأم بصبحا، وقالت لها وهي تنظر إليها باستنكار وتهديد، وكانت تتعمّد إخافتها: اسمعي يا بنت، أنت لست جميلة، ولم يعرف عنك رجاحة العقل. عيناك صغيرتان مثل خرزتين، وفمك واسع، وقصيرة، وتكادين أن تكوني بلهاء... تسمعينني؟

هزّت صبحا رأسها. كانت ترتعش وقد ابتلّت ثيابها بالعرق. ومضت الأم تقول: لم أزوّجك لابني لأتباهى بك. فأنت والدابة سواء. والآن اسمعي كلامي جيداً. زوّجتك لابني حتى تملأي الدار عليّ بالأطفال. أريد كل سنة واحد. تفهمينني؟

هزّت صبحا رأسها عدّة مرّات، وقد أضيف إلى العرق والارتباك دموع غزيرة تنساب على طرفي أنفها.

قالت الأم: أتعرفين كيف تفعلين ذلك؟

قالت صبحا بصوت صغير:

ـ لا يا عمّة.

ـ عمى يعميك. إسمعي.

وشرحت لها كل ما يتم بين المرأة وزوجها بوضوح وصراحة جارحة. وقد استعملت يديها في تلمّس المواضع التي يتم فيها الاتصال بين المرأة والرجل، وشرحت العملية بأصابع يدها. وسألتها إن كانت قد فهمت؟

لم يكن الخجل والارتباك أو البكاء في وجه صبحا، بل الرعب. ليس الخوف بل ذلك الفزع الذي يثيره جنّي يظهر لنا فجأة. كانت تنظر في وجه الأم دون أن تقول شيئاً. هل أصبت بالخرس؟ زعقت الأم. تكلّمي! زعقت أيضاً. ولكن الوجه ظلّ مثل القناع.

أدركت الأم أنها أفزعت الفتاة حتى لم يبق لديها أذن تسمع بها، أو عقل يفهم ما يقال. مسحت وجه الفتاة بكمّها وضمّتها إليها. وقالت:

ـ لا تخافي.

أخذ جسد الفتاة يهتز بالبكاء، قالت الأم وهي تداعب ظهرها:

ـ يا حنونتي لا تبكي.

هدأت الفتاة قليلاً، فسألتها الأم مرة أخرى:

ـ فهمت.

تأتأت الفتاة شيئاً غير مفهوم، فقالت الأم إنها لا تسمعها. بيد أن الفتاة بذلت أقصى ما تستطيع من جهد حتى تقول:

ـ أسوِّي معاه كلام عيب؟

قالت الأم إنّ المرأة لا تفعل عيباً مع زوجها. فتساءلت الفتاة. إذن تفعله مع من؟ لا أحد. قالت الأم. المرأة حين تفعل ذلك مع زوجها لا يسمّى عيباً، إذ هكذا يولد الأطفال. فسألت صبحا:

ـ وأنت بتسويه مع . . .

أكملتَ الأم:

ـ مع أبو صليبا. كل ليلة.

ـ وأبوي وأمي؟

قالت الأم، هما أيضاً، وكل النساء والرجال حين يتزوجون.

عندما عادت الأم إلى البيت قال الأب وهو يطالع صليبا الذي كان يبدو كطفل في السابعة من عمره، وهو يلعب في الخارج:

ـ يا لاقية خير العيل زغير، زغير . . .

قالت الأم:

ـ هذا زلمة، بس جرمه زغير.

فصمت الأب. كان يعرفها عندما تصمم على شيء؛ لا تتراجع عنه أبداً.

كانت الأم قد اشترت قمبازاً وخنجراً وعباءة صغيرة لصليبا، وصندلاً جديداً بدلاً من القديم المقطوع، وكوفية وعقالاً. وعندما ألبسته إياها في يوم دخلته، أشارت إلى المهرة الأصيلة، التي تقف بجوار أمها، قالت:

ـ الكحيلة إلك.

وقالت له أنت أصبحت الآن رجلاً. عندك الزوجة والخنجر والفرس. وسوف أشتري لك بارودة موزر. لا ينقصك شيء. فلتكن رجلاً منذ هذه اللحظة.

وكان يوم الفرح مرهقاً للأم. أشرفت على كل شيء، وجهدت لأن تجعله يوماً مشهوداً. ولم ترتح إلا بعد أن أدخلت العريس على عروسته. كانت قد شرحت له كل ما عليه أن يفعله مع زوجته. كان في البداية مندهشاً من سماع أمه تقول هذه الأشياء. ثم سأل:

ـ أسوّي مع خالتي صبحا..

ولم يتم كلامه، بل أخذ يضحك، ويضحك دون أن يستطيع التوقّف. قالت لنفسها بحزن «إنه طفل ما يزال»، ويقول خلال ضحكه:

ـ أسوّي مع خالتي صبحا...

ويعاود الضحك. صبرت الأم عليه، حتى انتهى من الضحك، وقالت له إن صبحا لم تعد خالتك، سوف تصبح زوجتك. وهي على كل حال ليست خالتك، لأنّ الخالة تكون أخت الأم، وهي ليست أختي.

أخذ الطفل يحسّ بالملل. كان يريد أن يواصل لعبه مع الأولاد، فنهض واقفاً، فقالت الأم:

ـ وين رايح.

فقال وهو يدير لها ظهره:

ـ ألعب مع العيال.

وسألته إن كان قد فهم كلامها، فقال:

ـ فهمت، فهمت.

وانطلق راكضاً.

وقفت الأم خلف الباب الذي دخل منه العريس تصغي. مضى وقت، بدا لها طويلاً، لا تسمع شيئاً. فكّرت أن تدخل إليهما وتشاهد ما يحدث، ولكن هل هذا معقول؟

حلّ عليها التعب فجأة، وأحسّت أنها سوف تقع من طولها لو ظلّت واقفة هكذا. ذهبت إلى فراشها لتتمدّد قليلاً، ثم تعود إلى الإصغاء. ولكن النوم غافلها على الفور، وكأنها سقطت فيه سقوطاً.

عندما استيقظت في ساعات الفجر الأولى، اكتشفت أن ابنها ينام بجوارها. بدا ذلك طبيعياً، فهو منذ ولد وهو ينام في حضنها. وعاودت النوم، ولكنها استيقظت على الفور، استيقظت واقفة، فقد تنبّهت إلى أن هذا لم يعد الموضع الذي ينام فيه ابنها.

كانت تنام بملابسها كاملة، لأن النوم غلبها قبل أن تخلع ملابسها وتلبس قميص النوم. تركت الصبي نائماً وسارت إلى حجرة العروس. فوجئت أنّ الباب مفتوح نصف فتحة. كان ضوء المصباح قد أصبح ضعيفاً لأنّ الكاز فيه قارب على النفاد. أسرعت إلى الخارج وعادت بالكاز وملأت خزّان المصباح وأدارت الفتيل إلى أعلى.

أخذت تنظر للعروس. كانت تنام على ظهرها، فمها مفتوح، والشعر قد أخفى جبينها وعينيها. وضع الفتاة، وإحدى ساقيها امتدت عارية خارج اللحاف، جعلها تتساءل: هل فعلها الولد حقاً؟ اقتربت من الفتاة وأخذت تهزّ كتفها برفق وتناديها بصوت خافت:

ـ صبحا، صبحا، يا صبحا...

همهمت صبحا، وانقلبت على جانبها الأيمن، فتعرى ظهرها. ظلّت ممسكة ببروز الكتف، وضغطت عليه، وأخذت تهزّها بعنف وقد أخذت تفقد أعصابها:

ـ صبحا، يا بنت يا صبحا...

قالت صبحا:

ـ يا ربي! خليني نايمة.

قالت الأم بغضب:

ـ إن شا الله نومة من غير قومة. إصحي!

عادت إلى النوم على ظهرها وفتحت عينين حمراوين، أخذت تجيلهما في الحجرة، ثم استقرّت عيناها على وجه الأم. بدت المفاجأة واضحة على وجهها، قالت:

Abu Abdo Al Bagl

ـ وين أنا؟

صفعتها الأم على وجهها وقالت:

ـ إصحي يا مهبولة. وين جوزك؟

ـ جوزي؟

وأخذت تجيل عينيها في الحجرة، ثم قالت:

ـ مش هون.

ما أني عارفة إنه مش هون.

أحنت صبحا رأسها وغطّت وجهها بيديها، قالت الأم:

ـ سويتو إشي؟

كان في صوتها لهفة، أمل أن يكون قد حدث شيء. تخيّلت أنّ الفتاة تخفي وجهها خجلاً. ولكن صبحا قالت:

ـ لا.

ـ لا؟

وجذبتها من شعرها، وقالت:

ـ قلت لا؟ خليني أشوف وجهك.

رفعتَ رأسها وقالت:

ـ قلت له تعال نعمل...

ـ إيش قلتي إله؟

تكلّمت الفتاة بسرعة:

ـ قلت له تعال نعمل كلام عيب، مثل ما قالت أمك، قال: يا خالة صبحا بدي أروح أنام عند أمي، وطلع.

وأخذت تبكي.

قالت الأم:

ـ أسكتي ونامي.

Abu Abdo Al Bagl

وانصرفت. صعب عليها أن توقظ الصبي فتركته نائماً. هل تعجلّت في هذا الزواج ؟ راودها قلق. وأخذت تتقلّب في فراشها . هل تظل الحيشان خالية من العقب، يملؤها الرعاة وعوائلهم والمرابعية، والخيول والدواب والغنم؟ كم عمره الآن؟ ولد سنة الهزة، لا ، قبل ذلك بسنتين، يصبح عمره. . نحن الآن في . . . لم تستطع تقدير سنّه. وغشاها النوم .

٣

تكرّرت الحكاية لليالي متتالية. تشرح للبنت وتشرح للصبي ما يجب عمله. تقف وراء الباب ، وتنظر أحياناً من ثقب الباب. تسمع حركات وكلاماً، فتعتقد أنّ كل شيء قد تمّ على خير وجه. تعود إلى فراشها تصلي وتنذر لمريم العذراء، وللخضر الأخضر. ويدهمها النوم. ثم تستيقظ لتجد الصبي نائماً في حضنها. تدخل إلى صبحا فتجدها نائمة. طول النهار كالنحلة تدور في البيت والحيشان. لا تعرف أن تأمر زوجات الرعاة والمرابعية فتقوم بكل شيء وحدها. فتنام كالقتيلة . تستيقظ مذهولة، فزعة على صفعات الأم، وتقول :

ـ كان هون.

كان الأب يخشى غضب الزوجة. كان غضبها، خاصة بعد أن تقدّمت في السن، جامحاً، لا يتوقف عند حد. إلاّ أنه جازف ليلة، بعد أن عادت من مراقبتها وراء باب العروسين، وقال لها:

ـ خفّي عن المسكينة.

قالت بضيقك

ـ سكينة تفتح بطنها.

وعندما لبست قميص النوم قالت: هذه الدابة تظن أننا جئنا بها لنطعمها ونسقيها. ألا تعرف واجبها؟

قال الأب:

ـ الولد بعده زغير . بعده ما بلغ .

ـ وايش عرّفك؟ الولد كبير ، بس جرمه زغير .

قالت بتحد .

قال :

ـ ودها معرفة . المدرك ببيّن من صوته ، بعده حسّه مسرسع مثل حسّ البنت ، وجوزته[1] بعدها ما طقّت .

الغريب أنّ الأم لم تثر ، ولكن فكرة خطرت لها ، نفّذتها على الفور . سارت إلى باب حجرة العروسين ، وأخذت مفتاحها من كيس صغير تعلّقه في نحرها ، وأغلقت باب الحجرة من الخارج ، وعادت إلى فراشها . سمعت صبحا تقول :

ـ أمّك سكّرت الباب علينا .

بعد قليل سمعت الصبي يعالج الباب ، ثم سمعته يناديها . أحزنها ذلك ، ولكن ما قرّرته لا رجوع عنه .

لم تنم مباشرة . افتقدت الصبي في حضنها ، ولسعتها الغيرة . لقد توقف الصبي عن معالجة الباب وعن مناداتها . إنّه ينام الآن في حضن تلك البقرة . تصوّرت التحامهما عاريين فكادت ـ لولا شيء من عقل ـ أن تنهض وتدعو الصبي إليها . وكأنّ الزوج قد قرأ أفكارها . مدّ يده إليها فاستجابت له على الفور . هذه هي المرّة الأولى التي يحدث فيها ذلك .

بعد أن انتهيا نامت بجواره ، ذراعها ممدودة فوق جسده . ظلّت هكذا حتى الصباح .

قال الزوج لنفسه «سبحان مغيّر الأحوال» .

لا وصايا الأم الصارمة ، ولا إغلاقها الباب بالليل هما اللذان جعلا صليبا يفتض بكارة صبحا . الصِّبْية أصحابُه هم الذين فتّحوا عيونه على ما يجب فعله .

كانت القرية كلها والأراضي المحيطة بها هي ساحة لعب الأطفال . في بعض الأيام كان الأطفال يهبطون من الحارة الشرقية ، يمرّون بين البستانين اللذين لم يعد أحد

---

(١) الجوزة ، تعني الحنجرة .

يعتني بهما، ويغادرون القرية وراءهم. كان هنالك هربج آخر، مثل ذاك القائم بعد نهاية الحارة الغربية، وهو منخفض من الأرض تحيطه الصخور من كل جانب، تنمو فيه أشجار بريّة، دائمة الخضرة.

كان الصبيان يتسللون إليه، وحين يريدون ذلك، فإنهم يستطيعون إخفاء أنفسهم دون أن يراهم أحد. كانوا يحبون أن يختفوا دون أن يراهم أحد. وكان للهربجين ـ الشرقي والغربي ـ سمعة سيئة، تجد صبياً يقول لآخر: ماذا فعل بك فلان في الهربج؟ أو قد يقال إنّ فلانة رأيناها حاملة حمل الحطب على ظهرها، وقد هبطت إلى الهربج. ولما كان لكل حكاية بداية ونهاية، فيقال إنّه شوهد فلان يهبط الهربج بعد قليل خلفها.

وليس بالضرورة أن تكون كل هذه الحكايات صحيحة. ولكن المكان كان يفوح برائحة الرغبة. أبسبب انخفاضه، أم بسبب خضرته في وسط أرض صخرية، جرداء معظم شهور السنة؟ الأغلب أنّه الانخفاض، لأنّه في الأماكن الصحراوية المنبسطة لما لا نهاية لا يستطيع الإنسان أن يختفي عن الأنظار إلاّ في مكان مثل هذا.

يبدو أنّ الغواية كانت تفوح من هذه الأماكن منذ أقدم عصور التاريخ العربي. فلقد قالت صديقة امرىء القيس عندما زارها في الليل:

فقالت يمين الله مالك حيلة　　وما إن أرى عنك الغواية تنجلي

فخرج معها إلى منخفض من الأرض، صخري:

فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى　　بنا بطنُ خبت ذي حقاف عقنقلِ
هصرت بفودي رأسها فتمايلت　　عليّ هضيم الكَشح ريّا المخلخلِ

المهم أنّ الصبية كانوا يجيئون إلى هذا المكان، وعندما يدخلونه كانوا يشعرون أنّهم قادرون، هنا، أن يمارسوا حريّة لا يحدها رادع أو رقابة. وشيئاً فشيئاً يتحوّل اللعب البريء إلى بذاءة تنفجر فجأة، قد تتحوّل إلى حكايات تكشف رغبات مقموعة، أكثر ما تنبئ بوقائع صادقة. وكثيراً ما يحدث أن يتحوّلوا إلى ممارسة جماعية للعادة السريّة، مبعثها غالباً الرغبة في البرهان أنّ الولد قد بلغ، وأنّه يستطيع أن يقذف المني كالرجال.

في الهربج الغربي كانت أول بذاءة ارتكبتها عندما قالت لي أميرة إنها ستنام على ظهرها، وإذا نمت فوقها فلسوف تلد طفلاً عندما تكبر، وسوف يكون ابني.

Abdo Al Bagl

سألتها :

ـ كيف عرفتِ؟

قالت :

ـ عرفت .

ـ كيف ؟

قالت

ـ كيف ؟ كيف ؟ عرفت .

ألححت :

ـ كيف عرفتِ؟

قالت :

ـ بعدك زغير . مش رايحة أقول إلك .

مع إنها كانت أصغر مني . وقلت لها ذلك :

ـ أنا عمري تسع سنين .

المهم أنها تمددت بملابسها الكاملة ، وتمددت فوقها . وماذا بعد؟ قلت لنفسي . سمعتها تقول :

ـ إنخنقت . إبعد .

بعد ذلك كانت تذكّرني بما حدث بيننا بالإشارة ، فتضع راحة يدها اليمنى فوق ظاهر يدها اليسرى .

ويقال إنّ أول لقاء تم بين سلطانة وصليبا كان في الهربج الشرقي ، ثم أصبح أحد أمكنة لقائهما .

في الهربج الشرقي انفتحت عينا صليبا على الحقيقة . لم يفهم شيئاً عندما أخذ الصبية يشيرون تلميحاً إلى السعادة التي يتقلّب فيها . قال صبي في الخامسة عشرة من عمره ، وهو أكبرهم وأكثرهم قوة ، وقائدهم على نحو ما :

ـ مصّت دمّك .

أحسّ أن هنالك شيئاً مخيفاً ومجهولاً تماماً يحدث له . وعندما استمر الحديث

Abu Abdo Al Bagl

يدور حول هذا الشيء المخيف والمجهول سأل:

ـ بتحكوا عن خالتي صبحا؟

انفجر الصبية بضحك طويل. ثم أفهمه قائد المجموعة بلهجة أبوية، وبعد أن طلب من الصبية أن يكفّوا عن الضحك، أنّ صبحا زوجته وليست خالته. قال صليبا لنفسه: لا بد أنّ هذا صحيح لأن أمّه قالت له نفس الشيء. واستفاض الصبي في شرح ما يجب أن يفعله صليبا مع زوجته.

قال صليبا:

ـ بس مش عيب أسوّي هيك؟

قال له الصبي بلهجة رجل خبر الحياة:

ـ مَرَتَك حلالك.

المهم أنّ الصبي القائد تهيّج بسبب هذا الحوار وأخذ يمارس العادة السريّة، وحذا الصبية حذوه. عندما حاول صليبا أن يشاركهم، أمره الصبي أن يتوقّف. قال له: افعل ذلك مع زوجتك.

كان صليبا يستعجل الليل ليثبت رجولته. ولكنه كان قلقاً. وعندما أغلقت أمه عليه وعلى صبحا حجرتهما، هاجمها دون رويّة. لم تقاوم لأنها أدركت مؤخراً، لكثرة ما تلقّت من صفعات وشتائم، أنّه لا بد من فعل ذلك. كانت خائفة، وكان خائفاً، ولكن كل شيء تم. ولكنها صرخت فجأة عندما نهض الصبي. سمعت الأم الصرخة، فهرولت، وفتحت باب الحجرة بالمفتاح. قالت لصبحا:

ـ مالك ؟

كان وجه صبحا أصفر من الرعب. قالت:

ـ جرحني.

ـ جرحك ؟

قالت إنه فعل ذلك الشيء، فنزل الدم. لم تستطع الأم السيطرة على نفسها، فأطلقت زغرودة، وحملت الصبي الذي كان خائفاً، ملطّخ الساقين بالدم، وعارياً، حملته بين ذراعيها وهي تقول:

Abu Abdo Al Bagl

ـ سوّاها حبيبي، سوّاها نور عيني.

وأغلقت عليهما الباب وخرجت.

٤

نما صليبا بسرعة أدهشت الجميع. فالصبي الذي كانت تصفه أمّه بأنه مثل حبّة الحمص أصبح طويلاً، عريضاً، مفتول العضلات، حتى أنّ أمه تساءلت بزهو قلق:

ـ ما له صار مثل المارد؟

وأجابت على تساؤلها أنّ ذلك بسبب الزواج. قالت بفرح:

ـ مصّ عافية البنت.

ففي سن الثلاثين ضمرت صبحا، وانحنى ظهرها، في حين أنّ الصبي هاج وأصبح في سن السابعة عشرة من أطول رجال القرية، ومن أقواهم جسداً، وكانت صبحا قد جاءت له بثلاثة صبيان كانوا فرحة قلب الجدّة. في سن العشرين كان حتماً أطول رجل في القرية، وأقوى رجل.

أما صبحا فقد توقفت عن الإنجاب في سنّ الثلاثين. عقمت وامتلأ رأسها بالشيب، وأصبحت عجوزاً خرفة.

أما صليبا فلقد كانت مراهقته عنيفة، كان يفسّر كل ما يقال له تفسيراً خاطئاً فيتحوّل إلى العنف. كان يعتقد أنّ الجميع يسخرون من طوله، ولا يصدّقون أنّه رجل حقاً، فأصبح يتعارك لأي سبب، وأصبح الجميع يتجنبونه لأنها كان يُستفزّ حتى من الذين ينظرون إليه. كان يشعر أنهم ينظرون إليه بسخرية. الإنسانة الوحيدة التي كان رقيقاً معها، لم يحاول أن يؤذيها بكلمة، ولم يرفع يده عليها قط هي صبحا.

ثم قيل فجأة إنه عَقل. لقد دمجت القبيلة عنفه في حياتها ومصالحها، وأصبح أول المقاتلين دفاعاً عن القَبيلة، وعندما كانت القبائل البدوية تغزو القرية، كان صليبا أمهر من يستعمل البندقية والعصا. وعندما تدور المعارك بالحجارة، كانت حجره لا تخطىء هدفها.

كان يغيب عن القرية كثيراً. ولم يكن أحد يعرف سبباً لغيابه، وإذا سئل لم يكن يجيب. كان يركب فرسه ويغادر القرية. تعوّد الناس ذلك، وتعوّدوا ألا يسألوه. قيل إنّه أصبح ابن ليل، يسرق البقر والأغنام ـ من القبائل الأخرى طبعاً ـ ويبيعها في عمّان للّحّامين. وقيل إنّه قطع الطريق فترة من الزمن مع عصابة غير معروفة. وعندما مرّ زيّات بالقرية يقود بغلة محملة بقرَب زيت الزيتون، وغادرها بعد أن باع الجزء الأكبر من زيته، وُجد في مساء اليوم نفسه مقتولاً، وقد جُرّد من فلوسه. اتجه الاتهام ـ همساً ـ إلى صليبا. وأخذ أهل القرية يدقّقون النظر في النقود التي تتداول بين أيديهم. فقد قال البعض إنّ نقود الزيّات يمكن الاستدلال عليها بسهولة من خلال الزيت الذي يترك فيها أثراً لا يمحى. كما حاولت القرية أن تستجمع ذاكرتها، ردّاً على سؤال: أين كان صليبا في الفترة التي غادر فيها الزيّات القرية.

قال البعض إنه غادر القرية في الصباح، ولم يعد إلاّ في اليوم التالي. وقال آخرون إنه غادرها في بداية الليل وعاد في منتصف الليل. وكثر الكلام، ولكن صليبا ظلّ صامتاً.

بعد مضي فترة من الزمن أصبح نادراً ما يغادر القرية. وكأن ذلك أمر غير طبيعي، فقد أخذ أهل القرية يخمّنون السبب. قيل إنّ الخوري اليوناني قد هداه إلى سواء السبيل. وقيل إنها مريم العذراء بعد أن قدّمت لها أم صليبا النذور، وأشعلت الشموع أمام صورتها أياماً طويلة. وقيل إنّ السبب هو إصابة أولاده الثلاثة بالحصبة في نفس الوقت، فنذر أنّه سوف يمتنع عن فعل الخطيئة إن عاشوا فعلاً.

ولكن القرية اكتشفت حقيقة المسألة ببطء. لقد أصبح صليبا يشرب الخمر، كما تحوّل إلى زير نساء.

وكان اكتشافهم متأخراً جداً.

٥

حدث هذا التحوّل، أو هذا الهوس بالنساء، منذ فترة بعيدة. ولكن أهل القرية تنبّهوا إليه بعد أن أصبح الهوس بالنساء هو كل حياته. بالطبع، أصبح رجل البيت.

يساعد أباه في الإشراف على الزراعة. كان يحرث الأرض مع الحرّاثين، ويبذر، ويحصد أحياناً، كما كان يراقب الرعاة، ويلاحقهم حتى لا يبيعوا بعض الخراف في السر، مدّعين أنّ الذئب قد أكلها.

ولكنه كان يفعل ذلك بنصف قلب، يؤديه كواجب. ولذلك كانت الأحوال تسوء. فأسعار الحاجيات كانت في ارتفاع مطّرد، بينما أسعار الحبوب، القمح خاصة، في نقصان مستمر. وقد أصبح هنالك أولاد لهم مصاريفهم. فلا بدّ من المدرسة، وشراء الملابس والكتب، ثم إرسالهم إلى عمّان ليواصلوا الدراسة.

وجاءت سنوات احتباس المطر (١٩٤٧ وما بعدها) فاضطر أن يبيع جزءاً من الغنم لأنّ المراعي شحّت، ولكن ثمن الغنم انخفض بصورة غير معقولة. أصبحت بنصف دينار تستطيع شراء خروف ابن حول.

لم يستطع صليبا فهم ما يحدث، ولا ما يجب عليه فعله. حين يبقى كل شيء على حاله فمعنى ذلك أن تزداد فقراً. على من يود أن يعيش أن يتوسّع في شراء الأرض، وأن يدعم ذلك بالتجارة. والتجارة لا تعني البيع والشراء فقط، بل تعني الربا. أصبح البدو الذين تحوّلوا إلى الزراعة بحاجة دائمة إلى النقود والبضائع في فترة الشتاء. تبيعهم ديناً في الشتاء وتستعيد في الربيع كل دينار وقد أضيف إليه رطل (الرطل يساوي ثلاثة كيلوغرامات) سمن وجَدْي.

والتجارة ـ حتى تعطي كسباً وافراً ـ كانت بحاجة إلى التهريب. قبل الحرب الأولى مع إسرائيل ـ عام ١٩٤٨ ـ كان يتم تهريب القمح والعدس والحمّص والشعير والذرة إلى فلسطين عبر الشريعة. والشريعة جزء من نهر الأردن يتسع فيه النهر، ويبطىء جريانه. وكانوا يعودون من فلسطين بزيت الزيتون، والتين المجفّف، والزبيب، وغير ذلك. أما بعد حرب (١٩٤٨) فقد أصبحت التجارة الأساسية مع إسرائيل. وكانت، في واقع الأمر تجارة من جانب واحد. حيث كانت تتسلل القوافل ليلاً، حاملة معها الخراف والبقر والدجاج، وبعض أنواع الحبوب كالحمّص والعدس، وتهبط إلى الأغوار، ومن هنالك تنحرف جنوباً، ثم جنوب ـ غرب إلى أن تدخل إسرائيل. وكان الإسرائيليون يدفعون ثلاثة أو أربعة أضعاف الثمن الذي تباع به هذه الدواب والحبوب في الأردن.

وأخذت النقود تجري بكثافة بين أيدي أهالي القرية. وكان لها مسار محدّد:

التوسع في التجارة، ثم محاولة فتح متاجر في عمّان، وبناء بيوت لسكنى الأبناء الذين يدرسون في عمّان، أو لتأجيرها.

حتى متع القرية تغيّرت. أصبحت المتعة الأساسية لعبة القمار، واللعبة الأشهر كانت (التشيكت).

الهوس الذي أصاب القرية أصاب صليبا قبل الجميع. ولكنه كان هوساً بالحركة والفعل. المجازفة والمواجهة العنيفة. كان يرافق ذلك ولع آخر، ولع بالنساء. حين دلّه ذلك الصبي على ما يجب فعله مع صبحا، اكتشف ببطء متعة مضاجعة المرأة. كان يهبط عليها أكثر من مرّة في الليلة. وكانت هي تستقبله مفرودة الساقين، وقد غطّت عينيها بكفّيها. تستقبله متخشّبة، دون استجابة، وكأنها قطعة من حجر.

لم يكن ذلك يضايقه، فقد كان يظن أنّ العلاقات الجسدية بين الرجال والنساء تكون هكذا. كان عندما ينتهي تنقلب صبحا على جنبها وتستغرق فوراً في النوم. ولكن بعد فترة يحسّ بالرغبة مرّة أخرى، فيقلبها على ظهرها، ويعلوها لتعاود النوم مرّة أخرى.

بعد مضي فترة من الوقت أخذ يزهد في صبحا. أصبحت خالته مرّة أخرى، ولم يعد يرغب بها، إلاّ في حالات قليلة. لم تلاحظ صبحا شيئاً، لأنها كانت تشعر أنّ ما يقوم به زوجها واجب ثقيل تؤديه بطاعة، ولكن دون أيّة رغبة. وعندما ابتعد عنها قليلاً ارتاحت.

بدأ صليبا يلاحظ زوجة الراعي عندما بلغ السادسة عشرة من عمره. لم يكن يجد فيها شيئاً مثيراً، ولكنها حين كانت تنظر إليه، كان يشعر بقلق لا يتخلّص منه إلاّ بمضاجعة صبحا. في أحد الأيام رآها تجلس أمام طشت الغسيل، تصبّن الملابس، وقد تعرّى فخذاها. وقف ينظر إلى الفخذين. وعندما انتبهت إليه ضمّت ركبتيها وقالت:

ـ يا وْليد عيونك بتخوزق.

لا يدري. أكان ذلك بسبب فخذيها القويتين اللامعتين، أم بسبب ذلك الصوت الذي نفذ إلى قلبه كنصل سكّين. ولكنه أحسّ أن ركبتيه أصبحتا كالماء، وأنّ ساقيه غير قادرتين على حمله.

عندما قدّمت له صبحا الطعام لم يشعر برغبة فيه. تناول بضع لقيمات ثم طلب

منها أن تبعده. ولأول مرة رأى زوجته بوضوح: امرأة دميمة، ضامرة، محنية الظهر، وقد امتلأ رأسها بالشيب. شعر بالغثيان يصعد إلى رأسه. ثم استعاد صوت البدوية «يا وليد، عيونك تخوزق» وأدرك فجأة ما تعنيه بعبارتها. ودّ أن يراها ثانية. خرج ورآها تنشر الغسيل على الحبل. لاحظ على الفور الفارق بينها وبين صبحا. رأى جسدها المستقيم وعجيزتها المدوّرة، والوجه ـ كيف لم يرَ هذا الوجه من قبل؟

وكأنها كانت تعلم أنه كان يراقبها. التفتت إليه فجأة، ثم أخفت رأسها في صدرها وهي تضحك. أيّة حركة! وغادر البيت وخرج.

حين جاء الليل لم يكن قد قرّر شيئاً. لكن النوم جافاه. وصبحا بجواره تنام كالقتيلة. لم يكن ينوي شيئاً. خرج إلى ا لحوش يشمّ شيئاً من الهواء. وكان يلبس ثوب نومه الأبيض الطويل. ثم رأى البدوية، التي كانت تنام على سطح الحجرة التي يخزّنون فيها المحاريث والنير والركّايّة، تهمس شيئاً وهي تطل عليه من حافة السطح، ثم تومئ بيدها.

كأنّ قوة خفيّة دفعته إلى صعود الدرجات القليلة. وقف أمام فراشها يلهث. قالت:

ـ أبو طويلة، تمدّ ديّي.

وضحكت ضحكتها الغريبة. تمدّد بجوارها وكأنّ المطلوب منه أن يتمدّد وحسب. تمدّد كلوح من الخشب. ضمّته المرأة إليها، وجسدها يهتز لصق جسده، ثم قبّلته. كانت القبلة شيئاً لم يتعوّده من قبل. لم تكن قبلة الأم، بل شيئاً حارقاً لامس شفتيه.

وعندما قالت له:

ـ عَلامَك؟

خطر له فجأة أنّه يتبادل الأدوار مع صبحا. المرأة مقبلة وهو كلوح الثلوج. أرغم نفسه على مبادلة المرأة عناقها، ثم اندمج في اللعبة الجديدة.

عندما غادرها قبل الفجر بقليل كان يشعر باسترخاء لم يعرفه من قبل. حين دخل الحجرة جذب لنفسه فرشة ونام عليها. لم يعد يطيق الاقتراب من صبحا. ومنذ تلك الليلة كان كل منهما ينام في فراش مستقل.

وأصبح كل ليلة يصعد إلى فراش زوجة الراعي، ويعود قبل طلوع الفجر. وكلّما غادرها عائداً إلى حجرته كان يقول لنفسه: «هكذا النساء، إذن لماذا ابتلتني أمي بهذه البقرة؟» وقد قال ذلك لأمه بصراحة فيما بعد عندما فاجأته في فراش البدوية، وأخذت تلوح بعصاها. قالت:

ـ جوزّتك مرة ولا كل النسوان.

لم تكن هي تصدّق ما تقوله.

قال:

ـ جوزتيني بقرة.

والبدوية خلال ذلك لا تقول شيئاً، ولم يكن يبدو عليها أنها مهتمة بما يحدث. قالت لها الأم بصوت الناصح، لا الغاضب:

ـ الرجل مثل الكلب. لوّحي له بعظمة يركض وراك.

فتمطقت البدوية، وكأنها تقول: هذا صحيح. وليلتها هزمت الأم. قالت له:

ـ إرجع لفراش مرتك.

قال:

ـ أنا هانا مستريح.

هل تقيم فضيحة؟ على كل حال، البنت بلهاء قد جفت، أصبحت جيفة ومن حق الولد أن تزهد نفسه فيها. وقفت وشخصت عينيها إلى السماء، وقالت مخاطبة السماء:

ـ يا ريتني أشوف فيك يوم يا صليبا.

وهبطت الدرجات القليلة، وعصاها تدق الأرض. عانقته البدوية، وقالت:

ـ رجّال ولا كل الرجال.

ولكنه كان قلقاً. قالت له:

ـ علامك؟

قال:

ـ خايف أمي تطردك.

كانت تفهم شخصية الأم أكثر من صليبا. قالت له إنّ أمه لن تفعل شيئاً من هذا. بل سنكون لبعضنا الآن أكثر من أي وقت مضى.

لقد أدركت المرأة أنّ الندم يأكل قلب الأم، وأنّ قلبها يقول لها إنّ للابن حقاً في أن يستمتع بالحياة.

أصبحت البدوية، باتفاق ضمني مع الأم، زوجة أخرى. أصبح ينالها في جميع الأوقات. كل هذا وصبحا لا ترى ما يجري تحت أنفها. كانت الأم أحياناً تخرج لشرب القهوة مع النساء، والأب يخرج لبعض أعماله، فيغلق صليبا عليه وعلى البدوية باب حجرة صبحا من الداخل، ويستمتعان على فراش صبحا.

يسمعانها أحياناً تنادي:

ـ يا كرما، يا كرما؛ وين راحت هذه؟

وكانا يضحكان.

مضى على ذلك ستة شهور. وفي إحدى الليالي نام في حجرته للصباح، ولم يشارك البدوية فراشها. غفلت عينه، وعندما استيقظ رأى أنّ الشمس قد طلعت، وأنّ صبحا قد غادرت الحجرة. كان يشعر بارتخاء لذيذ فعاود النوم. استيقظ ساعة الضحى. سمع أحداً يتحرّك في الخارج فنادى:

ـ يا كرما، يا صبحا.

فتحت صبحا عليه الباب، فطلب أن تعدّ له كوب شاي. لم يكن ذلك من عادته، ولكنه أحبّ الاسترخاء في الفراش. قال لنفسه: منذ سنة لم أنم هكذا، ولم أشعر بهذه الراحة.

خرج من باب الدار فرأى المرأة جالسة في الطرف البعيد من الحوش. ظنّها صبحا، بل رغب أن تكون صبحا. اقترب وهو يدرك أنها ليست صبحا، فهي لا تكف عن الحركة والعمل حتى يحين موعد نومها. التفتت نحوه قبل أن يصل إليها. كانت تبكي دون صوت.

قال:

ـ خير؟

قالت:

ـ ما فيه غير الخير .

قال لها :

ـ ولكنك تبكين . فلم ترد . اقترب أكثر وقال :

ـ ليش بتبكي؟

قالت :

ـ ما أبكي .

وازدادت غـزارة الدمع . وقف ينتظر ، وهي تنظر إليـه بتلك العـينين المبللتين بالدمع ، والوجه المبلل . لاحظ أنّ أنفها أصبح أحمر . ودّ لو ينصرف ، ولكنها كبّلته بدموعها وصمتها . استمر ذلك بعض الوقت ، وقد أصبح الموقف لا يطاق . سألها :

ـ وين أمي؟

ـ طلعت .

فكّر : ذلك يسهّل الأمور . وعندما قـرّر أن ينصـرف ، وكأنـها شـعـرت بذلك ، التفتت إليه ونظرت في عينيه مباشرة ، وقالت :

ـ ما خلّتك تيجيني؟

ـ مين اللي ما خلاّني؟

سأل مندهشاً . قالت :

ـ مَرَتَك . لويش ما جيت لي البارحة؟

قال :

ـ راحت عليّ نومة .

وعندما صمتت دون ردّ :

ـ كنت تعبان . صار لي ست شهور ما نمت زين .

وأحسّ وهو يدافع عن نفسه هكذا ، دون أن تستجيب له ، أنها أصبحت عـبئاً عليه . غادر الحوش وقد قرّر أن يبتعد عن النساء وإلى الأبد . لا يرحمْنَكَ أبداً .

في الخارج أحبّ الشمس والشارع والمارّة وكل شيء . أحسّ أنّه انقطع عن عالم جميل ومريح وها هو يعود إليه . رأى بعض رجال جالسين في ظل حائط العماشنة .

جلس معهم. ورأوه ودوداً على غير العادة، محبّاً للأسئلة والاستفسار. همس رجل لآخر: «الولد عقل».

لم يكن يرغَب في العودة إلى البيت عندما جاءت ساعة الغداء، فذهب إلى أنسبائه. تغدّى عندهم، وقال إنّ به رغبة في النوم. وتمدّد على البساط المطروح في صدر الدار. قالت له حماته:

ـ تغدّى وتمدّى يا ريته نوم الهنا.

وخرجت إلى الحوش وتركته لينام.

وعندما استيقظ من النوم أحسّ أنه نام لحظات قصيرة. ولكن حماته قالت له إن الشمس قاربت على المغيب. أحسّ بجوع مهلك على الفور. عاد إلى البيت وأكل بنهم. قرّر أن ينام مبكراً حتى يصحو عند منتصف الليل ويذهب إلى فراش البدوية. ولكنه عندما صحا كانت الشمس تغمر البيت. أحسّ بحاجة إلى الجلوس مع أمّه والتحدّث إليها. ولكن العلاقة بينهما منذ تلك الليلة غشاها برود وتحرّج. ثم رأى البدوية مقبلة عليه. كانت غاضبة. ليلتان لم تجيء، قالت بصوت واضح قوي، وبدا واضحاً أنها لم تعد تخاف أن يسمعها أحد.

أراد أن يقول لها إنه لم يستطع الاستيقاظ، ولكنّه قد قال ذلك البارحة، فلم تصدّقه، وهي لن تصدّق الآن. قال:

ـ الليلة.

قالت:

ـ ما أريدك لا الليلة ولا غيرها.

قال:

ـ إنت حرّة.

قالت:

ـ هذا اللي تريده؟

وأخذت تسدّ عليه كل الطرق، غاضبة حيناً، باكية حيناً، راجية حيناً. في تلك الفترة خطرت له فكرة السفر، التي لم ينفذها إلاّ بعد أن توفي والداه. كان للأم مهابة في نفسه، وخاصة عندما اقتربت من النهاية. لقد كانت لعنتها معلّقة فوق رأسه «يا

Abu Abdo Al Bagl

ريتني أشوف فيك يوم يا صليبا».

انتهى موسم الحصاد والدراس ولم يعد أمام صليبا إلاّ النوم والطعام. استمرّت فترة كمونه أربعة أسابيع. في أحد الأيام، عند الظهر، افتقد البدوية فلم يجدها. يسأل من عنها؟ أمّه؟ لقد أصبح الحديث بينهما عن تلك المرأة مستحيلاً. صبحا؟ وكيف لهذه الدابة أن تعرف!

بحث عنها في كل مكان، في الدار، في الحجرة الصغيرة، خرج إلى الشارع، لم يعثر لها على أثر. بدا وكأنّه أفاق من خدر طويل. لم يعد قادراً على الجلوس أو الاستقرار في مكان. عاود البحث عن المرأة في كل مكان يمكن أن توجد فيه، ولكنها اختفت، والأغرب من ذلك أنّ أمه لم تفتقدها. هل طردتها؟ ولكن فراشها وملابسها ما تزال على سطح حجرة الخزين.

ومن يسأل عنها.

عند الغروب جاءت. لم تكلّم أحداً. صعدت إلى فراشها وتمدّدت فيه. استعجل عشاءه، وبمجرّد أن دخلت صبحا إلى حجرتها صعد إلى فراش المرأة. كانت تتمدّد على ظهرها. استطاع أن يرى عينيها مفتوحتين تنظران إلى النجوم. بدا وكأنها لم تشعر باقترابه منها. همس:

ـ كرما.

لم تردّ. تمدّد إلى جوارها فقالت:

ـ أريد أن أنام.

لم يكن في صوتها غضب. كانت تقرّر واقعاً. قال وهو يضمّها بذراعه بقوّة يقاوم بها رغبتها في الابتعاد:

ـ وين كنت؟

قالت بضيق:

ـ كنت وين ما كنت. إبعد عنّي.

ـ لا، بدي أعرف، وين كنت؟

قالت:

ـ ما أعلمك. إيدك تضايقني.

ـ خليها تضايقك . وين كنتِ؟

قالت :

ـ وش إلك عندي تسألني .

قال :

ـ أحبّك .

وضمّها . قاومت بقوة في البداية ، ولكنها استسلمت وأقبلت عليه . كانت تلك ليلة خاصة ، ليلة لا تتكرّر كثيراً . أعطته وأعطاها دون تحفّظ ، ودون خوف . كانت تئن وتتضرع متعة ، وكان يغرق معها . وفاجأهما الفجر . قالت :

ـ خلّيك شوية .

قال لها :

ـ النهار طلع .

وهبط محاذراً أن يراه أحد .

وعادا في علاقة ملتهبة .

Abu Abdo Al Bagl

١

هذا الأحد كان يوماً مليئاً. قررت أن أجعله أكثر امتلاء، بأنْ أزور أميرة في بيتها، ولكن بطرس جاء مبكّراً، ولم تعد الزيارة ممكنة. اقترحت على بطرس أن نغيّر خط سير مشوارنا: نصعد من الحارة الشرقية إلى الحارة القبلية، ثم نهبط منها إلى الحارة الغربية، ونواصل مشوارنا العادي إلى حافة الهضبة المطلة على الغور. اخترت هذا الطريق لأنّه يمر أمام بيت أميرة. وهنالك احتمال كبير أن يرونا، ويدعونا للدخول.

كان بطرس قاتماً. قال: لا داعي لذلك. ما داعي ذلك؟ يبدو أنّه أدرك ما أهدف إليه من تغيير خط سيرنا. قلت:

ـ نشوف الناس. أنا ما عم بشوف حدا.

أصبحت أخشاه قليلاً. قال إن الناس سوف يفسّرون ذلك تفسيراً سيئاً. سيسألوننا: ماذا أتى بكم إلى الحارة القبلية؟ فكيف نقنعهم أننا في مشوارنا اليومي؟

خرجنا في مشوارنا المعتاد. كنّا مبكّرين، فلم نجد نساء جالسات خارج أبواب الحيشان، وأصحاب الدكاكين ما زالوا مرهقين بصهد بعد الظهر. لم نكلّم أحداً، وكان بطرس صامتاً. ظلّ صامتاً معظم الوقت. يبدو أننا تبادلنا الأدوار فأصبحت ثرثاراً. ثم خطر لي فجأة أنّ أتوقّف عن الكلام، ماذا فعلت له حتى أحاول استرضاءه.

صمتنا.

بدأ هو الحديث:

ـ شفت أميرة اليوم؟

قلت دون اكتراث:

ـ آه، في حوش الكنيسة.

ـ لا. يعني زرتها في البيت.

ـ لا.

حاولت إفهامه أنني لا أكترث لأميرة، ولا له. وكنت أرغب أن ينتهي مشوارنا بسرعة. الرجل يريد أن يحقّق معي.

في طريق عودتنا توقّفت وتكلّمت مع أصحاب الدكاكين، مع المارّة، تجمّعات الرجال أمام الدكاكين، تجمّعات النساء أمام أبواب الحيشان. حاول بطرس أن يستعجلني، قلت:

ـ إيش فيه ورانا؟

وأهملته.

غادرني غاضباً. لم أذرف الدموع على فراقه.

انتهى بي التتالي الذي لا بد منه: العشاء، الحديث مع أمي، تثاؤبها.. انتهى بي إلى السرير، فأفزعني منظر الفراش. هنا يكمن الأرق، أحلام اليقظة البلهاء، العادة السريّة، ثم الإحساس بالقذارة والندم. لو تمددت في هذا الفراش لقتلت فرح اليوم كلّه. ليس هذا فقط، بل إنّ صور سلطانة وأميرة وخضرا سوف تتحول إلى عذاب حقيقي. سأقول لنفسي: أمسكت بيد خضرا أمام الناس، وضغطت عليها، وأبقيتها في يدي؛ ولكنني عجزت حتى عن ذلك عندما كنا وحيدين، وحين منحت لي نفسها. سيعذّبني ذلك كثيراً في السرير.

سوف تتشوّه صور النساء، حين يصبحن موضوع إثارة، وسوف يشحبن عندما يستولي عليّ النوم.

هذا الفراش.

جلست على رأس الفراش وأخذت أنظر إلى النجوم والليل. لاحظت أنّ البيادر، عدداً وحجماً، قد تناقصت. قدّرت أنّه خلال أيام قليلة سوف تختفي تماماً. قد تزداد حيوية القرية عدة أيام والجميع يستعدون لتسيير القافلة إلى إسرائيل. البعض لا يسافر، بل يضع غنمه أو بقرته في عهدة أحد المسافرين. بعض العجائز الوحيدات سوف يقدّمن الدجاج والبيض، وسوف تصلهن نقودهن كاملة. هوى قلبي عندما

استعدت وجه سلطانة، بدت معشوقة تعطي دون حدود، ولكنني لا أرتوي أبداً.

فاجأني صوت أمي:

ـ ليش ما بتنام يا بنيّي؟

قلت:

ـ مش نعسان يمّه.

وفي لحظة خاطفة تقمّصت مشاعر أمي. منذ تسع سنوات جلس أخي على رأس الفراش. نامت وهو جالس. استيقظت وقلبها منقبض بإحساس مبهم بشيء مخيف. سألته:

ـ ليش ما بتنام يمّه؟

قال:

ـ مش نعسان.

قالت:

ـ تمدّد في الفراش وبتنعس.

قال:

ـ لما أدخل تحت اللحاف بحس إنّي مخنوق.

نامت واستيقظت. كان ما زال جالساً. سألته: لماذا لم ينم بعد؟ ردّ بكلام ثقيل، لم تفهمه. في الصباح كان أخي ميّتاً. مال على جانبه، وبدا كالنائم. عند الفجر اكتشفت ذلك.

روت أمي هذه الحكاية مرّات عديدة جداً.

وأخي الآخر، الذي غادر القرية ولم يعد إليها، منذ خمس سنوات، أمضى الليل يتمشّى، ثم يعود للجلوس على رأس الفراش، ثم يتمشّى، هكذا حتى طلع الصباح.

أشفقت على أمي. تمدّدت في الفراش. أصبح اللحاف جسداً يحتضنني. لجأت إلى وصفة قرأتها في إحدى المجلات لاستجلاب النوم. أن أتصوّر قطيعاً من الخراف يمر أمامي ببطء، وأعده. بدأت: أنا جالس على الصخرة التي تطل على الهربج الشرقي من الشرق، وها هو قطيع الغنم يمر أمامي، وأعده، واحد، إثنان، ثلاثة...

وأتذكّر ما يقال إنّ أول لقاء تم بين صليبا وسلطانة كان في الهربج الشرقي . . . أربعة . . . أستعيد وجهها وهي تقول :

ـ زورنا . . .

استعيد لفتة وجهها حين نظرت خلفها ، إليّ ، وهي تنحرف يميناً لتصعد إلى الحارة القبلية . يُمْرضني اشتياقي إليها . أفكّر في ذلك وأنا ما زلت أعدّ الخراف . . خمسين ، واحد وخمَسين . . يجب ألاّ أفكّر في سلطانة . لماذا لا أفكّر في أميرة؟ وأركّز . يعود وجه سلطانة .

توقفت عن عدّ الخراف . نسيت أنني بدأت بذلك . أميرة تؤدي إلى سلطانة ، فلأفكر في خضرا ، إذاً . كلما اقتربت من أميرة فاجأتني ، وأنا في قمّة حلم اليقظة ، بردود فعل غير متوقعة ، لا يمكن التنبؤ بها . « هيك» تضع كفها اليمنى فوق كفها اليسرى . . ثم «ابعد . . انخنقت» . أقترب منها وأضمها ، ثم حكاية الكلب ، والإعلان أمام القرويين أنه لا يأكل إلاّ اللحمة النيئة : «بلاش بياخة يا سمعان . الكلب ما بوكل خبز ناشف» . . وخضرا تجلس على طرف الفراش مبتسمة ، واثقة من عودتي إليها .

وكقبضة فولاذية تعتصر قلبي صورة وجه ، وجه سلطانة ، أشعر بالاختناق . أنهض . أهبط من سطح الدكان إلى الحوش . أتظاهر أمام أمي ، التي ترى وتسمع كل شيء خلال نومها ، والتي تنام بعينين مفتوحتين «تقول أمي : هذا يسمونه نوم غزلاني» أتظاهر أنني ذاهب إلى دورة المياه . أعود إلى فراشي . أستنجد بخضرا ، أناديها فتقترب ، أضمّها . . . هل تعرف كيف تعانق؟ أضمها ، تنفلت مني وتميل على أذني هامسة : «هاي هيه معشوقتك؟» لقد كانت أميرة . هي التي كنت أضمها إليّ . من أين تعلّمت كلمة «معشوقتك» هذه؟

ويستمر العذاب لما لا نهاية . وعند حدود الفراش كان التفريغ الميكانيكي والندم ينتظرانني .

ولكنني لم أستطع في تلك الليلة أن أمارس العادة السريّة . أحلام اليقظة تتداخل ، تتكسّر بتداخلها ، بتأنيب الذات : لقد أتيحت لي كل الفرص ، ولكنني أفقد القدرة على التصرّف في اللحظة الحاسمة . ودخلت في حالة بين اليقظة والنوم ، اختلطت فيها الرؤى : أقرأ ، بمعاناة ، صفحات من كتاب لا أفهم منه شيئاً ، أتحاور مع آخر في داخلي ، يضايقني ، أود بتره والخلاص من عشرته ، آخر حين أحلم بامرأة ،

يقول «إنه يحلم بامرأة» فيتبدّد الحلم، يفقدني الإحساس بالصدق. . . رقابة دائمة. . . أفلت منه. . . الفراش واللحاف أجساد تحيطني من كل الاتجاهات. ثم أخرج من الكابوس، وأنظر للسماء: كانت نقيّة، رماديّة، نجومها قليلة، تشعّ كأنها أقمار.

أعادني صياح الديك إلى وعيي. فتحت عيني فبدا لي الفجر، وللحظة تخيّلت أن الفجر قد انبثق من فم الديك. كنت مرهقاً من الليلة الطويلة التي مضت دون نوم، عذاباتها في داخلي جراح طريّة، تسيل دماً لأقل لمسة. كان الفجر مشهداً احتفالياً جليلاً يصعد من وراء التلال الشرقية، ينبئ، يرهص بحياة أخرى نقيّة، وخالية من الضجر. في تلك اللحظة احتواني النوم عميقاً، أسود، بلا أحلام. كان أشبه بالسقوط في هاوية لا قرار لها.

حين صحوت كان ظل الدار المجاورة قد انزاح عني، والشمس تسقط فوقي مباشرة. كانت شمس الظهيرة. دخلت الدار، وتمدّدت على الدكة الخشبية، كأنني جريح. كان ذهني خالياً إلاّ من إحساس بأن شيئاً ما حلواً حدث لي.

استعدت القدرة على الحركة بعد قليل، فأخذت أعدّ طعام الإفطار. بعد انتهائي من تناول الإفطار واصلت القراءة في رواية (مدام بوڤاري).

٢

كان غذاؤنا صينية شرائح باذنجان وشرائح بندورة خارجة لتوها من الطابون. لطعام الطابون طعم خاص، وكذلك خبزه، لا يتكرّر. السماق والبصل والفلفل أعطاه نكهة. امتدحت الطعام، فبدت أمي سعيدة. ما أقل ما تطلبه من هذه الدنيا. قلت:

ـ طعمه مثل تسافين الجاج.

ـ صحيح؛ بتتمسخر؟

قلت:

ـ أكلك دايماً طيّب. بس اليوم طيب زيادة.

صمتنا. قالت بعد قليل:

ـ فيه العافية.

حديثي عن طعامها أنساها أن تقول ذلك في البداية. قالت:

ـ أميرة مسافرة لعمّان.

ـ بسرعة؟

ـ بسرعة.

لماذا تحدّثني دائماً عن أميرة، وأنا أعلم أنها لا تهتم بها؟ ربما لتسليني. أو تخفف عليّ جفاف الحياة التي أعيشها. وانقطع الحديث بيننا، كما يحدث عادة. عليها هي أن تبدأه مرّة أخرى. قالت:

ـ فريح خطبها.

ـ فريح!

قلت باستنكار. أفلت ذلك مني دون قصد. كان عليّ أن أتظاهر بأنني لا أكترث لأخبار أميرة. أضفت بلا مبالاة:

ـ أهلها وافقوا؟

قالت:

ـ أنت عارف أبوها ما إله شور.

ـ الشور في إيد مين؟

انتهينا من الطعام وأكلنا العنب. ثم شربنا الشاي. فجأة قالت أمي: لماذا لا تسافر إلى عمّان؟

قلت:

ـ يعني؟

قالت:

ـ رفّه عن نفسك أسبوع، عشر تيام، وتعاود.

لقد أخفتها البارحة وأنا أجلس على رأس الفراش.

Abu Abdo Al Bagl

٣

هل يمكن أن أتحدّث عن آمنة بموضوعية؟ لقد أصبحت مختلطة بأسطورتها، بحيث يستحيل فصل العناصر الواقعية عن الأسطورية. حتى في رؤيتي لها لا أستطيع أن أتأملها إلاّ عبر هالة مجدها. ألا يمكن أن نعتبر الأسطورة شكلاً يبلور شعوراً جماعياً تجاه ظاهرة ما، في مرحلة معينة من مراحل التطوّر؟ إذا أجبنا بالإيجاب، تصبح أسطورة آمنة جزءاً منها. حتى مايقوله رجل خرِف مثل زعيِّل السالم (١) يحتفظ بقيمة ما.

آمنة في الذاكرة، في اللاوعي ـ ربما ـ تتجدّد دوماً. صاغت رؤيتي للمرأة، فأعدت إنتاجها في كل مرحلة من مراحل العمر. هي وسلطانة وقفتا بيني وبين جميع النساء. أردتهن جميعاً أن يكنّ الاثنتين معاً، ولـمّا كان ذلك مستحيلاً فقد أصبحت علاقاتي بالنساء مجموعة من خيبات الأمل.

آمنة حلم القرية الرومانسي المعلن، وسلطانة حلم القرية الشبق السرّي، الملعون،

---

(١) أعتقد أنّ زعيِّل كان مصاباً بالخرف منذ ولادته. رجل قصير جداً، يكاد يكون قزماً، ومضحك جداً. وصفه شاعر القرية أبو نزّال:

شدّيت شدادي ع ابو الحصنان ... ومن العطش وامترغ بيـا

يا طـول زعيّـــل ثلتشبـــار ... والا دجاجـــة قبرصيــة

(١) ملحوظة: أبو الحصنان الثعلب. ثلتشبار: ثلاثة أشبار.

ذهب زعيِّل مرّة إلى عمّان فرأى حذاء أحمر، له عنق يصل إلى الركبة، وقد وضعت فيه أبازيم وشناكل معدنية مطلية بلون ذهبي. فاشتراها بخمسين دوناً من الأرض. وأصبحت (دزمة) زعيِّل حديث القرية ونكتتها لشهور عدّة، وخاصة أنّه، قبل ذلك، نادراً ما كان يلبس حذاء. وقد حاول تقليد الشيوخ الذين يملكون الأراضي الواسعة، والأغنام التي لا حصر لها، فاشترى فرساً أصيلاً، وأقام الولائم بسفه، فأفلس خلال سنين قليلة، وأصبح شبه متسوّل. أذكر أننا كنا في دعوة أقيمت في خيمة سوداء، غربي القرية فرأيناه قادماً يتوكأ على عصاه وقد أصيب بالعمى. قال أحد الحاضرين:

ـ شم ريحة اللحم وجا.

وعندما جلس قدموا له رغيفاً من الخبز ورأساً من البصل. كان ذلك نوعاً من المزاح. عندما لمس الطعام، ارتد إلى الوراء بكبرياء، ونادى:

ـ يا أبو جدوع.

فردّ صاحب البيت:

ـ يا عونك يا أبو حميدة.

فقال زعيّل مرنّماً غضبه:

لا أنا مزكوم ولا أنـــا وجعـان	والبصـــل مـــا لــــه علينـــا لزوم
أنا يا أبو حميدة ما بيا قول ينقال	ي مخلّي اللحم فوق المناسف رجوم
أنا يا أبو حميدة ما بيا قول ينقال	يا متعباً عـذراي مــن قــول قومـي

قال أحد الحاضرين:

يا متعباً عذراي من قول قومي.

ثم توجّه إلى زعيّل بالسؤال والآخرين يخفون ضحكاتهم: «كنت تتعبها وتتمنى موتها». رفع عنقه ورأسه وقال بكبرياء:

ـ ما صار. وكت ايش؟

قال الرجل:

ـ يوم قرصها العنكبوت.

وضجّ المجلس بالضحك.

والحكاية هنا أنّ هنالك طقساً شائعاً في قريتنا يزعمون أنه يشفي من قرصة العنكبوت. يتمدّد المقروص في حفرة في الأرض، ويوضع فوقه بساط، ويوضع تراب فوق البساط. وهو نوع من الدفن. تقف امرأة قرب «المدفون» وتنادي ثلاث مرّات متتالية:

ـ يا قريص العنكبوت، تحيا والا تموت؟

وفي كل مرة يجيب «المدفون»: أحيا، إذا كان يرغب في الحياة، أو: أموت، إذا كان يرغب في الموت. ويسود الاعتقاد أنّ النتيجة تكون حسب إجابة «المدفون» الحياة أو الموت.

وقد أصيبت زوجة زعيّل بقرصة عنكبوت، وعندما ألقت عليها إحدى النساء سؤاله الطقسي، أجابت: «أحيا»، ولكن زعيّل، الذي كان حاضراً طقس الدفن، والذي كان في نقار دائم مع زوجته صرخ:

ـ لا، تموت.

فردت الزوجة «المدفون»:

ـ اللي يقول عني أموت، هو اللي يموت.

فاندفع زعيّل بعصاه يريد ضربها، فأمسكت به امرأة ضخمة، ذات بنيان جسدي قوي، ولما كان زعيّل صغير الحجم فقد حملته بين ذراعيها وكأنه طفل. واستمر النقار بين «المدفونة» سعدى، وزعيّل المحمول بين ذراعي المرأة.

زعيّل: خربتْ بيتي، ثمها بلع رزقي كله.

سعدى: إنت رجل ؟ تعاير حرمتك بالزاد اللي تاكله؟

وقبل أن تتم كلامها، وخلاله يقول:

- الله لا يعوّض بيِّك (والدك) يا سعدى. سبع فعّال بكريكاتهم ما يشيلو خريتك يا سعدى.

- سعدى: «تغنّي» هذا رجا تقول خجا

يسوّي للخريات حفر

زعيِّل يتفلّت من المرأة التي تحمله بين يديها، ويحاول، دون فائدة، أن يهجم على زوجته المدفونة وهو يصرخ:

- أنا ؟ أنا ؟

المرأة: لاقوا خير، لاقوا خير!

زعيِّل: «يتفلّت» علي الطلاق من ذراعي غير أذبحها.

المرأة: أنا صبرت عليك كثير.

زعيِّل: «يتفلّت بعنف» اطلقيني أذبح ملعونة الوالدين.

سعدى: إنت الملعون الوالدين والشاهدين.

المرأة: ما تسكت؟

وحملته خارج الحوش، وألقته في الخارج من البوابة، وصاحت خلفه:

- ابعد!

وعندما حاول العودة، أمسكت بخصلة من شعرها وصاحت:

- علي الطلاق من عقصتي المليانة قمل، لو قربت يا عرّة الرجال غير أكسر ضلوعك. تسمعني؟

لذلك فإنّ ما يرويه عن آمنة ليس محل ثقة. ليس لأنه معروف بالكذب، فهو لا يملك الذكاء الكافي لأن يكذب عن عمد، ولكنّه يعيش في عالم من الأوهام، التي يعتقد أنها صحيحة. فأيام (ثلجة الجمال) عندما هبط الثلج ليلاً، دون توقّع، على أرض جافة، فارتفع حتى غمر الجمال الواقفة في الحيشان، فتجمّدت، وسدّ منافذ بعض البيوت الصغيرة فمات ساكنوها اختناقاً، قال إنّ الله كان ينوي أن يبيد البشر كلهم، وكل حي على الأرض، لولا قصيدته التي يقول فيها:

خذ البريق وامشي الطريق بكل فريق سوّي إمام

هذه ميه ما هي ثلجة يا الله إن تلطف للاسلام

حكى لي زعيِّل عن طفولة آمنة، وأنا أحاول أن أنقل حديثه مع بعض التعديل:

البتية كانت تضوي مثل الشمس. وجه مثل قرص الجبنة، وخدود حمرا برّاقة. الناس (قال الناس دون تحديد) قالت: البنت تتغندر. تتغندر، ما تتغندر، تتغندر، ما تتغندر، ويوم قاعدين في المجلس. قال أبوها: «تقولوا بنتي تتغندر؟» الناس سكتت. قال: «اسمعوا يا رجال. لو كانت تتغندر أذبحها قدامكم». جاب البنت، وقال: «يا زعيِّل! إنت تشوف» ورماها بين يديّ، واستل خنجره. قلت

الفاجع، الممنوح والمستحيل معاً . . . على كل حال فلنؤجل الحديث عنها، فهي الروح السريّة، الدم الحقيقي لكل ما يجري هنا من أحداث.

لنعد إلى آمنة. لم تكن بيضاء كقرص الجبنة، ولا حمراء الخدّين، تلك الحمرة التي يصفها زعيّل بأنها برّاقة. زعيّل كاذب حتى في تحديد لونها. كانت، كما كانت تصفها أمي، وكما أتذكّرها أخضرانية. وهذا اللون يعني سمرة خفيفة مع بياض يبدو وكأنه يجاهد من عمق الجسد أن يصعد ويفرض نفسه، فلا ينجح تماماً. كانت تضيء، دون أن تكون برّاقة.

كيف أصفها؟ عليك أن تراها. ولكن ذلك لن يضيف شيئاً. لم تكن لتفاجئك، مثل سلطانة التي، منذ الوهلة الأولى، تلسعك في الصميم، بل كانت آمنة تنفتح أمامك ببطء. الوهلة الأولى: قامة طويلة، عنق طويل دون إفراط، ووجه يوحي بالإرهاق. وجه يبدو وكأن صاحبته انتهت من البكاء لتوها. عينان مسبلتا الجفنين، وأنف حسّاس، وشفتان منفصلتان عن سياق ذلك الإرهاق. تحسّ بها امرأة جميلة، ولكن الإرهاق، أو سوء التغذية، أو عدم العناية جعل جمالها يذوي. تشعر أنّ عليها أن تعتني بنفسها أكثر من ذلك، وفي داخلك تبدأ في اقتراح بعض التعديلات. تنفتح العينان ـ تبغتك سعتهما غير المتوقعة ـ تنظران إليك بحزن وحياء. على نحو ما تشعر أنّ العينين تنظران إلى الداخل، داخلها، رغم أنها تصغي بأدب وتركيز. أنت لا تعلم ـ ولكن ذلك حدث بالفعل ـ أنك وقعت في مصيدة. تعاد صياغتها انطلاقاً من العينين،

الحالي: «نشوف لو كانت تتغندر، وراد أبوها يذبحها ما نخليه» كنت وكتها لابس حطة بيضا، بلابل، نزعتها عن رأسي وفركت خدود البنية. فركت، فركت، فركت، لقيتها بيضا. قال أبوها بعد ما شاف الحطة بيضا: «وش تقولوا هالساعة؟» وش نقول؟ قلنا: «صادق» قال: «بنتي تتغندر؟» قلنا: «صادق. ما تتغندر». بعد هذا بسنين قالت لي آمنة: «هربت خدودي وأنت تفرك» قلت: «وش أسوّي؟» قالت: «لو لقيتني أتغندر تخليه يذبحني؟» قلت: «أموت ولا أخليه».

كان بين أمي وآمنة علاقة صداقة وثيقة، ففي البداية، بعد زواجها، عشنا لفترة تزيد على خمس عشرة سنة في بيت واحد. وعندما رويت حكاية زعيّل قالت: «الرجل مخرّف» وحكتها أمي لآمنة، عندما كانت في زيارتنا ضحكت، واستوضحت مني تفاصيل الحكاية، فقالت: «الرجل كبر» وكانت تعني أنّه تقدّم في السن، وأصابه الخرف، ولكنها عبّرت عن ذلك بأسلوبها الرقيق، وبحس التسامح اللذين يميّزانها.

منهما أيضاً تشعر بطاقة هائلة مختزنة ، وتحت السيطرة . هنا يبدو الأنف كمعجزة، واليدان المستطيلتان ، بأصابع طويلة، محمرّة قليلاً، تحبّ أن تمسكها . ليست أصابع رقيقة، ولكن النحت الدقيق لليد والأصابع يظلان في الذاكرة، تعْتقد فيما بعد، أنه رفائيل رسمها في لوحة العذراء، أمسك بالطابع الأرستقراطي لليد، ولكنه عجز عن الإمساك بتلك الطاقة العارمة، الموضوعة تحت السيطرة، وخاصة في اليدين . عليك أن ترى هاتين اليدين وهي تتكلّم، أو تأكل، أو تعتني ببيتها .

كنت أدعوها أمي لأنها أرضعتني فترة، لا أعرف طولها، عندما مرضت أمي بالحمى . ولكن هذا سيأتي أوان الحديث عنه . أتحدّث الآن عن اليدين . أتذكّر . كنت نائماً في بيتها . شعرت بيد تلمس وجهي . تمر عليه برفق . بدا ذلك جزءاً من حلم له علاقة بالبحر، ببستان غريب كله ورود ينساب على شكل مسطحات مستطيلة، تتوالى هبوطاً نحو البحر . لم يكن البحر اليومي ولا الورود التي يمكن أن نراها كل يوم . . . كان ذلك كله خاصاً جداً، وحميماً جداً . . . الأغرب من ذلك أنّه يبدو، في الوقت ذاته، كذكرى قديمة جداً، كواقع بالفعل حدث في الماضي، وأعود إليه . من حلم كهذا تنشأ صورة الجنة . وأنا، الآن، أفسّره بأنه استعادة لذكرى مخزونة في جزء ما من الجهاز العصبي، مختزنة منذ عشرات الملايين من السنين، عندما كنا نعيش كأسماك من نوع ما في البحر، لأنّ الماء بدا أليفاً بشكل مذهل، أليفاً كأنه مسكن دائم . وأعلم، الآن، أنّ الحلم بدأ منذ أن لمست أصابعها وجهي . فرح خفي وعميق انتقل إليّ من خلال اليد، على شكل صور .

أي كنز من الحنان والمودة تمتلكه آمنة، وتنقله من خلال الأصابع!

وعندما فتحت عيني أدركت لماذا يصفها زعيّل بأنها بيضاء وذات خدّين أحمرين برّاقين . كانت تضيء . وجهها كان قريباً مضيئاً . وأدركت ـ أدرك الآن ـ معنى ذلك البستان الغريب . كان عطرها يشيع في الجو، يحيطني ، ويُسكرني .

هل كانت تتعطّر؟

لست أدري . ولكن شاعراً معروفاً ، ينتمي إلى إحدى القبائل الشرسة التي تقيم مضاربها في الشرق البعيد، رآها مقبلة فواجهها للحظات، واختفت . كان له حسّ مميّز بعناصر الجمال في المرأة . وقال شعراً :

عيون عثلوق نطحني مـع السوق   يجر ثياب الغي مدموج الألعاس

يفوح من صدره كما ريح صندوق ريحة عنبر من ديرة بني ياس (١)

وددت أن يستمر ذلك بلا نهاية: الوجه المضيء، ملمس اليد والعطر.

قالت:

- قوم وليدي. إصحى!

قلت:

- قايم.

وأنا أجاهد للاحتفاظ بفرح الرؤيا. بجوار باب الدار تنظر إليّ سمحة، بشعرها الهائج المجعد، وأنفها المكرمش بتكشيرة، وعينيها الحادتين. سمحة، ابنتها، التي لم تكن تشبه أمها. كانت كتلة من الشراسة والعضب. بجوار الفراش كانت دجاجة مشوية، وموضوعة في صينية. ومن لم يأكل الدجاج البلدي، محوّجاً بالسماق، والسمن البلدي المخلوط بالدقيق، والبهارات، من لم يأكله مشوياً في الطابون، معداً بيد آمنة، فلن يفهم أبداً الطعم الحقيقي للطعام.

قالت:

- قوم حبيبي إغسل إيديك قبل ما يبرد الأكل.

نهضت وقلت:

- سمحة. صبي عليّ.

ردّت بصوتها الخشن، المشاكس، المبحوح قليلاً:

- صبّ ع حالك.

التفتُّ إلى (أمي) آمنة لأشهدها على قلّة أدب هذه البنت، وكأنها تحتاج إلى أدلّة جديدة. لولا وجود الأم لتعاركنا، وأعلم أنها مهزومة حتماً، فنقطة ضعفها هي شعرها.

ابتسمت آمنة - وقد أغاظني ذلك قليلاً، وأثار غيرتي. كنت أود أن تكرهها كما

---

(١) معنى البيتين: عينا ناقة صغيرة التقيت بهما في السوق، تحمل الغواية والاعتداد الأنثوي كأنهما ثوب، وذراعها مستديتان مدملجتان. يفوح من صدرها عطر وكأن صندوق عطارة قد انفتح أمامك، والعنبر فيه من ديرة بني ياس.

أكرهها ـ قالت :

ـ صبّي على أخوك حبيّبه .

قالت البنت :

ـ لويش ما يصب على حاله؟

قلت بهدوء، وأنا أعلم أنني في كل لحظة أسجّل انتصاراً جديداً عليها، إنني لو صبّيت الماء على يدي، فسوف يتلوّث الكوز بالصابون، فكيف سأضعه في الزّير مرّة أخرى؟

قالت آمنة :

ـ علامك عنيدة؟ صبي على أخوك حنونتي .

وكانت تخفي ضحكها لهذه المشاجرة المتكرّرة . ولكن البنت لانت . قالت بصوت شاك مهزوم :

ـ من يوم راح لعمّان وقام يرطن بالإنجليزي صار يتأمّر .

أعلم أن هذا سبب غيظها . كنت أقضي الإجازة الربيعية في القرية . ومنذ يومين جلست مع آمنة، وحكيت لها كل شيء عن المدرسة الداخلية الإنجليزية، وذكرت لها كل كلمة إنجليزية أعرفها . وكانت سمحة جالسة تصغي، وقد التوى فمها، وارتفع أنفها بطريقة مضحكة . وكنت أعلم أنّ الحسد ينهش قلبها . وقد زاد العلاقات سوءاً بيننا حين أبلغتها بوضوح أنني لن ألعب معها بعد الآن . لن نخرج إلى البراري بعصيِّنا المسنونة الرؤوس لنستخرج العكّوب من الأرض، أو نلقّط العدّيس، والمرّار، وخرفيش الغزال، وخرفيش الجمال، وغير ذلك من الأعشاب البريّة، ولن ألعب معها الطميّة .

قلت لها :

ـ أنا متعلّم .

كانت ودودة في البداية . قالت :

ـ وأنا أروح المدرسة .

قلت :

ـ أنا أكبر منك .

كنت أكبر منها بستة شهور. بعد عبارتي الأخيرة كانت الحرب.

كانت تصب الماء على يدي بشكل استفزازي. أحياناً تصبّه بعيداً عن يدي، وأحياناً تصبّه على الساعدين. فأطلت مدّة الاغتسال حتى تفقد أعصابها. كنت أريد أن أسجّل نقاطاً جديدة ضدّها. ولكنّها كانت تعلم ذلك، فمضت تصبّ الماء بالطريقة التي ذكرت.

قبل أن أتناول الطعام قلت:

ـ سمحة تعالي كلي.

ـ ما أريد.

قالت أمي آمنة:

ـ أكلنا. كل أنت.

ثم قالت لسمحة:

ـ هيك الواحدة ترد. (وقلّدت طريقتها) ما أريد؟

وهذا ما كنت أسعى إليه بالضبط. أخذت قطعة من الدجاج، وقرّبتها من فم آمنة وقلت:

ـ كلي يمه آمنة.

وألححت. فأكلت.

بعد الإفطار أخرجت آمنة من صندوقها الكبير تمراً، وأعطتني وأعطت سمحة. قالت إنه من تمر الحجاز. كانت حبّاته طويلة، بطول الأصبع تقريباً، وكان صلباً، ولذيذ الطعم جداً. ومرّ الوقت سريعاً، ثم جاءت أمي. لقد أصبحنا نعيش في بيتين منفصلين. نحن في الحارة الشرقية، وآمنة في إحدى حجرات البيت القديم، في الحارة القبلية. قالت أمي:

ـ شبعت من أمك آمنة. يا الله نروّح.

ولكن آمنة أصرّت أن نبقى للغداء. فبقينا. قبّلت أمي سمحة فجلست بجوارها، فأحاطت أمّي كتفيها بذارعيها. قالت:

ـ وشلونك يا الحبيبة؟

قالت سمحة:

ـ زينة.

كانت أمي تسمّيها أمّونة، على اسم جدّتها ـ أم آمنة ـ لأنها لها شراسة الجدّة.

قالت سمحة لأمي:

ـ جريس ما يريد يلعب معاي.

قالت أمي:

ـ ما تلعب مع أختك.

قلت بعصبية:

ـ بعدين بوسّخ هدومي.

كنت معتزاً ببذلتي الجديدة.

قالت أمي:

ـ غيّر هدومك.

وبنفس العصبية أجبت:

ـ ما بدي أغيّر هدومي.

أخذت أمي تداعب شعر سمحة. قالت سمحة:

ـ من يوم راح عمّان صار متكبّر.

قبّلتها أمي وقالت لآمنة:

ـ لويش ربنا خلقنا نصارى ومسلمين؟ يا ما كان نفسي جريس يتجوّز أمّونة.

لا أدري أي تعبير ارتسم على وجهي، أهو الاشمئزاز أم الغضب، أم مجرّد استنكار؛ ولكن آمنة نظرت إليّ وأطلقت ضحكة صافية، تلقائية، كأنها صدح بلبل؛ ثم توجهت إلى أمي وقالت:

ـ كلنا أولاد آدم وحوا. لما يكبروا ينسوا مسيحي ومسلم.

أذكر أنني التقيت سمحة بعد ذلك بسنوات عديدة في عمّان. كانت قد أصبحت سيدة جميلة، ورقيقة، وقد تزوّجت رجلاً كان ضابطاً في الجيش، ثم سرِّح منه

لأسباب سياسية، وأصبح من طبقة المليونيرات الجديدة. كنت أغسل يدي، فوقفت بجواري وسألتني عن السبب الذي جعلني أعبّر عن كل ذلك الاشمئزاز عندما تمنّت أمي أن أتزوّجها. قلت:

ـ أتجوّز أختي؟ ما إنت أختي في الرضاعة.

ضحكت، وقالت:

ـ يا كذّاب، وسبعة المسبوعة؟

وهو اسم كنت أطلقه عليها. ودلالته، أنه في قريتنا، عندما يكيلون القمح بالصاع لا يذكرون الأرقام، بل تبركاً، يغيّرونها، فبدلاً من واحد يقولون: «الله واحد» وبدلاً من اثنين يقولون «النبي زين»، وبدلاً من سبعة، يقولون «سمحة»، لأنّ سبعة هي شتيمة تعني أنك تتمنّى للإنسان أن يكون مسبوعاً، والمسبوع هو من أرعبه الأسد حتى فقد صوابه.

وعندما عدنا إلى حجرة الجلوس، وكان زوجها يدخّن سيجار هافانا، قالت إنّ شيئاً واحداً تذكره حتى الآن بغيظ، أنّ أمي تأمّلت وجهها وقالت لآمنة:

ـ البنت صارت تشبهك.

فصرختُ فجأة؛ ولدهشة الحاضرين، بصوت حانق غاضب:

ـ لا.

قلت:

ـ أمك لن تتكرّر.

تنهدت وقالت:

ـ صحيح.

سألتها عن أحوال أمها، فقالت: «زينة». سألتها إن كانت تشكو من أيّة أمراض، الروماتيزم مثلاً. قالت إنها لا تشكو من شيء. قلت:

ـ عمرها صار...

قالت:

ـ ستين. ما يبيّن عليها. ما تقول أكثر من خمسة وأربعين.

كانت الساعة قد بلغت العاشرة مساء، وكان هذا يعتبر وقتاً متأخّراً بالنسبة لعمّان. نهضت، فقالت:

ـ أقعد شوية. ماني نعسانة.

قلت :

ـ أبو معن عيونه حمرا.

تثاءب أبو معن ليؤكد أنّ موعد نومه اقترب. تثاءب ووضع كفه على فمه وقال: «يا رب» قالت له:

ـ خش نام.

قال لي :

ـ خليك أنت. تصبحوا على خير.

ودخل لينام، ثم عاد وقال لي.

ـ إذا تأخرت نام هون. أختك راح تحضّر لك أوضة.

وكانت سهرة طويلة، ولكنها كانت واحة في حياة عمّان الراكدة.

٤

لا أستطيع فرز الحقائق من الأساطير. لقد تمّت الأحداث كلها قبل ولادتي. لقد ولدت ولي أمّان، واحدة أدعوها «يمه» فقط، والأخرى أناديها «يمه آمنة». كنت أعتقد أنّ من الطبيعي أن يكون للإنسان أُمّان (عندما حكيت ذلك، بعد زمن طويل، لأحد الأصدقاء، قال: قد يكون للإنسان أكثر من أب، أما الأم فواحدة). والأم لا تكون امرأة حقيقية بالنسبة للابن. كانت آمنة أماً، بالنسبة لي، تقف دائماً بجانبي، خاصة في شجاري المتكرر مع سمحة. (في تلك الليلة قالت لي سمحة إن ذلك غير صحيح. لم تشعر قط أنّ أمها كانت متحيّزة لأي منّا).

عندما كبرت أخذت أسطورة آمنة تتسرّب إليّ عبر مئات التفاصيل، فأخذت تنفصل عن دور الأم شيئاً فشيئاً، وتلبس دور المرأة. عندها أخذت أراها بعين

جديدة: امرأة معشوقة، ذلك العشق الذي هو نوع من التعبّد، تتميّز به مرحلة المراهقة: واحدة موضوع للرغبة الجسدية الخالصة، وأخرى للعشق الخالص، الذي يرتفع بالمرأة إلى مرحلة التقديس، حيث أنّ مجرّد فكرة الجنس تكون تجديفاً بحق المعبود ـ الشكل النموذجي لانقسام الذات الشرقية.

أتذكّر: أتذكّر ذلك الجلال. والدها ـ والد آمنة ـ ممدّد في صدر الدار، لصق الحائط، وجهه شمعي، أسمر تخالطه صفرة قاتمة، وجهه ثابت كالقناع. العينان مغمضتان، تجويفان كبيران تحيطهما هالة سوداء واللحية البيضاء الكبيرة المستديرة مبللة باللعاب. من الفم يصدر صوت كأن المحتضر يتغرغر؛ يتغرغر دون توقف طيلة أربعة أيام. أمونة، تجلس عابسة، عصبية، مشمئزة. كانت عاضبة بسبب وضع لا سيطرة لها عليه. لا تحب هذه الزحمة، والحركة القلقة، والبقاء الطويل في بيتها لفترة لا تستطيع تحديدها. عيناها صغيرتان، حادتان، تنظران باستنكار. كانت تبحث عن منفذ لغضبها.

كان أخو المحتضر الأصغر هو رجل البيت الآن. قال أحد الحاضرين:

ـ غيّروا فراشه.

يعني المحتضر. ووراء ذلك الاعتقاد ـ لا أعلم إن كان صحيحاً أم لا ـ أن تغيير الفراش سوف يزيل جزءاً من حرارة جسد المحتضر، وبهذا سوف يموت بسرعة أكبر.

قالت أمونة، وكأنها لا تخاطب أحداً بل تكلّم نفسها، أو تخاطب المحتضر لأنها كانت تنظر إليه:

ـ أدفنوه بالمرّة.

وكأن ذلك لم يكفها، أضافت مخاطبة المحتضر:

ـ لو كان الود ودهم رموك على المزبلة.

تنحنح الرجل الذي اقترح تغيير الفراش، وأخذ ينظر حوله كأنه يستنجد. عندما التقت عيناه بعينيّ الأخ الأصغر، قال ـ للأخ ـ وكأنه يطلب إبداء الرأي:

ـ لا حول ولا قوة إلاّ بالله.

رفع الأخ صوته:

ـ بلاش الكلام اللي يقرص.

كان واضحاً أنّه يوبّخ أمونة .

قالت ببراءة مصطنعة :

ـ وأنا إش قلت .

غضب الأخ الأصغر وقال :

ـ المرة اللي ما تحترم نفسها إلها دوا عندي .

وأمسك عصاه وحاول أن ينهض . ارتفعت الأصوات :

ـ القى خير ، القى خير .

قال الأخ الأصغر :

ـ ما ظل فيه حيا .

ومرّة أخرى ارتفعت الأصوات مهدِّئة :

ـ صلواع النبي .

وارتفعت عدّة أصوات :

ـ عليه الصلاة والسلام .

قال الابن الأكبر للمحتضر :

ـ هذا مو وكته يا عم .

قال الأخ الأصغر :

ـ قول لأمك . الناس كلّت وفاض بيها . ثلاث تيّام معطّلة حالها ، وتاركة شغلها وقاعدة . وأخرتها تسمع هيك كلام .

قال الابن :

ـ صحيح .

قالت أمونة ، وكأنه عزّ عليها أن ينتهي كل شيء :

ـ اللي ما إله كلمة صار إله كلمة .

ونهض الأخ الأصغر نصف نهضة ، ممسكاً بعصاه ، وكان الشر في وجهه . نشأ وضع سوف تكون عواقبه وخيمة . فالابن لن يصمت ، رغم كل شيء ، حين يرى أمّه

تُضرب. قالت آمنة:

ـ يه!

والتفتت إلى عمها وقالت:

ـ هداك الله يا عمي.

كانت تدخّن. كانت تفعل ذلك أحياناً، ولكنها هاوية. كانت تجذب الدخان من غليونها، بقصبته الطويلة، ثم تنفخه في الهواء مباشرة. قالت: «هداك الله يا عمي» وعادت إلى غليونها.

هدأ الجميع. لاحظت، حتى وأنا في تلك السن الصغيرة، أنّ الشجار الذي دار كان، في وجه من وجوهه، مجموعة أسئلة موجهة إليها. وكأن خلف كل عبارة قيلت سؤال مطروح ضمناً: أيعجبك هذا! يطالبها أن تستنكر. أيعجبك هذا؟ وكأنه يقول: هل استمر؟ وسؤال، أو رجاء: والآن؟ وكأنها قالت، أمرت:

توقفوا.

فأطاع الجميع.

وعادت تُدخن.

قلت: أتذكّر ذلك الجلال. بدت في داخل هالة منه. مجال عازل كان يحيطها فتبدو خارج سياق الجو المحيط. العيون عليها ـ مباشرة، أو جانبية، أو مراوغة، أو متلصصة ـ ولكن لا أحد يقترب. حتى أنا وسمحة لم نطالبها بشيء. كنا فقط نقترب بحذر، ونذكر طلباتنا همساً. كانت دائماً تستجيب لنا. وكنّا بعد ذلك نبتعد.

كانت أمي مشغولة في الداخل، ومتوترة، ولم أجرؤ أنا ولا سمحة أن نقترب منها. لم تكن تجلس كثيراً في حجرة المحتضر. فهو على أيّة حال لم يكن والدها. كانت تجلس قرب آمنة. تتبادلان كلمات سريعة، وتصمتان. شعرت، دون دليل واضح، أنّ الاثنتين لا تحبّان أمونة كثيراً. كان مجرّد شعور، ليس له ما يبرّره.

قلت: أتذكّر ذلك الجلال. وكنت أعني أيضاً الحزن. كانت حزينة، ولكنه حزن لها، وليس للآخرين. كانت تبدو مشغولة بغليونها، الذي لم تكن قادرة على الاحتفاظ به مشتعلاً. ولكنني كنت أشعر أن ذلك كلّه مجرّد حركة خارجية لإخفاء حزنها. كانت صامتة، هادئة، وبعيدة. ولكنها كانت تشارك في الحديث عندما يبتعد

جو المأتم. تكون مسبلة جفنيها، عابسة قليلاً، ثم أذكر، أنّ واحداً قال إنّ مدنياً (يعني من أهالي عمّان) قال إنّ الإكثار من السمن البلدي يقصّر العمر، وردّد:

ـ يقول يقصّر العمر.

قالت:

ـ التكثير من كل شيء يقصّر العمر.

نظرة خاطفة إلى المتحدّث، ثم تسبل جفنيها، وتعود إلى غليونها. أذكر الجفنين المحمرين قليلاً، والوجه يحمل تلك الحمرة الخفيفة الشفافة، تشبه آثار بكاء سابق، على وجه مغسول وحسّاس. كانت ما تزال (أمي آمنة)، ولم تتسلل إليّ أسطورتها بعد؛ ولكنني، في تلك اللحظات، فتنت بالوجه. عشقته. أعدت اكتشافه. أسأل نفسي الآن:

لم تكن تنظر إليّ، ولكن بمجرّد أن امتلأ قلبي بالعشق ـ ماذا أسميه إذاً، إن لم يكن عشقاً؟ ـ وعندما تولّد في داخلي إحساس جديد وغريب، ما الذي دعاها لأن تنظر إليّ نظرتها الخاطفة، تلك النظرة التي تلقيها عليك امرأة منشغلة حتى الاستغراق بحديث مع أخرى. . أقول، ما الذي دعاها لأن تناديني لأجلس بجوارها، فتداعب شعري، وتنظر في وجهي تلك النظرة التي تبحث في وجه الطفل عن شيء مثير للقلق، ثم تقبّلني، وتقول:

ـ ما لك شغل هنا، اطلع برّه حبيّبَ والعب مع سمحه.

وتقبلني على خدّي مرة أخرى، وتقول محدثة نفسها:

ـ العيال تعبت.

وددت أن أقول إنني أفضل البقاء بجوارها على اللعب مع سمحة. ولكن هل كنت أستطيع أن أرفض لها أمراً؟

في الخارج كانت سمحة تقف وحيدة في الحوش، تنظر إلى الكلب الذي كان يرفع فمه نحوها. عندما رأتني قالت:

ـ أمّي ما تريدنا نظل جوّه.

وقرّبت سبابتها من فم الكلب، الذي كان ينظر إليها بعينين كلبيتين مؤدّبتين، وكأنّه يتساءل بتحرّج: ما هو مطلوب أن يفعل؟ وما الهدف من اقتراب سبابتها من

أنفه . قلت :

ـ ليش؟

قالت :

ـ قالت بعدين نمرض . .

ـ نمرض؟ وليش هيه قاعدة جوّه؟ ما بتخاف تمرض .

قالت :

ـ هيه كبيرة .

لم أحب النبرة التعليمية التي قالت بها ذلك . قلت بعناد :

ـ الكبير يمرض كمان .

ـ لا .

قلت :

ـ جدّك كبير ومريض .

قالت :

ـ ما هو مريض . ينازع .

هذه هي سمحة المفروض أن أستمتع بصحبتها .

في تلك السهرة الطويلة مع سمحة ، وعندما حكيت لها هذا كله بأدق تفاصيله ، قالت :

ـ هسّا فهمتك .

ـ إيش فهمت فيّي؟

قالت ، وهي تضحك :

ـ أنت مصاب بعقدة أوديب .

قلت بجدّية :

ـ من غير مزح . أعتقد أنّ هذا صحيح .

بعد صمت قصير أضفت :

Abu Abdo Al Bagl

ـ بمعنى من المعاني.

ورداً على الدهشة التي بدت على وجهها قلت:

ـ هناك رباط دموي بيربطني بهذا الماضي. المجتمع الجديد ما بحبه. بحسّ بالغربة فيه. بيع وشرا مصاري.

تنهدت، ثم قالت ضاحكة:

ـ لازم لك فنجان قهوة يصحيك.

ـ فكرة.

ونهضت لتعد القهوة. لن تخدعني ضحكتك يا سبعة المسبوعة. ضحكت بلا مرح، ومضيت إلى المطبخ حتى تمنعي نفسك من البكاء. وعندما عادت تحمل صينية القهوة، مبتسمة، رأيت الدموع في عينيها.

ـ كنت بتبكي يا سبعة المسبوعة؟

ـ أسكت.

قلت:

ـ أنا بس الله عندي عقدة أوديب؟

وضحكت ضحكتها الطلقة.

قلت:

ـ هيك أحسن.

٥

أتذكّر اكتشافي للجسد. كانت مراهقتي مبكّرة، أعني تلك اليقظة الشبقة نحو المرأة. كنت في السابعة، على الأغلب، وقد ذهبنا إلى عمّان. أمي وأمي آمنة، وأخي الأكبر، وسمحة، وأنا، وآخرون لا أذكرهم. كنا ننزل في بيت أقاربنا. قالوا: الليلة سنذهب إلى السينما. كانت سينما البتراء، الأغلب، هي السينما الوحيدة في عمّان. أو، على الأقل، عندما يقال أنا ذاهب إلى السينما، فالمفهوم أنك ذاهب إلى سينما

Abu Abdo Al Bagl

البتراء.

وددت ألاّ نذهب. كنت خائفاً. كان للسينما اسم سيء في بلدنا، فهنالك حجرة واسعة جداً يجلس فيها الرجال والنساء. أحياناً تطفأ الأنوار فترتكب الموبقات في الظلام. وتصوّرت أن بعض العنف سوف يرافق ذلك. أعتقد أنّ أهل قريتي كانوا يخلطون بين ما يحدث على الشاشة، وما هو مفترض أن يحدث، تبعاً لذلك، في مقاعد المتفرجين.

كانت أمي، عندما ذهبت للدراسة في عمّان، تسألني إن كنت قد ذهبت إلى السينما، وكنت أنكر. رغم أنّ المسؤول البريطاني عن القسم الداخلي كان يأخذنا كل أسبوع إلى السينما، عدا الأفلام القصيرة التي كانت تعرض في قاعة المدرسة، والأفلام التي كنا نشاهدها في أيام العطلة الأسبوعية، وكانت الأيام التي كان يتاح لنا فيها الخروج من القسم الداخلي بحجة أو بأخرى.

ولكن ذلك كان فيما بعد.

ذهبت تلك الليلة. كان الداعون قد حجزوا لنا لوجاً، فجلسنا فيه. كان المكان مضاء. غالبية الحاضرين كانوا من الرجال. نساء قلائل، مدنيات، كن يجلسن في الألواج. أسأنا الظن بهن على الفور. من الواضح أنهن مع عائلاتهن، ولكنهن مدنيات، وهذا فيه ما فيه من مبررات سوء الظن.

أُطفئت الأنوار، فقالت أمي:

ـ هذا اللي كنت حاسبه حسابه.

ودهشت أنها كانت تمزح، حاولت أن أطمئنها، قلت:

ـ رايح يرجّعوا الضو.

ولكن الظلام استمر للحظة، ثم بدأ الضوء يتركّز على الشاشة. سألت إن كان هؤلاء أناساً حقيقيين: الذين يظهرون على الشاشة. سمعت من الداعي إجابة ملتبسة. أدهشتني الأحجام الهائلة للرجال والنساء في ذلك المشهد الغريب، المتغيّر بسرعة، وتلك اللهجة ـ كانت اللهجة المصرية ـ التي يتحدّثون بها، بسرعة غير عادية.

ثم استغرقني المشهد.

في البداية، كان كل شيء غريباً جداً، الحدائق والأشجار والورود، والنهر،

والشاب والفتاة يجلسان متجاورين. . . ثم أنسى الغرابة وأندمج؛ يبدو حجم الناس طبيعياً. والمرأة التي لم أحبها في البداية أخذت تزداد جمالاً. توقفت عن التكلّم بسرعة، والضحك الكثير، وأصبحت حزينة. الرجل ظلّ يتكلّم بسرعة، يضحك كثيراً. ويغضب كثيراً. ثم ذلك المشهد الذي ظلّ عالقاً في ذهني فترة طويلة: المرأة طويلة جداً، تلبس الثياب السوداء، وتضع على رأسها منديلاً، حاملة بقجة بين يديها. . . ثم حدث ذلك الشيء الغريب. اختفت المرأة، وعاد وجهها كبيراً بشكل خرافي. كانت تبكي، دون صوت. دموعها تنساب فقط، على جانبي أنفها. لم تحاول أن تجفّف عينيها، بل كانت، بمنديل صغير أبيض، تجفّف أنفها وشفتها العليا.

لم تكن تلك الوقفة، ولا ذلك الوجه الكبير، ولا البكاء الصامت هو فكرتي عن المرأة؛ ولكن ذلك كلّه لمسني بعمق.

لا أذكر ماذا حدث بعد ذلك. ولكن ما حدث لتلك المرأة أحزنني كثيراً. أضيئت الأنوار. في تلك اللحظة ـ أذكر ذلك تماماً ـ اكتشفت أنّ النساء اللواتي حولي كائنات مختلفة. غامضة ومثيرة. شعرت أنّ ذلك يوحدهن حول سر لا أعرفه. أثار ذلك غيرتي، واكتشفت فجأة عندما وقفنا أنني صغير الحجم، ومنفصل عن الجميع. أحببت أن أعيد ذلك الاتحاد معهن، وأخذت أحدّق في وجه آمنة. أحببت ذلك الوجه إلى درجة البكاء. قد يقترب مني ولكننا سوف نظل منفصلين.

لاحظت نظرتي، فقالت:

ـ انبسطت حبَيّب؟

قلت:

ـ كانت سمحة نايمة.

ضحكت وقالت:

ـ خلّي سمحة عَ جال، إنت، انبسطت؟

كيف بإمكان الإنسان أن يجيب على سؤال كهذا؟ كنت أرغب أن تتخلّى عن سمحة، التي كانت تحملها، والتي كانت نائمة، وتهتم بي أنا.

قلت:

ـ ليش كانت المرأة بتصيّح؟

قالت:

ـ زعّلها جوزها.

ـ ليش زعّلها؟

ضحكت أمي وأمي آمنة، ومضيفنا وزوجته. كنا قد جلسنا في السيارة، وعندما ضحكوا ارتبكت. قالت أمي:

ـ لازم يكون فيه سبب؟

قال أخي الأكبر:

ـ دوشتنا يا أخي. أسكت لك شوية.

قالت أمي:

ـ في أيش مضايقك؟

قالت آمنة:

ـ كلامه حلو.

وأخذت أبكي. كان البكاء يضغط عليّ منذ أن انتهى الفلم. كنت أود أن يحيطني الجميع بحب متصل، وكأنني كنت أعلم أنّ ذلك أصبح مستحيلاً، فأخذت أبكي عالماً انتهى.

قالت أمي لأخي:

ـ يلعن شيطانك. خلّيته يصيّح.

كان أخي مندهشاً قال:

ـ لكن أنا إيش قلت

قالت أمي:

ـ أسكت، خلص يا حبيبي. أخوك كان بضحك معاك.

كانت آمنة تمسح دموعي بكفها، وكان ذلك الملمس يثير في داخلي ارتعاشات متعة جديدة. وددت ألاّ يتوقف ذلك أبداً. في تلك اللحظة فتحت سمحة عينيها، وأخذت تنظر إليّ وأنا أبكي. مدّت يدها ووضعتها على عنقي من الخلف، واقتربت بوجهها وقبّلت خدي المبلل، وقالت:

ـ لا تبكي حبيب.

ورغم علمي أنها كانت تقلّد أمها، أفرحني ما فعلته وقالته. في وجهي أمي وآمنة قرأت نفس التعبير: الابتسامة مع احتقان العينين بشيء يشبه البكاء. قالت أمي:

ـ ردّ على أختك. ما تكسر في خاطرها.

وتوقفت عن البكاء.

كان نفس هذا التعبير في وجه سمحة، وأنا أحكي لها هذه الحكاية ـ البسمة واحتقان العينين ببكاء محتبس، وعندما قلت لها:

ـ حبيتك جداً ساعتها.

أبعدت عينيها وأخذت تنظر إلى أصابعها، ثم إلى أظافرها. كنت أعلم أنّه لو التقت عيوننا لبكت.

صمتنا. قالت، ويبدو أنها خافت أن يولّد الصمت انفجارات تمضي بنا خارج حدود اللياقة:

ـ إيش كنا بنقول؟

قلت:

ـ ساعتها ما كنت فاهم مشاعري. الآن بعرف أني كبرت في هذيك الليلة، وإني انفتحت على عالم المرأة، وأنني صرت عاشق من عشّاق آمنة.

قالت:

ـ أوديبي. ما قلت لك!

قلت:

ـ أوديب خارم مخك.

ضحكت. كانت ضحكة آمنة الصادحة، وقالت:

ـ هاي مصرية!

ثم أضافت:

ـ فرويد هوايتي، شغلي الشاغل.

ـ ونازلة فيي تحليل طبعاً.

ـ طبعاً.

وضحكت:

ـ ناكل؟ جاي على بالي آكل لقمة.

وأتذكّر الصندوق الخشبي الكبير (حين مدّ الصبي رأسه داخل الصندوق أغلقت زوجة الأب غطاء الصندوق على عنق الصبي حتى مات. طبخته وقدّمته للأب الغافل، وأخذ يأكل ويرمي العظام. وأخذت الأخت الحبيبة تجمع عظام الصبي، عظمة عظمة، وصرّتها، ثم دفنتها. تحوّلت إلى شجرة وارفة الظلال، ملأت الحوش كله، وتحوّلت روح الصبي إلى عصفور مغرّد، يحكي دون توقف ما حدث له. حكى، حكى، حكى حتى تنبّه الأب الغافل من شروده واكتشف الحقيقة. أقام محرقة هائلة وأحرق الزوجة. فقامت الأخت الحبيبة، واستخرجت العظام، وفتحت الصرّة، وإليها هبط العصفور، وانطلق منها الصبي يضحك ويعانق أخته الحبيبة، وأباه...).

كان صندوق أمي آمنة عالماً من الأسرار والمفاجآت السارة. ينفتح فيبوح ببعض أسراره.

ـ خذ حبيّب.

حبّات جوز، وزبيب. وتمر حجازي. حلاوة بيروتية يلوكها الفم كأنها لبان. قطع كبيرة من الكعكبان (اكتب: كلبكفككعكبان.. كل بكفك كعكبان) قطع مسطحة من الحلوى، تتخلّلها خطوط حمراء وبيضاء، خلطة من فستق العبيد المملح (لو كنت حصان، في بيت سلطان، لآكل فستق، لآكل بندق، لو كنت حصان، لو كنت حصان) مع ملبس على لوز، ملبس على قضامة، حامض حلو، تين مجفّف، قضامة صفراء، قضامة مملحة:

ـ كل حبيّب.

راحة محشوة بالفتسق الحلبي، ملح ليمون يذاب في الماء ويضاف إليه السكر، بزر أبيض، بزر قرع، بزر بطيخ:

ـ أقعد وكل. لا تطلع بيه برّه، ياخذوه العيال منك.

تنتابني موجة كرم منافق:

ـ بدي أخبي حصة سمحة.

Abu Abdo Al Bagl

ـ خلّيت إلها حصتها، كل أنت.

وللصندوق، عندما ينفتح، عطر صدر آمنة، يتوحّدان، الصندوق وآمنة. كل منهما منجم أسرار وعطور وحنان ومفاجآت سارة. كل شيء كان له مذاق مميّز. من يخطر بباله الآن أن يأكل كعكبان أو حامض حلو. تم تدمير قدرتنا على التذوّق.

أتذكّر الصندوق: كبيراً، صامتاً، لم يكن صامتاً تماماً. كان يهمس بما فيه. يهمس وعوداً بالفرح، يتلاشى الضجر الذي كنت أعيش فيه دوماً، كلما ابتعدت عن آمنة: الأم المعشوقة. عندما تدهمني تعاسات الحياة اشتاق إلى صدر آمنة، إلى نفح صندوق العطارة أختبيء فيه. (ليّا وليّا يا سارة = يا علبة العطّارة). لعطر جسدها مذاق وطعم.

كان صندوقاً هائلاً ـ هكذا أتذكّره ـ ذا لون بني غامق، غامق يكاد يكون أسود، وله بريق كاب، تماماً مثل التين المجفّف ولمعة زيت الزيتون تشع بلونها البني الكابي، كان ينغلق بأقفال عديدة، وسيور جلدية عريضة معقّدة، وكان سطحه مزخرقاً بصفائح من الفضة السمراء المنقوشة. كان يقبع على دكّة من الطين، تخفيه عن العيون ستارة تنسدل من سطح خابية القمح التي يقبع الصندوق تحتها. على الجانبين له حلقتان نحاسيتان، مزخرفتان، ويحيط بالمستطيل الذي يكوّن التقاء الغطاء مع الصندوق صفيحاً لامعاً.

تعود سمحة بالطعام على صينية، فأحسّ بالجوع على الفور. تضعه أمامي فأقبل عليه قبل أن تجلس. أقول:

ـ كنت جيعان، وما كنت أعرف.

لم تقل «يا ريته صحة وهنا» مثلما كانت تقول آمنة عندما أقبل بنهم على الطعام.

أحكي لها عن الصندوق. كانت تأكل لقيمات قليلة، وتصغي بعينين برّاقتين. أقول ابنة آمنة فقط، هي التي تتذكّر في الثالثة صباحاً أن تأتي بطعام لذيذ. أسألها:

ـ متى جهّزته؟ تقول:

ـ مع العشا.

ـ ليش؟

ـ إلك.

ـ كنت تعرفي إني رايح أنام هون؟

ـ طبعاً.

عندما انتهيت من الحديث عن الصندوق، تنهّدت وقالت مبتسمة (بخبث، فأنا أعرف سبعة المسبوعة):

ـ في شيء غريب في كلامك لـمّا تتذكر.

ـ أيش؟

ـ أقول؟

قلت:

ـ أختي سبعة المسبوعة مسموح إلها تقول كل شيء.

قالت:

ـ لما تتذكّر الماضي، ما بتتذكّر غير النسوان.

قلت:

ـ نسيت؟

ـ أيش.

حكيت لها أنني كنت وأنا صغير أحب اللعب مع الفتيات فقط. أنسيت ما كان يقوله الأولاد؟ «ابن البنيات. عشّر وجاب سخيلات»(١).

تغرق في الضحك، حتى تدمع عيناها. تكفكف دموعها بمنديلها الصغير، وهي ما تزال تضحك وتقول:

ـ يجازي شرّك.

كانت تتوقّف عن الضحك، ثم تعود إليه فجأة، وكأنها لا تستطيع التحكّم في نفسها. قلت: هنالك شيء غريب، وفريد جداً في أمّي آمنة. تصغي بتساؤل. أقول: أليس غريباً أن تحمل عواطف الأم نحوي، وكأنّ ذلك شيء طبيعي؟ في مجتمع متعصّب دينياً، العائلة والقبيلة وحدة عضوية، متماسكة، معادية للعالم كلّه؟ لم أشعر يوماً، أنا المسيحي، أنك كنت بنتها أكثر مما كنت أنا ابنها. كيف استطاعت أن

(١) أيها المهووس بالبنات، حملت وولدت انثى الماعز الرضيعة.

تتجاوز كل الحواجز، دون أن تسأل نفسها: هذا ابن عائلة غريبة؛ ماذا يربطني به؟ لم أشعر أبداً أنّ هذا التساؤل قائم في داخلها.

قلت: أنا أفهم قدرتك على التجاوز، أن تعتبريني أخاً. ثقافتك، وعالمك قد دمّرا كل تلك الحواجز. . . ولكن هي؟

احتقنت عيناها وقالت:

ـ أسكت.

ـ ليش؟

قالت:

ـ شاعرة بدي أبكي.

صمتنا. قالت:

ـ أسوّي لك قهوة؟

قلت:

آجي معاك ونعملها.

ـ تعال.

ونهضت، وتبعتها إلى المطبخ.

وهي تعدّ القهوة كانت حزينة وصامتة. نظرت إليه بعينيّ آمنة، وبصوت آمنة، وهي منشغلة في غليونها بمأتم أبيها:

ـ ما تحب سكر؟

ـ لا.

لسمحة مهابة عندما تكون في هذه الحالة. قلت:

ـ أمي كانت على حق.

ابتسمت وقالت:

ـ أي أم منهم؟

ـ أمي نجمة.

ونظرت إليّ تطالبني بالاستمرار. قلت:

Abu Abdo Al Bagl

ـ أنت شبه أمي آمنة. مش أمونة.

كانتَ تنظر إليّ نظرة جانبية سريعة وتعود إلى تحريك القهوة بالملعقة. عندما أتممت جملتي. لم تردّ. وركّزت نظراتها على القهوة. ووضعتها فوق الصينية، ووضعت فنجانين وطبقين، وسارت إلى حجرة الجلوس. صبّت القهوة بتركيز ومدّت لي فنجاني. قلت لأكسر الصمت:

ـ قهوة لذيذة.

قالت:

ـ أمي كانت مليانة بالحب. وما كان فيه غير أنا وأنت تحبنا.

ـ وأبوك و . . .

ـ وهزيم . . .

ـ أيوه. وهزيم؟

قالت:

ـ ما كانت بتحب الاثنين. كانوا زغار جداً وأتعسوها.

قلت:

ـ أنت بتحطمي الأسطورة.

نظرتَ إليّ بدهشة لأنني قلت ذلك بشيء من الحدّة. دقّقت النظر في وجهي، عيناها تظهران فوق حافة فنجان القهوة.

قلت:

ـ من المؤكد أنها في فترة ما، على الأقل أحبّت.

ـ خايف على الأسطورة؟

ـ إيه.

قالت:

ـ أمي كانت وحيدة، وحيدة. وين حسّك الدرامي؟ هاي أسطورة أكبر وأعمق. ما كانت بتحب أمها.

ـ بعرف .

قالت :

ـ وما كنت بتحب أسطورتها . فاهم ؟ الشعر ، زعيّل وأبو نزّال . كانت بتحب الحياة والناس ، لكن أسطورتها خلّتها وحيدة . كانت بحاجة للحب ، حب حقيقي ، وما كان قدّامها إلاّ اثنين تافهين ، أحبّوا أسطورتها ، وما حبّوها هيه .

قلت وكأنني متهم :

ـ عشقتها قبل ما أعرف أسطورتها .

ابتسمت . رأت أنّ الجو بيننا قد توتر . قالت ضاحكة .

ـ إنت أوديبي .

قلت :

ـ ما حبيتها لأنها أمي . حبّيتها لأنها كانت . . .

ـ ليش سكتّ؟

قلت :

ـ لأنها كانت أجمل امرأة في الكون .

قالت :

ـ أجمل امرأة في الكون لأنها أمّك .

٦

كنت طفلاً بريئاً حقاً!

كنت في الثانية عشرة من عمري ، كما أذكر . أقل أو أكثر قليلاً . وأصبحت المرأة وهماً مسيطراً . الكبار لا يعرفون ذلك عنّا . بالنسبة لهم نحن أطفال أبرياء لا نعرف شيئاً عن العلاقة بين الرجال والنساء ؛ وكأنهم لم يكونوا أطفالاً قط . تكون أمي جالسة مع مجموعة من النساء ، وأكون بينهن . يصل الحديث ، أحياناً ، إلى العلاقة الجسدية بين الرجال والنساء . يكتسي الوجه بطابع فاجع ، ويتحوّل جرس الصوت إلى همس

Abou Abdo Al Bagl

خشن، واضح. فجأة تشخص عينا إحدى النساء وكأنها تعاين رؤيا مرعبة، وتقول:

ـ الولد.

وكأنها تنبههن إلى خطر رهيب. وتحدّق بي بعينين ملؤهما الخوف والاستنكار.

أمي، أكثر الناس معرفة بي، تقول:

ـ يا أختي، هذا زغير.

تقول المرأة بحكمة:

ـ لا تخافي غير من الزغير.

ورغم تفاهة هذه الحكمة، تقول أمي:

ـ اطلع العب برّه.

أقول وأنا أتظاهر بالقراءة:

ـ الدنيا شوب.

وينصرفن عني، وانظر في الكتاب الذي بين يديّ، وأنا أصغي إلى حديثهن بنهم، وأكاد أحبس أنفاسي، حتى لا تفوتني كلمة واحدة.

في مثل هذا السن ذهبت لزيارة أمي آمنة. كنت قد ركبت الباص من عمّان إلى بلدة قريبة من قريتنا، تبعد عنها تسعة كيلومترات. فسرت على قدميّ، ووصلت القرية في الليل.

في الصباح قالت لي أمي:

ـ روح سلّم على أمك آمنة.

وجدتها قد استيقظت من النوم لتوها. كانت سمحة تصبّ الماء على يديها، وكان الصابون على وجهها وعلى يديها. وكانت مغمضة العينين. عندما رأتني سمحة وضعت كوز الماء فوق غطاء الزير، وركضت نحوي. قبّلتني على خدي، كما تفعل النساء الكبيرات، وقالت:

ـ طوّلت.

لاحظت أن ثدييها قد برزا بروزاً خفيفاً من تحت ثوبها. كانت آمنة تفتح كفيها لتلقّي الماء، وعندما لم يأت الماء، قالت:

ـ وين راحت البنت؟

ثم نادت:

ـ وين رحت؟

قلت لسمحة:

ـ أمك.

فعادت إليها راكضة، وقالت:

ـ يمه جريس.

ـ هلا بيه. صبّي عليّ.

كانت تلبس قميص النوم. وجعلتني جلستها أتأمّل جسدها، لأول مرّة. الثوب القروي مصادرة على الجسد، يلغي التفاصيل كلها. من خلال قميص النوم استطعت أن أرى العنق الشامخ، والنحر الصقيل الناعم. ومع انحناء الرأس رأيت منبت الثديين. ومن خلال جلستها رأيت خطّ العجيزة والخصر، والساقين ينسابان باتساق، شاهدت لمعة الركبتين، وسمّانة الساق التي انضغطت بسبب الجلسة. وعندما وقفت لتجفّف وجهها تكوّر الثديان، وانحسر البطن، وبدا الجسد متماسكاً، قوياً، فيه رشاقة من ستكون حركتها التالية خطوة راقصة.

هاجمني العشق كالدوار. أخفيته عن نفسي، ولكنه كان يحرقني. أزالت الفوطة عن وجهها. كانت المودّة والفرح والترحيب في الوجه وهي تجففه. وعندما أبعدت الفوطة عن وجهها كشفت عن شمس. قالت بصوتها المنغّم:

ـ بعدك واقف حبيب. قرّب.

اقتربت. قبّلتني، وأبعدتني قليلاً لتتأملني:

ـ يا صلاة النبي، كبرت وصرت رجل.

هل قرأت الوجد في وجهي حين قالت: «صرت رجل»؟ أكثر من مرّة كانت تكشف عن حدسها بعبارات، تحمل معنيين، كهذه.

لم أحك هذا المشهد لسمحة. وكيف لي أن أحكيه لها. ولكن هذا المشهد كان في ذاكرتي حيّاً حين قلت لسمحة: «كانت أجمل امرأة في الكون». هذا الجموح في إصدار الحكم كان يشير إلى حالة.

Abu Abdo Al Bagl

١

هذه قرية قديمة جداً. أينما حفرت فسوف تجد أرضية من الفسيفساء، تشكّلها مكعّبات صغيرة حمراء وسوداء وبيضاء. نفس الظاهرة تجدها في مأدباء، البلدة المجاورة. بعض البيوت أصبح لها أرضية من الفسيفساء، وفي كنيسة الروم الأرثوذكس يتكوّن الجزء الأكبر من الأرضية من خارطة لفلسطين وشرق الأردن، ونهر الأردن والبحر الميّت بينهما. بعض السائحين الأجانب يأتون ليتفرّجوا عليها.

أما سكان القريّة فيبدو أنهم طارئون عليها. أكبر رجال القرية سنّاً، عودة بن صالح الطوال (من الأحاديث التي يرويها أهل القرية عنه، وخاصة حفيده عطية البالغ من العمر خمسة وثمانين عاماً، ومن حكاياته هو عن أحداث حياته، وأن عمره يتراوح بين ١٣٠ و١٥٠ عاماً[١]) يقول ـ عودة ـ جئنا القرية وهي خالية؛ استقدمتنا قبيلة العماشنة من الكرك، ومنحتنا الأرض. كانت الأرض واسعة، الناس قلة. وبنينا القرية.

العماشنة أول من دخل القرية، بقيادة زعيمهم علي. قد يكون ذلك في منتصف القرن التاسع عشر. إن قبره الذي يقوم على قمّة التلة بالضبط التي بنيت عليها القرية لا يذكر شيئاً عن تاريخ ميلاده، أو تاريخ وفاته، أو المكان الذي جاء منه. القول الشائع إنهم قدموا من منطقة الخليل. ولكن عدداً كبيراً من القبائل تقول إنّ أصولها من منطقة الخليل. ولا يمكن في هذه الحالة التأكّد من شيء، سلباً أو إيجاباً.

إلاّ أنّه من الواضح أنها قبائل بدوية لها خبرة، أو بعض الخبرة، بالزراعة، وميل

---

(١) يقول زعيّل إنّ عمر عودة يزيد على مائتين وسبعين عاماً. ولكن زعيّل وأمثاله من المخرّفين لا يوثق بهم كمصادر معتمدة

إلى الاستقرار في المناطق الزراعية. وقد تكون المسألة معكوسة، فقريتنا هي الامتداد الصاعد لأراضي الغور الخصبة، التي تقع إلى الغرب منها. وإلى الشرق منها تقع المناطق الزراعية المجاورة للصحراء. في هذه المناطق تقيم القبائل الرعوية المقاتلة، بني صخر، وبني حميدة. والكعابنة؛ وقبائل أخرى تمتد مناطقها في ثلاثة أو أربعة دول (السعودية، الأردن، العراق، سوريا) مثل شمر، والعنزة، والحويطات.

ما أريد قوله إنّه من المحتمل أنّ خصوبة المنطقة هي التي جعلت من العماشنة أنصاف بدو، وأنصاف فلاحين. لهم أراضٍ يزرعونها، وبيوت من حجر في القرية يقيمون فيها في فترة الشتاء، وخيام يقيمون فيها مع أغنامهم وجمالهم في فصلي الربيع والصيف.

أما بالنسبة لقبيلة النجارين [٢] المسيحية فيبدو أنهم استجابوا لدعوة العماشنة، لأنّ الأرض ضاقت بهم في منطقة الكرك، بعد أن استولى عليها قطعة، قطعة، أنسباؤهم أولاد المصري[٣]. فقدموا إلى قريتنا ليجرّبوا حظهم [٤].

ويبدو أنّ قبيلة العماشنة، رغم أنّها ظلّت نصف بدوية، لم تكن من القبائل المقاتلة. فهي لم تشارك في اتفاق القبائل في عام (١٩١١) للقيام بثورة ضد الأتراك. ولسبب غير مفهوم كانت قبائل الكرك وحدها هي التي نفذت الاتفاق. هاجمت

---

(٢) تنقسم قبيلة النجارين إلى فرعين: الطوال والقصار. ولا أعرف سبباً لذلك، فهنالك الكثيرون من قصار القامة بين الطوال، والعديد من طوال القامة بين القصار.

(٣) غادر صعيد مصر شقيقان إلى فلسطين. أحدهما أقام في منطقة قرب القدس، والآخر جاء إلى الكرك. يقال أنهما غادرا مصر بعد استتباب الأمن في عهد محمد علي، لأنهما ارتكبا العديد من الجرائم ـ كما يقال ـ التي يشيب لهولها الرأس. الأخ الذي استقر في فلسطين ادّعى أنّه مسلم وتزوج فتاة مسلمة، واستقر هناك. والآخر تزوج مسيحية، من عائلة النجارين واستقر في الكرك.

يبدو أنّ الأخوين كانا يمتلكان قدرة هائلة على النصب والاحتيال والشراسة، فسرعان ما استوليا على أراضي الأنسباء. الأخ الذي استقر في الكرك وعائلته حاولوا أن يمدّوا نفوذهم أكثر مما تتسع له قدرتهم، فاصطدموا بقبيلة المجالي القوية. سقط قتلى بين الطرفين، وثار بينهما. ويبدو أنّ أولاد المصري كان الطرف الأضعف.

في داخل الفرع الأردني للعائلة يقال إنّ الأخ الذي استقر في فلسطين ونسله حلّت عليهم لعنة الربّ، لأنّ الأخ تخلّى عن دينه حتى يتزوج من فتاة مسلمة.

(٤) الواقع أنّ قبيلة النجارين استعملت نفس التكتيك الذي اتّبعه معها أولاد المصري، ولكن دون=

الحامية التي في البلدة، وبعد قتال قصير هرب الجنود الأتراك إلى قلعة صلاح الدين، واحتموا خلف أسوارها الحصينة، وأبوابها. واتجهت القبائل إلى دور الحكومة فنهبت وحطّمت كل ما فيها.

وقد قامت الثورة بسبب الإحصاء السكاني الذي قامت به السلطة التركية، تمهيداً لتجنيد الذكور الذين تتراوح أعمارهم بين سن العشرين والأربعين. وقد عبرت عن ذلك الأغاني التي كان ينشدها المقاتلون:

يـا سامي باشـا مـا نطيـع ولا نعـد رجالنـا

حنـا النشامـى مصيتيـن ذبـح العساكـر كارنـا

في تلك الفترة كان أهالي قريتنا يواجهون الإحصاء التركي بالاختفاء، أو بالتشويه الجسدي الذي يجعل الإنسان غير صالح للجندية، كبتر الأصابع أو قلع العين. أمّا التخلّص من الضرائب الباهظة على الحبوب والمواشي، فكان يتم باخفاء الجزء الأكبر منها قبل أن يتم تخمينها.

كما لم يشارك العماشنة أو النجارين في جيش فيصل الذي اجتاح الحجاز ونجد وسوريا، والذي أصبحت كتلته الأساسية من القبائل الأردنية المقاتلة: الحويطات وبني صخر وغيرهما. أما الذين شاركوا في ثورة ماجد العدوان ضد الشريف عبدالله، عام ١٩٢٣، فقد شاركوا كأفراد عندما قيل إنّ عمّان سوف تكون مباحة للقبائل الغازية. أما مزاعم زعيل بأنه شارك في تلك الثورة، ودخل عمّان، ونهب الكثير من السلع والأموال، فلا صحة لها على الإطلاق. فقبائل البلقاء لم تصل إلى عمّان قط. فقد تصدّت لها قبيلة بين صخر، ثم التقت بها مصفحة بريطانية، أطلقت بضع طلقات، فقتل شخص واحد، هو صايل الشهوان شيخ مشايخ العجارمة جد والدي لأمه، فتفرّق الثوار عائدين إلى بيوتهم. وعوقب المشاركون في الثورة بدفع غرامة تساوي جنيهاً فلسطينياً ـ إذ كان هو النقد المتداول ـ أو ما يساويه ذهباً، لكل منهم.

=اللجوء للعنف. فقد قطعوا صلتهم بكل مظاهر البداوة وركّزوا على الزراعة، ثم التجارة و الربا. وبهذه الوسيلة أخذوا يقضمون أرض العماشنة ببطء، ولكن بثقة. وكانت النتيجة أن شيوخ العماشنة، في الجيل الخامس، أصبحوا لا يملكون إلاّ بيوتهم، والمرتبات التي تأتي من أولادهم الذين دخلوا الجيش.

ومنذ تكوين الإمـارة في شـرق الأردن، عـام ١٩٢١، وتشكيل الفـيلق العـربي وحرس البادية، لم ينضم أي فرد من قريتنا إلى هذا الجيش، كما لم يشارك أحد منا في المعـارك التي دارت بين قبـائل الجنوب وهذا الجيش. كـما أنّ القـائد البريطاني لهـذا الجيش جون باغت غلوب لم يزر قريتنا قط (٥). لقد بدأ دخول أبناء القرية إلى الجيش بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية.

لقد تحوّلت قريتنا إلى حمل السلاح والحرب بعد أنّ تحوّلت القبائل المقاتلة من غزو نجد إلى غزو الداخل الزراعي المستقر. واشتعلت بين الفلاحين روح قتالية مدهشة، استطاعت أن تقف في وجه الغزو البدوي وتصده. وقد وجد ذلك تعبيراً عنه في حكايات من النوع التالي:

دخلت بدوية فاتنة إحدى القرى لتشتري بعض حاجاتها. رآها التاجر فأذهله جمالها، وتقدّم لخطبتها، فقالت:

خيّالنا يشيل علـــى رمحـه شنينـه   وخيالكم يحمل على الجنب مفتاح

ومعنى البيت (فارسنا يحمل على رمحه رأس عدوه، وفارسكم يحمل مفتاح دكانه تحت حزامه).

فردّ عليها التاجر:

مفتاحنـا لا بـــد مـــا تحملينـه   وتصيري لنا يا زينـة العيـن مصباح

وعندما غادرت القرية تبعها، عن بعد، وهو راكب فرسه. وتشاء المصادفات أن البدوية ما تكاد تصل إلى مضارب قبيلتها حتى تهاجمها قبيلة أخرى، فتستولي على

---

(٥) كانت أخبار هذه المعارك تصل قريتنا كحكايات وأغاني. منها:

عسكر أبو حنيـك مرطوبة   وأنـا بشيـرك بذبحتهـا

زرق الحناتيـــر معطوبـة   حتى البنـادق بزهبتهـا

وأبو حنيك هو جون باغوت غلوب، وأطلق عليه هذا اللقب بسبب رصاصة أصابت حنكه وشوّهته. أما سبب المعارك التي كانت تدور بين الفيلق العربي وقبائل الجنوب فهو أنّ البريطانيين في عشرينات هذا القرن (العشرين) عقدوا معاهدة تمنع القبائل الأردنية والسعودية من غزو بعضها. وقد سبّب هذا مجاعة حقيقة للقبائل الأردنية، التي كان الغزو مصدر رزقها الرئيسي. وقد استغل البريطانيون هذه المجاعة وأخذوا يضمون أبناء هذه القبائل للجش..

نساء القبيلة ومواشيها، وتعود مزهوة. يعترض التاجر طريق الغزاة، فيقاومهم، ويشتّت شملهم، وينقذ الحبيبة لتصير زينة العين مصباحاً يساعده على تنمية تجارته، ويضيء حياته الممتلئة بالبيع والشراء، وبرضى القبيلة التي تعترف بأنّ التجّار فرسان حقيقيون.

ولكن التحوّل الحقيقي حدث في قبيلة العماشنة. فقد استعادت ملامحها البدوية بسرعة فائقة. حتى اقتصادها أصبح يعتمد على الرعي، أو القيام بغزوات صغيرة لبعض القرى المجاورة، واستولوا بقوة السلاح على بعض مناطق الأغوار، محوّلين بعض فلاحيها إلى عبيد (٦). وبهذا تركوا المجال واسعاً لقبيلة النجارين المسيحية لأنْ تتوسع في التجارة والزراعة. وهكذا تحوّل أنصاف البدو إلى بدو حقيقيين، في حين ازداد الفلاحون ـ التجّار التصاقاً بالأرض والتجارة.

ويجب أن نلاحظ هنا أنّ هذين التحوّلين كان لهما ما يدعمهما في الوضع العام للبلاد. ففي حين كانت الطبقة التجارية النشطة، المتركّزة أساساً في العاصمة، تسعى لتوسيع تجارتها ببيع البضائع إلى القرى، وللتجارة بالحبوب وغيرها من المنتجات الزراعية؛ كان الجيش المشكّل أساساً من البدو يعيد إنتاج القيم والممارسات البدوية في داخل المجتمع.

ولكن المستقبل كان للتجارة. القيم البدوية أخذت تتوالد في صياغات جديدة، جعلتها تقترب حتى الاندماج في القيم والمطامح التجارية. فبدلاً من الغزو انفتح الطريق للكسب من خلال نقل الحشيش من تركيا ولبنان، عبر الأردن، إلى مصر مباشرة من خلال بدو سينا، أو من خلال إسرائيل. كما ازدهرت تجارة الماس وتهريبه إلى إسرائيل من خلال خليج العقبة.

إنّ ما لم تنتبه له قبيلة العماشنة أنّ انبعاث القيم البدوية وتقاليد الفروسية لا يجوز أن يتم بشكل مجاني، بل يجب أن يرتبط بالمؤسسة العسكرية وبالمؤسسة التجارية. ولهذا اكتشف شيوخ القبيلة أنهم فقدوا كل شيء ولأسباب عجزوا عن فهمها. إنّ أفراد القبيلة الأكثر تواضعاً استطاعوا أن ينجوا من الكارثة حين احتفظوا ببعض الأراضي، وحين ارتبط انبعاث قيم الجسارة البدوية عندهم بعمليات شديدة الخطورة، وهي المتاجرة مع إسرائيل.

---

(٦) كما حوّلوا بعض مناطق الأغوار الزراعية مراعيَ لدوابهم.

٢

لا نعرف تاريخاً محدّداً لمولد آمنة. ومن كان في تلك الأيام يهتم بتسجيل تاريخ مولد طفلة! ولكن الأغلب أنها ولدت بين عاميّ ١٩١٤ و ١٩١٦. فهي لا تذكر شيئاً - إلاّ كالحلم، كما تقول - عن سفر برلك، إلاّ أنها تتذكّر مجيء الشريف عبدالله إلى شرق الأردن. وقالت لي سمحة إنّ أمها فوجئت بالحيض[١] بعد سنة الهزة بسنتين أو ثلاث سنوات[٢].

لفتت الانتباه بشدة[٣] منذ صباها الأول، عندما خرطها خرّآط البنات[٤]. ولعلّ أكثر ما جذب الانتباه لها هو هذا التناقض بين أنوثتها الطاغية، التي تكاد تكون عدوانية، وبين سماحتها ولطفها مع الآخرين. لم يكن يبدو عليها أنها تشعر بما تثيره في الآخرين، فقد كانت تحدّث الجميع بتبسّط، ودون حرج[٥]. قد يكون هذا جذر أسطورتها: لا ينالها أحد رغم نطاق الرغبة المحيط بها كدائرة من النار، وغير ممتنعة على أحد. وقد أوجد ذلك أحساساً بالأخوة لدى الجميع. إن الإحباط الدائم للرغبة والتلقائية التي تعامل بها الجميع جعلها أختاً معشوقة. كان جسدها الفائر يستفز بعض النساء، ولكنهن يفقدن كل إحساس سوى المودة عندما يتحدّثن إليها، وعندما يرينها تستجيب بكل أدب لمن هن أكبر منها سناً.

---

(١) عندما جاءتها سمحة ملتاثة بالرعب تريها لباسها الملوّث بالدم، وهي تردد: «والله غير أبوي يذبحني».

(٢) سنة الهزة حدثت عام ١٩٢٧.

(٣) إذا كانت قد لفتت ا نتباه الجميع، فلم يكن ذلك يثير أحلاماً بالزواج. فالبنت لن تتزوّج أحداً غير ابن عمها تركي، إلاّ إذا أعلن أنه لا ينوي الزواج منها. ورغم هذا تظل المخاطرة قائمة، فقد يعدل ابن العم عن قراره في أيّة لحظة، حتى والعروس متجهة إلى بيت الزوجية، فيتزوجها.

(٤) هذا تعبير ريفي مصري. والخرّاط هو النحات. ومعنى العبارة إشارة إلى بروز مظاهر الأنوثة على الفتاة كاستدارة العجيزة، وبروز الثديين، والخرّاط هو أيضاً الصانع الذي يشكّل الحديد حسب الطلب.

(٥) يقول زعيّل إنّ آمنة اعترفت له أنّها تحبّه. ولكنه في ذلك الوقت كان مشغولاً بأمور أهم (لا أحد يعرف ما هي تلك الأمور التي كان منشغلاً بها)، ولكن من يصدّق زعيّل! غير أنّ لذلك دلالته. =

لا . لم يكن في سلوكها شيء ينسجم مع الانطباع الأول الذي تخلّفه .

كان شيء ما في الجو العام قد ساهم في بناء الأسطورة . لقد تحوّل المزارعون إلى مقاتلين، وكذلك أنصاف المزارعين . ومع هذا استعادت الذاكرة حكايات الفرسان والغزو وملاحم الحب .

وكانت تلك الفترة فترة رخاء مادي، النقود تجري في أيدي الناس ، والبضائع بسعر التراب، ومجالات الصرف محدودة . لقد خفّت وطأة الكابوس التركي بضرائبه الهائلة :

(٥٪ من قيمة الأرض تدفع سنوياً ، ضريبة الميري على الأرض غير المزروعة، وضريبة العشر ـ ١٠٪ ـ على الأراضي البعلية ـ و ٥٠ من محصول الأراضي الخراجية، وضريبة الدواب والأغنام . عشر المواليد ـ وضريبة البيعة التي كانت تفرض على الفلاح إذا باع ماشيته، وضريبة الأعناق التي يدفعها الأشخاص من سن ١٨ ـ ٦٠ ، البدل العسكري، ضريبة المباني ، وعشرات الأبواب الأخرى للنهب . وكم كانت صادقة تلك الأغنية التي كان يرددها الفلاحون :

يا هنيالك يا هالقط [٦] يا اللي عالحيطان بتنط

ميري ما بتدفع وعسكرية ما بتحط

وكثر السلاح في أيدي الناس (بنادق الأنفيلد الإنجليزية، بنادق ألمانية ذات ماسورة طويلة، بندقية الموزر ومسدّسات من كل الأنواع، وخناجر مزخرفة وسيوف) كما أصبح بإمكان الغالبية أن يمتلكوا خيولاً أصيلة، لا غنى عنها في المعارك، وزينة لمن يملكها .

ولم تكن شرق الأردن قد اندمجت في السوق العالمي، ولا نشأت بعد الاحتياجات الجديدة التي تستنزف كل المدخرات . كان اقتصادها اقتصاداً مغلقاً، أخذ ينمو دون عوائق . كان المجتمع يقف على عتبة تحوّل جديد ، ولكنه لم يدخله .

= فزعيل، الذي كان الناطق العلني لأحلام يقظة القرية السريّة، قد رأى في آمنة ذلك الانفتاح الذي يجعلها، على نحو ما، متاحة للجميع، ميسّرة لهم أحلاماً سريّة، وممتنعة على الجميع بسبب زواجها المرتقب من ابن عمها، وبسبب ما تثيره من احترام ومودّة لدى الآخرين .

(٦) هنيئاً لك أيها القطّ .

وانطلقت الطاقات المقموعة تبحث عن مسارب للفرح: الشعر والموسيقى (الناي والربابة والدربكّة) والرقص والغناء. وأصبحت الفروسية متعة وزهواً ووظيفة. في الأفراح كان الفرسان يستعرضون براعاتهم، فيقوم الفارس، والفرس منطلقة بأقصى سرعة، بالتقاط ملحفة مفروشة في ميدان السباق من طرفيها، ويصيب ببندقيته هدفاً بعيداً والفرس ماضية في عدوها، أو يقذف بندقيته في الهواء ويعود لالتقاطها.

ثم يحدث السباق. يتبارى الفرسان أمام الخيام المنصوبة، ويصبح الفائز بطلاً وحكاية تروى.

وفي كل الأيام، عدا الشتاء، يجتمع الشباب بخيولهم عند العصر، وتحدث المسابقات؛ وقد يحدث شجار يتسع أو ينتهي حسب طبيعة المتسابقين.

وخلال ذلك كانت المرأة في المركز، فهي مطلوبة كحبيبة عبر الشعر، وحاشي (راقصة) في السحجة، ومن أجل عينيّ فتاة معيّنة، وانتظاراً لزغرودتها يستعرض الفارس براعاته، ويسعى ليكون أول المتسابقين.

وكانت آمنة هي الراقصة الأولى. يأتي راقصو السحجة ويقفون أمام حجرتها، وينادونها أن تخرج إليهم. تردّ عليهم أنّ ثمنها غال، فيردد الراقصون بصوت موحّد:

وإن كان ودّك (٧) من الخيل   خذي كثر نجوم الليل

تقول لهم إن طفلها يبكي، ويجب أن تعتني به. فيقولون سوف نجيئه بحامض حلو يلهيه عن البكاء. تقول أعطيته حامض حلو وما زال يبكي. يقولون بغضب: إرميه خارج الدار ولتأكله وحوش البر. تردّ غاضبة، فيعتذرون ويقدّمون لها إغراءات جديدة، وهي تتأبّى، تعتذر بهذا الشيء أو ذاك، وهم يلحّون، غاضبين أحياناً، معتذرين أحياناً أخرى.

ويستمر هذا الحوار الغنائي بين الراقصة (الحاشي) و جوقة الراقصين حتى تخرج إليهم الحاشي، مرتدية ثوباً أسود طويلاً، يلتصق بجسدها، ملثمة بمنديل أسود، فلا يبدو إلاّ عيناها، ممسكة خنجراً مزخرفاً في يدها اليمنى.

يرتد الراقصون ليشكلّوا نصف دائرة تحيط بالحاشي. تنطلق الأصوات بفحيح جنسي خالص:

---

(٧) ودك: تريدين.

ـ دحيّه، أحيّه، أحيّه، دحيّه.

وقائد الجوقّة يتقدّم من الحاشي لينتزع الخنجر من يدها، حين ينجح يطلب إليها ـ غناء ـ أن تخلع لثامها، فتستجيب وهي ما تزال ترقص، جسدها يهتز بإيقاع وهي تهبط راكعة أمام قائد الجوقة، الذي يأمر أن تخلع ثيابها قطعة، قطعة، فتطيع، وجسدها يهتز بإيقاع متسارع؛ وقبل أن تتعرى تماماً، يلفها قائد الجوقة بعباءته، ويدخلها إلى حجرتها.

لم يكن هذا يحدث مع آمنة. كانت، عندما تمسك بالخنجر، تقترب بجسدها من قائد الجوقة، وتنحني بجذعها ـ وخنجرها ـ إلى الوراء، تتفادى يده السريعة المتجهة إلى الخنجر بهبوط مفاجىء، يموج بها جسدها، ويستدير، ثم ينتفض مستقيماً كالخيزرانة. تمدّ يدها إليه بالخنجر، فيحاول الإمساك بمعصمها، ولكنها تروغ إلى الشمال، في حين يجد قائد الجوقة نفسه مندفعاً إلى اليمين. وخلال ذلك تتمدّد منحنيات جسدها حتى الاختفاء، ثم تعود بارزة ناضجة، مكتملة.

وعندما يحاول الراقص أن يحاصرها بذراعيه كانت تقوم بحركة من ابتكارها، لم تؤدها راقصة في قريتنا من قبل، ولم تنجح راقصة أخرى في تقليدها. كانت تدور حول نفسها عدّة دورات، وفي كل دورة كانت تقفز في اتجاه مختلف، وغير متوقع: يميناً، يساراً، خلفاً، إلى الأمام متخطّية الراقص. وأحياناً ـ وهذا من ابتكاراتها أيضاً ـ كان جسدها يهتز، وكأنها تحاول أن تطلق كل جزء منه في اتجاه.

هنا يعلن قائد الجوقة عجزه، فيرتد إلى الخلف في منتصف الراقصين، ويغني وهو يتمايل معلنا عجزه وهزيمته. ومع كل بيت شعر يغنّيه ترد عليه جوقة الراقصين:

هـلا، هـلا، بـك يا هـلا   لا يا حنيفـي يـا ولـد

ويغني قائد الجوقة:

هـذا عـوده وقـع بالجـوره   حسّبهـا طبخـة بنـدورة[8]

---

(٨) عـودة سقط بالحفـرة (معنى ذلك أنّه فشل). ظنّ أنها طبخة بندورة، ولم ير ما تحت قدميه. والإشارة هنا إلى البندورة هي تعبير عن احتقار البدوي للفلاح ففي حين يتكون طعام البدوي من اللحوم والتمر واللبن، فإنّ الفلاح يتناول طعامه من البقول والخضار المطبوخة بالبندور. يذكرنا هذا بغضب يهوه، كما جاء في التوراة، وعزمه على إبادة العبرانيين لأنهم سئموا اللحم والحلو (المن والسلوى) واشتاقوا للبقول والخضار. وعلينا أن نتذكّر أنّ يهوه كان إله قبيلة بدوية عربية، وهي قبيلة مديان.

وترد الجوقة:

هلا، هلا، بك يا هلا لا يا حنيفي يا ولد

ويبطىء إيقاع غنائه:

من بعد ما أنا عقيد ركاب واليوم طباخ بندورة (٩)

وفجأة ينتقل إلى أغنية مرحة:

لعينا عيونك يا نديه ودق جرازك عليا

لا لي حمار ولا لي حوار ولا لي غيرك رعية

وأنا رجال طيب وبالزود ولو عرفتيني

بالقمرة واصل الرفة بالظلما غير تعديني

يا خيتي لن ندعتيني يا شينة ردي عليا

تلقيني بطريق القرية ومحكّر مالي ثنية

ولن شحدت طرموزين واحد ليكِ وواحد ليا (١٠)

خلال ذلك ترقص آمنة رقصة النصر. كانت رقصة آمنة المميّزة، بها تعلن اعتزازها بجسدها: الخنجر يرتفع عالياً، ويندفع صدرها إلى أمام، مبرزاً النهدين، ثم تصعد... تصبح فراشة. تطير، أردافها الواسعة تصبح أجنحة، وتلمس الأرض بأصابع قدميها، لتعاود الطيران. تتوقف عن التموّج، والمراوغة، والقفزات الأفقية. تتجه إلى أعلى.

(٩) من بعد أن كانت الراية تُعقد لي كقائد للغزو، أصبحت اليوم طبّاخ بندورة.

(١٠) من أجل عينيك يا ندية سأدق سنابل القمح التي تسرقينها، أو تلتقطينها من خلف الحصادين؛ فلا حمار ولا جمل وليس لي دابة غيرك. وأنا رجل شجاع. عندما يطلع القمر أستطيع أن أسير حتى باب الخيمة، وفي الظلام يصيبني الخوف، ويتوجب عليك عندها أن تمسكي بيدي، وتدليني على الطريق. يا أختي، لو غادرتيني (لن تعني هنا لو) فعودي إليّ أيتها الشريرة. سوف تجدينني وحيداً في أقصى طرف من القرية، لا ثاني لي. ويبدو أنها غادرته لتتسوّل، فهو يقول لو جمعت من التسوّل رغيفي ذرة (وهو طعام المعدمين) فلنقتسمهما: واحد لك، وواحد لي. علينا أن نلاحظ هنا أنّ السمة الأساسية لهذه الأغاني هي السخرية من الذات، بعدَ انهزام قائد الجوقة أمام الراقصة.

من حولها دائرة من ريح الخزامى، وعطر المسك والعنبر. تصبح آمنة بستان ورد، وصندوق عطارة، ومن الخلف يأتي إيقاع الدربكة بلحن جديد لأغنية معروفة، لحن ينفعل ويتلقى من الرقصة إيقاعه ليعيده للراقصة لحناً متوافقاً مع خطواتها الراقصة.

تغني المغنيّة:

يا يمّـه ثوبـي ضيّـق ضجّن عليّـا نهـودي
وش لـك بحب المبسـم دونـك راس الخـدود (١١)

ويصبح إيقاع الدربكة نبضاً في الدم، يحدّد لا للراقصة وحدها، بل للحاضرين إيقاع التنفّس، الحركة الخفية للأقدام ـ حركة تخفيها الملابس السابغة ـ وتحدّد لدوي العرس إيقاعاً، وكأن الصرخات والضحكات ومشاجرات الصغار قد صنعت وفقاً لإيقاع الدربكة.

وتغني المغنيّة:

حصّـاد خلّـي المنجـل جتّك الشمس والشوبة
شف لك شبرين ظـلال بيـن النهـد والثوبـة (١٢)

٣

كان رقص آمنة جزءاً منها، أحد تجليّات شخصيتها: تقترب حتى يظن قائد الجوقة أنها ممنوحة له. ما عليه إلاّ أن يمدّ يده ليأخذ الخنجر من يدها. امرأة ممنوحة كلياً لرجل يذوب وجداً وشبقاً، ولكنه يكتشف أنها ممتنعة حدّ الاستحالة، وأن نجوم الليل أقرب إليه منها.

وكانت آمنة تجلياً للجو العام على نحو حاذق، مبهم. ففي القرية انفتحت طاقات

---

(١١) لا تقبل فمي. إليك الوجنتين قبلهما.

(١٢) الشوبة: الحرّ. الثوبة: الثوب. إنّ الراقصة هنا تشير إلى ارتفاع النهدين. حيث يستطيع الحصّاد أن يخفي رأسه الملتهب بحرارة الشمس والجهد المضني بين النهدين، وحيث يسمح ارتفاعهما ودفعهما للثوب إلى أعلى بوجود مكان لاختفاء الرأس.

للفرح لا ترتوي، ولكن كان يرافق هذا ويمتزج به خوف يبدو كأنه يقول : الفرح ليس لنا؛ إنه تجديف على الرب، وتجاوز لقدر الإنسان. الإنسان مكتوب عليه الشقاء. نلاحظ ذلك عندما ينطلقون بمرح وضحك لا ضابط لهما، ثم يتوقفون فجأة، ولمسة رعب قد تسرّبت إلى الوجه كأنها دخان صعد من عمق اللحم، من بخار القلب، ليشيع في الوجه، ويحيط بالعينين، ويهمسون :

ـ اللهم اجعله خير.

ـ ما في ضحك إلاّ بعده زعل.

حتى أغاني الأفراح تعلن أن السعادة لحظة عابرة، يعقبها ألم وحزن طويلان: تذكر أيها الإنسان أنك خلقت للعذاب والموت:

شباب قوموا العبوا　　　والموت ما عنّه [(١)]

والعمر شقحة قمر　　　ما ينشبع منه [(٢)]

وينطلق صوت المغنية وهي تهاهي : [(٣)]

إهيه يا واشوف فلان تحت ضو القمر يمشي

إهيه يا وانادي واقول يا ربي ويا عرشي

إهيه يا ريتني أموت ويتفتل ورا نعشي

وتنشد جوقة الفتيات :

يا صبابين الشاي زيدو حلاته [(٤)]

واللي ما يحب الكيف يحرق حياته

كان رعباً من عودة الماضي بمآسيه. لقد عاد الماضي برعبه ولكنه كان يرتدي قناعاً جديداً: انطفاء الفرح وموت الروح.

---

(١) العبوا : ارقصوا. ما عنه : لا بد منه.

(٢) شقحة : قطعة.

(٣) المهاهاة: أغنية فردية تغنيها امرأة ممتدحة أحد الحاضرين، وتبدأ بـ (أهيه يا).

(٤) زيدو حلاته : زيدوا حلاوته، أي كمية السكر.

Abu Abdo Al Bagl

٤

آمنة وحدها كانت فرحاً خالصاً. رأيتها مرّة بعد واحدة من تلك الرقصات. رأيتها تشعّ. شعرت أنّ شيئاً ما قد انفلت من سيطرتها المحكمة، وأنها تود أن تعابثني. اقتربت ـ عطر جسدها يضوع في الذاكرة ويستعاد الآن ـ وقلت:

ـ يه آمنة، بتوكلي كعكبان.

وأمدّ لها قطعة الحلوى. تنفجر ضاحكة، وتضمني إليها، وتقول:

ـ خلّيه إلك حبيب.

لا أود أن أغادر الذراعين، والعطر، والضحكة الطلقة، وهذا التغيّر الذي أصابها. تقول:

ـ اطلع اتفرّج عَ الدبكة.

أنهض وأقول:

ـ رايح أجيب إلك قرفة.

لا بد أن أعود.

ذلك أحد أسرار آمنة. لم تكن تخاف من الفرح، مثل أهل قريتنا. لم تكن تخاف ولذا كانت تحدّث الجميع دون حرج، لم تكن تخجل من جسدها، فلذا كانت راقصة رائعة. هذا كله ساهم في بناء أسطورتها.

٥

قالت أمي إن ما أقدم عليه هزيم فاجأ الجميع وأدهشهم. من كان يتوقع ذلك؟ غريب، ويتقدّم إلى بنت أسياد القرية ليطلب يدها! لم يحدث ذلك من قبل. قالت لها أمي: وكأن ما يحدث لا يعنيك. قولي شيئاً. قالت آمنة:

ـ وماذا أقول يا أم عيسى؟

قالت لها أمي: الرجال يواجهون بعضهم بالبنادق، ولا حديث للنساء إلاّ عنك،

وأنت لا تقولين شيئاً. كأن الأمر لا يعنيك. وقالت آمنة: وهل للحرمة كلمة؟ السكوت أحسن. قالت أمي: لو خيّرت، من تختارين من الاثنين. قالت أمي: ابتسمت آمنة بسمتها التي تدخل القلب بلا استئذان، وتنهّدت وقالت: لو أنها خيّرت لبقيت دون زواج.

قال زعيّل: كلّه كان من تلك الكرنيبة. يعني أمونة. قال: لعبت السامر بين الفريقين، وكادت الدماء تسيل. ومن هو هزيم؟ فلاح ليس له أصل يعرف(١).

كان زعيّل هذه المرّة صادقاً، فيما يتعلّق بأمونة. لقد أعلنت موقفها بصراحة، وأمام عدد من النساء والرجال. قالت:

ـ ما أريد يصير لبنتي اللي صار لي.

قالت امرأة غورانية، طويلة اللسان:

ـ وش صار لك أنت؟ وش كبّرك؟

قالت أمونة:

ـ شوفو هذه اللي مناخيرها مثل جنحان الطيّارة.

كانت مليئة بالكراهية والمرارة، وعندما ينفلت لسانها، يقطر سمّاً. وأضافت وهي ترتعش غضباً:

ـ وش جالنا من جواز الشيوخ؟ نحرق إيدينا وحنّا نطبخ لضيوفهم، ونسوّي قهوتهم، ونخبز. الوحدة منا تعجّز وهيه بنية. وكله سنتين، ثلاثة، ويهجروا فراشنا ويتجوّزوا علينا، إن عاشوا، مرة وثنتين وثلاثة، وإن قلنا شيء، قالوا: روحي إنت طالق بالثلاثة.

همست امرأة لأخرى:

ـ ويصير ما لها ونس غير العبيد والرعيان.

ومضت تقول:

---

(١) كان زعيّل يطلق عل عامر لقب فليليح، تصغيراً لكلمة فلاح، تحقيراً لشأنه، كما يتحدّث البدو عن الفلاحين، ثم يتمثّل بقول الشاعر:

عساك يا ابن سعود تبلى بفضيحة وكيف الحر يا شين على العبد يلتم

هذا إن عاشوا، وإلاّ ييجو محمولين على نقّالة، غرقانين بدمهم ونترمّل،[٢] ما ريد لبنتي حياة مثل هذه.

ويؤكد هذه الواقعة ما قاله شاعر القرية، وهو أحد عبيد العماشنة، مخاطباً أمونة برفق (قبل أن يتحوّل إلى هجائها) قال:

كل شيء جميل قصير العمر. أيام الشتاء المشمسة، وليالي الصيف، والزهور التي تكسو الأرض فتصبح كبساط منقوش. الرجال ثلاثة أنواع: الكريم الذي يطعم الناس دون أن يمنّ عليهم، والفارس الذي يبث الرعب في قلوب الأعداء، وابن الليل قاطع الطريق، الذي «يضوي ولو كثرت عليه النبوح» أي يقتحم ولو كثر نباح الكلاب عليه. عدا هؤلاء «باقي المخاليق فحول نسوان ورعاة».

وأخذ يقسو في هجاء هزيم، يذكّر أن ليس له أصل ـ وكأنه وهو العبد المملوك له أصل يفخر به ـ وأنه حين يسمع حركة في الليل يسرع إلى حضن أمه. وهجا قبيلة النواعسة التي ساندته، مدّعياً أنّ أصولهم من الصلبة، حيناً، ومن الشرارات حيناً آخر.

ويروي عن إحدى المعارك بين العماشنة النواعسة حيث حدث تبادل الأحجار ثم الالتحام بالنبابيت والخناجر، وادّعى أنّ قبيلة العماشنة قد سجّلت نصراً ساحقاً، رغم عدم دقة ذلك:

أمس الضحى صارت الهيّه   بسهيلة غربي عمشير
والزلم كَتَّت مع التلعة   وتقول عالة سهل خنازير
واقع يا ديشة يا ابو الرغفان   من ضرب عيال مساطير
يا شيخنا قابل الحكام   كن جابنا بالخناتير[٣]

---

(٢) يقول زعيّل إنها كانت تقصده بهذا الكلام، ظانة أنه ينوي الزواج من آمنة، فلذلك العجوز تذكره بقوله: وأنت يا نقرا مالك مقرا   راسك كبيرن وفسّاية
معنى البيت: وأنت يا ذات الوجه المجدور، يا بخيلة (ولم تكن أمونة مجدورة الوجه ولم يعرف عنها البخل).

(٣) الصلبة: أشد القبائل. وتكوينهم الجسدي يكشف عن أصولهم الصليبية: طوال القامات بشكل مفرط، شقر وعيون زرقاء... وهم متجولون، معدمون لا تجمعهم عصبة قبلية، ولا يعرف عنهم الشجاعة أو الكرم أو الثراء. أما الشرارات فقبائل فقيرة، تعيش متجولة في الصحراء الجنوبية، =

والمسألة التي عجزت عن فهمها هي ما الذي دعا أمونة أن تخوض معركة تعلم تماماً أنها خاسرة. وإذا كان لبعض النساء أن يقررن بعض الأمور الهامة فأمّونة ليست منهن. فهي لا تملك مهابة هؤلاء النساء. كأن ترفض بنت أخ سيد القبيلة الزواج من ابن عمها لتتزوّج إنساناً غريباً، ليس له عصبية تحميه.

الأغلب أن الجواب هو غرام أمونة بالمشاكسة.

٦

تظل غريباً ـ غريباً على نحو ما ـ في داخل القرية إن لم تنتم إلى عصبية ـ قبيلة أو عشيرة ـ من عصبياتها. قد تدرك ذلك منذ البداية، وقد يخفى علَيك سنين طويلة، ثم يظهر فجأة. تشعر أنّك كنت تعرف ذلك طيلة الوقت، ولكنك أغفلته. (أغفلته لأنك لا تريد أن تدركه، لأنك خلقت لنفسك عالماً وهمياً من الانتماء، لأنك بغريزة المحافظة على الذات، وللاحتفاظ بتوازن روحي أوهمت نفسك أنّك جزء عضوي من القرية. بل إنّك في بحثك اللاواعي عن الهوية تشعر أنّ ارتباطك بالقرية أعمق من الآخرين. إنّك تجدّد انتماءك كل لحظة، وتؤكده حتى لا تفقد هويتك، حتى لا تكون غريباً).

في لحظة ما، عبر حدث درامي كما حدث لهزيم، من خلال كلمة تقال عفواً، دون قصد سيء، أو بسبب تعبير خاطف يتسلل إلى الوجه للحظة سريعة ثم يغيب، تكتشف أنّك غريب ـ كنت دائماً غريباً وسوف تظلّ دائماً كذلك ـ وأنّك، وإن عرفت

= يجدون إلاّ عباءة عفنة يسترون بها أجسادهم لذا يطلق عليهم «عيال عفنات العبي».

أما قصيدة الشاعر فتعني: ضحى أمس حدثت المعركة غربي القرية، وقد هبط الرجال من التل إلى السهل كقطيع خنازير. انهزم الشيخ الشبيه بالحجر غير المشذّب أمام رجالنا الشجعان، وشيخنا يقابل الحكّام ويحملنا بالحناتير. وقد ردت عليه إحدى نساء النواعسة بقولها:

يا راكبـاً مـن فـوق مهيوبـة ... يا معتلي مـن فـوق مهذابه
يا حيفي عليكم لا يا الشيخان ... وعلومكـم اليـوم كذابـه
يومن تسهـون مـع التلعـة ... ولويـش العـز والبابـه؟

مطلع القصيدة تقليد في الشعر البدوي حيث يصف الشاعر خروجه راكباً فرسه أو ناقته، أو يخاطب فارساً. تقول: يا حسرتي على الشيوخ، إذ أصبحت أخباره كذّابة. وإذا كنتم هبطتم من التلعة هاربين، فما داعي الكبرياء الكاذب.

القرية بكل تفاصيل حياتها اليومية، عرفت فضائحها وأسرارها وأكاذيبها وحكاياتها وأشواقها. . . كل شيء، كل شيء عنها، فإنّ هنالك سراً ما، سراً يعرفه الجميع عداك أنت، تولّد في خلوة ما، خارج الزمان والمكان، زمانك ومكانك أنت الغريب، الذي عاش وهم الانتماء؛ سراً يذاع عبر لغة سريّة، يستحيل عليك أن تعرف بنيتها، أو مفرداتها، لأنك الغريب، الذي يجهل أنّه غريب، ولأنّ الغربة قد تجذّرت فيك، فأحاطتك بسور من عدم الفهم. . وحين تفهم فأنت مخيّر بين تبني غربتك وبين إعادة نسج وهم الانتماء. . .

* * *

جاء عامر القرية لا أدري منذ متى. فتحت عيني وهو هناك. أمي لا تعرف بالتحديد متى جاء. تقول إنه لم يكن هنا قبل سفر برلك، ولكنه بعد مجيء الشريف عبدالله كان موجوداً. وكان متزوجاً ـ من زوجته، بالطبع خديجة النواعسة.

ما أعلمه أنه جاء وحيداً من فلسطين، من منطقة الخليل. عومل كواحد من أهل القرية، خاصة وأنّ بعض القبائل في القرية والمناطق المحيطة بها نزحت أصلاً من منطقة الخليل، أو هي، على الأقل، تزعم ذلك. تزوّج امرأة من النواعسة، ولم يثر ذلك أيّة مشكلة. لم تكن من عائلة الشيخ ـ كان والدها راعياً ـ ولم تكن امرأة جميلة. الأغلب أنّ باب الزواج من رجال القبيلة كان مسدوداً أمامها.

بدأ بالتجارة واستمر حتى النهاية. لم يكن أمامه طريق آخر، فلا هو صاحب أرض، ولا يملك أغناماً وجمالاً، فتح دكاناً صغيراً في الحارة الغربية، كان جزءاً من بيته ـ أم أصبح بيته جزءاً منه؟ لست أعرف على وجه التحديد ـ وأخذ الدكان يكبر، والتجارة تتسع ببطء. ولكن ولادة أربع بنات، ثم هزيم، آخر العنقود، خلقت صعوبات لم يكن تجاوزها سهلاً. واضطر في النهاية أن يكمل دخله بتهريب الحبوب إلى فلسطين عبر نهر الأردن، وتهريب الزيت والزيتون من فلسطين إلى القرية.

لماذا لم يفعل ذلك منذ البداية؟

لا أحد يعرف على وجه التحديد. ولكن عامر لم يكن يستطيع دخول فلسطين بشكل رسمي. قيل إنّه مطلوب للسلطة هناك لأنه شارك بعمليات ضدها، وقيل إنّه مطلوب لثأر. لا أحد يعرف، على الأقل أنا لا أعرف على وجه اليقين.

أذكره أبيض الوجه ضعيف العينين. ولكن كثيراً من الفلسطينيين في قريتنا كانوا

ذوي عيون ملتهبة. قالت لي أمي: ذلك بسبب قطفهم للتين، وفرك أعينهم بعد ذلك. من يستطيع أن يقطع في ذلك بشكل يقيني؟ بهذا الوجه لا أستطيع أن أتصوره يقوم بأعمال عنف ضد السلطة، أو ضد قبيلة أخرى. ولكن أمي قالت إنه كان يشكو من ذراعه الأيمن. ثم أحسّ في أحد الأيام بكتلة صلبة تتحرّك في ساعده، في منتصف المسافة بين الكوع والرسغ، ثم ضغط، وإذا برأس رصاصة يشق جلد الساعد. فأخرج الرصاصة كاملة من هناك. قالت أمي إنها رأت ذلك.

تحسّنت أمور عامر عندما زوّج بناته الأربع بسرعة غير متوقعة. ما تكاد البنت تبلغ الثالثة عشرة من عمرها حتى يتقدّم العريس. الأربع تزوجن عرساناً من قبيلة النواعسة. كنّ قويات الأجساد، لهن قدرة على العمل، وكنّ مليحات ومؤدبات، ومطالبهنّ متواضعة. لكن المشكلة كانت في هزيم، آخر العنقود.

لم يكن الولد راضياً عن قدر الفقر. لم يأخذ رفضه طابع الاحتجاج المعلن، بل صورة الحلم. كان يحلم كثيراً، وكان في كثير من الأحيان عاجزاً عن التمييز بين الحلم والواقع. لا حلم اليقظة فقط، بل أخذ يخلط بين أحلام المنام والحوادث مثيراً دهشة ـ وأحياناً ذهول ـ سامعيه. كان يروي حكايات عن قبيلته الموجودة في منطقة الخليل، كان الدم يسيل فيها كالماء، ويتحدّث، دون خجل، عن نساء فاتنات وعشّاق، وقصائد شعر...

كشف أبوه له نفسه مرّة ـ همساً وفي خلوة ـ وقال له: لسنا بدواً، نحن أهل مدن، لا نركب الخيل، وفي الخليل لا تظهر النساء سافرات. وأضاف عامر: الفلسطيني لا يفخر بمثل هذه الأمور، بل يفخر لأنه حارب الإنجليز واليهود.

لم يفهم ابنه شيئاً مما قال. فلم يعد إلى حديثه هذا مرّة أخرى. قال لنفسه: الولد نصف مجنون، وقد يذيع على الناس ما قلته له. لم يذع هزيم شيئاً مما قاله له أبوه، ولكنه أخذ يحتقر الفلسطيني في داخله بعمق، فنفاه، وتبنّى نصفه البدوي بقوة مضاعفة.

كان الولد طويلاً، نحيلاً، في تقاطيع وجهه فتور حالم؛ له بسمة تشيع في وجهه وتثبت، تظل طويلاً دون تغيير، فكانت تزيد وجهه رقة، وتطبعه بلمسة أنثوية. نجح في إقناع أمه ـ ورضخ أبوه وهو يحوقل ويبسمل ـ أن يغطي أحد أسنان فكه الأعلى ـ في المنتصف تقريباً ـ بقشرة ذهبية، فأصبح فمه رطباً، برّاقاً، وخاصة حين يبتسم

ابتسامته الممتدة.

كانت طلبات هزيم لا تقف عند حد. وكان لهذه الطلبات نسق لم يفهمه الأب إلاّ متأخراً. أخذ يلحّ على أبيه في شراء خنجر، وأخذ يصف الخنجر: قصيراً، مطلياً بالفضة. مزخرفاً بقطع زجاجية حمراء وخضراء وزرقاء، ثم إنّه معوج قليلاً، لم ينتبه الأب ولا أحد غيره، في حقيقة الأمر، إلى أنّ الولد كان يصف، بأقصى قدر من الدقة خنجر تركي العماشنة.

- وايش بدك تسوّي في الشبرية؟ (١)

في ذهن الأب لم يكن الخنجر سلاحاً مناسباً. كان يراه مجرّد زينة. السلاح بالنسبة له، هو البندقية والمسدس. لم يجب الولد على سؤال أبيه. كان سؤالاً بلا معنى. كأنه سأله: ماذا تريد من العينين؟ كانت العوالم الداخلية للاثنين متباعدة تماماً إلى درجة انعدام التواصل، لم يكونا يدركان ذلك. أخذ الصبي يلح، فقط يلح:

- بدي شبرية.

لم يكن أحد يعلم أن لمطلب الخنجر، وكذلك السن الذهبية.. مصدراً آخر، غير تركي العماشنة. حادثة وقعت ولم تثر انتباه أحد ولكنها تركت أثراً عميقاً في نفس الصبي. كان يقف مع مجموعة من الصبية أمام باب أحد الدكاكين. جاءت مجموعة من الغجر. دخلوا الدكّان ليشتروا حاجياتهم. همس له أحد الصبية. «الدّعَ البنت» قال هزيم «بنت؟ وينها؟» قال له الصبي إنها لم ترفع عنه عينها منذ جاءت.

رأى الغجرية. حين التقت عيونهما ارتعش جفناها، ولكنها ظلّت تنظر إليه، كان لها وجه صغير، وعينان سوداوان كبيرتان، وأنف صغير أنيق. اقترب منها فارتعش جسدها ارتعاشة راقصة تخللته كله كالموج، واستدارت عيناها واشتعلتا. ثم ابتسمت له بسمة مبلولة، ولمع السن الذهبي في فمها. كان هزيم كالمنوّم. سألها بصوت مرتعش:

- وين ساكنين؟

أشارت بيدها وقالت:

---

(١) الشبرية، الخنجر باللهجة الدارجة.

ـ غرب.

وعندما صمت، قالت:

ـ تعال عندنا. نصنع شباري زينة.

وانصرف الغجر، وعاش هزيم دوار ارتعاشة الجسد الراقصة، والفم المبلول، والسن الذهبية. وأمضى ليلته نصف مستيقظ، يستعيد ما حدث كحلم رائع، مرهق. وفي الصباح اتجه إلى مضارب الغجر. لم يجدهم. كانوا قد ارتحلوا. وجد راحة في ذلك. ولكن منذ تلك اللحظة ولد حلمان: حلم السن الذهبية، وحلم الخنجر. كما تولّدت قناعة غامضة أنّه لا توجد امرأة تقول له: لا.

فاجأ هزيم أهله، يوماً، بطلب غريب. أراد من أبيه أن يشتري له فرساً أصيلاً. إبْن بقال صغير، يعيش على الكفاف ويريد أن يمتلك فرساً أصيلاً. شيء لم يسمع به أحد من قبل.

ـ إيش بدّك فيه؟

سأله أبوه. تعلم الصبي أنه إذا ناقش فسوف يخسر. الإلحاح، دون إبداء الأسباب، هو الذي بإمكانه أن يحقّق شيئاً. قال الولد بلهجة بدوية جعلت والده يطالعه بدهشة:

ـ أريد فرس، ودي فرس.

ابتسمت الأم فرحة للهجة، وقالت:

ـ وشتريد منها وليدي؟

شعر الأب أنّ عليه أن يوقف الولد عند حدّه. لم يتعوّد أن يضربه، ولكنه شعر أنّه لا بد أن يلجأ إلى ذلك إذا لم تنجح وسائل الإقناع. قال بصوت هادئ، ولكنه مشحون بغضب كامن:

ـ شوف يا ابني، لو بعت البغل والدكّان والدار... سامعني؟ لو بعتها كلها وحطّيت أمك فوق البيعة ما كفّت ثمن الفرس. فهمت؟ (وعلا صوته) منين أجيب لك؟ فهّمني، منين أجيب لك؟

قال الصبي:

ـ بدي فرس.

قالها مبرطماً.

قال الأب مستنجداً بالأم، أو ربما بالسماء:

ـ بعده بقول بدي فرس. لا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلي العظيم، (وعلا صوته) اضرب راسي بالحيط!

قال الصبي:

ـ تركي العماشنة أحسن مني؟

بدا أنّ أعصاب الأب كانت على وشك أن تفلت منه. يقارن نفسه بتركي، الشيخ المقبل لعشيرة كبيرة يزيد تعدادها عن ألف، تملك أرضاً تمتد مسيرة يوم لراكب الفرس! ولكن الأم تدخلت بابتسامتها. قالت:

ـ القى خير يا رجل!

وعندما نظر إليها، رأى الوجه الذي يحبه، وجه المرأة التي ما تعوّد قط أن يسيء إليها، رأى ابتسامتها، أدرك أنها تنوي حل المشكلة بنفسها. فأدار ظهره ومضى، وكأنّه يقول لها: «تصرّفي».

عند العصر ذهبت إلى الشيخ محمود المغربي وحكت له كل شيء، وطلبت أن يهيئ حجاباً لابنها. قال لها الشيخ إنه لا داعي للحجاب، هزيم صغير، وهو في سن الطيش، اصبري عليه. أعادت له الأم ما روته قبل قليل، وقالت: لا بد له من حجاب. رأى الشيخ إصرارها، فقال:

ـ ارجعي بعد يومين.

وعادت. ولكن الحجاب لم يؤد إلى نتيجة. حقيقة الأمر أنّ المسائل ازدادت سوءاً. فقد أصبح الولد أضحوكة بالقرية. صار يتحدّث بجرس الرجل الناضج، فيحاول تخشين صوته، فلم ينجح إلاّ في جعله مختنقاً. وقد أخذ عدد من مهرّجي القرية يقلّدون ذلك الصوت فيثيرون المرح والضحك الصاخب بين السامعين. كان يقول: «إحنا النواعسة...» لا نرضى بهذا الشيء أو ذاك. كان الولد وأهله، في حقيقة الأمر، محسوبين على النواعسة، ولكن تحدّثه بهذا الأسلوب أبرز بقوة أنّه مجرّد ابن بقّال لا ينتمي إلى قبيلة معروفة، وأنّه مجرّد ملحق بالقبيلة، وخاصة أنّه لم يكن مفخرة أو متميزاً حتى تفخر القبيلة بانتمائه إليها.

كان الولد يتمتّع بموهبة التمثيل. أصبح يتحدّث بذلك الأسلوب المتزن، الرصين، المقتضب الذي يتحدّث به زعماء القبيلة، بل أصبح يتقمّص تعبيرات الوقار التي ترتسم على وجوه الكبار، عندما يتحدّثون إلى من هم أقل منهم شأناً، فيسبل جفنيه، ويتحدّث ببرود، والأنف متقلّص، ينبئ بأنه قد يفقد السيطرة على نفسه ويتحوّل إلى العنف. كما أتقن أسلوب الحديث الذي يجعلك تعتقد أنّه يعرف الكثير، ولكنه لا يبوح إلاّ بالقليل جداً.

لم يكن أسلوب الحديث فقط هو ما يثير دهشة ساميعه، بل ما كان يقوله هو الذي جعل أهل القرية يعتقدون أنّه في طريقه إلى الجنون، إن لم يكن قد جنّ فعلاً. أخذ يتحدّث عن نفسه ـ إيماء دون تصريح ـ باعتباره أحد المقرّرين في القبيلة. وقد بلغ في ذلك حداً لا يصدّق، حين قال: «إحنا ما نعطي بنتنا لفلاح». وكان يشير إلى تقدّم أحد الأثرياء في القبيلة لخطوبة ابنة فارس النواعسة وأشجع رجالها لولده. وقد أصيب بالحزن فعلاً حين تمّت الخطوبة.

قال والده لأمه: لقد جنّ الولد. ما نعطي بنتنا لفلاّح، وإخواته الأربع قد تزوّجن مرابعية، لا يملكون حتى الأرض.

لم يعد الأب يتحدّث إلى ابنه، وقد ظلّ حتى نهاية عمره يعامل ابنه ببرود، والابن لم يكن يخفي ضيقه أن يكون مثل هذا الأب. الأم وحدها كانت سعيدة بهذا الابن الذي أصبح يتحدّث اللهجة البدوية، ويعتزّ بأخواله كل هذا الاعتزاز، وقد أخذت ملامح الرجولة والنضج تلوح عليه في سن مبكّرة. كانت تضحك عندما تسمع حكايات ولدها فرحاً، وتمتلىء عيناها بالدموع.

احتاج الولد إلى مرور وقت طويل، وبعد وفاة والده بما يزيد على عشرين عاماً، لأنْ يستعيد الوجه الآخر لأبيه وأن يفتخر به. لقد فهم سر أولئك الفلسطينيين الغامضين الذين كانوا يثيرون ضيقه. فقد كانوا يأتون ليأخذوا السلاح الذي كان والده يجمعه سراً. وأصبح يفتخر أنّ والده كان محكوماً عليه بالإعدام لأنه رفع السلاح في وجه الإنجليز، ويفتخر كذلك أنّ أحد قادة ثورة ١٩٣٦ نام في بيتهم (بعد أن انتهت الثورة) وهو في طريقه إلى العراق.

٧

لكن الولد عقل فجأة، وأذهل الجميع بحذقه ومهارته في التجارة، مما جعله واحداً من أثرياء القرية المعدودين. ما زال الكثير من الحقائق المتصلة ببداية عمله في التجارة غير واضح. كيف أدرك هذا الولد، نصف المعتوه أنّ تجارة الحبوب (القمح والشعير والعدس والحمّص) ستكون لها كل هذه الأهمية؟ومن أين جاء بالنقود ليبدأ بها العمل ؟ وكيف استطاع أن يقيم العلاقات الضرورية مع تجّار عمّان؟ وكيف ومتى تكوّنت هذه العلاقة بينه وبين مسعد؟ بل كيف استطاع أن يأمن لمسعد، ذلك المراوغ، الشرس، المخادع؟

كلها أسئلة لا تجد إجابات عليها سوى بعض التخمينات، أو الأكاذيب الواضحة. قال البعض إنّ أمه باعت أساورها وأعطته النقود. وقال البعض إنّه مسعد الذي رأى في هزيم واسطة مقبولة لشراء الحبوب من المسلمين، فوضع بعض المال بين يديه، وجعله شريكه، وأنه من خلاله استطاع أن يقرض بالربا بعض أفراد قبيلة النواعسة، ثم يستولي على أراضيهم فيما بعد.

المهم أنّ هزيم أصبح شخصاً جديداً. بنى مخزناً كبيراً للحبوب، وكان أول من استعمل الإسمنت في البناء، بدلاً من الطين المعجون بالتبن الذي يضعه أهل القرية بين الأحجار عندما يبنون بيوتهم ، وهو أول من بنى بناء بطابقين، إذ أنّ جميع أهل القرية يبنون دورهم من طابق واحد. وهو أول من أدخل سيارة شحن ـ بالاشتراك طبعاً مع مسعد ـ إلى القرية، وأخذ يحمّلها بالحبوب لتباع في عمّان، أو بالركّاب من أهل القرية. كان مسعد يسوقها، قبل أن يدخل الباص القرية، ويصبح سائقه.

أما عامر، والد هزيم، فقد أخذ يهرم ويتآكل بسرعة كبيرة. ابيضّ شعره، وأصبحت عيناه حمراوين، دامعتين على الدوام. كان يسرع إلى القبر وكأن يداً خفيّة تدفعه بتصميم إليه. كما أدمن الصمت. لقد أعلن الابن انتصاره في ذلك الصراع الصامت مع أبيه، إذ في الوقت الذي أخذ الأب يقترب من القبر بدا هزيم شاباً قوي الجسد، فاتناً، ثريّاً محسوداً من أهل القرية، وأصبحت قبيلة النواعسة تفخر بابن بنتها. كانوا يشيرون إليه ويقولون : «ثلثين الولد لخاله».

كانت الضربة القاضية بالنسبة للأب، هو موقف الأم التي أعلنت بقسوة انحيازها

للابن. إنّ ما كان بين عامر وزوجته على مدى خمسة وثلاثين هو قصة حب ومودة صافية. كانت الزوجة ملاذه في غربته، وموضع سرّه. وكانت وحدها القادرة على فهم عالمه السري، عالم السلاح المهرب، والحرب ضد الإنجليز واليهود، والرجال الغامضين الذين كانوا يزورونهم دون أن يثيروا أيّة ريبة. كانت ترى في زوجها صورة بطل يختفي في ثياب بقّال، وكان سرّه موضع فخر صامت. ثم فجأة انقلبت عليه. فتنها الابن فأصبحت عاشقة، وباحت للابن بأسرار أبيه. قالت له إن والده يلعب ـ سراً ـ بالنار. وكانت معركة شرسة بين الاثنين وقفت فيها الأم إلى جانب الابن، وانهزم الأب وأعلن أنه لن يواصل شراء الأسلحة ودلّ ابنه على المخبّأ منها. وتخلّص الابن منها بسرعة. وكان الأب قد ذعر حقاً عندما قال له هزيم: لو عدت إلى ذلك فسأبلغ عنك الدرك.

قال الأب للأم بأسلوب شاك لم تتعوّده منه:

ـ يسلّمني للدرك؟

قالت الأم بقسوة.

ـ تريد يحطّوه بالسجن؟

ـ وانت كمان؟

قال الأَب، وهو يشعر بأنه وحيد تماماً وخائف.

قالت الأم:

ـ إنت كبرت، ورجلك في القبر، وابني عمره قدّامه.

تساءل الأب: كيف أصبحت زوجته بهذه الشراسة؟ وصمت وأخذ يتآكل. والمؤلم حقاً أنّه سار إلى القبر، دون أن يسمع كلمة عزاء واحدة من الزوجة والابن وقبيلة النواعسة. شعر أنّهم قد حكموا عليه، في قلوبهم، بالموت. كأنهم يقولون: موتك راحة وسعادة للجميع. وشعر أنّه، بإصراره على الحياة، يطيل مزاحاً ثقيلاً لا يستسيغه أحد.

وسار عامر إلى القبر، ولكنه ـ لدهشة الجميع وغيظه هو شخصياً ـ توقف قبل آخر خطوة. توقّف هناك طويلاً، وكأنّه سيعيش إلى آخر الدهر. أصبح عجوزاً جداً، ولكنه يرفض أن يموت.

Abu Abdo Al Bagl

٨

لم تكن، طبعاً، المرّة الأولى التي يرى فيها هزيم آمنة. الجميع في القرية يعرفون بعضهم، بهذا القدر أو ذاك. ولكن التواصل بين الجميع ليس على درجة واحدة من العمق. والعلاقات ليست ثابتة ـ كما قد يتصوّر البعض العلاقات داخل المجتمع القبائلي ـ بل هي دائمة التغيّر، قوة أو ضعفاً.

الواقع أنّ هزيم لم ينتبه لحضور آمنة. لم يكن دقيق الملاحظة ولا بالغ الانتباه لما يدور حوله. كان مستغرقاً في عالمه الخاص معظم الأوقات. كان مسعد هو الذي نبهه لها. وعندما التفت إليها التقت عيونهما. شعر أنّ وقتاً طويلاً قد مضى وهما يحدّقان ببعضهما. شعر في البداية كأن صدمة كهربائية قد تخلّلته. ثم أراد أن يكبّلها، يمسك بها ولا يفلتها أبداً، بعينيه. وعندما انصرفت كان جسده يرشح بالعرق، واكتشف أنّ مسعد يخاطبه بشيء لم يتبيّنه.

واستقرّ على قرار: سوف يتزوّج آمنة. بدا له أن هذه المسألة محسومة منذ زمن بعيد، لأنها تندرج في سياق حياته كلها: منذ حدّقت به النورية بكل تلك اللهفة وهو متيقن أنه لا يوجد امرأة تستعصي عليه. كان عليه أن يشير فقط فتتهاوى بين ذراعيه. وآمنة مسماة زوجة لابن عمها تركي العماشنة، وهو منذ طفولته يشعر بعداء وحقد على تركي، ويشعر أنّه سيكون زعيم النواعسة، مركزه سوف يسعى لإذلال تركي. لهذا اعتقد هزيم أنه يطيع قدراً لا يُرد عندما يتزوّج آمنة.

الغريب أنّ هزيم في أعماقه لم يكن مفتوناً بآمنة، ولا متحمّساً للزواج منها (أو هكذا تصوّر) ولكنّه يقدم على هذه الخطوة لأنها واجب رأى نفسه مدفوعاً إليه. كان يعلم أنّ إشكالات كثيرة سوف تعترض طريقه، وأنّ صعوبات سوف تقف أمامه وستبدو أنها لا يمكن التغلّب عليها ولكنّه كان يعلم أنها سوف تكون له في النهاية. ودّ لو أنّ هذا الواجب لم يفرض عليه.

عندما تحدّث إلى أمّه عن آمنة، بدا له الذهول الذي استولى عليها أنّه جزء من العقبات التي سوف تنشأ وتذوب. كان ما يحدث بالنسبة له، هو مسلسل درامي عربي (مع أنّه في ذلك الوقت لم يشهد أو يتابع مسلسلاً من هذا النوع) تقوم العقبات وسوء التفهم والمؤامرات، ويتابعها المتفرج ولكنه يعلم يقيناً أنّ البطل سوف يتزوّج البطلة.

قال لأمّه، بشيء من الضحك، ألم تكن هي التي تطلب إليه أن يتزوّج ، وتلح في ذلك؟

قالت الأم:

ـ آه، لكنها على اسم ولد عمها.

وهي تشعر أمام الثقة والبرود اللذين يتحدّث بهما أنها تقول شيئاً سخيفاً، وغير لائق. فقال لها إننا سوف نتقدّم. إذا قبلوا بي تزوّجت، وإذا رفضوا أمرنا لله. كان ذلك، كما ترى الأم، رائعاً إلى حد لا يصدّق غير أنّه مستحيل. ولكنها لا تستطيع أن تعترض. أحسّت بنفسها تسير نحو هوّة سحيقة، ولكنها عاجزة عن التوقّف.

رأى الخوف والتردّد على وجه أمه فسألها مندهشاً:

ـ تركي العماشنة أحسن مني؟

قالت وهي تختنق:

ـ لا وليدي، بس تركي ولد عمها...

قال بغضب:

ـ تركي ولد عمها، تركي ولد عمها! ما عندك غير هالحكاية!

صمتت. وتركي بقامته القصيرة، حين يتحدّث يهدر كالجمل، فلا تفهم ما يقول، وعيناه الصغيرتان على جانبي أنف ضخم... كيف يمكن مقارنته بهزيم. وبشبه حدس رأت أنّ آمنة لهزيم، وأنّ ذلك منطق الأمور. أحسّت أنّ ذلك شيء يخيف ولكن لا بدّ من حدوثه. لقد تقمّصت إحساس هزيم دون أن يشرحه لها. إنّ عشرات الحكايات تعيد نفسها هنا: الفاتنة للشاب الجميل.

قالت:

ـ عساه خير.

وذهبت في اليوم التالي لزيارة أم آمنة. في ذلك البيت الكبير العامر بعشرات الأولاد والعبيد والغنم والضيوف شعرت أنّ ما هي مقدمة عليه أمر غير معقول. لم يستغرب أحد حضورها، ولكنها استقبلت دون حماس كبير؛ فالبيت مفتوح للجميع، ودائماً ممتلىء، ضيوف من الرجال والنساء، ولا يحتفى بالضيف إلاّ عندما يكون له مكانة خاصة. وأم هزيم ليس لها مكانة خاصة.

قالت لنفسها إن من المستحيل أن تختلي أصلاً بأمّونة، فكيف تكلّمها عن سبب زيارتها ولكن الأمور سارت بأيسر مما يحدث في الحكايات. جلست أمونة بجوارها وهمست لها:

ـ وراكي شي.

قالت:

ـ إيه بالله.

وأدركت فجأة أنّ المحظور قد وقع، فارتبكت واحمرّ وجهها، ولم تعد بقادرة أن تقول كلمة واحدة. كانت أمونة تنظر إليها بدهشة بتعبير من يتوقع الإيضاح. ولما لم تقل الأخرى شيئاً، قالت بحدّة:

ـ علامك؟

ولكن أم هزيم عجزت عن الرد. نهضت أمونة وتناولت دلّة القهوة وصبّت فنجاناً وقدّمته للمرأة المرتبكة. ثم أعادت الدلّة إلى الموقد وجلست مرّة أخرى بجوار الضيفة، وصمتت تاركة إياها تستعيد سيطرتها على نفسها. قرّرت أم هزيم أن تفصح عن غرض الزيارة، وليكن ما يكون. قالت:

ـ نريد آمنة لهزيم.

بدت الدهشة على وجه أمونة، ولكن ما توقعته أم هزيم لم يحدث. توقعت من هذه المرأة المعروفة بشراستها وسلاطة لسانها أن تنطلق زاعقة، شاتمة، فاضحة. غير أنها اكتفت بالصمت. ثم نهضت وغادرت الحجرة إلى الحوش. عاشت أم هزيم لحظات رعب حقيقية. تصوّرت أنّ المرأة تعد لها تدبيراً رهيباً، وأكثر ما أرعبها أنها عاجزة عن فهم ما يعد لها، وسوف تكون عاجزة عن الردّ. ولكن أموّنة عادت وابتسمت، وقالت لها:

ـ عاودي بعد يومين، ثلاثة.

لم تصدّق أنها نجت، ونهضت متعجّلة. طلبت إليها أمونة أن تبقى للغداء. قالت إنها يجب أن تعود بسرعة لتعد الغداء لابنها، وانصرفت.

وهي في الخارج فقط أدركت أنّ كل شيء قد تم بأيسر وأسرع مما كانت تتصور.

بل إنّ شعور التفاؤل قد جعلها تتصوّر أنّ جميع العقبات قد زالت، وارتسمت في خيالها صورة ملأتها بالاعتزاز: بنت الأكابر آمنة تقول لها: يا عمّة.

٩

لم يفاجأ هزيم بالأخبار التي نقلتها إليه أمه. فقد كان واثقاً من النتيجة. شعر بشيء من الضيق. ودّ لو أنّ آمنة، أو أهلها، أبدوا قليلاً من التمنّع. لقد منحت نفسها له بسهولة. واستعاد تلك النظرة التي ألقيت عليه، فشعر أنّه وقع في مصيدة. لو ترك الأمر له لتخلّى عن هذا المشروع، ولكن ماذا يقول لمسعد؟ لقد شارك مسعد في دفعه إلى هذا كله بطريقة غير مفهومة؛ وهو حين يشعر أنّ المضي في مشروع الزواج واجب لا فكاك منه، فإنّ ذلك يعني أنّ عليه ألاّ يخيّب أمل مسعد فيه.

ولكن ماذا قال مسعد، وكيف فرض عليه هذا الواجب؟ لا يذكر أنّ مسعد قد قال شيئاً محدداً. كان يصغي فقط. ولكنه بهذا الإصغاء قد ألزمه بأن يمضي في خطّة الزواج من آمنة، التي أصبحت، بالنسبة له، امرأة تخيفه أكثر مما هي امرأة معشوقة. بدت وكأنها تأمره بفعل بذيء، وربما، بشكل لم يكن يعيه، شعر أنّها تغتصبه بتصميم، ودون أن يستطيع أحد أن يقف أمامها، أو يمنعها.

ولكن ما حكاية العاشق الذي دمّر نفسه من أجل آمنة؟

لقد حدث ذلك فيما بعد. وذلك حين انفجرت الأزمة كاسحة، كادت أن تؤدي إلى حرب دامية بين العماشنة والنواعسة (لقد فجّرتها أمونة بحماقة حين طرحت المسألة، وكأن كل شيء قد تمّ. قالت لقد اتفقنا على كل شيء، وإن الزواج سوف يتم قريباً، فدفعت الأمور إلى أقصى حدودها منذ البداية. وعندما هدّد العماشنة هزيم رأى النواعسة أنفسهم مضطرين إلى حماية ابن بنتهم، وأعلنوا أنّهم سوف يقفون إلى جانب هزيم مهما حدث. حدثت مشاجرات فردية، وقيلت أشعار، ووُصفت معارك لم تحدث. الواقع أنّ الأسطورة التي بنيت بعد ذلك، والصورة التي رسمت لانتصار تركي الحاسم، وأنّ القرية انشغلت سنين بهذه الحادثة لا صحة لهما ـ أعني الأسطورة والصورة. إنّ المسؤول عنهما الشاعران أبو نزّال، عبد العماشنة، وزعيّل، ورغبة القرية أن تخلق أسطورة وتعيشها. كما أنّ أفعال هزيم الحمقاء بعد ذلك، والتي أدّت

إلى وضع كاد أن يكون مفجعاً، وضعت هذه الأفعال في إطار الأسطورة. الواقع أنّه منذ البداية كان النواعسة يتصرّفون بردود الفعل. لم يكونوا يريدون لما حدث أن يحدث. كيف يمكن لمن مثل هزيم، وهو في نهاية الأمر ليس ابن قبيلة، أن يأخذ فتاة من ابن عمها، وخاصة عندما تكون الفتاة آمنة، ويكون ابن العم تركي العماشنة، وكان العماشنة يعرفون هذا، ولا يأخذون إعلانات النواعسة بالحرب بشكل جدي. وتم حسم المسألة بسرعة. (لم تستطع أمونة أن تفعل شيئاً، ولكنها لم تتوقف عن الكلام والشجار. ولكن من يهتم بأمونة).

حب هزيم لآمنة بدأ حين أصبحت مسألة الزواج من آمنة محسومة لصالح تركي، وإن لم تتخذ الخطوات الرسمية للزواج. لقد تأخّر بضعة شهور بسبب وفاة عم تركي ـ مساعد ـ العجوز جداً والخرف جداً، والذي لم يكن له أيّة قيمة طيلة حياته.

في هذه الفترة بالذات بدأت تصرّفات هزيم الغريبة. قال له أبوه ـ وهذه من المرّات القليلة التي رأى أنّ عليه أن يقول شيئاً لابنه:

ـ رايح تكون نهايتك مثل نهاية زعيّل.

ولكن هزيم ثار وأغلظ القول لأبيه. اتهمه بالجنون وتوعّد أن يقيّده ويدق له وتداً يربطه به، كما يفعل أهل القرية مع المجانين.

جمع هزيم حوله مجموعة من صعاليك النواعسة، وجعلهم رجالاً له، كما أخذ يقيم الولائم لرجال النواعسة، ويصرف الكثير من النقود على شئون القبيلة. والواقع أنّ أحداً لم يتقدّم لنصيحته، إذا افترضنا أنّ هزيم سوف يتقبّل النصيحة. حتى مسعد لم يقل شيئاً. وكان منطق القرية: إذا أردت أن تدمّر نفسك فلن يمنعك أحد. أكل أهل القرية من طعامه ومدّ الكثيرون أيديهم لماله، وامتدحوه، وهم خلال ذلك يخفون ضحكاتهم.

ولم يتصوّر أهل القرية أن هزيم سوف ينتهي إلى مجرّد وكيل لمسعد يفعل به ما يشاء. فهو وقد اغتنى بشكل غير مفهوم تصوّروا أنّ الفقر لن يناله أبداً.

١

في نزهتنا المعتادة قلت لبطرس إنني سوف أسافر غداً إلى عمّان. رأيت في وجهه حزناً حقيقياً، حزناً غريباً عليه. سرنا صامتين. لقد انتهى موسم الحصاد، وعلى جانبي الطريق كان القصل المتبقي من بعد حصاد القمح يضفي على الأرض إحساساً بالعري. فراغ الأرض من الحصّادين واللاقطات جعل الأرض تبدو معتمة. مرّ بنا صبي يركب حماراً. صاح متهللاً:

ـ الله يمسّيكم بالخير يا أساتذة.

قلت له:

ـ أنت ابن مين؟

قال:

ـ أنا ابن جدّوع راعي صليبا؟

قلت وأنا أكتم الضحك. تخيّلت أنني أرى في وجهه شبهاً لصليبا. انصرف الصبي، وسألني بطرس:

ـ رايح تطوّل؟

ـ نعم؟

كنت أفكّر في زوجة جدّوع وصليبا. قال بطرس:

ـ رايح تطوّل في عمّان؟

ـ ما بعرف. أسبوعين، ثلاثة.

كان يتألّم، وقال:

ـ شهر يعني.

Abu Abdo Al Bagl

ـ تقريباً.

كنا قد اقتربنا من حافة الهضبة. ظلال جبال القدس غطّت البحر الميّت وأخذت تزحف إلى الجبال الشرقية التي كنا نجلس على قمّتها. نهر الأردن بدا كثعبان أسود بين مزارع الخضار الخضراء والأرض المحصودة، التي كانت مزروعة قمحاً. وادي الأردن أصبح مهجوراً. لم نكن نستطيع على هذا الارتفاع أن نرى البشر والحيوانات، أصبح مهجوراً لأنّ الشمس كانت تقطنه.

كان بطرس يجلس صامتاً. عيناه متوترتان بحزن رقيق، لامعتان بغشاء رقيق من الدموع. لأول مرة أراه هكذا: حزيناً صامتاً.

قلت:

ـ يمكن أقل من شهر.

قال:

ـ لولا القروش.

ثم صمت ولم يتم جملته. أخذت الشمس تهبط بسرعة نحو الغياب، راسمة خطّاً لامعاً يؤطّر جبال القدس: بالقرب منّا رأيت طائر الحجل يمشي بسرعة كبيرة على الأرض. نهضت وأمسكت حجراً ورميته به، فانطلق الطائر كالقذيفة. كتلة سوداء تتجه نحو الشمس الغاربة. تابعني بطرس بعينيه إلى أن جلست، ولم يقل شيئاً. تسرّب حزنه إليّ. غابت الشمس وأخذت الظلمة تصعد من الوادي سمراء مائعة. وامتلأت السماء الغربية بغيوم برتقالية ووردية وحمراء. وأضاءت أنوار القدس الكهربائية والسماء البرّاقة جعلت الأضواء مجرّد كرات شفّافة.

في تلك اللحظة خطر لي أن أكتب رواية طويلة جداً عن شاب أحبّ فتاة جميلة ورقيقة كالزهرة، تصاب بالسل وتموت. وأخذت عبارات تتداعى في ذهني «كان القمر كبقعة دم في وسط السماء الشاحبة».. «عند الغروب كان شبحها يتجلّى على قمة الجبل الذي تختفي وراءه الشمس... شبحاً مضيئاً يرتفع ليصبغ السماء بألوانه النارية الدامية».. كان الحبيب يسكن قلعة مهملة على قمّة جبل، قلعة تلتقط الريح التي تصخب في سراديبها لتحوّلها إلى نواح يستمر طوال الليل. وفي الشتاء يجلس وحيداً يصغي لزئير الرياح وهي تعصف بين الأشجار العملاقة.

ازداد لمعان أضواء القدس عندما سقطت الظلمة. خيّل إليّ أنني لو أصغيت بعناية لسمعت ضحكات الناس هنالك. أخذت أحلم أن أبني بيتاً على الحافة المطلة على الوادي. تصوّرت نفسي في داخله والثلج يغطي الدنيا حولي، وأنا وحيد. وحيد؟ خضرا، لا بل سلطانة معي. الليلة سوف أزور سلطانة.

عدنا صامتين. ودّعته أمام باب داره. قال إنه سينتظرني غداً عند الباص ليودّعني. قررت أن أمرّ على مسعد في بيته وأقول له بأنني مسافر غداً ليحجز لي مكاناً في الباص. لم يكن هنالك حاجة إلى ذلك ولكن رغبة لا تقاوم ألحّت عليّ أن أرى سلطانة.

بحكم العادة كدت أدخل بيتنا، ولكنني تنبّهت في آخر لحظة وواصلت سيري إلى الحارة القبلية.

٢

رغم الظلمة، ورغم أنني لم أقابل أحداً، شعرت أنّ عيوناً ترقبني وأنا أسير في الحارة الشرقية، حتى أصل الطريق التي تصعد إلى الحارة القبلية. فكّرت أكثر من مرّة أن أعود ولكن وجه سلطانة كان يبرز أمامي فأواصل المسيرة. وأمام بابها استولى عليّ الرعب. ماذا جاء بي؟ ماذا أقول؟.. ولكنني دققت الباب. وكأنها كانت تقف خلفه؛ قالت:

ـ جريس؟

قلت:

ـ كيفك يا أم أميرة.. أنا جاي..

جذبتني من يدي إلى الداخل وقالت:

ـ أهلين..

وسمعت صوت أميرة تقول:

ـ مين؟

Abu Abdo Al Bagl

قالت سلطانة:

ـ ضيف عزيز. جريس.

وارتفع صوت أميرة كالفضيحة:

ـ أهلين وسهلين: كيف عملتها؟

بعد هذا الترحيب لم يعد بإمكاني أن أقول إنني جئت لمجرّد أن أحجز مكاناً في الباص. كان ذلك سوف يبدو مضحكاً ومهيناً في الوقت نفسه. أدخلتني سلطانة في حجرة لم أرها من قبل، واستغربت أن يوجد مثلها في القرية. كان فيها كنبات مغطّاة بقماش بفتة بيضاء، وسرير نحاسي مرتفع مغطّى بشرشف أبيض مطرّز بورود متعددة الألوان، وفي صدر الحجرة صور فوتوغرافية معظمها لأميرة، واحدة منها بالألوان، كبيرة ومحاطة بإطار مذهب ضخم. كانت الأرض مفروشة بذلك السجّاد الرخيص الذي نسميه في القرية قطيفة، ولكنه ككل شيء في الحجرة كان زاهياً يوحي بالنظافة.

قالت أميرة:

ـ أخيراً، أخيراً، أخيراً...

كانت ودودة، ومرحة بتحفّظ.

أحياناً تحدث الأشياء وكأنها حلم يقظة يتحقق. لم يكن مسعد موجوداً خرج بسيارة الشحن ولن يعود إلاّ في ساعات الصباح الأولى. بشارة نائم منذ الغروب (دائماً ينام عند الغروب) وكذلك الأولاد. الجدّ في حجرته (جدّ مسعد وبشارة) ولا يعيره أحد اهتماماً (نادى مرّتين خلال جلوسي ولكن بدا وكأنّ المرأتين لم تسمعاه). كل شيء أعدّ لأبقى مع المرأتين.

وكأن المرأتين قرأتا أعماقي التي كنت أخفيها حتى عن نفسي، فأصبحت أميرة الصديقة المرحة، الودودة، المتواطئة، المحتشمة حيناً، والبذيئة حيناً، وأصبحت سلطانة العاشقة التي تعبّر عن نفسها بوقار، وتجاهد رغبة جامحة.

حدث وسلطانة تضع يدها فوق يدي، وعيناها مسلطتان عليّ أن نهضت أميرة وقالت:

ـ رايحة أشوف الأكل.

وخرجت.

كان وجه سلطانة قريباً، وجهاً معذّباً بما يشبه الخوف. كانت تلهث قليلاً، ووجهها الذي انسحب اللون منه جعلها كالمريضة، وعيناها العسليتان كبيرتان، مستطيلتان تضيئان بنور قرمزي. أحسست ـ بحياء المراقب ـ أنني مطالب أن أفعل شيئاً. ولكن ماذا أفعل لوجه يملؤه الخوف، وقد تكون عليه غشاء من العرق؟ ولكن هل هو الخوف الذي جعل شفتيها تنفرجان، وفمها ينفتح كأنها تتوقع أن أضع قطعة حلوى في فمها؟ ما هو المطلوب مني ؟ امتد لسانها أحمر مدبباً، رقيقاً ولعق منتصف شفتها العليا، وفي الوقت ذاته أخذت يدها تضغط بتشنّج وقوة على يدي.

فجأة رفعت يدي إلى شفتيها وقبّلتها. ثم ملت لأقبل فمها. لم تبتعد، بل قالت هامسة لاهثة:

ـ أميرة.

هل يعني هذا أنّ أميرة غير متواطئة؟ لم أقبلها، ولكنها وضعت وجهها في نحري، ثم ابتعدت وأسندت رأسها على مسند الكنبة، مغمضة العينين، تلهث وقد اكتسى وجهها بطبقة من العرق. لهاثها يدفع النهدين إلى أعلى ويخفضهما، النهدان ما زالا صلبين، متماسكين.

لم تكن رغبة تلك التي كانت في داخلي، بل عشقاً أعاد تكويني. كانت لحظة زال فيها ذلك التعارض بين الرغبة والحب، لحظة تجاوزت فيها قيم القرية التي ترى في سلطانة وبنتها امرأتين ساقطتين. وددت أن أبلغها بهذا التحوّل في داخلي، فتّشت عن كلمات فلم أجد. قلت:

ـ سلطانة.

قالت وهي ما تزال مغمضة العينين:

ـ همه؟

قلت:

ـ بحبك.

فتحت عينيها ونظرت إليّ بعينين تكادان تلمساني. قلت:

ـ بحبك.

مدّت يدها وأمسكت يدي، وأخذت تداعبها وقد أغمضت عينيها. قالت بصوت

هادئ:

ـ بحبك.

ثم فتحت عينيها وقالت:

ـ إنت بكره مسافر عمّان؟

ـ هززت رأسي مبتئساً. ثم خطر لي: كيف عرفت؟ أنا لم أقل شيئاً. فمن قال لها؟ قلت:

ـ كيف عرفت؟

قالت:

ـ رايحين نلحقك.

ـ إنت ومين؟ قلت مندهشاً، قالت:

ـ أنا وأَميرة.

ـ ليش؟

أي سؤال غبي!

قالت:

ـ شغل.

ثم دخلت أميرة. أبعدت سلطانة يدها عن يدي.

تمالكت سلطانة نفسها وقالت:

ـ طوّلت.

قالت وهَي تجلس:

ـ كان الأكل راح يحترق، بتوكلوا؟

قلت:

ـ أنا تعشّيت.

ضحكت أميرة:

ـ يا كذّاب.

Abu Abdo Al Bagl

قلت:

ـ لا، صحيح.

قالت سلطانة:

ـ حطّي الأكل. ما تسمعي كلامه.

كان العشاء خارج إطار القرية. ففي القرية «ضيف المسا ما له عشا» أي أنّ الضيف إذا جاء في وقت العشاء فعليه أن يقنع بطعام أهل البيت. لكن أميرة مدّت سفرة حقيقية. أعني لم تكن سفرة «أشكال» فاخرة في الظاهر، وفارغة في الجوهر: عدد كبير من الأطباق الصغيرة، فيها الجبنة، والزيتون، وشرائح البندورة، وشرائح الخيار، والبيض المقلي، والمقدوس، والمخلّل والمربّى، واللبنة، والزيت والزعتر إلخ... بل كان العشاء صينية دجاج، قطعت فيها ثلاث دجاجات، وسلطانية لبن رائب، وصحن سلطة كبير. قلت لنفسي إنّ من يقدّم عشاء كهذا في القرية يملك الكثير من النقود، نقوداً لا تتوقّف عن المجيء. الأثرياء في القرية يصبحون كذلك لأنّ النقود التي تدخل جيوبهم لا تخرج منها. جميع احتياجاتهم تستوفى من ناتج الأرض، ومما يسمونه «وسخ الحلال» أي صوف ولبن المواشي. من يقدّم عشاء كهذا فهو يصرف من النقود التي تأتيه.

قالت أميرة:

ـ إيش رأيكو في، في، في...

قلت وقد أعداني مرحها:

في، في، في... قولي!

وابتسمت سلطانة لأميرة التي كانت تنظر إليها كأنها تستأذنها، وأومأت برأسها، فقالت أميرة:

ـ كأس نبيذ كل واحد.

قلت:

ـ عظيم.

ونسيت أنني قلت إنني تعشّيت وإنّ عليّ أن أنصرف بسرعة. جو المودة جعلني أتجاوز كل التحفّظات القروية. دهشت عندما رأيت سلطانة تشرب النبيذ

بخبرة. شربت أكثر من كأس بتلك الطريقة المتأنقة لسيدة حقيقية، ولم أرَ أنّ ذلك قد جعلها تفقد توازنها. حدث فقط أن تورّد وجهها ولمعت عيناها.

لم تأكل أميرة كثيراً؛ كانت مشغولة بتقطيع الدجاج ووضعه في فمي وفم أمها. كانت الأم تقبل ذلك دون تعليق. قلت:

ـ كلي أنت يا أميرة. إنتِ ما أكلتِ شي.

قالت:

ـ ما تخاف عليّ.

قالت سلطانة:

ـ ما بدها تنصح.

تأمّلت أميرة. لم تكن بحاجة إلى ريجيم، ولم أكن أدرك ساعتها أنني أراها بعين قروية، وأنّ الفتاة العصرية يجب أن تكون أكثر رشاقة. قلت:

ـ جسمك منيح.

ـ هذا غزل؟

ارتبكت وقلت:

ـ لا. صحيح. يعني..

قالت سلطانة وهي تبتسم بسمة جميلة:

ـ بنات الموضة مسلوعات.

ضحكت أميرة، وقالت سلطانة:

ـ مش مثلنا دبّات.

قلت مندهشاً، محتجاً:

ـ إنتِ دبّه؟

غمرها خجل وابتسمت بسمة ناصعة وقالت:

ـ دبّه.

ونظرت إليّ كأنها تستشيرني. قلت:

ـ إنتِ، إنتِ...

قالت مبتسمة :

ـ أنا ؟

أية امرأة . قلت :

ـ أحلى واحدة شفتها .

قالت أميرة بتهريج خفيف الظل :

ـ وأنا ؟ يا حسرتي .

قالت سلطانة :

ـ هذا من النبيذ .

لماذا تتحدّث هكذا، وكأنها تقرر حقيقة لا تحتاج إلى نقاش؟ إنها تعلم أنني أحبها . قلت :

ـ النبيذ بخلّي الواحد يقول اللي ما بقدر يقوله وهو صاحي . أنا بقول الحقيقة ، صدّقيني .

نظرت إليّ أميرة بدهشة ضاحكة :

ـ بتحب ماما؟

قلت لنفسي : أصبحت تقول ماما ؟ قلت :

ـ أنا بتكلّم بشكل موضوعي .

نهضت أميرة وقبّلت فم أمها ، وعادت تأكل .

بعد العشاء انكشف وجه جديد لسلطانة : المرأة القوية التي تمسك كل الخيوط في يدها، المحدثة الممتعة، والمرأة خفيفة الظل التي تمتّع سامعها، وتعده بالكثير . دار الحديث حول سفرها هي وأميرة إلى عمّان . سوف تنتقل العائلة إلى هناك . وإجابة على أسئلة برزت على وجهي ولم أقلها ، قالت إنّ بشارة سوف يظلّ هنا ، وكذلك الجدّ . سوف تأتي أخته الأرملة جميلة لتعيش هي وأولادها هنا . وكأنني سألتها عمّا سوف تفعله هناك، قالت إنّ شغلها أصبح كلّه في عمّان الآن . لقد اشترينا أرضاً، وسوف نبنيها . بل إننا بدأنا البناء فعلاً .

وددت أن أقول : وهذه الإشاعات التي تملأ القرية، عن أميرة وكلبها وعن

فضائح حدثت في عمّان؟ ولكني لم أقل شيئاً.

قلت:

ـ إيش رايح تشتغلوا في عمّان؟

قالت أميرة:

ـ إخواني بدهم مدارس، والشغل كتير.

ـ مثلاً؟

لم يجب أحد على سؤالي، ولكن سلطانة أخذت تتحدّث عن القرية. قالت إنها تشعر بالاختناق فيها. وأخذت تسخر من بؤسها وبخل أهلها، من القذارة. وأخذت ترسم بعض الشخصيات بشكل كاريكاتيري.

عندما أخرجت أميرة بقايا الطعام، قالت سلطانة:

ـ لا تتجوّز خضرا يا حبيبي.

ـ خضرا؟

قالت:

ـ بعدك زغير.

قلت بجرأة:

ـ إنت حبيبتي.

مالت وقبّلتني على خدي. وقالت وكأنها تعترف بحقيقة مأساوية، قالت بتنهيدة وهي تتأمّل أصابعها:

ـ وأنا حبيبتك.

وددت لو أنها قبّلتني مرّة أخرى. ولكنها قالت:

ـ إنت لازم تتعلّم تعليم عالي، وتتجوّز واحدة متعلّمة.

ونادت.

ـ سوي شاي يا أميرة.

جاء صوت أميرة من الخارج:

ـ عالنار.

قلت:

ـ لازم نشوفكو في عمّان.

قالت وكأنها لا تريد أن تلزم نفسها:

ـ لازم.

خيبة الأمل جعلتني أكثر تحديداً وصراحة:

ـ مش رايح أشوفك في عمّان؟

قالت:

ـ رايح تشوفني لما تزهق مني.

كان من الواضح أنها تعني عكس ما تقوله. أمسكت يدها وقبّلتها. تركتها في يدي وكأنها ليست منها. قلت:

ـ ما بدك تشوفيني؟

تنهّدت وقالت:

ـ مش عارفة ظروفي.

صمتت قليلاً، ثم أضافت:

ـ إنت باقي في عمّان السنة الجاية؟

ـ قلت:

ـ لا. مسافر أدرس برّه في الجامعة.

قالت:

ـ شايف؟

أرخيت يدها. كنت أعلم أنه لم يعد باستطاعتي أن أقبّلها. أصبحت غريبة عني. صمتنا إلى أن دخلت أميرة بالشاي. قالت:

ـ لازم نشوفك في عمّان. ما تهرب مني.

قلت:

ـ أنا مش رايح أهرب. بس إنتو ما تنسوني.

Abu Abdo Al Bagl

نظرت أميرة لأمها وأخذت تصب الشاي، وكأنني لم أقل شيئاً.

عندما غادرتها بقيت أميرة في الحجرة، وسارت معي سلطانة حتى باب الحوش وهي تمسك يدي. كانت تضغط عليها وتداعبها. قلت:

ـ سلطانة أنا بحبك.

ـ وأنا.

قلت:

ـ رايح أشوفك في عمّان؟

ـ أشوفك.

قلت:

ـ مش سامع.

قالت بصوت حنون، رقيق:

ـ ما تتعلّق فيّ يا جريس.

هل تعلّقت بها؟ لقد وقفت سلطانة، منذ تلك اللحظة، بيني وبين كل امرأة عرفتها.

ـ ليش؟

ـ موضوع شرحه بيطول.

٣

جاء يوسف، والد سلطانة، إلى القرية مع زوجته وفتح دكاناً صغيراً، ظلّ الدكان صغيراً إلى أن مات يوسف.

أتذكره طويلاً، نحيلاً جداً، وكل ما فيه طويل ونحيل. وجهه بتجاعيده الطولية، أنفه الطويل الدقيق المبلول دائماً، وعيناه الغائرتان، حمراوان كقطعتي جمر صغيرتين، دامعتان دائماً. حين تحدثه كان يصغي وجفونه ترمش دون انقطاع فينساب الدمع على جانبي أنفه. يواصل الإصغاء وهو يمسح الدمع ويتمخّط. وعندما يتحدّث يخرج صوته أخنف، حلقياً، كأنّه دجاجة تنعق.

Abou Abdo Al Bagl

زوجته متوسطة الطول، ذات جسد عضلي قوي. لها فم واسع، وأنف أحمر كبير، ووجه مستدير. وكانت قوية جداً، بقدر ما كان زوجها ضعيف البنية. المزعج فيها صوتها، خاصة حين تخوض شجاراً، كان حاداً وقوياً. وكان هذا ما أبعد الناس عنها: حبها للشجار، وصوتها العالي. لذلك تجنّب الناس العائلة كلها بسببها. كانت نساء القرية يقلن عنها: هذه النورية امتصت عافية زوجها. الأغلب أن هذا السبب الذي ولّد الشائعات عنها في القرية، إنها امرأة جنيّة لا ترتوي؛ وكانت النسوة يحذّرن رجالهن: ابتعدوا عن طريقها وإلاّ فإنها سوف تمتص العافية منكم فتصبحون مثل يوسف الحايك.

ورغم أن لا أحد شاهدها تشاجر زوجها، فقد كان يقال إنها تعتدي عليه بالضرب، وإنّه ينكمش خوفاً أمامها، وإنّه لهذا السبب لا تكفّ دموعه عن الانهمار.

ولدت سلطانة، ثم انقطع نسلها. ما بين عمل البيت والدكان والعناية بيوسف الذي كان مريضاً طيلة الوقت والتحطيب وحمل المياه من الآبار البعيدة تربت البنت في الشارع. كانت تلعب مع الصبية كأنها واحد منهم. منذ صغرها نسبت إليها كل الإشاعات التي تدور حول أمها.

تتحدّث بنات جيلها عن سلطانة قبل أن تبلغ الرابعة عشرة من عمرها. كان أبوها دائماً مريضاً، ولم يكن لها أخ يردعها، ويلزمها البيت، فكانت تفعل ما تشاء. تذهب مع الصبية، لتصطاد العصافير، وكان لها فخ مصنوع من أسلاك معدنية، مثل بقية الصبية، تنصبه مغرية العصافير بحبة قمح إذا اقترب العصفور انفلت السلك نصف الدائري، وضغط عنق العصفور. وعلى الفور تقوم سلطانة بخلع رأسه عن رقبته وشويه على نار تشعلها في المكان ذاته.

قالت امرأة: كانت سلطانة مغرمة بركوب الحمير. تركب الحمار، وتنغزه بعود خشب مدبّب بين كتفيه. ينطلق الحمار راكضاً، وهي فوق. أحياناً يرفس الحمار بساقيه الخلفيتين فتسقط من فوق ظهره. ينكشف فخذاها، فيقف الصبية يتفرّجون. كانت البنت سليطة اللسان، تصرخ:

ـ على إيش بتتفرّجوا؟

يضحك الصبية ولا يقولون شيئاً. تصرخ:

ـ والله لألعن ذيول أماتكو.

وتنهض. تندفع إلى أول صبي وتلف ذراعيها حول جسده وتلقيه على الأرض، وتسقط فوقه.

هذه الحكاية تروى عن موسى، الذي أصبح الآن كهلاً عابساً، نكداً. كانت مجموعة من الصبية قد انتهت من صيد العصافير في الحواكير الواقعة شرق القرية. الحظ حالف موسى فاصطاد خمسة عصافير علّقها في حزامه من رقابها. وكانت سلطانة كالعادة مع الصبية. همس لها موسى:

ـ خيّه سلطانة بدي أقول إلك كلمة.

تخلّفا عن الصبية. كان وجهه أحمر وكان يجد صعوبة في الكلام. نظرت، رأت ارتباكه، فقالت:

ـ إيش بدّك؟

أخذ يتهته. كان للبنت حضور شرس، وأنوثة مبكّرة. نهداها مكتملان، وعجيزتها قد بدأت تتكوّر. كررت:

ـ إيش بدّك؟

قال:

ـ أنا.. أنا..

وأخذ يتأتى. قالت:

ـ انخرست؟

قال:

ـ أنا خمس صيصان.

تأففت بصوت مسموع. قال:

ـ نروح للهربج. أنا وأنت.

ـ إيش نسوّي في الهربج؟

قال:

ـ أسوّي فيك وبعطيك الخمس صيصان.

قالت:

ـ أعطيني :

أعطاها العصافير الخمسة، أخذتها ووضعتها في جيب ثوبها، ثم انحنت فجأة ورفعت طرف ثوبه ومدّت يدها بين ساقيه وأمسكت بعضوه وضغطت، وأخذت تصيح :

ـ تعالوا شوفوا. ما عنده إشي.

التفت الصبية مذهولين، وهي تصيح :

ـ مثلي، ما عنده إشي.

وقف موسى جاحظ العينين من الألم. أطلقته سلطانة وأخذت تعدو. لم يتبعها أحد، ولكنها ظلّت تعدو حتى اختفت. يقال إنّ موسى منذ تلك الحادثة ظل يتأتي عندما يتحدّث.

قالت إحدى النسوة إنها، بعد هذه الحادثة بفترة طويلة، سألت سلطانة عن سبب ركضها. قالت المرأة :

ـ حسّبتها تقول إنها استحت من العيال. .

وتضحك، ثم تضيف :

ـ قالت لي سلطانة : يا ختي خفت يتجمّعوا عليّ ويوخذوا الصيصان مني. يضربوني ويوخذوها مني. قلت : عيال يضربوا بنت ؟ عمرها ما صارت. قالت لي : صارت وصارت. صارت معايا. أنا غريبة يا ختي. . . ودمّعت عينها وقالت : أنا غريبة، ومين رايح يحامي عني ؟ وتضحك المرأة : الله يخزي شيطانك يا سلطانة.

وقد حدث بالفعل أن تجمّع الصبية وحاولوا ضربها، ولكنها انفلتت منهم كالأفعى بعد أن أسمعتهم كلاماً فريداً في فحشه. كان الصبية قد تجمّعوا في الهربج الشرقي، وأخذوا يمارسون العادة السريّة. وهم في ذلك هبطت إليهم سلطانة. وقفت تتأملهم في حياد تام، ثم جلست.

ثم توقفوا فجأة. خاطر واحد دار في رؤوسهم وقرار واحد. قال أكبر الصبية لسلطانة :

ـ نامي على ظهرك يا بنت.

والتفت إلى الصبية وقال لهم :

ـ في الدور.

وتقدّم منها. وأحاطها الصبية، واقفين وأعضاؤهم التناسلية ظاهرة ومنتصبة. ضحكت سلطانة. اعتبر أكبر الصبية ذلك تشجيعاً له، فواصل تقدّمه وهو يبتسم، ثم توقّف. قالت:

ـ ليش وقفت؟ قرّب.

الجرس الواثق الآمر أربك الصبي فتوقّف وهو يطلق ضحكات متقطّعة، وقد أصبح وجهه أصفر. قالت:

ـ قرّب! قرّب!

قال متأتئاً:

ـ أول إنتِ نامي على ظهرك.

كان الصبي يرتعش كأنه مصاب بحمّى، وأسنانه تصطك، وسلطانة تنظر إليه. فجأة رفعت وجهها وكأنها تطالع شخصاً يقف على حافة الهربج، ثم اقتربت من الصبي وصفعته على أنفه وفمه، ودفعت ركبتها في أسفل بطنه. سقط الصبي، وسال الدم من أنفه. وقفت تتأمله وقد بدت للصغار شامخة، مخيفة، مشتهاة ومستحيلة. قالت للصبي الملقى على الأرض:

ـ بتقول نامي على ظهرك؟

وضعت قدمها على بطنه، وقالت:

ـ أنا خليتك إنت تنام على ظهرك.

ثم انحنت وأمسكت عضوه الذي ضمر وقالت:

ـ الدودة هذي تحطها في . . . أختك.

ثم التفتت وصرخت بهم:

ـ ضبوا هدومكم.

أطاع الصبية، ثم فجأة كانوا حولها، حين وقفت تضع قدماً على وجه الصبي، وقدماً على بطنه، وراحت ترفع جسدها وتخفضه في رقصة رتيبة. لا يستطيع أحد أن يعلم علم اليقين إنْ كان تجمع الصبية حولها كان بهدف الانتصار لزميلهم، أو لمحاولة

Abu Abdo Al Bagl

اغتصابها، أو للانتقام لكرامتهم. لم يكونوا يضربونها، ولكنهم يجذبون يديها وشعرها، كما حاولوا أن يمسكوا ساقيها؛ ولكن الفتاة، وكأنها مصارعة محترفة، أخذت تسدد ضرباتها إلى أسفل البطن، أو تمسك واحداً منهم تتلقى به هجماتهم؛ تلف ذراعيها حول جسده، وتثني إبهامها، وتغرزه مثنياً في ظهره وتضغط. ثم انفلتت وخرجت من الهربج.

أطلّت عليهم من فوق وأخذت تقذفهم بالحجارة. تفرّق الصبية واختبأوا تحت الشجر. ثم اختفت سلطانة. خرج الصبية من الهربج بحذر وأمسك كل منهم ببعض الحجارة، وأخذوا يطالعون المنطقة المحيطة بهم بحثاً عن سلطانة؛ لم يجدوها. فانصرفوا صامتين.

٤

ذلك اليوم كان حاسماً في حياة سلطانة. لقد أصبح المشهد الذي لم يكتمل، مشهد الفتاة العارية الجسد، المستلقية على ظهرها، وحولها عدد كبير من الرجال كاشفين عن أعضائهم التناسلية المستثارة، يهبطون عليها الواحد تلو الآخر. لقد أصبح هذا المشهد حلم يقظة متكرّر عندها، تستعيده حتى آخر لحظات حياتها. لم تكن تتصوّر - في حلم يقظتها هذا - انقطاعاً في عملية الاغتصاب. ترى الصبي الذي انتهى يقف في آخر الطابور حتى يأتي دوره مرّة ثانية وثالثة ورابعة إلى ما لا نهاية.

راقبت الصبيان وهم يغادرن الهربج. كانت تختبئ في تجويف صخري يقع في الطرف الشرقي من الهربج. رأتهم يجمعون الحجارة ويبحثون عنها بعيونهم. حدست، أنهم الآن وقد زال أثر الصدمة والمفاجأة عنهم، وتبيّن مدى الإهانة التي تلقوها من بنت، مجرّد بنت، فإنهم أصبحوا خطرين. لهذا أخفت نفسها جيداً.

رأت أنهم غير جادين في بحثهم - كانوا يديرون رؤوسهم وهم في طريقهم إلى القرية. يبدو أنهم أدركوا أنّ الفضيحة سوف تلحقهم على أيّة حال. فماذا سوف يجيبون الآباء والأمهات عندما يسألونهم عن سبب اعتدائهم على البنت؟

أدهشها صمتهم. رأتهم يتخطّون الأرض الحمراء ويدخلون الأرض الجرداء،

البيضاء، المغطّاة بالحجارة، الصاعدة نحو القرية. رأت بعضهم يصعد في الطريق الفاصلة بين البساتين، وكان آخرون يصعدون في الطريق المحاذي للطرف الجنوبي من البستان الثاني، والباقون يتسلّقون، منفردين، الانحدار الذي يهبط من المقابر والحارة القبلية. من الواضح ـ كان واضحاً لسلطانة ـ أنهم يودّون أن يتخلّصوا من رفقة بعضهم بأسرع ما يمكن.

هبطت سلطانة من مخبأها وسارت إلى الهربج. جلست وحيدة. أخذت تتأمّل جسدها، بالنظر واللمس. أمسكت بنهديها. كانا مكتملين، صلبين، مرنين. أخذت تضغطهما وترخيهما. ثم رفعت ثوبها. رأت الحلمتين بارزتين. لمست إحداهما بسبابتها، فشهقت. كانت المتعة تصعد من أسفل بطنها كالماء الدافئ وتغمرها. ضغطت ثدييها بقوة، وضغطت الحلمتين اللتين انبثقتا من بين أصابعها، وضمّت فخذيها بقوة، وأخذت تلهث مع إيقاع جسدها. وفجأة أحسّت بمتعة رائعة تجتاحها وبعضلات فخذيها ترتعشان، ودفق ساخن ينساب بين الساقين. شهقت حين شعرت بأنّ رأسها يطير؛ صرخت، ثم غشاها همود، رغبة في الاسترخاء المطلق، فتمدّدت في شبه غيبوبة.

نامت فترة لا تستطيع تحديدها، واستيقظت على صوت أقدام تقترب. زايلها الارتخاء، وكانت تشعر بانتعاش ورغبة في اللعب والركض و الصراخ. نهضت، وسارت نحو طرف الهربج وأخذت رأسها لترى القادم. كان صليبا، الذي فوجيء وتوقف وهو يرى رأس امرأة يصعد من الأرض دون جسد. تأمّل البنت وقال:

ـ مين أنت؟

ثم عرفها وضحك، وقال:

ـ سلطانة؟ إيش بتسوّي هانا؟

قالت:

ـ عموه، العيال. . .

ـ العيال؟

هبطت وقالت:

ـ تعال شوف.

تبعها صليبا إلى داخل الهربج وهو يقول:

ـ العيال علامهم؟

وقفت أمامه، قريبة منه تكاد تلمسه، ترفع وجهها إليها. كانت طويلة، ولكنها لم تكن تصل إلى كتفه. كانت تنظر إليه دون كلام. قال:

ـ العيال علامهم؟ وينهم؟

وقد أربكته نظرتها الثابتة على وجهه. قالت هامسة:

ـ ودهم..

رأى فمها مفتوحاً قليلاً، ووجهها أبيض قد هرب اللون منه. وضع يده على كتفها وقال:

ـ إيش ودهم؟

أحس بجسدها يرتعش تحت كفّه، قال:

ـ لا تخافي. قولي.

قالت:

ـ ودهم يسوو معايي كلام عيب.

قال بحدّة:

ـ سوّوا؟

قالت:

ـ لا. ضربتهم.

ـ عفيه عليك.

وضحك ضحكته العريضة وقال:

ـ ضربت العيال؟

قالت:

ـ مش عيل واحد، تسع عيال.

وابتسمت تلك البسمة الغريبة، وبدا وجهها وهي تجاهد لترفعه إلى أعلى وكأنّه يتوقع أن يقبّله. كان ذلك أشبه بطفل يمدّ رأسه ليأخذ قبلة. قال:

Abu Abdo Al Bagl

ـ تسعة؟ عفيه . .

وقال إنّ عليه أن ينصرف بسرعة. وكأنها أدركت ذلك فأخذت تروي له ما حدث مع الصبية بالتفصيل، وكانت الكلمات البذيئة تنساب من فمها بشكل طبيعي.

قال بعد أن انتهت :

ـ ملاعين الوالدين. رايح أورّيهم.

وفكّر صليبا : «لم تعد طفلة هذه البنت» لمح ثدييها الناضجين، وهما يحتكان ببطنه، وكتفها المستدير، الصلب، اللدن وهو يستجيب لضغطات كفّه، ووجهها المرفوع إليه، بعينيها البنيّتين اللوزيتين، يجول فيها سائل كثيف له لون العسل، وفمها المفتوح قليلاً وقد غطّى العرق شفتها العليا. . انتقلت كفه إلى أعلى ظهرها، تحت العنق مباشرة. كانت عضلاته القوية تتموّج تحت يده. قال :

ـ بعدك خايفة؟

قالت :

ـ أخاف من مين؟

ـ العيال.

قالت :

ـ ما كنت خايفة منهم . بس زغار.

لم يفهم. قال :

ـ زغار؟

قالت بصوت لاهث :

ـ بدي ازلام. أنا مرة.

وتعلّقت به. لم يعد يستطيع السيطرة على نفسه. وخلال ذلك خطر له : «كم عمرها الآن؟ ولكن من الواضح أنها لم تعد بنت بنوت. . » وهي تتعلّق به، تشدّه إليها، وتتعلّق برقبته، هي تموء، وتئن، وجسدها الفتي القوي يرتطم بأسفل بطنه، وهي تقول :

ـ بدي زلمة مثلك. . مثلك. . .

كانت هي تقوم بكل شيء. ولكنها غندما تمددت عارية، مضمومة الساقين، ذراعاها ممددتان لصق جسدها أدرك أنه ليس لها خبرة بالرجال. حاول أن يتراجع، غير أنّه شعر أنه ملزم أمام هذه الفتاة أن يمضي فيما بدأ به.

لم يفاجأ بصرختها، ولكنه اندهش لاستجابتها الحقيقية لإيقاعه بعد الصرخة الأولى. ولم يفاجأ بالدم الذي سال بين فخذيها، ولكنه فوجئ بردّ فعلها، حين قالت بهدوء:

ـ لا تخاف. أول مرّة بنزل الدم.

وأخذت تلمس المناطق الدامية بسبابتها، وهي تكرّر أنها كانت تعلم أنّ الدم سوف ينزل، ولكنها أول مرّة فقط. قالت له بعد قليل وهو يتمدّد بجوارها إن كان يرغب أن يمارس معها الجنس مرّة أخرى. سألها إن كانت تشعر بألم، قالت:

ـ شوية.

ولكنها تستطيع احتماله مرّة أخرى. هل يريد؟

أخذ يداعبها. استجابت وكأنها تصارعه. كانت تفعل ذلك وتضحك، تضحك كلما داعبها وتصارعه. خطر له أن استمراره في المداعبة بكل هذه الجدّيّة، وهي تصارعه ضاحكة، جعله في موقف ضعيف أمامها. استثار ذلك غضبه فعلاها. صرخت متألمة وقالت إنها تشعر كأنها مخارز تغرس في عينيها. نظر إلى الوجه فرآه مشوّهاً بالألم فتوقف قالت:

ـ ابعد عنّي...

بصوت مختنق غاضب.

قال:

ـ أقوم؟

قالت:

ـ قوم. ابعد عنّي.

نهض وهو يشعر بالعار من جسده الطويل العريض، ومن عريه أمام طفلة لم تعد تشعر به. كانت ما تزال ممدّدة، عارية، مفرودة الساقين، عيناها كانتا مغمضتين، وتنفسها ثقيل، يرتفع به صدرها وينخفض، فيكتشف صليبا أعجوبة النهدين

الناضجين، الصلبين. أخذ يجمع ملابسه، دون أن يحسم أمره ويرتديها. سمعها تقول:

ـ فيه ميّه هناك.

وكان ذلك غريباً: هذا الصوت المحايد، المرهق، وهي تمدّ ذراعها الأيمن نحو الشجيرات الخضراء، وما تزال مغمضة العينين، وكأنها أم تساعد طفلها على الوصول إلى ما يبحث عنه، فتصحو من نومها للحظة، ثم تعود إلى النوم. كانت أمه، بل ما زالت، تفعل ذلك. انحنى فوقها، وقبّل جبينها، ووجنتيها. فتحت عينيها، وأحاطت عنقه بذراعها وجذبته إليها، وقبّلت فمه، ثم قالت له بصوت حان:

ـ روح غسّل.

ورأى نفسه يطيعها، وود لو يضحك. كان الضحك يدغدغه من الداخل، ويضغط على حلقه. كان حباً ذلك الذي فاض به قلبه، فرحاً نادراً تخلله. لقد عرف الكثير من النساء؛ ولكن هذا الإحساس بالفرح، والحنان، والرغبة في حمايتها، كان جديداً، لم يعرفه من قبل.

بحث بين الشجيرات فرأى غدير الماء الذي يستمد ماءه من مصدر مجهول. لولا ذلك لما استمر في هذا الصيف؛ وعندما اقترب رآه محمياً بصخرة سمراء، انتشرت فيها طحالب غامقة الخضرة. كأن الصخرة لامعة بغشاء رقيق من الماء، ونقطة ماء تقف في وسطها معلّقة. مدّ كفيه وغرف، وأخذ يغسل الدماء التي جفّت بين ساقية. كان الماء يسقط منه وينساب عائداً إلى الغدير. وعندما انتهى ارتدى ملابسه، ووقف ينظر إليها.

فتحت سلطانة عينين صافيتين. قالت:

ـ لبست.

ابتسمت له، فقال:

ـ قومي البسي.

قالت:

ـ إمشي إنت، بعدين بقوم.

غادر صليبا الهربج. نظر خلفه فرآها تنظر إليه. واصل سيره حتى وصل الطريق

الترابي. سار فيه قليلاً حتى حاذى حجراً مثبتاً على جانب الطريق فجلس عليه. وراح يراقب الهربج. لم يكن يريد لأحد أن يراها عارية. لن يسمح لأحد بذلك. ولكن نبض قلبه المتسارع كان يجسّد لهفة لرؤيتها، لمجرّد رؤيتها. الغريب أنه رغم توقه لرؤيتها، لم ينتبه لها وهي تغادر الهربج، لم يرها إلاّ وقد أصبحت قريبة منه. تصوّر أنها امرأة أخرى، رغم أنّ العرق قد غطّى جسمه. كان ذلك بسبب مشيتها الغريبة، مشية امرأة أكبر سناً وحجماً... وحاول أن يتذكّر مشية من؟ كانت تقترب منكسة الرأس، محتشمة، تسير متباعدة الساقين، قدمها اليمنى تنحرف قليلاً إلى اليمين... وتذكّر: إنها مشية الحبلى في شهورها الأخيرة.

وقفت أمامه، محنية الرأس، محاذرة أن تنظر في عينيه. في وجهها المنحني نضوج امرأة. قالت بصوت هادئ، محايد، غائب كأنها تسجل حقيقة، لا مجرّد سؤال توجهه:

ـ بعدك ما مشيت؟

قال بصوت أخشنه حضورها، حبها:

ـ خفت حدا ينزل الهربج وانت فيه.

ـ خايف عليّه؟

قالت ذلك وكأنها تحدّث نفسها.

قال:

ـ ليش بتمشي مفاحجة؟

أخذت تداعب خدّه دون أن ترد. قال:

ـ بتحسي في وجع؟

لمست شفتيه بأطراف أصابعها. قالت:

ـ ساعة الغروب استناني في الخشّة.

ـ الخشّة؟

ـ خشّتكو اللي بابها بفتح عالحاكورة.

قال:

Abu Abdo Al Bagl

ـ اليوم؟

ضحكت ضحكة طلقة صافية، وقالت:

ـ لا تستعجل، لما يخف الوجع.

وانصرفت. لم تنظر خلفها مرّة واحدة. تابعها حتى صعدت القرية. تخيّل وجهها وهي تسير غائباً، مرهقاً، يخفي ألمها، فغمره الشوق إليها. اشتاق إلى حضورها، إلى أن تجلس بجواره ويتحدثا. أرادها حضوراً دائماً، أرادها زوجة.

عيناه معلّقتان بها، تعلّق عاشق. ومن داخله، من عمق سحيق، انبثقت مشاعر منسية. استعاد إحساساً عتيقاً بالعالم قبل أن تفقد الأشياء روحها، عندما كان يحسّ أن العالم مسكون، ستار لتدابير مخيفة. بدا له المشهد: الهبوط السحيق للحارة القبلية، الكهوف الرطبة، الزلقة، التي تنبثق من أفواهها السوداء أشجار نحيلة، ذات خضرة برّاقة، والحاكورة المسوّرة التي ارتبطت بذهنه وهو طفل بالأفاعي التي تجوس فيها. اكتشف جلودها، وهو صبي، أكثر من مرّة، وقد نزعتها. جلوداً رقيقة، هشّة، بيضاء. كان يمسح عينيه بها لتحميه من الرمد. الصعود المتدرّج للطريق الصاعد إلى المقابر، الذي يمر بين البستان القبلي والحاكورة التي تزرع شعيراً، والتي تمتلئ بطنين البعوض في الربيع وتزهر فيها الفتية، وعشرات النباتات الصالحة للأكل. إنه يستعيد طعمها، يحسّه راكداً في حلقه. يرى واجهات البيوت فيحسّ بحياة غامضة تدور فيها. تكوّنت أفكاره، وهو طفل، عمّا يدور بداخلها من خلال همسات وتلميحات سمعها مصادفة، فأعاد صياغتها بخياله الطفل عالماً، غامضاً، مخيفاً، مسكوناً بأسرار مرعبة... المشهد وسلطانة ـ بقعة وردية تتحرك فيه ـ بدا غشاء الحياة داخلية لعالم مخيف، مثير يكتم أنفاسه ويتأهّب لتجليات غير متوقعة.

رأى سلطانة تصل طرف الحارة ثم تختفي.

٥

كل واحد له الحرية أن يفعل ما يشاء في هذا البيت. لا أحد فيه يصدر أوامر صارمة، ويتوقع أن تنفذ. ولكن جميع الأعمال البيتية تتم على وجه معقول. كيف

نشأ هذا الوضع؟

الأم منذ البداية هي الممسكة بكل الخيوط، فيوسف أضعف وأكسل من أن يبادر بشيء. كل فعل كان يبدو له معقّداً مبهماً، وغير مأمون العواقب. وكان يعتقد أنّ الآخرين، خاصة زوجته، قادرون على إدراك ملابسات كل فعل، وعلى المبادرة. وحين يواجه موقفاً، يلزمه باتخاذ قرار كان يصاب بآلام في المعدة، وضيق في التنفّس.

وكانت مشاعر زوجته نحوه مزيجاً من العطف والشعور بالذنب والاحتقار، ولكنها، أمام الناس، أو وهما وحيدان، كانت تعامله باللياقة الضرورية لرجل وزوج. كانت كل القرارات لها، ولكنها مستوحاة منه. لم يكن يوسف رجلاً في السرير، فأقامت علاقات مع رجال كانت تعلم أنّهم لن يحوّلوا العلاقة معها إلى فضيحة، ولن يجرحوا مشاعر يوسف بكلمة أو إشارة.

وفي حياتها سر لم تبح به قط؛ وكيف تبوح به وهي نفسها لم تكن تدرك ما يحدث لها بالضبط. حين رأت آمنة أول مرّة شعرت برغبة قوية في أن تلمسها. كانت آمنة تقف أمامها في الدكان، وكان قد طلبت منها أن تبيعها كرّار خيطان أسود، وشلل خيطان ملوّنة. وعندما نهضت الأم من مكانها لتأتي لها بطلباتها شعرت بأن ركبتيها لا تكادان تحملانها. نظرت إلى آمنة، وقالت وهي تضع كفها على جبينها:

ـ حاسة في دوخة.

بدا القلق ـ كان قلقاً حقيقياً ـ على وجه آمنة. أمسكت بيدها وقالت لها:

ـ اقعدي اتريّحي.

وجلست الأم. قالت آمنة:

ـ وين الميّه؟

وعندما دلّتها عليها، رشقت آمنة على وجهها، ثم جفّفت الوجه بردن ثوبها وقالت:

ـ برد هذا. اشربي ينسون.

أصبحت سلمى ـ الأم ـ تشرد كثيراً. أصبحت آمنة شاهداً خيالياً لما يحدث أو يدور في ذهنها. لم تكن تراها كثيراً، ولم تكن تسعى لذلك، ولكنها عندما تصادفها

كان الفرح يشعّ في داخلها، وعندما تعانقها ـ كما تفعل نساء القرية عندما يلتقين ـ كانت تشعر برغبة في أن يستمر العناق. وكانت آمنة تستجيب لمودتها فتجلس معها بعض الوقت. كان في سلمى ما يجذبها، مودة صافية ليس وراءها غرض.

وفي أحد الأيام كانت سلمى تقف بباب الدكان. كان الشارع خالياً، والثلج قد بدأ يسقط. وقبل أن تدخل الدكّان لتجلس قرب النار رأت عبدالكريم قادماً. كان الثلج قد جعل لحيته بيضاء. نظرت إليه، التقت عيونهما، وأومأت برأسها إيماءة خفية ودخلت. كان لها خبرة بالرجال، ولهذا توقعت أن يتبعها عبدالكريم العماشنة. سوف يقف ليتبيّن ردود فعلها، فإن عاملته ببرود سوف يشتري شيئاً وينصرف. وإن لقي تشجيعاً فسوف يستجيب. وهي تعرف المثل القائل إنّ الرجل كالكلب، إذا دعته امرأة فلا بد أن يستجيب، وتعرف مدى صدقه.

وقف عبدالكريم أمام الدكّان متردّداً، يطالع اتجاهي الشارع، ثم ينظر إلى سلمى. قالت:

ـ خش عن الثلج.

دخل، ووقف أمامها، تفصل بينهما الدكّة الخشبية التي يستقر فيها الميزان. كان الرجل طويلاً وعريضاً، له عنق طويل وأنف ضخم، وفم واسع، ممتلئ الشفتين. قالت إنّ له عينيّ آمنة، والفم ـ فمها ليس واسعاً ولكنه ممتلئ الشفتين ـ وله أيضاً يداها، بأصابعهما الطويلة المرنة. وكان له مهابة شيخ.

كانت تريد أن تتأكّد من التشابه بينه وبين آمنة، لأنها تعلم أن نساء الشيوخ، وخاصة أمونة، يبحثن عن رجال غير أزواجهن عندما يزهد بهن الأزواج، ويتزوجون عليهن.

قال عبدالكريم:

ـ السلام عليكم.

قالت:

ـ وعليكم. تعال اقعد حد النار.

وعندما حاول أن يدخل قالت:

ـ سدّ الباب. بجيب برد.

جلس على صندوق خشبي، وعرّض كفّيه للنار. أمسكت سلمى يديه وأخذت تفركهما، وقالت له، دون أن تنظر إليه.

ـ إيديك ثلج.

ومضت تفرك يديه، وعيناها تتابعان أيديهما. لم تحاول، ولو للحظة، أن تنظر في وجهه، وقالت:

ـ بدي بنت منّك.

كان صوتها هادئاً، له طابع عملي. قال:

ـ بنت؟

ظلّت ممسكة بيديه، وقالت:

ـ بنت مثل آمنة.

شعرت أنّ الرجل فوجئ. لم تدع له مجالاً للحديث. نهضت وجذبته من يديه، فاستجاب لها. سارت به خلف السدّة. كان هنالك فرشة، عرّت جزءها الأسفل. وجعلته يتمدّد إلى جوارها.

وعندما انتهيا، تركته خلف السدّة، وفتحت باب الدكان. رأت الشارع خالياً. نادته. قالت له وهو خارج: غداً، مثل هذا الوقت.

استمرّت العلاقة حتّى تأكّدت سلمى أنها حامل، ثم أنهتها. حاول عبدالكريم أن يعيدها غير أنّ سلمى كانت حاسمة، قالت له إنها أرادت بنتاً منه، وها هي في بطنها. كان ذلك تقليداً عريقاً: أن تختار المرأة فارساً شجاعاً لتحبل منه، ولكن ذلك ا نتهى من وقت طويل، أو على الأقل لا يُعرف عن نساء القرية أنهن مارسن شيئاً كهذا إلاّ على نحو سري للغاية.

أما عبد الكريم، فعلى الرغم من أنّ سلمى أنهت علاقتها الجسدية به، فقد كان يفاجئها بين الحين والآخر ببعض الهدايا ـ سمن، لبن مجفّف، بعض النقود ـ فكانت تتقبّلها دون حماس. وفي أحيان نادرة كانت تشفق عليه وتسمح له أن يضاجعها. كانت تعرف عن نفسها أنّ الرجال الذين يقيمون علاقات جسدية معها لا ينسونها. كانت تعرف كيف تمتعهم، وكيف تجعلهم يغادرونها وهم لم يرتووا. لم تكن تمنح نفسها لهم كلياً، لم تكن تسمح لهم أن يكونوا أصحاب القرار في فترة اللقاء. إذ فجأة

Abul Abdo Al Bagl

تطلب إليهم أن ينصرفوا.

أما بالنسبة لآمنة فقد حدث تحوّل في مشاعرها نحوها منذ شعرت بالحمل. لقد تحوّل العشق الذي في داخلها إلى مودّة. لم تعد تشعر بالخجل عندما تراها، ولا بتلك اللهفة الجسدية والارتعاش عندما تعانقها. أصبحت تزورها وتجلس معها ساعات طويلة فتشعر بسعادة ونشوة هادئتين، دون أن تجتاحها تلك الرغبة الملتاثة أن تلمسها. كما أنّ أحلام يقظتها تبدّلت، إذ تركّزت أساساً على الجنين الذي في أحشائها. وعندما أخذ الجنين يتحرّك في أحشائها كانت تستولي عليها رغبة جسدية من نوع خاص. لم تكن تتركّز في جزء من جسدها، مثلما يحدث عندما تضاجع رجلاً، أو تشتهيه، بل كانت تغمر جسدها كله. كانت رغبة لا تبحث عن آخر ليشبعها، بل رغبة مكتفية بذاتها، لا تبحث عن الإشباع، بل عن الاستمرار لما لا نهاية، فتعيشها ساعات طويلة وهي ممدّدة في فراشها، بين النوم واليقظة.

أما يوسف فقد خرج من حياتها. كانت تنسى وجوده حتى تراه. تشهده يذوي ويقترب من القبر فتشعر بحياد تام، دون خوف أو حزن، إنّ موته قريب. لقد ماتت مشاعر العطف والشعور بالذنب والخشية أن تفقده، وأصبح حضوراً محايداً. ولكنه استمر في الحياة، صامتاً، ذاوياً، لاهثاً. قالت لنفسها: قد يكون من المفيد أن ترى الطفلة لها أباً.

٦

عندما دخلت سلطانة الدار حدست الأم كل شيء. نظرت إليها وقالت:

ـ سلطانة..

قاطعتها سلطانة:

ـ تعبانة. بدي أنام.

وضعت الأم فرشة فوق البساط، وقالت:

ـ مين هو؟

أغمضت سلطانة عينيها وقالت:

ـ اتركيني أنام .

همست الأم :

ـ غصبن عنك؟

ـ اتركيني أنام .

ـ نزل دم؟

لم تجب سلطانة . كانت قد نامت .

تربّعت الأم بجوار رأسها ، وأخذت دموعها تسيل ، دون أن يصدر عنها صوت .

همست :

ـ يا عين أمّك .

وبللت وجه سلطانة وهي تقبّلها .

استيقظت سلطانة عند الغروب . لسعها الألم بين فخذيها وهي تتمطّى . صرخت صرخة قصيرة . رأت أمها ، فقالت :

ـ ميّتة من الجوع .

قالت سلمى :

ـ فيه وجع؟

قالت سلطانة محتجة :

ـ بقول جعانة ، بتقول فيه وجع؟

قالت :

ـ جيعانة يا كبدي؟

فقست لها ثلاث بيضات بالسمن ، وأعدّت سلطة بندورة بالبصل وغمرتها بزيت زيتون . أكلت سلطانة كل شيء ، وشربت كوز ماء ، وقالت :

ـ الحمد لله . كنت ميّتة من الجوع .

وأدركت أن عليها أن تحكي لأمها ما حدث . قالت : كانوا تسعة أولاد ، وذكرت أسماءهم ، هجموا عليها . اثنان أمسكا يدها اليمنى ، واثنان اليسرى ، واثنان جذبا ساقها اليمنى ، واثنان ساقها اليسرى . واحد فقط قد نالها ، ولكنها استطاعت أن

Abou Abdo Al Bagl

تنهض بعد ذلك وتتغلّب عليهم.

قالت سلمى:

ـ نزل دم؟

ـ شويه.

ـ فيه وجع؟

قالت سلطانة:

ـ شويه.

قالت سلمى:

ـ الغريب ما إله حدا يحميه.

في الليل نامت سلطانة في حضنها. كان نومها مضطرباً، حتى يوسف استيقظ وهمس للأم:

ـ البنت علامها؟

قالت:

ـ ما علامها شي. نام.

قال:

ـ عندها سخونية؟

قالت:

ـ لا. عليها العادة. نام.

ونام على الفور.

في الصباح استيقظت سلطانة. لم تعد تشعر بالألم الحاد، أحسّت به ككتلة ساخنة بين ساقيها. وأخذت تمشي كالحبلى دون أن تقصد ذلك.

في مساء اليوم التالي تسلّلت سلطانة عند الغروب إلى الحجرة الصغيرة، المهجورة، المقامة لصق سور بيت صليبا. نفذت من الجزء المهدّم من سور الحاكورة. هذا الجزء قد فتحه الأطفال خلال فترة الصيف حتى يسهل عليهم المرور إلى الحاكورة وسرقة الخيار والبندورة والعجور والبطيخ والفقّوس المزروع فيها. قد يصادفون

صبحا، ولكنها وقد أصبحت عجوزاً مهدّمة، كان الأطفال لا يكترثون لصراخها وتهديدها. أما صليبا فقد كان يقول: اقطعوا الخضار دون أن تقتلعوا النبتة.

كان للخضار البعلية طعم يختلف عن خضار الغور المروية بالماء. خضار الغور كانت بلا طعم تقريباً. أما الحجرة ـ الخشّة ـ فقد استعملها الأطفال للتبوّل والتبرّز، وأحياناً لممارسة الجنس الشاذ. كانت معتمة، تملأ أرضيتها القاذورات، وقد تساقط جصها. كانت خرابة.

عندما تسللت سلطانة إليها وقفت مدهوشة. كانت الحجرة قد أصبحت نظيفة. لم تكن الرؤية واضحة، فلقد كان ضوء الغروب المتسلل من النافذة الغربية بلّورياً، يضيء الجدار المقابل للنافذة فيكشف لونه الأسمر؛ أما بقية الحجرة فقد كانت تسبح في ظلام رقيق، وديع، كظلام الحجرات المغلقة ساعة الظهيرة. النظافة، شعرت بها سلطانة كرائحة هي مزيج من رائحة التراب المبلول وشيء كرائحة القرفة. كان صليبا هناك.

همس:

ـ سلطانة.

كان يتمدّد على فرشة فوق بساط منسوج من صوف الغنم وشعر الماعز غير المصبوغين، ووسادتين على رأس الفرشة يتكىء عليهما. تقدّمت سلطانة بحذر، فقال صليبا:

ـ خايفة؟

قالت:

ـ لا. مش شايفة.

مدّ ذراعه وقادها إلى الفرشة. لم تجلس، كما توقّع، ولكنها تمدّدت بجواره، دافنة وجهها في إبطه. انزلق حتى أصبح رأسها في صدره قال:

ـ استنيتك امبارح.

قالت:

ـ مبارح كان فيه وجع، كان فيه دم.

أصدر صوتاً حلقياً عميقاً، كذلك الصوت الذي يصدر عن رجل سمع بوقوع

فاجعة. كان أنيناً، خشناً، متقطّعاً. قالت له:

ـ ولا يهمك.

أدهشته الشجاعة، والثقة بالنفس اللتين قالت بهما عبارتها، وأحسّ بالخزي. ها هي تأخذ دور الرجل في كل شيء. قال:

ـ بعده فيه دم؟

قالت:

ـ لا. شوية وجع.

لم تكن تشكو بل قالت ذلك بجرس لعوب.

قال صليبا وكأنه يحدّث نفسه:

ـ فيه دم.

ثم قال بصوت حزين:

ـ ما كنت بعرف.

قالت:

ـ أنا كان بدّي.

وقبّلت صدره، ثم ارتفعت من جواره، وغرست كوعها في الوسادة. كانت تطلّ عليه. وأخذت تدور بسبابتها على فمه، وأنفه، وحول عينيه، وقالت وهي تفعل ذلك:

ـ أمي عرفت.

حاول أن ينهض، ويبدي استنكاره: ولكنه تماسك. لن يكون الرجل المذعور أمام هذه الطفلة. قال:

ـ مين قال إلها.

ـ أنا.

قالتها دون اكتراث وأصبعها يتابع تجواله في وجه صليبا، لمست أذنه برفق فارتعش وضحكت. قالت:

ـ بتغار؟

قال:

ـ إنتَ قلتِ إلها؟

قالت:

ـ آه.

ثم أضافت:

ـ من وين بتغار كمان؟

وأخذت أصابعها تداعب صدره. شعر بمتعة المداعبة. قال:

ـ قلت إلها كل إشي؟

ـ كل إشي.

ثم مالت وقبّلت صدره. قال:

ـ كل إشي؟

ضحكت وعانقته. أحسّت به وقد تجمّد. قالت بجدّية إن أمها عرفت كل شيء عندما رأتها، فحكت لها أن الأولاد أمسكوا بها واغتصبوها. ثم مضت تعانقه، وتدور بيدها على جسده. أحسّت به مستثاراً، ورأته يحاول أن يجذبها إليه. لم تقاوم، ولكنها قالت بصوت هادئ، رصين:

ـ مش اليوم. فيه وجع.

ثم نهضت. قال:

ـ وين رايحة؟

ـ مروّحة.

ـ اقعدي شويه.

قالت:

ـ بكره. بكره.

وانصرفت.

كان صليبا يختنق بالرغبة، هل يلجأ إلى صبحا؟ بمجرّد أن خطر له ذلك أحسّ بالرغبة تتلاشى. نهض ودخل البيت. قالت صبحا:

ـ أحط إلك عشا؟

قال :

ـ ما أنا جيعان .

وخرج . سهر في بيت عبدالكريم العماشنة ، كان هنالك شاعر يحكي حكايات بدوية ، يتخللها الشعر الذي كان يغنيه على ألحان ربابته . حاول أن يتابع الحكاية ، ولكن ذهنه كان يشرد . يستعيد عبارة قالتها سلطانة ، أو تعبيراً على وجهها ، فيستغرق ويتوه ، حدث صمت مفاجىء في السهرة . نظر حوله فرأى العيون مركّزة عليه . قال له عبدالكريم بصوته العريض :

ـ هاه ، ما قلت؟

قال صليبا :

ـ ما سمعت؟

قال عبد الكريم :

ـ أقول ، تهجس وإلاّ تنعس؟

نهض صليبا وقال :

ـ لا بالله انعس .

وانصرف .

في اليوم التالي لم تجيء سلطانة . أحسّ صليبا بجسده كبيراً جداً ومضحكاً . رجل اقترب من الأربعين ، عنده ثلاثة أولاد أكبرهم يدرس في الجامعة ، يحبس نفسه في خشّة ضيّقة ، دون ضوء ، ينتظر طفلة لا تجيء ، تعبث به طفلة . قال لنفسه ، وقد استولى عليه الغضب . قرّر أن يغادر الحجرة ، أن ينهي علاقته بها . «ولكن . . أين أذهب؟» وظلّ ممدّداً يصغي لكل حركة .

نام وصحا على حركة في الخارج . حبس أنفاسه متوقعاً ولوجها الباب ، وكأنّ إصغاءه المشحون هو الذي سيأتي بها . ثم لم يعد يطيق صبراً ، فتح الباب وخرج . شاهد شبحاً يتحرّك في الحاكورة ، وعندما اقترب رأى أنها عنزة . حملها بغضب وألقاها خلف سور الحاكورة .

في اليوم الذي تلا ذلك لم تأت أيضاً . قال لنفسه : لن تجيء بعد ، وهذا أحسن .

Abou Abdo Al Bagl

إنها مجرّد طفلة. يجب أن أنساها. ونسيها فعلاً. ولكنّه، رغم ذلك، اتجه إلى الغرفة، دون أن يتوقع مجيئها. فتح الباب، فلقيها مستلقية على الفرشة. كانت نائمة. وانفجر حبها في داخله عطفاً وحناناً. تمدّد إلى جوارها متجنّباً إيقاظها. همهمت شيئاً والتصقت به دون أن تستيقظ. مرّ وقت قصير، ثم فتحت عينيها، ونظرت إليه وابتسمت.

داعب شعرها فأمسكت بيده، قبّلتها، ثم وضعتها على ثديها. امتلأت يده بالثدي. كان مرناً، متماسكاً، يتفلّت من بين أصابعه، وحلمته صلبة تضغط على باطن يده. أحسّ بالثدي يتحدّاه فضغط عليه بقوة، فقالت:

ـ آي.

ـ علامك؟

قالت بوجه مكدّر:

ـ أوجعتني.

وأبعدت يده، وأنزلت ثوبها من الكتفين، فانكشف النهد أبيض، مشرعاً، نافر الحلمة، وأخذت تلمسه بأصابعها. وهي تحني رأسها وتتأمله، ثم أطلقته، وتمدّدت على ظهرها، وقالت:

ـ حبُه.

أحنَى رأسه وقبّله، ثم وضع الحلمة بين شفتيه وأخذ يضغط عليها برفق، ثم ضمّها إليه. قالت:

ـ بكفّي.

ابتعد. كان يلهث. عندما تكلّم شعر أن صوته غريباً. قال:

ـ ليش ما اجيتي مبارح وأول مبارح؟

قالت:

ـ نطرتني؟

شعر بالخجل. قالت:

ـ استنيت لما الوجع راح.

قال إنه لن يؤلمها، ولكن كان عليها أن تجيء . قالت :

ـ كان ودّك وأنا عندي وجع، قلت لما يروح الوجع . . .

وكانت خلال ذلك تخلع ملابسها . قالت :

ـ حرام لما أنت ودك، وأنا أقول لا .

وأضافت :

ـ شلّحني .

وأخذ ينزع عنها ملابسها دون رويّة . ولم تتدخّل . جعلته يفعل ذلك حتى انتهى . وأخذت تقبّل جسده . قال لها :

ـ بحبك .

قالت :

ـ عارفة .

قال :

ـ لولا أمي، الله يرحمها ، بلتني في صبحا اتجوزتك . على كل حال رجلها في القبر . . .

توقفت عن تقبيله ومداعبته و قالت :

ـ حرام عليك .

نظر إليها بدهشة، فقالت :

ـ أم عيالك .

حاول أن يسكتها بالعناق . من تكون هذه الطفلة حتى تلقي عليه دروساً في الأخلاق؟ ولكنها تملّصت منه . وتكرّر ذلك فيما بعد أكثر من مرّة . لم تكن تحب أن تغتصب، أن تفرض عليها ممارسة الجنس وهي مستغرقة في حالة أخرى .

أحسّ صليبا أنّ عليه أن يشرح لها كيف تزوّج صبحا؟ وكيف أنها لم تعد تصلح لشيء، وحكى لها بحرارة أنه لم يمد يده عليها مرة واحدة، ولم يسيء لها بكلمة . وصف لها كيف كان يمارس الجنس معها . . . كانت تنظر إليه بإصغاء . لم تحاول أن تقاطعه . وكان وهو يتحدّث يقول لنفسه «إنها تستطيع فهم كل شيء، هذه الطفلة» .

Abu Abdo Al Bagl

عندما انتهى كان غاضباً قليلاً، تائه النظرة. ضمّته إليها، وأخذت تقبّل وجهه ونحره وصدره، وعندما أصبح مستعداً جذبته فوقها. كان رقيقاً. سألها إن كان يؤلمها، قالت: لا. استمر.. ثم قالت له: استمر واسكت. وعندما انتهيا لم يشعر ـ كما كان يحدث من قبل مع صبحا والبدوية ـ بذلك الارتخاء والتقزّز من الجسد. شعر بمتعة مراقبتها، وهي ساكنة، مغمضة العينين، ثم وهي تبتسم له، ثم وهي تحيط جسده بذراعيها، وتخبىء وجهها في نحره. داعب شعرها وكتفيها برقة العاشق، بحنان الأب؛ ثم فجأة دعته مرّة أخرى.

قال:

ـ راح الوجع؟

قالت:

ـ راح. اسكت.

وعندما نهضت لتنصرف، قال:

ـ اقعدي شوية.

قالت:

ـ ما شبعت؟

قال:

ـ بكره؟

قالت:

ـ لا.

ـ لا؟

قبّلته وقالت لا تغضب. غداً.

في اليوم التالي جاءت فعلاً. لم تمكث طويلاً. سحبت وسادة وجلست عليها. أدرك أنّ عليه ألاّ يحاول إرغامها على ممارسة الجنس. كما كان يحب أن يراها، ويحب أن يستمع إليها. كانت تعيد صياغته دون أن يعلم، ودون أن تقصد هي. ولم يكن الاثنان يعلمان أنّ سلطانة تمثّل نوعاً جديداً من النساء، تكوّن خارج سياق حياة القرية

وتقاليدها ومثلها؛ امرأة لم تعرف قمع القبيلة، ولا السلطة الأبوية، ولا رقابة الأم الصارمة؛ امرأة حرّة لم يتشكّل لديها الأنا الأعلى.

جلست صامتة، فقال:

ـ هاه؟ كيف الحال؟

لم تكن سلطانة تشعر أنّ مثل هذا السؤال هو مجرّد مجاملة، بل سؤال حقيقي ينبغي عليها أن تجيب عليه. قالت:

ـ مليحة. ما بحس في الوجع.

قال لها:

ـ مبسوطة؟

قالت:

ـ مبسوطة. لكن أمي صارت بتبكي كثير.

ـ ليش؟

ـ ما بتقول لي.

ثم أضافت:

ـ المدرسة رايحة تفتح يوم الاثنين.

قال لمجرّد أن يقول شيئاً:

ـ الاثنين الجاي؟

لم تجب. قال:

ـ بتحبي المدرسة؟

قالت:

ـ بطلع الأولى.

كانت المدرسة الوحيدة في القرية هي المدرسة التابعة للكنيسة الكاثوليكية. هي بناء مقسوم إلى قسمين: واحد للصبيان، وآخر للبنات. وكانت الدراسة للقسمين تنتهي عند الصف السادس ابتدائي.

قال صليبا:

Abu Abdo Al Bagl

- إيش بعلّموكي في المدرسة؟

قالت:

- انجليزي وكلّه.

سأل:

- إيش كلّه؟

قالت:

- إنجليزي وعربي وحساب وجغرافيا وتاريخ . . .

قال:

- تعالي نامي جنبي.

نهضت وقالت:

- بدّي أروّح.

٧

توقف مسعد بسيارته (سيارة شحن قديمة) أمام باب الدكان وهبط. وكان طويلاً نحيلاً، عضلات جسمه بارزة، تتخلّلها شرايين بارزة. تعرف سلمى ذلك الجسم. له صلابة الصخر وخشونة مبرد. كان له أنف يبدأ ضيّقاً، ثم يتحوّل في انحداره إلى كرتين، فيضفي عليه طابع حيوية وتحفز. لوجهه لون بني - ذلك الوجه الأبيض الذي حوّلته الشمس والعرق والتراب إلى اللون البني - وكان شعر لحيته الذي لم يحلق منذ عدّة أيام، له لون أشقر غامق كلون التبغ الفرجيني، لون ينسجم مع اللون البني، يضيء في قتامته. عيناه زرقاوان، زرقتهما باهتة تكاد تكون بيضاء. كانتا صماوان، بلا تعبير كأنهما لا تريان.

يداه كبيرتان، أصابعهما طويلة، وجافتان. كانتا عرقانتين، زلقتين كصخرة ناعمة مبلولة. وكان، خلافاً لأهل القرية، يلبس بنطلوناً وقميصاً، ولا يضع الحطّة والعقال

Abu Abdo Al Bagl

على رأسه.

عندما تراه سلمى تشعر بجسده لصق جسدها قوياً، خشناً، عدوانياً، فيستولي عليها خوف ينتشر تحت جلدها، فيصبح ـ جلدها ـ حساساً كأنّه تعرّض لشمس شديدة الحرارة فترة طويلة. وبمجرّد أن يقترب تصيبها رائحة جسده القوية النفّاذة بالدوار.

لم تكن تشعر بالمودة نحوه، كان يهينها في الفراش؛ وفي أحيان كان يصرّ أن يضاجعها في بيتها، بعد أن ينام يوسف وسلطانة. كانت تقول له: ماذا لو استيقظ يوسف أو سلطانة؟ فيقول بأسلوبه القاطع:

ـ الدنيا عتمة.

تقول:

ـ رايح يحسّ فينا.

فيقول بعصبية:

ـ خلّيه يحسّ.

أما أكثر ما كان يهينها به هو عندما تذهب معه إلى عمّان. كان يسهر في البيت العاري الذي بناه في عمّان. كان يسهر معه بعض الغرباء يشربون العرق، وكان يفرض عليها أن تضاجع أحد ضيوفه. وعندما كانت تمانع كان يفحّ بغضب يجمّد الدم في عروقها:

ـ وبعدين معاكي. خلّينا نمشّي الشغل.

لم تكن تستطيع أن تغضبه فلقد كانت تكسب من ورائه الكثير. كان أهل القرية يشترون حاجاتهم من الدكان بالقمح والشعير والعدس والبيض، وكان ذلك يتحوّل، على يديّ مسعد، إلى بضائع. ثم أخذت تشتري القمح بالنقود وتبيعه له بمكسب. كما كان يأخذها إلى عمّان ويساعدها على شراء بضائع للدكّان. وفي الليل حين يضاجعها بعض ضيوفه، كان يضع في يديها نقوداً أكثر مما تتوقع. تصل أحياناً إلى دينار كامل. وعندما ينصرفون يبدأ هو، ويكون، وهو سكران، عنيفاً، يقذفها بأبشع الشتائم وهو في قمة لذّته.

كانت تعزّي نفسها: أنها ليلة كل ثلاثة أو أربعة شهور. ولكنها ليلة تعود بعدها تعاني ألماً في كل جزء من جسدها، مرهقة، لا تكاد تستطيع الوقوف على قدميها.

دخل مسعد الدكان، وقال:

ـ بدنا بيض.

قالت سلمى بصوت فيه ارتعاشة غير ملحوظة:

ـ فيه تقريباً عشرين بيضة.

ـ بدّي ميّه.

قالت:

ـ ميه؟ منين أجيب؟

ـ دبّري. بكره الصبح.

واستدار لينصرف. قالت سلطانة:

ـ عموه ركّبني السيارة.

تأملها، فرآها أصبحت بطول أمها، وقد بدت مكتملة الجسد، يكاد نهداها ينفلتان من الثوب. قال:

ـ تعالي.

وخرج وتبعته. شعرت سلمى بالاختناق. كانت تريد أن تطلب من مسعد أن يبعد عن ابنتها، كله إلاّ سلطانة، تريد قول ذلك وليكن ما يكون، وتريد أن تمنع سلطانة أن تتبعه، وأن تقف بينهما، ولكن الحاجز الخشبي كان يعيق حركتها، ومسعد أصبح داخل السيارة، وسلطانة تدخل السيارة ومسعد يمسك بيدها ليساعدها على الصعود. وعندما أصبحت بباب الدكان وهي تلهث انطلقت سيارة الشحن مسرعة. نادت:

ـ يا سلطانة.

ولكن صوتها خرج مختنقاً.

رأت السيارة تبتعد، وقد أخفاها غبارها فخنقها عجزها، عادت إلى الدكّان وجلست وراء الحاجز الخشبي وسالت دموعها.

عند العصر عادت سلطانة. كانت سلمى قد بعثت يوسف ليقف في الدكان وذهبت إلى البيت. تصوّرت ما يحدث لابنتها في تلك اللحظة، تصوّرت جسدها

Abu Abdo Al Bagl

مهروساً بالجسد الصخير الخشن، ووجهها . . . ثم عاشت مشاعر ابنتها في ضوء آخر: مسعد كما كان في البداية، وديعاً، مبتسماً تلك الابتسامة التي تكوّر خديه فيصبح له وجه طفل، وعنفه عندما يصبح اندفاعاً مع رغبة لا تقاوم، رغبة متجددة تستمر ساعات. والاثنان لا يرتويان. . . فعاشت لحظات متعة رافقها وانتصر عليها شعور بالغيرة. لم تكن غيرتها موجهة إلى سلطانة، بل إلى مسعد الذي يستغرق في تلك اللحظة بتواصل لا حدود له مع حبيبة القلب.

نهضت وسارت في الدار. نسيت السبب الذي نهضت من أجله. وقفت أمام الزير وملأت الكوز ماء وشربت. قالت لنفسها:

ـ موتك يا مسعد على إيديي.

في تلك اللحظة دخلت سلطانة. ومنذ أن رأتها علمت أنْ لم يحدث شيء بينها وبين مسعد. دخلت ضاحكة، صاخبة، مهتاجة، لوجنتيها تلك اللمعة الحمراء المبهجة، وبعينيها ذلك البريق المشع. رأت مشيتها، تلك المشية القافزة.. مشية ليست لامرأةً أُذلّ جسدها.

ـ هلا بحبيبتي.

وضمّتها، وهي تهذي هذيان عاشقة:

ـ جنينتي، نوّارة قلبي، طوّلتِ. .

قالت سلطانة:

ـ يمه، يمه، لا تبكي.

قالت سلمى:

ـ وين رحتوا؟

قالت سلطانة بلهوجة وصخب:

ـ رحنا لعمّان يمه، رحنا لعمّآن يمه. لما دخلناها حسّبت فيه هوشه. (وتضحك) حسّبت الناس بضربوا بعض. خفت، وضحك عليّ عمي مسعد. (وتغرق في الضحك) والنسوان ماشيات مزلّطات في الشارع، صدرهن مبين، وذرعانهن مبيّنة، ورجليهن مبيّنة؛ وفيه نسوان مغمغمات يمّه، على وجهن قماش أسود، الخرفان . . . يمه الخرفان، خرفان مذبوحة ومعلّقة. . مية خروف. . . وأكلنا لحم مشوي، وشربنا

ميه حمرا بتفور. حسبّتها ساخنة. لقيتها مصقعة مثل الثلج . . . والسيارات.

ومضت تحكي دون توقف.

قالت الأم:

ـ جيعانة؟ أسوي لك زاد؟

قالت سلطانة:

ـ لما أكمّل . . .

واستمرّت تصف ما شاهدته في عمّان:

ـ ضحكني الزلمة . .

ـ مين الزلمة؟

قالت سلطانة وكأنّ ذلك شيء مفهوم:

ـ الزلمة اللي في المطعم. هيك دنّق راسه، خفت يخبط في راسي، وقال: «إيش بتريد الست؟» ضحكت. حسّبته بمزح معايي. وقعدت على كرسي مثل الكرسي اللي بقعد عليه قاضي الصلح . . .

أصغت إليها سلمى دون أن تقاطعها. كانت تعرف أنّ البنت غير مستعدة لأي حديث جدي وضحكت سلطانة:

ـ شكراً، عفواً، شكراً، عفواً، الواحد بقول للثاني شكراً، والثاني بقول له عفواً. شكراً، عفواً.

لم تعد سلمى تصغي. أخذت تعدّ الطعام وهي تسمع صوت ابنتها انفجارات صاخبة، تقطعها كركرة الضحك. سوف تحكي لها عن مسعد، وعمّا يريده منها. ولكنها تشعر أن هذا ليس بالوقت المناسب. قبل ذلك عليها أن تتحدّث إلى مسعد، سوف تهدده، وليكن ما يكون. وعليها أن تمنع ابنتها من رؤيته. ولكن كيف؟ سوف تجد حلاً لذلك.

تنبّهت أن ابنتها صمتت. التفتت فرأتها تائهة النظرة. وضعت الطعام أمامها وشاركتها فيه. فجأة نظرت إليها سلطانة وقالت:

ـ يمه، عمي مسعد وده اياني أتجوز بشارة.

٨

بدأت علاقة صليبا بسلطانة منذ ثلاث سنين. ربما أكثر أو أقل من ذلك. و كانت زيارة سلطانة لعمّان برفقة مسعد حداً فاصلاً بين مرحلتين في هذه العلاقة. في المرحلة الجديدة اكتشفت سلطانة قوتها، تبيّن لها أن كل من لها صلة مباشرة به يخضع لإرادتها بهذا القدر أو ذاك: صليبا، مسعد، بشارة، أمها، والدها، زوجات أعمام بشارة، وعمّاته العوانس. لم تكن تتقصّد ذلك، أو تسعى إليه. رأته يحدث.

وبهذا القدر أو ذاك أحدثت تغييرات في مصائر من حولها، وفي علاقاتهم. كانت الوحيدة التي لم تكن تدرك، وإن أدركت لم تكن لتكترث، إنّ للمجتمع قوانين. ولهذا كانت أكثر حريّة وجرأة. كانت تطيع حريّتها الداخلية، ولم يكن يخيفها أحد. وحاول مسعد أن يكون ذلك الرجل المخيف، ولكنه أدرك فيما بعد ـ وكما سوف نرى ـ أنّ العلاقة الوحيدة مع سلطانة، العلاقة الممكنة هي الخضوع لها. لقد نجا بشارة لأنه رضي بمصير الزوج الشكلي. لم تسمح له إلاّ بلعب دور الإطار الخارجي للزوج. لم يعرف جسدها إلاّ مرّات معدودة، لم تتح له أن يكون أباً لأبنائها ولا لمسعد. جعلت صليبا أباً لأميرة وأباً لطلفها الثالث، أما الرابع والأخير فقد كان ابناً لحكمت، الذي كان يشرف على المخيم المقام قرب مدينة العقبة، والذي كانت تمر عبره قوافل تجّار الحشيش إلى مصر، وعبره تتم تجارة الماس مع إسرائيل.

أما الابن الثاني فقد كان غلطة، دفع من ارتكبها ثمناً غالياً. الواقع أن هزيم لم يكن هو البادئ. تنبّهت سلطانة إلى وسامتة الأنثوية فأحبّته أباً. كانت تعلم أنه كمسلم لا يصلح كحبيب. كما أنها لم تشعر نحوه برغبة جسدية. ولكنها أحبّت أن يكون لها بنت جميلة. كان يتناول الغداء عندهم. انصرف مسعد وقالت لهزيم:

ـ خليك شوية.

رأت اصفرار وجهه وارتعاش يديه فلم تأبه لذلك. أغلقت الباب عليهما و قالت له إنها الآن بين حيضين وتريد منه بنتاً. لا تدري لماذا أصرّت أن يضاجعها. رأته يحاول أن يقول شيئاً فلا يستطيع، ورأت العرق يسيل على وجهه دون توقّف، ودون أن يحاول تجفيفه. عجز عن خلع ملابسه فخلعتها. وعندما انتهت منه، وقد أصيب بحالة

أشبه بالإغماء شعرت للمرة الأولى أنها تكره جسدها. كان يدير لها ظهره فرأت عجيزته وأحسّت بالغثيان. رفست عجيزته وقالت:

ـ البس هدومك.

وعندما كان يغادر الدار قالت له:

ـ وكان بدك تتجوّز آمنة؟

نظر بعينين واسعتين في وجه أصفر. فكّرت أنه ما يزال خائفاً، وسوف يظل خائفاً، قالت بعصبية:

ـ استعجل امشي.

ثم وهو يغادر البيت، قالت:

ـ لا تخليني أشوف وجهك خطرة ثانية.

وبعد خروجه سخّنت ماء واستحمّت.

منذ تلك اللحظة قرّرت أن تحوّل هزيم من شريك إلى أجير.

هذه الحرية الداخلية، والشعور بعدم الالتزام بشيء لا ترغب فيه، هما اللذان جعلاها تنسى زيارتها اليومية لصليبا. في اليوم الرابع تذكرته وزارته لتحكي له عن عمّان. وكما فعلت مع أمها حكت له عن عمّان، وفي نهاية حديثها أخبرته عن زواجها القريب ببشارة. قال صليبا:

ـ بشارة؟

قالت سلطانة وقد بدا الرعب على وجهها:

ـ علامك؟

شعرت أنّ شيئاً غير مفهوم قد حدث. إذ أخذ صليبا يتنفّس بصعوبة؛ كان يتنفّس من فمه، وبدا أنه على أهبة النوم. فكّرت في مناسبات مماثلة. تذكّرت أنهم يرشقون الماء على الوجه، ويطلبون إلى المصاب أن يشرب. نهضت وأتت بكوز الماء. بلّلت وجهه وشعره ورقبته، وقالت له، وهي تمدّ الكوز وتضعه قريباً من فمه:

ـ اشرب.

أخذت عيناه ترمشان، وقال بصوت مختنق:

ـ بشارة يا سلطانة؟

ـ لم تستوعب السؤال. قالت:

ـ بشارة أخو مسعد.

قال وكأنّه يحدّث نفسه:

ـ بشارة أخو مسعد.

وأخذ يهز رأسه ببطء ويردّد:

ـ بشارة أخو مسعد.

واستمر يهزّ رأسه وكأنّ ذلك لن ينتهي أبداً، وهو خلال ذلك يردّد: «بشارة أخو مسعد. بشارة أخو مسعد. بشارة أخو مسعد» يلقيها بإيقاع شبيه بالغناء. شعرت سلطانة أن شيئاً مفجعاً يحدث، شيئاً لا تستطيع تحديده، ولكنه يحيط بهما، ويقبض على قلبيهما. وأحسّت برغبة في الصراخ، أو الضحك. قالت:

ـ وعلامك؟

وتكلّم صليبا بمرارة وبلهفة لم تعهدهما من قبل. وهي تصغي لصوت صليبا أحسّت بشكل غامض وغير مفهوم، حتى بالنسبة لنفسها، أنها تملك أرواح الرجال ومصائرهم. شعرت بقوّة، وبأنها في وضع تقرّر لنفسها وللآخرين ما يجب فعله. قال صليبا إنه كان يظن أنها سوف تنتظر. إن صبحا تسرع إلى قبرها، ومضى الكثير ولم يبق إلاّ القليل.

قالت سلطانة بعصبية:

ـ صبحا تموت، صبحا تموت، صبحا رجلها والقبر.. ما عندك غير هالسيرة؟ ما بحب سيرة الموت.

صمت صليبا قليلاً، ثم سألها إن كانت قد جاءت لتودعه، إن كانت هذه هي المرّة الأخيرة التي سوف تراه فيها. بدا ذهول حقيقي على وجهها، ونظرت إليه نظرة ثابتة وقالت:

ـ أودّعك؟

قال صليبا:

ـ بعد الجواز يعني.

قالت إنها باقية في القرية. سألها. هل ستزوره؟ قالت وكأنّ المسألة واضحة، ولا تحتاج إلى سؤال: إنها، بالطبع ستفعل. لماذا لا تجيء إليه؟

كرّر سؤاله:

ـ بعد الجواز؟

قالت بالطبع. سألها:

ـ ليش.

نظرت إليه ولم تجب. شعر أنه أصبح مزعجاً. صمت، معتقداً أنها لن ترد، وعاجزاً عن البدء بموضوع آخر. قالت فجأة:

ـ ليش بجي لك بتقول؟ بكيّف معاك.

انطلقت ضحكة من صليبا، ومدّ ذراعه وأحاط كتفيها وقبّلها على خدّها. كانت استجابتها غير متوقعة، إذ شهقت واندفعت إليه وهي تئن. كان يوماً خاصاً بالنسبة للاثنين. لم يمارسا الجنس قط بمثل هذا الإقبال وعدد المرّات. انصرفت في ساعة متأخرة، وقد نام صليبا في مكانه.

عندما غادرت، رأت أمها تنظر إليها بدهشة. قالت:

ـ ويش أخّرك يا بنيتي.

قالت:

ـ جيعانة.

قالت الأم:

ـ مسعد سأل عنك.

ـ إيش بدّه؟

ـ قال العرس بعد أسبوع، وسألني عنك؟

قالت سلطانة:

ـ إيش قلت إله؟

ـ قلت له راَحت عند جملا.

Abu Abdo Al Bagl

نظرت سلطانة إلى أمها، فزاغت نظراتها واحمرّ وجهها. وبحدس أصبح طبيعة ثانية أدركت سلطانة أنّ شيئاً ما حدث بين أمها ومسعد، وكان يحدث منذ زمن بعيد.

وأمها تعدّ لها العشاء، وتنظر إليها خلسة، ثم تنصرف إلى إعداد الطعام عندما تبادلها النظرة، شعرت سلطانة للمرّة الثانية بأنها تملك قوّة على الآخرين، أن تحدس ما يدور في نفوسهم من خوف، وأن تستعمله للسيطرة عليهم. كانت تخيفها قليلاً هذه القدرة، إلاّ أنها لم تستطع مقاومة إغراء استعمالها.

وضعت أمها الطعام أمامها وجلست قبالتها تشاركها الطعام. قالت سلطانة تخاطب أمها:

ـ طوّلت القعدة؟

نظرت إليها أمها. رأت البسمة الغريبة على وجهها، فأحنت رأسها، ثم رفعت وجهها مع اللقمة التي في يدها ونظرت إليها وكأنها لا تراها. قالت:

ـ لا. ما طوّل.

ـ وين أبوي؟

ـ نايم من العصر.

ابتسمت سلطانة وقالت:

ـ ما صحّتيه لما إجا مسعد؟

ـ لا.

قالت سلطانة:

ـ والله يا يمه، إنتِ مظلومة مع أبوي.

ـ عيب يا سلطانة.

القسم الثاني

عمّان

Abu Abdo Al Bagl

Abu Abdo Al Bagl

١

في طريقي إلى الباص، وأنا أحمل الحقيبة، فوجئت بسلطانة. كانت قادمة من اتجاه الباص. ارتبكت. هل تسلم عليّ أم تتجاهلني؟ فوجئت بي وأضاء وجهها. تلك لحظة ـ مشهد ـ موقف سيظل محفوراً في ذاكرتي حتى آخر لحظات العمر. عشت بعد تلك اللحظة في مدن كثيرة ـ عمّان، بيروت، دمشق، بغداد، القاهرة، أديس أبابا، روما، برلين، تونس، فاس، الرباط، الدار لابيضاء، أثينا، الاسكندرية ـ وكثير من المدن الأخرى، وعرفت، وأحببت نساء في كل هذه المدن، ولكنني لم أعرف قط وجهاً أثارني وظلّ يلاحقني كوجه سلطانة في تلك اللحظة.

كان للوجه فتنة لا توصف بتفاصيلها، بل بالأثر القاتل الذي تخلّفه. فتنة تعلم أنها ممتنعة، لأنها، حتى حين تمنح نفسها، فسوف تحسّ أنّك لم تلمسها بل تجوّلت بشفتيك على وجه امرأة. في وجه تلك المرأة حريّة لا تستطيع السيطرة عليها أو امتلاكها. اقتربت مني وهي تقول بمناغاة:

ـ جريس؟ مسافر؟ بعد يومين بنلحقك.

سقطت الحقيبة من يدي وأنا أقف بانتظار أن تقترب، وأنا أشاهد صدرها الناضج، الانحناءة القوية التي تشكّل الخصر، العنق الشامخ، والنحر الصقيل. أقف بانتظار أن تفيض عليّ وتغمرني.

ضحكت حين اقتربت وقالت:

ـ قلت لمسعد يستناك حتى لو تأخرت ساعتين.

ثم أضافت بلهجة لعوب:

ـ عارفيتك بتتضاحى في النوم.

قلت:

ـ ما نمت مبارح.

كان صوتي خشناً، وقد أشعرتني الجملة التي قلتها بألم في حلقي. كنت أودّ أن أضيف أن ذلك كان بسببها، فلم أستطع. رأيت الدم يهرب من شفتيها، وعينيها تصبحان برّاقتين جداً. قالت:

ـ ما نمت؟

وكما نفعل مع طفل مالت وقبّلت خدي. ولم أستطع السيطرة على نفسي. ضممتها وقبلت شفتيها. ابتسمت وقالت:

ـ ما إنت خايف حدا يشوفك وإنت بتحبني؟

ـ لا. لازم أشوفك في عمّان.. أنا.. أنا..

حملت الحقيبة وقالت:

ـ امشي معاك لحد الباص.

حاولت أن أعترض على حملها الحقيبة، وأن أجذبها من يدها، ولكنها أصرت بحزم على حملها. سرنا قليلاً وهي تحمل الحقيبة، ثم وقفت أمامها وقلت:

ـ ما بصير هيك يا مدام.

ضحكت وقالت:

ـ طيب احملها أنت.

حملتها وقلت

ـ رايح أشوفك في عمّان؟

ـ كثير، كثير.

ثم نظرت إليّ بجديّة:

ـ انت مسافر بيروت؟

ـ بعد شهرين. تيجي تزوريني في بيروت؟

قالت:

ـ بتحسبني رايحة أقول لا؟ والله غير أجي لك.

سرنا قليلاً، ثم أضافت:

Abu Abdo Al Bagl

ـ بنات بيروت رايحات ينسّوك إياني .

قلت :

ـ إنت أحلى من كل بنات الدنيا .

وكانت تشعّ مرحاً بجواري .

أتذكّر في أحاديثي الطويلة مع سمحة ، بعد هذا بفترة طويلة . كانت تريني مجموعة من الصور الفوتوغرافية لسلطانة . كانت سمحة قد عرفت أنّ سلطانه خالتها .

قالت سمحة :

ـ هذه سلطانة وحكمت .

كان حكمت يلبس بذلة ضابط شرطة برتبة عقيد ، وكان له طلعة نجم سينمائي . كان نصف شركسي . وبجواره سلطانة . ترتدي تنورة زرقاء وبلوزة بيضاء ، وقد فرقت شعرها من منتصف الجبين حتى نهاية قمة الرأس ، ثم ألقته خلف كتفيها . كان رأسها أعلى قليلاً من كتف حكمت . كانت تنظر باستسلام وكسل إلى الكاميرا . قد تكون غاضبة أو مجرّد ضجرة ، بدت أقرب إلى السمنة .

قالت سمحة :

ـ هذه سلطانة في خليج العقبة .

كانت تلبس مايوهاً من قطعة واحدة ، تخفي عينيها بنظارة سوداء ، وتخفي شعرها بطاقية من المطاط . كانت تتكىء بظهرها على عامود الشمسيّة ، وهي جالسة على الأرض ، وقد ضمّت ساقيها المطويتين بذراعيها ، واستقر ذقنها على ركبتيها . لم يكن فيها ما يثير . وصورة أخرى تقف فيها على الشاطىء ، مواجهة الشرق ، وقد بدا البحر من ورائها . وصور أخرى كثيرة .

قلت لسمحة : سلطانة حضور ، إذا غاب غابت . لا يمكن وصفها سواء بالكلام أو بالصورة الفوتوغرافية ، أو حتى بالسينما .

بدا الغضب على وجه سمحة وبدت الغيرة واضحة في كلماتها :

ـ أنت بتحبها؟

لم أرد .

قالت :

Abdo Al Bagl

ـ كان فيه شيء بينك وبينها.

لم أجب، فقالت بغضب:

ـ سكوتك أنه كان فيه شيء. بينك وبين شرموطة؟

ودعت سلطانة عند باب الباص. نادت:

ـ مسعد، دلّه على البيت.

٢

عندما وصلت بنا السيارة قمة (مصدار عيشة) انكشفت عمّان أمامنا فجأة: الوادي، بيوت الحجر البيضاء الهابطة من الجبل النظيف، بيوت قليلة على يميننا، تقف على قمة جبل الأشرفية.

وآلاف الأجزاء من آلاف البيوت. والأشجار، وأعمدة التلغراف. كان ذلك دائماً يفاجئني: أن أجد نفسي فجأة، دون تمهيد، على أطراف مدينة كبيرة.

توقف الباص، وطلب مسعد من الركّاب الزائدين عن المقاعد أن يهبطوا، وسوف ينتظرهم الباص عند بداية حارة المهاجرين. كان يفعل ذلك قبل الوصول إلى نقطة المرور، التي يفترض أنها تشكّل المدخل الجنوبي للمدينة. يقوم أحد أفراد النقطة بكتابة رقم السيارة القادمة، وأسماء الركّاب، ويفحص أوراق السائق، ويتأكّد أنها لا تحمل أكثر من العدد المسموح به من الركّاب. وبعد ذلك يسمح للسيارة بالمرور.

كان ذلك يستغرق وقتاً كافياً لأن يصل الركّاب الزائدون إلى النقطة ويتخطوها، ثم يتوقفوا عند الجسر المؤدي إلى حارة المهاجرين، حتى تصل السيارة، ويركبوها مرّة أخرى. يتم ذلك أمام رجال النقطة فلا يفعلون شيئاً.

أخذنا نهبط المصدار. على الجانبين أكواخ من الصفيح، أو خيام بيضاء مربّعة، نساء مكدودات يطالعننا بأنوف مجعّدة، وأيد مفروشة على الحواجب تقي العيون ضوء الشمس، أطفال أنصاف عراة يركضون نحو السيارة ويصرخون بعبارات غير مفهومة. يلي ذلك المقبرة: قبور بيضاء، صغيرة، أنيقة، تصعد من جوف الوادي وتتسلّق الجبل. لم تكن هذه القبور ـ على الأقل بالنسبة لنا، نحن القادمين من القرية ـ

Abu Abdo Al Bagl

توحي بالموت، بل بدت كزخرف يزيّن مدخل المدينة.

بعد أن تجاوزنا نقطة المرور أخذ الباص يشق زحام حارة المهاجرين ، أقدم منطقة في المدينة، وأكثرها ازدحاماً. الأرصفة الضيّقة مزدحمة، يفيض زحامها على الشارع، ويجعل مرور السيارات صعباً، كان هنالك باعة متجولون يبيعون السجاير المحليّة والأجنبية، والحلوى التي يحط عليها الذباب، والترمس ، والهريسة، والفلافل المقطّعة والملفوفة بخبز رقيق على شكل سندويتشات، وقد أضيف إليها سلطة البندورة والفلفل الأخضر الحار. وكان هنالك تجّار أغنام ومواش، يسوقونها بجانب الرصيف، وعساكر شرطة يضعون خوذات تعلوها خوازيق معدنية، براّقة، بيضاء، ورجال يحملون على الكتفين ملابس قديمة (معاطف وبنطلونات وجاكتات وكنزات) وبنادق بأصوات منغمة، وعتّالون يربطون سلالاً مصنوعة من القصب على ظهورهم. . . توقف الباص في منتصف شارع الملك طلال، وهبط منه بعض الركّاب.

خلال ثوان أحاط بالسيارة واندفع إلى داخلها عدد لا يصدّق من العتّالين، وباعة السجاير، وباعة الصحف والحلوى يتدافعون ويزعقون، ويعرضون خدماتهم بالحاح مثير للأعصاب. زعق بهم مسعد:

ـ انزل يا حمار، يا ابن الحمار.

ولكن صوته يضيع وسط الضجيج ، فيستدير ويصرخ:

ـ وين راحت العصاية. انزلوا أحسن إلكوا يا ولاد الشرموطة.

وتناول مسعد العصا فعلاً، قنوة من خشب السنديان، لها رأس بيضوي ورفعها فوق رأسه. وثب بائعو الصحف والحلوى من باب الباص، واختبأ العتالون وراء كرسي الركّاب يعرضون خدماتهم بهمس وإلحاح. عندما تحرّكت السيارة رفسها بائع الصحف بقدمه، وقهقه.

على جانبي الشارع دكاكين مزدحمة بكل أنواع البضائع التي تستهلك في الأرياف: العباءات، الأقمشة النسائية أبو غزالين، والبفتة البيضاء، والكوفيات ، والعقل ، والأحذية ، ومختلف أنواع الحلوى الرخيصة، والمغارف الخشبية، والطناجر، والقلائد، والمناجل. . .

فكّرت أنني بعد ساعة أو ساعتين سوف أصبح واحداً من أهل هذه المدينة، سوف أخلع هويتي القروية، أتخلّص من هذه السلّة المملوءة بالأطعمة، والتي تميّز القروي

الذي يدخل المدينة، وأخلع ملابسي التي يكسوها الغبار، وأحلق لحيتي واستحم، وألبس البذلة الجديدة، وسأبحث عن الأصدقاء الذين يعترفون بهذا الانتماء، ويؤكدونه بتلقائية. أما هؤلاء القرويون فسوف يحتفظون بغربتهم، يتقوقعون في داخلها، ويحتمون بها. أسعدني هذا التميّز عمن حولي، القدرة أن أقف في الجانب الآخر الغامض، الغريب، المدهش.

منذ البداية، منذ أنْ غادرنا القرية أخذت أشعر بالانفصال عن أهل قريتي. بل قبل ذلك: فمعانقة سلطانة، والمسيرة سوياً إلى الباص، والاتفاق على أن نلتقي في عمّان، ثم وعد سلطانة أن تزورني في بيروت... كل ذلك تمّ خارج عرف القرية. وفي داخل الباص كان أهل القرية يرددون تلك النكات التي أسمعها كلما سافرت معهم إلى عمّان: هل تم علف الباص جيداً؟ هل تناول كفايته من التبن والشعير؟ ابعد عن الباص ليرفسك. وعندما يطلق زاموره يقولون أنه يصهل أو ينهق... وشعرت بانقطاع كامل عنهم ونحن نمر في شوارع عمّان، وهم يسخرون من النساء اللواتي يسرن بأذرع عارية، ويقولون إنّهن هائجات لأن رجال عمّان ناعمون ولا يشبعونهن، وإنّهن يبحثن عن رجال حقيقيين، ويتظاهرون بالدهشة من اللحامين الذين يعلّقون هذا العدد الكبير من الخراف، ولا يقولون لهم، وهم ضيوف، «تفضّلوا». ويتبرّع أحدهم ليحكي القصة التي سمعتها أكثر من مائة مرة. عن البدوي الذي جاء إلى عمّان فوجد رجلاً يقف بباب المطعم، فناداه:

ـ أهلاً وسهلاً يا شيخ العرب، تفضّل.

ففرح البدوي ودخل، وأكل كثيراً، وصاحب المطعم يلحّ عليه أن يأكل المزيد، والبدوي الجائع، سعيداً بهذا الكرم، لا يمانع. وينهض البدوي شاكراً «يكثّر خير المعازيب» ولكن صاحب المطعم يطالبه بثمن الطعام. فيندهش البدوي، ويشرح موقفه، ويعيد رواية ما حدث، ولكنه يضطر في النهاية أن يدفع.

ويكرّر آخر حكاية أخرى عن البدوي الذي كان يسير في شوارع عمّان، فيلتقي به رجل، يفتح ذراعيه ويضمّه قائلاً:

ـ يا هلا بحمد، وشلون الضعوف يا حمد، عساك زين..

والبدوي يقول:

والله ما انا حمد.

والآخر يلح أنه حمد، وأنّه يخفي هويته حتى لا يدعى للغداء. هنا يلين البدوي ويقول إنّه حمد بالفعل، وإنّه أخفى نفسه حتى لا يكلّف الرجل مشقة دعوته إلى الطعام. وهكذا يسيران إلى مطعم فاخر، ويأكلان ما لذّ وطاب، وينهض الرجل ليغسل يديه، ولكنه لا يعود. وبعد انتظار طويل يواجه البدوي الموقف: عليه أن يدفع حسابه وحساب مضيفه، فيصرخ:

ـ ملعون أبوك يا حمد!

مع شعوري بالانفصال عن أهل قريتي عشت حلم الانتماء والانفصال كفعل، متابعاً خطّ سيارة الأجرة: مواصلة السير في شارع الملك طلال حتى نهايته، مروراً بساحة الجامع، ثم الانحراف يساراً حتى الساحة التي فيها الساعة؛ ثم على يساري الممر التجاري، ومطعم أبو العبد، ومحلات باتا لبيع الأحذية، مكتبة الصفدي، والدرج الصاعد إلى جبل عمّان... على اليمين مقهى السنترال ـ عن يمينه شارع السلط وعن يساره شارع وادي السير ـ ثم أواصل في شارع وادي السير، مبنى البريد الرئيسي، ثم مقهى وادي النيل ـ معالم ثابتة في ذهني ـ ثم نسير حتى نصل في بداية الصعود إلى جبل عمّان. على يمين تأخذ البيوت في الانحدار عن مستوى الشارع، وعن يساري تطل علينا البيوت من فوق، تعلو وتتراجع؛ وأواصل السير، أدور حتى الدوار الأول، والسير حتى أنحرف يميناً، مدرسة المطران التي أنهيت فيها دراستي الثانوية على يمين. أتابع مبنى الحمّام ودورات المياه، والمبنيين الداخليين المخصصين للنوم، أراهما خلف سور من الأسلاك التي تتقاطع على شكل معينات. من الطابق الثاني كنا نتلصص خلف الشبّاك، ننتظر الفرّان ليطرق الباب في الطرف المقابل من الشارع. تخرج المرأة بقميص النوم. نرى ذراعيها ونحرها والجزء الأعلى من الثديين وهي تحمل خشبة مستطيلة، صفّت فوقها الأرغفة التي ما تزال عجيناً، فيتناولها الفرّان، وترتفع قامة المرأة لتضع الخشبة على رأس الفرّان. تلك لحظتنا المرتقبة، حيث يقفز النهدان من فتحة القميص، يرتفعان في الهواء، وتنتصب الحلمتان، غامقتا الحمرة، مندفعتان إلى الأعلى. تنظر المرأة إلى الشبّاك. هل ترانا خلف الستائر؟ ولكنها تدخل وتغلق الباب الخارجي؛ تبدو للحظات ـ أجزاء منها تبدو ـ عبر الشجر الكثيف، ثم تختفي تماماً.

يلسعني الحنين إلى حياة لم تكن سعيدة، ولكنها ممتلئة.

تواصل السيارة، تنحرف يميناً إلى الشارع غير المرصوف، جنوب المدرسة، نمرّ عبر المثلث المحاط بسور من الأسلاك والمزدحم بأشجار الصنوبر، ثم أصل إلى الحجرة الواقعة تحت مستوى الشارع. أدفع الباب الخارجي. وأدخل. المفتاح في حوض الزهور، الذي لا زهور فيه. رائحة الحجرة أعرفها، رطوبة، ورائحة أحذية وجوارب لم تغسل. أحلق لحيتي، أستحم، ألبس جورباً جديداً وحذاء نظيفاً، وقميصاً، وبذلة جديدة. كل شيء جديد ونظيف. أنا نفسي سوف أصبح جديداً.

تابعت المسيرة باستغراق، وغياب عمّا حولي، وكأنني أعيش حلم يقظة جنسي. أما ما لم أكن أتوقعه هو أن يختلي بي مسعد وأن يصف لي البيت بدقة، ثم يعطيني رقم تليفون البيت. فعل ذلك بهمس تآمري، وهو يضع يده على كتفي، وقد شفّت عيناه الصخريتان حين ابتسم (لأول مرّة في حياتي أراه يبتسم). كان له ابتسامة جميلة، وعيناه، في تلك اللحظة كانتا عينيّ حالم. عاملني وكأنني أحد أفراد العائلة. انجذبت نحوه وغاب عن ذهني أنه ينفّذ أوامر سلطانة.

وعندما حملت سلّتي والحقيبة أبغي الانصراف، أصرّ أن يحمل الحقيبة عنّي ويستوقف سيارة أجرة. فتح الشنطة الخلفية للسيارة، ووضع فيها الحقيبة، ثم قال للسائق:

ـ دير بالك عالأستاذ.

ثم همس لي:

ـ تكلّم بكرة الظهر.

قلت:

ـ رايح تكون موجود؟

قال:

ـ إذا ما كنت، سلطانة بتكون موجودة.

وانطلقت بي السيارة.

كان أكثر ما أدهشني في تلك اللحظة أن يكون في بيت مسعد تليفون. كانت التليفونات في عمّان قليلة جداً، وكان أسلوب الاتصال أن تتصل بقسم التليفونات من مبنى البريد، للاتصال بالرقم المطلوب ـ إذ لم يكن الهاتف الآلي قد دخل الأردن ـ

وكثيراً ما كانت عاملة التليفون لا تستجيب للطلب. لذا كنت أتكلّم بالإنجليزية عندما أطلب رقماً، فكان الاتصال يتم فوراً.

٣

حين غادرت الحجرة كنت شخصاً آخر. أخذت أبني إحساسي بالألفة مع الشوارع والأمكنة. بدت والشمس تغمرها ـ الشارع حرش الصنوبر الصغير وسور مدرسة المطران والبيوت بحدائقها الصغيرة والسيارات وهي تعبر مسرعة والمارة رجالاً ونساء وسيل عمّان النحيل في قاع الوادي ـ مشحونة ببراءة وتلقائية جعلتاني أشعر بأنني منفي عن كل ما أراه. انتمائي إليها مجرّد قشرة خارجية، ففي داخلي رواسب كوابيس الشبق، والضجر، والغبار. كنت أخدع المدينة وقد أخجلني ذلك من نفسي.

سرت محاذياً الحرش، ثم الشارع المحاذي للسور الغربي لمدرسة المطران. في الطرف ملعب كرة القدم للصغار، يليه شرقاً الملعب الرئيسي، وشمالاً ملعب كرة السلة، وشرقاً ملعب التنس المسيّج والمسقوف بالأسلاك. أستطيع أن أرى حجرات الدراسة. مدرّس الأدب الإنجليزي أتذكره وهو يدخل الحجرة مسرعاً. على مدخل الحجرة، على الأرض المبلّطة، كنا ننثر حبّات الجلبانة الصلبة، المستديرة. ينزلق الأستاذ، يقف مائلاً إلى الخلف على قدم واحدة، والأخرى في الهواء. يبدو وكأنه يمارس رقصة مستحيلة. يرتفع ساعداه محاولاً أن يمسك بأي شيء، ثم يسقط على ظهره، لا ينهض بوقار، بل يحاول الوقوف وهو يرفع ساقيه وذراعيه في الهواء، كأنه صرصار مقلوب على ظهره.

كان أحياناً يمرّ بين الطلبة، فنشبك ورقة في جاكتته من الخلف مكتوب عليها «حمار للبيع». ويخرج من الصف إلى الملعب، ويرى الطلبة الوجه المتجهّم للأستاذ، والورقة المعلّقة على ظهره. يسرع الجميع في استراحة الساعة العاشرة صباحاً ليشاهدوا هذه المعجزة.

كان هذا الأستاذ البريطاني يشرف على حجرتنا في القسم الداخلي. فيها عشرة أسرّة. تطفأ الأنوار في التاسعة مساء. نلقي المفرقعات على حجرته. فيأتي ويضيء النور. نتظاهر جميعاً بالنوم، وقد غطّينا أجسادنا ورؤوسنا بالشراشف. يقترب من كل

سرير ويزغزغ بإصبعه كل واحد منا تحت إبطه، فإذا انفجر الواحد منا ضاحكاً يعتبره مشاركاً في الشغب ويعاقبه. أحياناً يرانا ملفوفين بالشراشف كالمومياءات. يحرّك كل واحد منا يده صعوداً وهبوطاً فيتحرّك الشرشف كله ونبدو وكأننا نمارس العادة السرية بشكل جماعي. يصرخ:

ـ Stop it.

ويجذب الشراشف عن الجميع.

للحظة رأيتها على يساري، واقفة بالباب، تلك الفتاة الشركسية التي كان يحلم كل طالب أن يقيم علاقة معها. كانت فتاة قصيرة، نحيلة، لها عينان صغيرتان شديدتا الزرقة، وشعر أسود، ووجه صغير حمرته قاتمة. التقت عيوننا.. هل يتم الآن ما عجز جميع الطلبة عن تحقيقه؟ تحدّق بي، فاتحة عينيها على أقصى سعتهما ـ كانت تلك لعبتها المعروفة مع الطلبة. أحنيت رأسي لها. انفجرت ضاحكة واستدارت راكضة إلى داخل البيت. فستانها يرتفع ليكشف أجزاء من فخذيها. توقفت قليلاً. أعلم أنها تطالعني الآن من أحد الشبابيك وتسخر مني. تصوّرت أنها سوف تدعو أحداً ليراني ويشاركها الضحك.

رغم أنني ما زلت بعيداً عن الذوبان في المدينة، ولكنني أحسست بالفاصل الكبير بيني وبين أهل قريتي، الذين كانوا معي في الباص. سيذهب بعضهم إلى المحكمة ليحضروا جلسات سوف يجري تأجيلها، آخرون سيذهبون إلى تجار مال قبان ليشتروا البضائع لدكاكينهم، وآخرون سيذهبون لزيارة بعض الأقارب بعد الانتهاء من بعض الأعمال. لن يدخلوا المطاعم ولن يجلسوا في المقاهي لأنّ ذلك سوف يكون فضيحة حقيقية، وسفهاً؛ وسوف يعودون قبل موعد عودة الباص بوقت طويل. يجلسون على الأرض ويشرون خبزاً وعنباً ويكون ذلك غداءهم، لن يشعروا بملل الانتظار، وسيندهشون، أو يتظاهرون بالدهشة، من أشياء عادية، يفسّرونها بسوء نيّة قروي نموذجي، وسوف يسمون بعض المصادفات العادية غرائب ويروونها باعتبارها أحداثاً خارقة.

واصلت المسير. انحرفت إلى اليمين. أصبحت في الشارع الرئيسي. سرتُ قليلاً حتى توقفت أمام بيت مدير المدرسة. كان أمريكياً متزوّجاً من بريطانية. البيت من الداخل تحوّل، عندي، إلى حلم يقظة. الصالة الواسعة التي تقسم البيت قسمين،

مفتوحة على الحديقة الكبيرة من الاتجاهين. لمعة الرخام، غموض الجزء الخلفي من الحديقة، الأثاث الأنيق القليل والمساحات الفارغة، اللامعة، البعيدة عن الشارع حملتها معي وأجريت فيها لدءات خيالية مع من أحبّ؛ أغلقتها في ليالي البرد الشديد (العواصف تعود وتزأر بين الأشجار والعالم أبيض في الخارج، بياض تخالطه زرقة رقيقة كعتمة الفجر) وعشت عاشقاً، أو وحيداً أقرأ الروايات التي كنت أعشقها ـ جزيرة الكنز، المخطوف، كاتريونا، السهم الأسود، مرتفعات وذرنغ، مسرحيات يوريبيديس، خان الخليلي، السراب، قصص إدجار آلان بو، آلام فيرتر، روايات ألفونس دوديه، وبول بورجيه ومدام بوفاري. لقد اختلط هذا البيت ببيت آخر يقع في تلك المنطقة الفارغة بين المدينة ومحطة القطار. بيت أبيض وسور أبيض. والبيت محاط بمئات الأشجار العملاقة، الدائمة الخضرة.

ويبرز أمامي وجه المدير الأميركي. وجه كقبضة اليد. ذقن قصيرة مدوّرة، وخدّان أحمران ككرتين، وحواجب كثيفة شقراء، وهنالك شعر أشقر غزير ينبثق من منخريه، وشفتان عريضتان، جافتان دوماً. وفي الخطّ الواقع بين التقاء الجبين بالشعر وقمّة الرأس يمتد شعر أبيض منتصباً كعرف الديك، تنحدر من على الجانبين مساحات صلعاء تتخلّلها شرايين زرقاء بارزة. حول الأذنين كتلتان كثيفتان من الشعر الأصفر الضارب للحمرة. عيناه عينا طفل، زرقتهما باهتة ـ أقرب إلى البياض ـ كان أقرب إلى القصَر، رقيق العظم، ولكن في كل جزء من جسده تبرز عضلات كروية تبدو وكأنها ملَصقة.

أشدّ ما يدهش فيه حيويته التي تعبّر عن نفسها بحركات متوتّرة، لا تتوقف. كان يجوب الأردن كلها سيراً على الأقدام. ويعود من رحلاته ملتهب الوجه، ضاحك العينين.

كان من الكويكرز، وقد روى لنا حكايات كثيرة عن محاولاته لتجنّب دخول الجيش الأمريكي. يقول لنا الكويكرز لا يؤمنون بالحرب. كان يتظاهر أحياناً أنّه مصاب بشلل في يده اليمنى، ولكن أطباء الجيش اكتشفوا كذبه. وحكايات من هذا النوع. سألته عن مرشّح الرئاسة الأمريكية الذي يعطيه ـ أي المدير ـ صوته، فقال:

ـ هنري والاس.

ـ ومن هو؟

قال :

ـ إنه صديق للروس واليهود .

ولكن الغرابة التي كانت تذهلنا هي ذلك الدرس الأسبوعي الذي يلقيه علينا عن المشاكل الجنسية للمراهقين . كان يشرح لنا مضار العادة السريّة من منطلقات أخلاقية خالصة . يقول :

ـ إنّ الطاقة ا لجنسية هي من حقوق زوجتك المقبلة . فالعادة السريّة ، على هذا الأساس ، هي سرقة .

ولكنّه ، في أحيان كثيرة ، كان يناقض هذا الرأي . مرّة ، خلال ذلك الدرس ، قال لنا إنّ سائلاً مطهّراً ، شفافاً يسبق قذف السائل المنوي . وقبل انتهاء الدرس قال لنا إنّه وهو يتحدّث إلينا مارس العادة السريّة ووصل إلى المرحلة التي تسبق قذف السائل المنوي . وأنّه يشعر أنّ المادة الحمضية المطهّرة أخذت تبلّل سرواله . ثم وقف عند الباب ، وأخرج عضوه التناسلي ، وقال :

ـ تقدّموا واحداً وراء الآخر .

ويُري كلاً منا النقطة السائلة ، الشفّافة ، التي تستقر في فتحة القضيب ، يشير إليها ، ويشرح خواصها مرّة أخرى .

ومرّة ثانية قال لنا إنّه يمارس الجنس مع زوجته مرّة واحدة في الأسبوع . سألته :

ـ وعندما تكون مسافراً؟

قال :

ـ أمارس العادة السريّة .

سأل طالب آخر :

ـ وزوجتك؟

قدّرت أنّه سوف يغضب لهذا السؤال ، ولكنّه قال ببساطة :

ـ هي أيضاً تمارس العادة السريّة .

كانت زوجته امرأة طويلة ، نحيلة ، شعرها أبيض ومسرّح بعناية ، وتضع نظّارة طبيّة . كانت من النوع البريطاني المتعجرف . تحدّثنا كثيراً عن فوائد الهواء النقي . يجب ألاّ نغلق النوافذ حين ننام . عمّها ـ كما قالت ـ ينام ، حتى في الشتاء ، وشباكا حجرته

المتقابلان مفتوحان. لا يخاف من تيارات الهواء البارد لأنّه لا يعرق.

يسألها أحد الطلبة:

ـ لماذا لا يعرق؟

تقول بعصبية:

ـ لأنه يكتفي بغطاء خفيف.

ولهذا السبب ـ بعد حكاية الهواء النقي هذه ـ كنّا، قبل دخولها حجرة الدراسة، نغلق نوافذ الحجرة، ونشعل أعواد الكبريت، ونحرق الورد. يمتلئ جو الحجرة بالدخان ورائحة الكبريت. تفتح الباب، وتطالع الحجرة، فتصرخ:

ـ خنازير!

وتقفز إلى الممر الخارجي، وتأبى دخول الحجرة إلى أن يأتي زوجها ويفتح النوافذ، وتجري تهوية الحجرة، وهو يردّد خلال ذلك:

ـ نعم، نعم، نعم.

بصوت رتيب أقرب إلى المرح.

لا أذكر إن كان ذلك منذ البداية، أم أنّ ذلك حدث بعد أن أخبرنا المدير أنّ زوجته تمارس العادة السريّة. أعني أننا أخذنا نراقب ساقي الزوجة وهي تجلس خلف الطاولة، وتلقي علينا الدرس. اكتشفنا أنها تجلس على طرف الكرسي، وأنّه خلال ذلك ينزلق ثوبها إلى الخلف، فيكشف عن فخذيها. وكانت نظراتنا في معظم الوقت مركّزة على الفخذين، آملين أن يواصل ثوبها الانزلاق. وكان ذلك يحدث أحياناً. طبعاً أتحدّث عن الطلبة الذين كانوا يجلسون في الصف الأمامي، والذين كان مكان جلوسهم يسمح لهم بذلك.

هل كانت هذه السيدة تعلم بما نفعل، وبما نرى؟ لا أعتقد ذلك. من الواضح أنّها كانت تعتقد أنّ الطاولة تسمح لها بتلك الجلسة؛ والأغلب أنّها قبل حدوث الحادث الذي سأرويه كانت ترانا أطفالاً ليس لنا علاقة بعالم الجنس أو المرأة. يؤكد ذلك أنّها في أحد الأيام توقفت فجأة عن إلقاء الدرس، وبخفة مذهلة نهضت وأبعدت المكتب الصغير الموضوع أمام أحد الطلبة وصرخت بقوة لم نتوقعها:

ـ خنزير!

وانكشف أمامنا المشهد العجيب. كان الطالب يرفع وجهه نحو المرأة وكأنّه لا يصدّق أنّها موجودة. كانت يده تمسك بعضوه التناسلي تصعد وتهبط. وفي نفس اللحظة شخر، واندفعت قطرات السائل المنوي. كان الصبي يلهث. بدا، وهو يفتح فمه، ويحرّك رأسه إلى الأمام كأنّه يتوقع أن تضع في فمه قطعة من الحلوى، فيقترب بفمه ليسهل مهمّتها.

كانت السيدة غاضبة بالفعل، خاصة وأنّ هجومها الذي كان يفتقد الاتزان، قد جعل بعض قطرات السائل تسقط على طرف ثوبها. أمسكت بالكتب التي يضعها أمامه وصفعته بها ثلاث مرات، وفي كل مرّة تصرخ «خنزير» ثم قالت وهي تجذبه من شعره:

ـ أخرج من صفي.

لم تدع له مجالاً ليتمالك نفسه، بل غادر الصف وهو يمسك عضوه التناسلي. قالت لنا:

ـ عودوا إلى أماكنكم.

كان عدد منا قد تجمهر وتدافع ليرى ما يحدث. عاد الطلبة إلى أماكنهم، وجلست هي خلف الطاولة، محنية الرأس تنظّف ثوبها بمنديل صغير. كانت تجلس بحيث نرى المنظر الجانبي لوجهها. ثم جلست في مواجهتنا، ونظرت إلى الكتاب أمامها، وقالت بصوت طبيعي:

ـ والآن، ماذا كنا نقول؟

ربما كنت الوحيد في الصف الذي لم يكن يقتل نفسه لمشاهدة ساقي زوجة المدير تحت الطاولة. كنت أحب ابنتها، تلك الفتاة الحمراء، الذهبية. رأيتها مرّات معدودة، حين كانت تأتي في إجازتها الدراسية من أمريكا. كانت مجموعة من الألوان الصارخة: شعر أشقر فيه لمسة سوداء، تمنحه كثافة، وبريقاً عميقاً، وعينان لامعتا الزرقة، زرقة كثيفة، مركّزة، وخدّان أحمران يبرقان كأنهما لمعا بالبوية؛ وكان الخدّان ـ لحمرتهما اللامعة ـ يبدوان صلبين كأنهما من خشب السنديان. كان لها أنف صغير مرتفع قليلاً، تفركه باستمرار، يتشكّل بحالاتها: ينتفخ إذا غضبت، وينبسط على الجانبين إذا ضحكت، ويرتفع مع وجنتيها عندما تبدي استنكاراً. أو غضباً كاذباً. والفم كان مبلولاً دائماً.

لا أعتقد أنها رأتني ، وإن حدث ذلك فليس إلى الحدّ الذي يجعلني أعيش في ذاكرتها، ولو كصورة يمكن استرجاعها. رغم هذا كنت عاشقاً.

عندما أستعيد صورة المدير وعائلته الصغيرة شيء ما كلسعة النار تلمس قلبي. لقد كان المدير يكرهني إلى درجة غير معقولة، وغير مبررة. وكانت هذه الكراهية تظهر لأتفه الأسباب. مثلاً عندما اكتشف أنني أقرأ عدداً من الروايات الإنجليزية، ناداني. انكشفت شفتاه عن أسنان كبيرة وفحّ:

ـ اهتم بدراستك بدلاً من الروايات.

قلت:

ـ إنني من الأوائل في الصف.

وقال بهمس غاضب أحسست بالكراهية فيه كلطمة:

ـ أنت كاذب.

لم أكن أكذب، وكان هو يعلم ذلك.

ومرّة، أذكر أنني شعرت باضطراب معوي، فنصحني أحد الطلبة أنّ أتناول ملعقة من ملح الفواكه مع كأس من الماء، وكان عنده زجاجة من هذا الملح. وعندما شربت السائل الفوّار، وكنّا في حجرة الطعام، رأيت المدير يقبل نحوي غاضباً، ويقول:

ـ ماذا تفعل؟

قلت:

ـ أشرب ملح الفواكه لأنني أشعر بألم في معدتي.

فحّ بذلك الصوت المليء بالكراهية:

ـ بدلاً من تناول ملح الفواكه، كل الفواكه نفسها.

قلت:

ـ إنهما شيئان مختلفان؟

وبدا كأنّه يريد أن يضربني!

ـ ماذا تعني؟

قلت:

Abu Abdo Al Bagl

ـ لو كانا شيئاً واحداً فلماذا يصنعون ملح الفواكه؟

قال :

ـ أنت ثعلب .

واستدار ومضى . أعتقد أنّه مضى بهذه السرعة حتى لا يضربني .

كان هذا مؤلماً ، كما قلت ، وغريباً أيضاً . مثلاً ، لم يكن يتلقى العلم في المدرسة إلاّ أبناء الميسورين . فقد كانت الأقساط المدرسية مرتفعة ، وكذلك تكاليف الحياة في القسم الداخلي . ولكن المدير كان يسمح لعدد كبير نسبياً من أبناء القرويين الفقراء بالدراسة المجانيّة ، واستعمال القسم الداخلي مجاناً . كما كان يعاملهم بحب كبير واحترام حتى لو أساءوا . أذكر أن أحدهم خلع حزامه وضرب المدير به أكثر من مرّة . لم يفعل المدير سوى أن يتلقى الضربات على ساعديه ، ثم انتزع الحزام ، ووضع يده على رأس الصبي ، وأخذ يداعبها ، ثم أعاد له الحزام ، وقال برقة :

ـ ليست هذه وسيلة للتفاهم .

تصوّرت أنه سيطرد الطالب من المدرسة ، ويعاقبه ، ولكنه لم يفعل شيئاً من هذا .

٤

خلال مسيرتي التقيت بأحد زملائي في المدرسة . كان من أهالي عمّان وابناً لأحد الأثرياء . تصورت أنه سيرحّب بي ويستقبلني بحرارة ، فقد كنت أعتبره صديقاً ، ولكنه حيّاني بسرعة وانصرف . هكذا أبناء أغنياء عمّان تعتقد أنّهم أصدقاءك ثم تكتشف فجأة أنهم لا يحملون لك أيّة مودة أو صداقة . والغريب أنّهم ، بشكل عام ، لم يكونوا يتميّزون بشيء علينا أولاد القرى . قليلون جداً منهم من كانوا ينجحون بشكل مُرض في المدرسة ، أو يتفوقون في الرياضة ، أو ينتخبهم أحد لرئاسة تحرير مجلّة المدرسة أو كعرفاء . ولكنهم خارج أسوار المدرسة يصبحون شيئاً آخر .

اجتزت الشارع ودخلت مقهى (وادي النيل) . صافحت الجرسون بحماس . كان ذلك حماقة منّي . فلقد فوجىء الجرسون ، وآلمني أن أرى معاناته ـ ارتفع أنفه وضاقت عيناه ـ ليتذكّرني . وقد ساءني أكثر تظاهره بأنّه يعرفني ، إذ قال دون أن ينظر إليّ :

ـ من أسبوع ما جيت .

قلت :

ـ أسبوع .

لأنني لم أجد ما أقوله . فقال :

ـ كيف حال طلعت؟

ـ قلت :

ـ منيح .

وأنا لم أكن أعرف شخصاً اسمه طلعت، ثم طلبت قهوة فرنساوي مع الحليب . في مواجهتي جلست فتاتان وشاب . لم أطل النظر إليهم رغم لهفتي لذلك . أخرجت رواية «مدام بوفاري» من جيب الجاكتة وواصلت القراءة فيها . كان ذلك لمنع نفسي من التحديق بالفتاتين . ثم نسيتهما واستغرقت في الرواية .

كنت أعلم في أعماقي أنّ عمّان خاوية، وأنّها قرية محافظة . ولكن الأمور اختلطت عليّ . كنت أعيش عمّان باعتبارها تحققاً لأحلام ولدت فيها، أحلام تكوّنت بإيحاءات هذه المدينة . ولكنها عجزت عن أن تفتح أمامي مجالاً واحداً يمنحني الفرح . أذكر أنني كنت أسير في شارع ضيّق من شوارع هذه المدينة . رأيت امرأة تقف في الطابق الأول كانت تشير بيديها وتقول شيئاً . عيناها واسعتان، عسليتان تطالعانني، وبدا أنها تريد أن تقول شيئاً لي، ملحاً . وكان ذلك يشبه تحقّق حكاية من حكايات ألف ليلة وليلة . قلت :

ـ أنا ؟

كنت أهمس وأشير بيدي . وهي تواصل تحديقها، وإشاراتها، وأحاول أن أفسّرها . قلت :

ـ آجي أنا؟

وفجأة دوّت صرختها :

ـ إيش بتعمل يا ولد؟

وفي نفس اللحظة سمعت ضحكة خلفي وصوت امرأة تقول :

ـ بفكّر إنك بتكلميه .

قالت الأولى:

ـ استنى لما أنزل لك . . .

نظرت خلفي. في فسحة الطابق الأرضي رأيت رأس وكتفيّ امرأة، من الواضح أنّ المرأة في الطابق الأول كانت تكلّمها. قالت تلك المرأة:

ـ بعده زغير، وشوفي.

قالت التي في الطابق الأول:

ـ آني نازلة ومعايي العصاه.

وفجأة أخذت أركض. سمعت ضحكات المرأتين صاخبة ورائي وأنا أواصل الركض.

قلبت الرواية على الصفحة التي كنت قد وصلت وبدأت أشرب القهوة مع الحليب. وددت لو أنّ الفتاتين، أو إحداهما على الأقل، انتبهت إلى أنني أقرأ رواية باللغة الإنجليزية. قلائل في عمّان الذين يستطيعون ذلك. لم تلتفتا إلى ذلك، أو ربما لم تكترثا. وفجأة، وأنا أشرب القهوة، تذكّرت أنني غداً سوف أرى سلطانة. أحسست بنشوة النصر: نحن، القرويين، لنا عالمنا السري، الخاص جداً، الجميل جداً. نحن قادمون كغزاة، نحمل تفوّقنا على هذه المدينة تحت جلودنا. لم أعد أهتم بالفتاتين. لقد حققت انتصاري على هذه المدينة، انتصارها، وكان ذلك رداً مفحماً على زميل الدراسة الذي تجاهلني.

دفعت الحساب وسرت نحو مطعم أبو العبد، في الممر التجاري. كانت الساعة الثانية والربع تقريباً. في الداخل لقيت خالد وشفيق وسمير. عندما وقفوا تقدّمت لمعانقة سمير فخطا إلى الوراء وبدت الدهشة على وجهه. وعندما أدرك أنني أريد معانقته احتضنني وقبّلني على خدّي مرّات عديدة. وكذلك عانقت خالد وشفيق. كان ترحيبهم صاخباً، صادقاً. قال خالد:

ـ يحرق ديكك يا شيخ! وينك.

قلت لصاحب المطعم:

ـ يمكن نسيتني يا أبو العبد؟

كان شامياً ناعماً، لسانه يقطر عسلاً، لا يكفّ عن الحركة السريعة والترحيب.

قال :

ـ أنا أنساك يا حبيبي؟

قال سمير :

ـ طيّب قول اسمه .

ـ الأستاذ عادل . مش هيك؟

قلت :

ـ جريس .

ضجّ أصدقائي :

ـ مش عارفه يا أبو العبد . ربنا يقطع رباطك .

فأخذ يضحك خجلاً وقال .

ـ أنا ؟ أنا مش عارفه؟ بصير؟ الأستاذ جريس ابني وحبيبي .

وأصرّ سمير :

ـ ليش ما عرفت اسمه من الأوّل؟

فقال باستنكار :

ـ أنا ؟ قلت الأستاذ جريس . والاّ إسمه مش جريس؟

ثم غادرنا مسرعاً إلى زبائن آخرين .

يقع مطعم أبو العبد (ليس للمطعم اسم ، ولهذا يسمّى باسم صاحبه) في جادة ضيّقة ، لبصة ، تسير بانحدار إلى الشارع الرئيسي . للمطعم مدخل ضيّق ، على يسار الداخل حاجز زجاجي ، ووراء الحاجز مواقد هدّارة توضع عليها الطناجر ، وبين المواقد والحاجز الزجاجي يقف الطبّاخ السمين ، القاتم ، الصامت مستغرقاً في تفصيلات غير مرئية . عندما يقف أبو العبد بجواره يبدو هائجاً ، عرقانَ ، لا يكفّ عن الحركة ، والابتسام ، والترحيب ، ومخاطبة الطبّاخ . تشعر به ، في حركته الدائبة ، المتوتّرة ، وكأنّه يتحيّن الفرصة للانفلات من جوار الطبّاخ الضخم إلى الخارج .

على أرضية المدخل نشارة خشب منثورة بكثافة ، وفي الصيف والشتاء نرى أثر الأقدام المبلولة ، الملوّثة بالطين ، ومواضع أقدام مطبوعة على الأرض . في الداخل عشرة موائد لها قوائم حديدية وسطح من الرخام العاري ، الذي لا يحجبه غطاء من

أي نوع.

في ساعات الإفطار يقدّم أبو العبد الحمّص (بالزيت، أو بالصنوبر المقلي بالسمنة، أو باللحمة المقلية) والفول والبيض؛ وكذلك في المساء. الطبيخ يقدّمه ساعة الغداء فقط. وقد امتاز أبو العبد بالصنعة الجيّدة للفول، خاصة تلك الخلطة التي يضيفها إليه (من البقدونس والثوم والليمون والفلفل الأخضر الحار، والفلفل الأسود وأصناف أخرى يصعب تمييزها). وقد تميّز المطعم عن المطاعم الأخرى بأنّه كان يضع بشكل دائم إبريقين زجاجيين، واحداً مملوءاً بزيت الزيتون وآخر بالخل. يستطيع الزبون أن يضع في صحنه أية كمية يرغب فيها من المادتين. وكان أبو العبد يعرف زبائنه الأكولين، فعندما يرى صحونهم فارغة يأخذها من أمامهم ويضع فيها طعاماً جديداً على حساب المحل.

لم يكن للمطعم شبابيك، أو منافذ للهواء، ولذلك كان جوّه عابقاً على الدوام بروائح الأطعمة ودوي الأصوات. وكان الضوء شحيحاً دائماً. وفي الشتاء عندما تحاصر أبخرة الأطعمة المصباحين الكهربائيين العاريين يبدو المكان غارقاً بظلمة تضيئها ذرّات الأبخرة اللامعة، والمصابيح المحاصرة بهالات ضبابية من البخار.

أخذ أصحابي في البداية يستفسرون عن تفاصيل صغيرة: موعد وصول الباص، وهل استعملت الباص أم سيارة الأجرة في صعود الجبل إلى الحجرة، وهل وجدت المفتاح بسهولة، وهل استعملت الصابون المعطّر للاستحمام، وماذا فعلت بعد أن غادرت الحجرة. ثم سألوني، مجاملين، عن صحة أمي، وعن الموسم الزراعي، وعن حياتي في القرية.

لم يستغرق ذلك أكثر من بضع دقائق. وعندما انتهوا انطلقنا نملأ جو المقهى مرحاً صاخباً. بالغ بعض الزبائن في رسم تعابير صارمة على وجوههم حتى لا يقال إنّهم يبتسمون لنكاتنا. وآخرون أخذوا يأكلون بسرعة غاضبة كوسيلة للاحتجاج علينا. وخلال ذلك يركض أبو العبد، يصغي للزبون وعيناه تراقبان المطعم ثم يعدو مسرعاً. كان وجهه ينضح بالعرق.

أكلت بشهية افتقدتها في القرية. قلت لهم، معتذراً عن إقبالي على الطعام، إنني لم أكن أعرف أنني جائع جداً. قال خالد:

- كل قد ما بدّك. من خير الله وخير أبو العبد الزاد كثير.

قال شفيق مخاطباً أبو العبد:

ـ يا مقطوع النصيب يا أبو العبد، هات لنا صحن بامية.

ورغم أنّ أبو العبد كان يصغي لزبون على طاولة أخرى، وظهره إلينا، إلاّ أنّه التفت إلى شفيق وقال:

ـ بتؤمر.

عندما غادرنا المطعم أغمضت عيوني، فلقد كان ضوء الشمس قوياً. اتجهنا إلى مقهى وادي النيل وطلبنا جميعاً قهوة فرنسية مع الحليب. كان المقهى خالياً باستثناء شاب صغير يجلس وحيداً، كان ينظر إلى ساعته كثيراً. ربما كان على موعد أو أنّه كان يحاول الإيحاء لنا بذلك.

في الشارع كان الزحام شديداً. لم يكن كزحام المساء حيث يتحرّك السائرون ببطء وهم يتحدّثون مع أصحابهم، أو يسيرون صامتين، عيونهم تتأمل المارّة، ووجوههم مرتاحة، بل كان زحاماً سريع الحركة، حانقاً، هارباً من القيظ. الوجوه حمراء، تنضح بالعرق، وطاقات الأنوف منتفخة. كانت حركة الشارع مشحونة بعنف كامن، مستعد للانفجار.

على رصيف الشارع، رأيت عبر واجهة المقهى الزجاجية رجلين يتبادلان الزعيق. كان أحدهما سميناً طويلاً، مورّد الوجه، وهو الأكثر انفعالاً، والآخر قصير نحيل. كان السمين يحرّك ذراعيه بعصبية، ويعبس عندما يتحدّث النحيل؛ وعندما يجيء دوره في الكلام كان يميل برأسه إلى الخلف، ثم يقذفه بحركة مفاجئة إلى الأمام. بدا وكأنّه يود أن ينطح الآخر برأسه، ثم يتوقف في آخر لحظة. أما القصير فكان يتحرّك طيلة الوقت، وكأنّه يقفز إلى الأعلى بشكل دائم. لم أكن أسمع أصواتهما، فكانا كممثلين في سينما صامتة حيث يبدو الجميع وهم يتحرّكون بعصبية وبميكانيكية. ينطبق ذلك على القصير بشكل خاص.

أشار خالد إلى الشاب الذي كان ينظر إلى ساعته بعصبية، ثم يكشّر، ويحدّق في سطح المائدة وقال:

ـ مقطوع النصيب عنده رانديفو.

سألني خالد عن الخورية. لم يكونوا يعرفونها، ولكنني حكيت لهم في السابق كثيراً عنها. رويت لهم رأيها في السجاير وموظفي عمّان الذين يسيرون في عمّان

برؤوس عارية كرؤوس الحمير. ومع أنني لا أجيد رواية النكتة، إذ أخشى دائماً أن لا يضحك لها السامعون، وكثيراً ما أنطلق بضحك متصل أعجز عن إيقافه قبل أن أنهي النكتة، فيحني المستمعون رؤوسهم بأدب وإشفاق؛ ولكنهم ضحكوا كثيراً عندما حكيت لهم عن صبحا.

وبعد فترة صمت حدّثتهم عن أميرة: جمالها، الكلب الصغير الذي لا يأكل إلاّ اللحم، حديث القرية عنها، وذكّرتهم بها فتذكروها. فعندما كنا نغادر القسم الداخلي في المدرسة كنا أحياناً نراها قادمة، نحيلة، تسير بسرعة، أو تركض، شعرها مهوّش. نراها دائماً حاملة سلة صغيرة. تعبر الشارع راكضة عندما تراني، وسلّتها تخبط ردفها بإيقاع ركضها، وتقف أمامي لاهثة، وتسلّم علي بحرارة. فأسألها إن كانت تحب عملها، وإن كانت سعيدة فيه، فترخي يدي، وتنطلق راكضة دون أن تجيب.

تبيّنت أنهم يعرفون الكثير عنها. لقد تركت العمل كخدّامة عند العائلة. واشتغلت عند خيّاطة. قال شفيق إنّه رآها سائرة مع شاب يعتقد أنّه ابن العائلة التي كانت تعمل عندها. وكان تقدير شفيق أنّ أميرة أقامت علاقة مع الشاب فطردها أهله. فشعرت أنّه يتوجب عليّ أن أدافع عنها، فقلت: لماذا لا يكون الولد هو الذي اغتصبها، أو أغواها على الأقل. صمت شفيق قليلاً، ثم قال:

ـ ممكن طبعاً.

ثم أضاف أنّه رآهما مرّة أخرى في السينما سوياً. على كل حال يبدو أن هنالك علاقة بين الاثنين. قال سمير:

ـ طبعاً، كان ماسك إيدها.

نظر إليه شفيق بتساؤل، فقال:

ـ ما سك إيدها في السينما؟

ضحكنا. ابتسم شفيق ولم يجب. بدا الضيق على وجه سمير، لا بسبب ضحكنا، ولكن لاعتقاده أنّه لم يكن واضحاً بشكل كاف. قلت:

ـ إيش يا سمير؟

قال:

ـ وإلاّ إيش موديهم السينما؟

قلت :

ـ بتفرّجوا على الفلم .

قال :

ـ بس؟

فقال شفيق :

ـ بدك يمسكوا إيدين بعضهم ؟ يا سيدي كانوا ماسكين إيدين بعضهم . لا تزعل .

قال سمير :

ـ ما أنا زعلان .

ولم أحدّثهم عن سلطانة . ما كنت أستطيع أن أفعل ذلك . لو امتدحت جمالها لتحوّل الحديث إلى بذاءة . بعد غدٍ سأراها ، ولن يعرف أحد ذلك .

سألني خالد :

ـ طبعاً كنت بتشوفها .

قال شفيق وهو يبتسم :

ـ جيران .

قال خالد :

ـ جيران يا عمي ، والأستاذ جريس بده يسلّم على الست أميرة ، وكلمة من هانا ، وكلمة من هناك ، وغمزة . .

كان سمير يصغي مفتوح الفم قليلاً . أعلم أنه متشوّق إلى سماع حكاية عن الجنس . قلت لهم إنني لم أرها . رأيت خيبة الأمل في وجوههم . وقرأت استنكاراً غاضباً في وجه سمير . أدركت أنّني دمّرت عملية تقمّص لعلاقتي المفترضة مع أميرة ، وقد ضايقهم ذلك .

قلت :

ـ شفتها دقيقة .

فهللوا ضاحكين :

ـ يا عمي دقيقة كفاية ونص .

ـ ما كلها دقيقة .

ـ إحنا عارفينك يا عمي .

قال شفيق إننا سنضاجع امرأة هذه الليلة ، قلت :

ـ كيف ؟ كلنا؟

فقال إنها مومس . وهم يعرفون قوّاداً .

بعد فترة صمت ، طلبنا قهوة مع اللبن وتحوّل الحديث إلى السياسة . كنت أنتظر ذلك . فمنذ رأيتهم استعدت ثورتي وحماسي للعمل السياسي ، اللذين كنت أنساهما بمجرّد ذهابي إلى القرية .

قال شفيق إنّه لم يعد هنالك ما يسمّى بعصبة التحرّر الوطني . أصبح الآن الحزب الشيوعي الأردني بديلاً لها . كان خالد وسمير ينظران إلى شفيق بحس تواطؤ ، حسّ من يعرفون كثيراً . كان ذلك مفاجأة حقيقية لي فسألتهما عمّا حدث بالتحديد . قال شفيق :

ـ قررت اللجنة المركزية ضمّ الحزبين وتكوين حزب شيوعي أردني .

قلت :

ـ ومين الحزب الثاني؟

ردّوا إجابات غير محددة ، كان من الواضح أنها من وحي اللحظة :

ـ يعني الأردنيين . يعني الضفتين .

ثم أخذ خالد يحكي كيف قابل عضواً في المكتب السياسي للحزب . كان الموعد في الساعة الثامنة صباحاً على جسر الحمّام . فقابله رجل لا يبدو عليه أنّه متعلّم . قال :

ـ حرّاث ولابس بذلة . وأنا فكّرت أنه المرسال . ولما عرفت أنّه عضو المكتب السياسي ، بيني وبينكو ، سقط من عيني . وبعدين قام يتكلّم : الهدف يا رفيق سحق حلف الإقطاع مع الاستعمار وكبار الاحتكاريين . واتجاه الضربة : عزل البورجوازية الكبيرة ، عزل نفوذها المخدّر عن الجماهير ، وإرغامها على الانضمام إلى تحالف الطبقة العاملة مع الفلاحين مع البورجوازية الصغيرة ضد العدو الرئيسي .

قال سمير :

ـ إحنا بورجوازيين زغار .

قال شفيق :

ـ هذا قبل ما نصير شيوعيين .

وواصل خالد :

ـ وبعدين هذا كلام من ناحية نظرية ، والنظرية يا رفيق مش عقيدة جامدة ، لكنها دليل للعمل ، هذا يعني أنّ علينا أن ندرس المجتمع دراسة علمية دقيقة ، لأنّه لكل مجتمع ظرفه الخاص ومن هالكلام .

ضحك خالد وقال :

ـ قلت له ، يا رفيق يعني لو سوّينا عملية اغتيالات للحكام وخلّينا البلد شيوعية . قال يا رفيق ، إحنا ما بنؤمن بالاغتيالات .

اندهشت وقلت :

ـ ليش؟

قال خالد :

ـ ما أنا جاي لك في الكلام . قال لي : لا تنط من موضوع لموضوع . أنا بتكلّم في الستراتيجية وأنت بتتكلّم في التكتيك . هذه مسألة رايح نبحثها كمان شوية . وبعدين قال إنّ التكتيك خاضع للستراتيجية لما حسّيت أنّ مخي طار .

قلت :

ـ ليش الحزب ضد الاغتيالات؟

قال شفيق :

ـ لأن السلطة ما هيه أشخاص ، هي أجهزة ونظام .

لم أفهم شيئاً ولكنني تظاهرت بالاقتناع ، واستمر خالد يقول بصوت من ينقل خبراً عن موت شخص ، أو وقوع كارثة :

ـ يا ابني كنت مفكّر المسألة لعب عيال ، لكن قبل ما أسلّم عليه شفت الحرس .

قلت :

ـ حرس؟

فقال سمير :

ـ طبعاً مش رايح ينزل من غير حرس .

ثم أحنى رأسه وأخذ يتأمّل أظافره بوجه رصين جاد، مما جعلني أعرف أنه سمع هذه الحكاية أكثر من مرّة.

كان ذلك كلّه مثيراً جداً وقد منعت نفسي من القاء عشرات الأسئلة والاستفسارات عن هذا العالم الغريب، المدهش. قال خالد:

ـ أول واحد شفته واقف، مسند ظهره على عامود التليفون، وعامل حاله مش شايفنا، لكن إيده على مسدسه.

قلت:

ـ شفت المسدّس؟

قال:

ـ لا. بس طبعاً مفهوم. وإلاّ إيش وقّفه؟ وشفت واحد صاحب دكّان فوق الجسر شويّه بتطّلع علينا. عرفته من تطليعته. صاحب دكان، تصوّر؟ يمكن لو واحد كلّمنا، شرطة وإلاّ غيرهم، كان رمى عليه قنبلة وما حدا بعرف منين إجت.

لم أعد قادراً على الاستمرار في التظاهر بأنّ ما يرويه خالد لا يثير اهتمامي فقلت:

ـ طيّب، وشو عرّفك أنهم حرس؟

قال سمير:

ـ لا. مبيّن حرس.

قلت:

ـ كيف عرفتو؟

ـ من عيونه بتعرفه يا عمي، من حركاته، من الطريقة اللي واقفين فيها. وكمان بتعرف الطريق الطالعه من جسر الحمام لجبل الأشرفية؟ كان فيه اثنين اللي بشوفهم بقول عمّال، قاعدين عالأرض ومسويين نفسهم بفطروا.

أي عالم سحري ينفتح أمامي؟ أكثر إثارة وغرابة من عالم الروايات، ولكنه عالم واقعي، عالم أصدقائي، وسوف يكون حتماً عالمي. احتواني سحر هذا العالم فأخذت أضحك لحذق هؤلاء العاملين في التخفّي. لقد قارب عالم الملل على الانتهاء إلى الأبد، واستعدت إحساس الطفل بالعالم الحي المختفي وراء مظلّة الأشياء. ها أنا

أجد نفسي جزءاً من حركة هائلة، أجد لي أصدقاء لم أرهم، أصدقاء يملكون المسدسات والقنابل والفكر القادر على تغيير العالم.

مرّت فترة صمت. وددت، واللهفة تخنقني، أن يشرحوا لي هذه المصطلحات الكثيرة التي أخذوا يرددونها ببساطة، ولا يعتنون بشرحها أو السؤال عنها. إنها مفتاحي إلى هذا العالم.

بعد قليل قال خالد:

ـ بتعرف محسوبك كركي، وما بعرف يسكت. قلت لحالي بدّي أتأكد همه حرس وإلآ لا. قلت له يا رفيق، مش خايف ناس يشوفك ويبلغ الشرطة عنك؟ بتعرف إيش قال؟ قال يا رفيق إحنا بنثق في الناس، وهمّه بحبونا. لو خفنا من الناس بنعزل عنهم. كل الناس أصدقاء، وأعداءنا حفنة زغيرة، حقيرة. وبعدين، حتى نخلص بسرعة، ما تقاطعني.

وضحكوا. وقال خالد وهو يضحك:

ـ قلت في قلبي: طبعاً، إيش بهمك يا عمي؟ ما دام الحرس موجودين ما بتخاف من حدا.

سألت شفيق:

ـ إنت شفته؟

هزّ رأسه بالإيجاب.

قلت:

ـ شفت الحرس؟

ـ لا. ما كنت منتبه.

قلت:

ـ يعني ما شفتهم؟

قال:

ـ لا.

قال خالد:

ـ ما هوه شافه في الليل.

Abu Abdo Al Bagl

وضحك سمير.

قلت:

ـ طيّب إيش اسمه؟

ردّ الثلاثة في وقت واحد:

ـ اسمه؟

قال شفيق:

ـ الحزب سرّي.

قلت:

ـ طيّب، ما أنا من الحزب.

فأفهموني أنني لست، حتى الآن، عضواً في الحزب. ولكنهم، بطبيعة الحال، سوف يرشحونني. شعرت بإهانة حقيقية: هم أعضاء، وأنا لست عضواً؟ قال شفيق ليسترضيني:

ـ لا إحنا ولا اللي أكبر منا بعرفوا اسمه.

قال خالد:

ـ لو كنت مكانك ما بروح الجامعة.

قال شفيق:

ـ ما هيه لبنان فيها حزب.

Abu Abdo Al Bagl

١

غادرنا المقهى في الخامسة بعد الظهر تقريباً. سرنا في الشارع. كان الجو ما يزال حاراً. بعد أن تمشّينا قليلاً اقترحت أن نصعد جبل عمّان. سوف يكون الحرّ أخف. قال شفيق إننا متوجهون إلى الندوة الأدبية.

وصلنا ساحة الحسين وصعدنا درجاً ضيّقاً، مظلماً، زلقاً. صعدنا طابقاً واحداً. باب النادي ينفتح على الدرج، في نهايته، على اليمين. يتكوّن النادي من حجرتين ومطبخ، وفسحة واسعة مكشوفة، عبارة عن سطوح عدد من الدكاكين. الفسحة كانت تطل على ميدان الحسين. في الطرف المقابل من الميدان كان جامع الحسين، وأمامه رصيف واسع. على يسار الجامع طريق يؤدي إلى قيادة شرطة عمّان، وفندق النيل، والكاراج الذي تنطلق منه السيارات إلى مأدبا.

طيلة النهار، والساعات الأولى من الليل، يزدحم الميدان بالسيارات، والباصات، وعربات اليد يدفعها الباعة المتجوّلون؛ يتخللها جمال وحمير وأغنام وخيول وبقر، ومئات من البشر من مختلف الأصناف، تجّار مواشي، لصوص، شحّاذون، عاهرات يخفين وجوههن بحجاب أسود شفاف، بدو، فلاحون، مخبرون، عتّالون. في عام ١٩٤٨ كنت تجد أكواماً من الأنابيب والأثاث المحطّم، وساعات المياه، وعدّادات الكهرباء، وكتب ومجلات بالعبرية والإنجليزية والعربية. كان يبيعها بدو ليس عندهم أدنى فكرة عنها.

ابتداء من الساعة العاشرة مساء، أو قبل ذلك بقليل، يذوب الزحام ويبدو الميدان مهجوراً، وكبيراً وعتيقاً جداً. في ساعات الليل تحس أنّ الميدان ينتمي إلى مدينة عريقة، لا إلى مدينة أنشئت على عجل. للدكاكين المغلقة وشبابيك الجامع والكاراج المظلم ملامح عالم إسلامي ينتمي إلى عصور ماضية.

في داخل النادي، في الحجرة الأولى، كنبتان ضخمتان من طراز غامض وقديم، وكراس خشبية مرصوصة على شكل قوس حول الراديو الكبير، وموائد صغيرة توضع فوقها الجرائد والمجلاّت والشاي والقهوة.

عندما دخلنا كان هنالك ثلاثة أشخاص، اكتشفت فيما بعد أنّ لهم ما للأثاث القديم من الوجود المستمر والسكون، أحدهم كبير الوجه، وقور، صموت أراه دائماً في خيالي يمدّ يداً كبيرة، ناعمة، حمراء الكف، ظاهرها كثيف الشعر أسوده، بهدوء وبطء شديدين إلى المائدة التي تتكوّم عليها المجلات والصحف، يضع فوقها الصحيفة التي في يده، ويتناول صحيفة أو مجلة أخرى. وعندما يدخل النادي أحد يرفع رأسه عن الصحيفة، ويطالع القادم بعينين واسعتين بياضهما به بقع بنية اللون، كأنها آثار كدمات حديثة. أما الجزءان الملوّنان من عينيه فيبدوان مثل بقعتي ماء لبصتين رجراجتين. عندما يحييه القادم يكشف عن أسنان جميلة، بيضاء، متناسقة، وتتحرّك قرنيتاه ببطء تتابعان الداخل إلى أن يأخذ مكانه، فيعود هو إلى صحيفته. كنت أشعر دائماً أنّ جسده مبلل بنداوة نظيفة، زلقة. لم أره يكلّم أحداً، ولم أرَ أحداً يكلّمه.

وكان الثاني ـ واسمه محمود كما علمت بعد قليل ـ له صوت نحيل، مثير للأعصاب، يشبه احتكاك الزجاج بلوح من الزنك. يحتد ويهتاج عندما يبدأ نقاشاً. له حركة عصبية في عينه اليمنى، حركة يخيّل لمن يراها أنّه يغلق تلك العين بمجهود إرادي، شاق. كنت أرى عينيه أحياناً حولائين، وأحياناً أخرى أراهما طبيعيتين. كنت أشعر به، حتى وهو يقرأ الجريدة، إنه يحتشد لبدء نقاش صاخب؛ يحتشد بتجميع معطيات الاستفزاز.

الثالث بخيت(*). بالغ الأناقة والوسامة، يكثر من المجاملات والترحيب، وتعلو قهقهته كلّما احتدّ محمود. وكان ـ كما اكتشفت فيما بعد ـ فارغ العقل، يفتقد الحرارة. كان، كلّما أثار محمود نقاشاً، يطلق كلمات سخيفة، تهدف إلى إرضاء الآخرين ـ وهم الأكثرية ـ الذين يناقشون محمود، فيزداد هذا الأخير توتّراً وهياجاً، فتأتي قهقهة بخيت كالقرار.

عندما أدخل النادي مبكّراً تكون صورة هؤلاء الثلاثة في مخيّلتي؛ يجلسون

---

* ورد هذا الاسم هكذا، لكنه ورد في مواضع أخرى في صيغة نجيب، و قد رأينا أن نثبت هذه الصيغة الأولى «بخيت» (الناشر)

صامتين، مستغرقين في القراءة ـ بخيت في خيالي يدقّق النظر في أظافره المحدّبة، الحمراء، المقصوصة بأناقة. يكمل الصورة درجات السلّم المظلمة، صوت الراديو، وزنّ وابور الكاز، وحركة الجرسون الدائبة من المطبخ إلى الحجرة أو العكس. كان الجرسون صموتاً، مؤدباً، متجهماً.

٢

عندما دخلنا النادي، كان الثلاثة جالسين في الفسحة بالصورة التي انطبعت في خيالي بعد ذلك: اثنان مستغرقان في القراءة، ونجيب يدقّق النظر في أظافره. الرجل الوقور الصامت، الذي لم أعرف اسمه قط، حدجنا بنظرة متسائلة. وعندما حياه شفيق أسبل جفنيه ردّاً على التحية. بخيت استقبلنا واقفاً ببسمة ساحرة، وصافحنا بحرارة. أما محمود فتظاهر بأنّه لم يشعر بدخولنا واستغرق في قراءة الجريدة.

جلسنا. نادى شفيق الفرّاش:

ـ هات أربع كاسات شاي يا إسماعيل.

رفع محمود رأسه عن الصحيفة بحركة عصبية مفاجئة ـ ربما كان سببها إرهاقه لنفسه بتجاهلنا ـ ونظر إلى الرجل الوقور، الذي لم يكن ينظر إليه، ووضع سبّابته على موضع في الجريدة، وأخذ يزعق:

ـ الاعتداء الأمريكي على كوريا، الاعتداء الأمريكي على كوريا، طيّب ليش ما تكلّموا عن الاعتداء الصيني على كوريا؟

همس سمير في أذني:

ـ لا تناقشه. فيه شكوك بتدور حواليه.

التفتُ إليه وقلت:

ـ مش فاهم.

قال:

ـ فيه شكوك أنه على علاقة بالشرطة.

ملمح آخر من ملامح هذا العالم الغريب، الذي نبت فجأة، أضيفت. فليس

Abu Abdo Al Bagl

هنالك فقط آلاف الأصدقاء الذين ينتظرون احتوائي ، بل العديد من الأعداء الذين يتربصون بي ، دون أن أعرفهم ويعرفوني ، وبيني وبينهم معركة موت أو حياة . سننتصر لأنّ التاريخ معنا . أصبحت عمّان مشحونة بالإثارة الكامنة تحت سطح ساكن . كل الناس الذين كانوا يبدون لي محايدين أصبحوا حلفاء أو أعداء .

أخذ هذا العالم الراكد يتحرّك : أناسه في العمق متحاربون ، وحتى لغته تفجّرت لتنشأ لغة جديدة ، عزمت أن أتقنها . كانت قراءاتي في هذا المجال محدودة جداً : كتاب لينين «الدولة والثورة» ولا أدّعي أنني فهمته ، كتاب عن النقطة الرابعة الأمريكية ، وكتاب إيليا أهرنبورغ «مشاهداتي في الولايات المتحدة» ، وهو عبارة عن مجموعة مقالات عن زيارته لأمريكا . ثم رواية غوركي «الأم» . كنت أعتقد أن ذلك كاف جداً ، وأعرف الآن أنني لم أبدأ بعد .

دون إرادة منّي التقت عيناي بعينيّ محمود ، فحوّلهما عني بسرعة . بدا لي خجولاً (وقد تأكّدت من ذلك فيما بعد .) قال لبخيت :

ـ على الأقل أميركا بلد متحضّر ، لما تغزو كوريا رايحة تخليها بلد متحضّر . أما الصينيين فما فيش غير الأفيون يبيعوه للكوريين .

أدركت أنّ هذا الهجوم الساحق من جانب محمود كان رداً على نظرتي المرتابة . حين التقت عيوننا رأيت في وجهه شيئاً كالمرح الجامع ، أو ربما كان غضباً جامحاً . قلت :

ـ لما بدّك تحضّر بلد بتدمّر كل ما فيه؟

كان ما قلته مفاجأة للجميع ، بما فيهم محمود الذي أخذ ينظر إليّ بدهشة حقيقية . كان فمه يكوّن كلمات ، ولكنّه لا ينطقها . همس لي شفيق :

ـ بلاش تناقشه .

قال محمود فجأة :

ـ إنت كنت في كوريا وشفت الأمريكان بدمّروها؟

ـ إنت كنت؟

واحتدم أصدقائي في معركة كلامية حامية مع محمود . قلت لنفسي : «هكذا نسوا أنّ هنالك شكوكاً حوله؟» قلت ذلك باستنكار ، لا بالسخرية التي توحي بها . كان يبدو على بخيت أنّه مستمتع بهذا النقاش . كان يبتسم لنا مشجعاً ، ثم يميل على

محمود، يمسك كتفه بقبضة يده ويهزّه، فتسقط خصلة من شعره على جبينه. ويقول بخيت لمحمود ضاحكاً بصخب، وهو يرمقنا بعنينين سوداوين لامعتين:

ـ سلّم! أفلست! ارفع يديك!

وقال سمير لمحمود إنّك تردّد أفكار المستعمرين وأذنابهم، كأنك واحد منهم. فردّ محمود بلهجة تمثيلية:

ـ استعمار؟ يا حبيبي يا استعمار.

وأخذ يقبّل ظاهر يده وراحتها وهو يتمطّق، وقال:

ـ أنا ذنب استعماري وأنا فخور. هو إنت وإنت وكلكم لولا الاستعمار كنتوا لبستوا بذلة، والاّ رحتوا المدرسة؟

نظر إليّ سمير وهزّ رأسه. وفهمت أنّه يريد أن يقول: هل تأكّدت الآن؟

أصبح الجو خانقاً عندما غابت الشمس وأضيئت المصابيح الكهربائية. خلعنا الجاكتات، وشربنا كازوزة لاذعة الطعم، ولكن ذلك لم يفد. جاء إسماعيل بجردل ماء وأخذ يرش الأرض. خلال الرش تصاعد صهد ساخن، ورائحة تراب مبلول، ثم أصبح الجو مقبولاً. أخذت ذرّات الظلام ترهج بسمرة فوق الميدان كأنها ضباب.

بعد الساعة السابعة بقليل أخذ الموظفون يتوافدون على النادي، يأتون حاملين الكراسي الخشبية ويضعونها في الفسحة. كانت أناقتهم ملحوظة ومتشابهة: القمصان البيضاء ذات الياقات المنشّأة العالية، والبذلات الخفيفة ذات اللون الفاتح، وأربطة العنق الفاخرة، والأحذية التي تلمع كالمرايا. كانت وجوههم محلوقة بعناية، والشوارب ـ كلهم كان لهم شوارب ـ مشذّبة، ممتدة تحت الأنوف كأصابع. قطرات من العرق تلمع على جبين بعضهم، وعرق يسيح على طرفيّ الأنف. كانت وجوههم تلمع بانعكاس المصابيح الكهربائية عليها. كان واضحاً من البلل في أطراف شعورهم، ومن الاسترخاء في الوجوه، والعيون النقيّة أنهم قد ناموا بعد الغداء، ثم استحموا.

كنت أقول لنفسي: «هؤلاء جزء من العالم السري الذي أنتمي إليه». وأخذت أصنّفهم حسب المشاعر التي يثيرها كل واحد منهم في داخلي.

كنا قد تفرّقنا مجموعات: مجموعة صغيرة حول لاعبي الطاولة، كانت صاخبة، بحديثها وضحكاتها. ومجموعة أكبر قليلاً حول لاعبي الشطرنج. كانت صامتة،

Abou Abdo Al Bagl

يراقب أفرادها اللعب باستغراق. وثلاث مجموعات تجلس على طرف الفسحة، يديرون ظهورهم لنا، ويراقبون الميدان. كان أفرادها صامتين في الغالب، ضجرين، يوحون بعنف كامن. يتبادلون أحاديث خافتة متقطّعة، ثم يعودون إلى الصمت.

أكبر المجموعات كانت مجموعتنا. كانت تتسع باستمرار بوفود أناس جدد. وكان النقاش حامياً داخلها. كان من الواضح أنّ معظم أفرادها شيوعيون. ومحمود كان العدو الذي كانت المجموعة ـ من خلال تفنيد آرائه ـ تتيقن من صحة آرائها. وبدا محمود سعيداً بهذا النقاش الذي يثيره. أحسست أنّه من النوع الذي لا يطرح آراءه، بل أفكاراً تستفز المستمعين، ويجعلهم يناقشونه بحدّة.

قال محمود:

ـ طيّب؛ الحب والجواز فيه إلهم أساس اقتصادي؟

أحنى الرجل القصير القامة رأسه، وكتفيه العريضين، وأخذ يفرد أصابعه السمينة، المرنة، ثم يضمها وهو يتكلّم. له رأس كبير، قد بدأ الشيب يغزو شعره، وفم واسع، ممتلىء الشفتين، تبدو خلفهما أسنان صغيرة أنيقة. كنت أظنّه يمزح في البداية بسبب لمعة مراوغة في العينين، وتشنّج عضلات وجهه حين يتكلّم، ثم عرفت فيما بعد أنّ ذلك تعبير ثابت للوجه والعينين لأنه مصاب بقصر النظر. ربما كان أقل الحاضرين أناقة. لم تكن ملابسه خالية من الذوق، ولكنّه كان يلبس بنطلوناً رمادياً وجاكتة طحينية اللون وقميصاً سمني اللون، وحذاءً ضخماً نظيفاً، وليس لامعاً. أعتقد أنّ جسمه القصير المدكوك لم يكن يصلح للأناقة، أو ربما لم يكن مكترثاً بها.

كان تكوينه حسّياً. تأكّدت من هذا عندما زرته في بيته، فيما بعد. كان يتذوّق باستمتاع كبير الخمر والشاي (الذي كان يصنعه بطريقة السيمافور الروسي، إذ يغليه على بخار الماء) والطعام. كما أنّه في حديثه عن انحلال البورجوازية ونهايتها المحتومة كان يكثر من ذكر النساء، ويصف بدقة مختلف العمليات الجنسية.

أخذ يقول في ردّه على محمود:

ـ إنت بتحب، هه؟ وبتتجوز، هه؟ لمجرّد أنها فتاة أعجبتك؟

فأجاب محمود بسرعة:

ـ لا. لأنها أعجبتك أنت.

قال ذلك بحدّة وتهريج، فكاد أن يثير ضحكنا، ولكنّنا لم نفعل. كان شوقنا مركّزاً على هزيمته. قال الرجل القصير:

ـ خلّيك معي. اللي بتعجبني مش رايح تعجبك لسبب بسيط. إنه اللي بتعجبك لازم تعجب أمّك أولاً وتعجب جارك ثانياً لأنّه لازم يكون إله حصّة فيها..

وضحكنا. ومضى الرجل القصير:

ـ ريتا هيوارت امرأة جميلة، لكن مش ممكن تفكّر تتجوزها. ليش؟

قال محمود:

ـ ليش؟

قال الرجل القصير:

ـ لأنّه الأساس الاقتصادي للجواز غير موجود. قبل ما تتجوّز، هه؟ بدك تسأل: هذي الفتاة بتناسبني؟ بتقدر تعيش في مستوى الدخل اللي بجيلي؟ بتقدر تتفاهم مع عائلتي إذا كان بدك تعيش مع عائلتك. وهيه ما بترضى فيك إلاّ إذا كان فيه اطمئنان اقتصادي. إذا لقيت إنت هه؟ إنها ما بتتناسب مع ظروفك بتحاول تبحث عن المبررات السايكولوجية لرفضها: فمها واسع، مناخيرها إيش مالهم، دلوعة.

كنت مبهوراً وأنا أستمع له. إنّ جانباً جديداً من العالم السرّي ينفتح أمام عيني، حيث تكتسب الأفعال اليومية مدلولات جديدة باهرة. وكم دهشت عندما قال لي أصحابي إنّ هذا الرجل عدو للحزب. سألت عن السبب بلهفة، فقالوا: إنّه محرّف. وهكذا أضيفت كلمة محرّف إلى قاموسي الجديد الذي أخذ يتسع بشكل مذهل.

صاح شخص:

ـ خذ نابليون ودزرائيلي تجوّزوا جواز مصلحة.

لم أستطع تبيّن ملامح المتكلّم. فقد كان المصباح الكهربائي خلفه، وبدا زغب لامع على أطراف أذنيه، وعلى قمّة الرأس وجانبيه كانت نهايات الشعر تضيء حادة كالإبر، وكأنها مضيئة بذاتها. فاجأني صدور هذا الصوت من قلب تلك الهالة البرّاقة. كان صوته نحيلاً، وقد ألقى جملته وكأنّه يسمّع درساً.

ربّت الرجل القصير على كتف الشاب الذي تكلّم وأخذ يستخرج الدلالات من زواج نابليون بجوزفين: شاويش صغير، غريب عن باريس، فتحت جوزفين أمامه

أبواب المجتمع الراقي، وبالتالي الوساطات والعلاقات الضرورية لصعوده. . .

كان من الواضح أنّ محمود يختنق في هذا الجو المليء بالتحليل، والذي لا يفسح مجالاً واسعاً للمناقشات الحادّة، فقال:

ـ عندي مثل يبرهن على العكس.

فأخذ يحكي قصة فيلم أمريكي شاهده، يرفض فيه البطل الزواج من العمة الثرية، متحدّياً بذلك مسدسات أتباعها، ويتزوّج ابنة أخيها الفقيرة، التي تضطهدها عمّتها. ينتصر البطل على خوفه، وعلى إغراءات المال، ويرضى بحياة الفقر مع الفتاة التي يحبّها.

كان محمود يعلم أنّه يستفزنا برواية هذا الفيلم الأمريكي، ويعلم أنّه سوف يجعلنا نضحك، فأخذ يضحك مقدّماً.

قال الرجل ضاحكاً:

ـ قول إلنا من زمان إنّ مصدر ثقافتك هوّه الأفلام الأميركية. . .

قاطعه الشاب الذي تحيط برأسه هالة الضوء:

ـ أفلام رعاة البقر وعصابات شيكاغو.

فزعق محمود:

ـ طيّب، همّه رعاة البقر ما إلهم أساس اقتصادي؟

خبط بخيت ظهر محمود وقال:

ـ ما بطلعك من ورطتك غير فيلمين ثلاثة أميركانيات.

ضحكنا كثيراً بتشفٍ وفرح. . . بدا لنا ما قاله بخيت بارعاً.

ثم أخذ الحاضرون يَروون نكاتاً عن الأميركان: الصحفي الأمريكي الذي قابل ستالن وقال له إنّ أمريكا بلد حر؛ كل أمريكي يستطيع أن يقول إنّ ترومان حمار ولا يعاقب. فقال له ستالن: كل سوفييتي يستطيع القول إنّ ترومان حمار ولا يعاقب.

ونكتة عن المليونير الذي سأله سائق سيارته:

ـ «من هو الشخص الذي ولدته أمي وليس أخي؟»

يحتار المليونير، فيقول له السائق:

ـ «إنه أنا. فقد ولدتني أمي، ولست بأخ لنفسي».

ويسأل المليونير أصحابه نفس السؤال، فيعجزون عن الإجابة، فيقول المليونير:

- «إنه سائق سيارتي».

كنت مبهوراً بالفعل.

ثم انتقل الحديث إلى نابليون وزوجته وعشيقاته، ثم عن عشيقات لويس الرابع عشر. وبلغ الحديث قمّة حقيقية عندما انتقلوا إلى الحديث عن راسبوتين ونسائه الكثيرات. كان المتحدّثون يتألقون فعلاً. تحدّثوا عن هؤلاء النساء وكأنهم على صلة شخصية بهن، وكأنّهم سوف ينصرفون من هنا ليقضوا بقيّة السهرة معهن.

كان الحديث بشكل عام يدور حول الانحلال في المجتمعات الطبقية؛ ولكنني - رغم انبهاري - أحسست أنهم يعشقون هؤلاء النساء، ويتمنون لو أتيح لهم ممارسة الانحلال معهن. كان ذلك شعوراً مبهماً، واقعاً في سياق استياء استطعت السيطرة عليه. كانوا يصفون هؤلاء النساء - جمالهن وما يتمتعهن به من جاذبية جسدية وتفاصيل مثيرة عن حياتهن الداخلية - بتلذّذ واضح. ثم، بعد ذلك، يعودون فجأة إلى التحليلات السياسية. قال الرجل القصير بقدر كبير من الاستفاضة إنّ البورجوازية تشعر أنّ نهايتها محتومة، ولذلك تقبل على الملذات بنهم حتى تنسى مصيرها. مثل الرجل الذي يسكر لينسى مأساته. وخلال ذلك كنت أفكّر، بشعور بالذنب، بتلك المرأة التي وعدني أصحابي بها الليلة. ألا يعتبر ذلك انحلالاً.

كان للحديث الدائر أثر يشبه الإخصاء، يشبه الحضور الطاغي للأم أو الأب في لحظة الاقتراب من امرأة. كان شعوراً مرّاً بأن تموت كل أشواقي للمرأة، وبأنني، وبسبب وجود هذه الأشواق، إنسان بورجوازي أشعر بنهايتي المحتومة فألجأ إلى الملذّات. وانفتحت في داخلي هوّة شعرت أنّ قلبي سقط فيها: وسلطانة؟ هل أمتنع عن رؤيتها غداً؟

تعارض هذين العالمين: سلطانة وعالم الثورة السرّي، كاد أن يختفي. خطر لي، أنّه لن ينقذني من هذا العذاب سوى الرجل القصير. إنّه قادر على إقامة علاقة وثيقة بين العالمين. حدست أنه تجسيد لهما معاً. يمتلك القدرة على رؤية عالمنا من زاوية العالم السري؛ وفي الوقت نفسه فإنّ شوقه للمتع الحسيّة ظاهر في تلك الأصابع التي تنفرد وتنضم كأنها تداعب جسد امرأة، في ذلك الأنف العريض، والشفتين الممتلئتين، في جسده بكليّته، تلك الكتلة العضلية التي تشي بتعطّشها للحياة حركات

مرنة ومقتصدة في وقت واحد.

لم تكن، بالطبع، أفكاري بهذا الوضوح، ولكن حدسي قال لي إنّه قادر أن يعيد سلطانة إليّ. كنت أراقب حركات يديه ووجهه، حذاءه الضخم وكاحليه الغليظين، فأشعر أنه سوف يفهمني ويدعمني. ولم تخطر لي المفارقة الأخرى، إن أصدقائي الذين يستمعون بلهفة إلى الحديث عن الانحلال البورجوازي قد كادوا يغضبون عندما قلت لهم إنني لم ألتق بأميرة، وأنهم بعد قليل سوف يأخذونني إلى امرأة سوف أمارس معها الجنس. ولكنني أعرف أصدقائي، وأعرف أنهم يستطيعون أن يعيشوا العالمين دون معاناة، ودون حتى أن ينتبهوا إلى التعارض بينهما.

ترددت طويلاً قبل أن أحدّث الرجل القصير (اكتشفت أنّ اسمه طعمة). لقد نسيت سلطانة منذ دخولي النادي، ولكنها الآن تعود إليّ بقوّة ـ بقوة عالم سري موعود ومشتهى ومعروف. كانت مجموعتنا قد تبعثرت. نظر البعض إلى ساعاتهم وقالوا إنها التاسعة وقد تأخرنا. وتغيّر مكان بعض الكراسي فتكوّنت حلقات صغيرة. كان طعمة يجلس بجانبي. ويبدو أنّه كان مستغرقاً في التفكير. قلت:

ـ أستاذ طعمة.

رمقني سمير باستنكار، ولكنني تجاهلته. قال طعمة:

ـ نعم؟

لم يلتفت إليّ، ولكنّه مال برأسه نحوي، فأصبحت أذنه قريبة من فمي. كانت أذناً نظيفة. بيضاء. قلت:

ـ بدي أسألك...

وبسرعة قال:

ـ تفضل!

قلت:

ـ فيه تناقض بين الحياة الخاصة والحياة العامة؟

استدار ونظر إليّ مباشرة. قال:

ـ الحياة الخاصة والعامة؟

قلت:

ـ أيوه .

قال :

ـ الحياة الخاصة كذبة بورجوازية .

ـ كيف ؟

كنت أختنق . قال :

ـ رايح أقول لك ليش . الحياة الخاصة مصطلح بورجوازي معناه إنّك تمارس الأشياء اللي بتستحي منها في السر .

قلت :

ـ ممكن الواحد ينام مع مرته في العلن؟

لمت نفسي لأنني قلت ذلك . قلت لنفسي : « أصبحت أتكلّم مثل محمود، بنفس أسلوبه الاستفزازي» . قلت :

ـ يعني أنّه فيه أشياء لازم تظل سريّة . الحب مثلاً .

قال لي :

ـ إنت بتستحي من الحب؟

قلت :

ـ لا .

قال :

ـ الحياة الخاصة في المعنى البورجوازي أنّك تمارس في السر أشياء لو انعرفت عنك ، تستحي منها .

قلت :

ـ مثل إيش؟

وقبل أن يجيبني دخل اثنان أحدثا إثارة عامة . نهض لهما حتى أولئك الصامتون، المستغرقون في مراقبة الميدان . وكان طعمة أول من تقدّم منهما وصافحهما . احتكاك الكراسي بالأرض الإسمنتية، والنهوض ، وعبارات الترحيب أحدثت ضجيجاً أشار بوضوح إلى أهمية الرجلين . همس شفيق في أذني :

ـ أحمد المساعد .

وأشار برأسه نحوه. فوجئت. أحمد المساعد كان أعلى نواب المعارضة صوتاً، وأقذعهم لساناً، كان موضع إعجابنا الدائم. ولكنني فوجئت به. تصوّرته نحيلاً، طويلاً، عصبياً، ولكنه كان ضخماً بشكل مفرط ـ طويلاً، عريضاً ـ له وجه كبير قاتم، وعينان جاحظتان. كان يسير قطعة واحدة، أعني أن ساقيه تتحرّكان ببطء ولكنه جذعه راسخ، ثابت، كأنه واقف دون حركة. والغريب أنّه كان يصافح الحاضرين دون أن ينظر إليهم، بل بدا مستغرقاً في أفكاره الخاصة.

كان سمير قد أشار إلى الشخص الآخر وقال:

ـ موسى السوالمة. شيوعي فظيع.

ملت نحو شفيق وسألته.

ـ أحمد المساعد شيوعي؟

فقال:

ـ ديموقراطي.

فلم أفهم ما يعنيه بالضبط.

أما موسى فقد كان أقصر من النائب قليلاً، كل ما فيه يوحي بالاستطالة، أنفه الطويل، وجهه الضيّق الطويل، رقبته الطويلة، حتى بذلته كانت تتخللها خطوط بنيّة طولية على أرضية طحينية اللون. كان له فم صغير جداً، وشارب صغير، وصدر ضيّق. صافح الجميع مردداً اسم كل من يصافحه، وعندما مددت يدي لأصافحه نظر إليّ بود غريب وقال:

ـ مَين الأخ؟

فقام شفيق بتعريفنا. جذب انتباهي أنّ أسنانه ناصعة البياض، ولكن بياضها مطفأ كأنها أسنان صناعية، وقد ارتسم بين كل سن وآخر خط أسود دقيق.

رحّب بي، وقال لشفيق:

ـ لازم نشوفه.

فقال شفيق:

ـ طبعاً.

جلس الجميع في دائرة. ما زلت بجوار طعمة، وطعمة كان يجلس بجوار

النائب. أخذ طعمة يلتفت بجسده كلّه نحو النائب ويلقي تعليقات ساخرة، وأسئلة ساخرة، يضحك لها بصخب. أما النائب فكان يهز رأسه هزّات خفيفة كأنّه يقول لطعمة «فهمت الآن» ثم يدير وجهه إلى موسى، رغم أنّ موسى كان صامتاً. أعجبت بالوقار المتزمت للنائب وأغراني بتقليده. أما موسى فقد كان صامتاً، على وجهه تعبير اشمئزاز، وعدم مبالاة. كان أقل الناس اكتراثاً بالنائب. ولكنّه عندما رأى الفرّاش ناداه:

ـ يا إسماعيل.

وعندما تقدّم منه إسماعيل نهض وصافحه وقال له:

ـ عارف قهوتي؟ وهات للإخوان طلبات.

اعترض كثيرون، منهم طعمة، ولكن موسى لم يكترث. أعجبت به لأنه لم يخص النائب بالاستفسار عن طلبه، بل ترك ذلك للفراش، كما أعجبت بتلك الرجولة التي صافح بها إسماعيل، دون تلطّف زائد، أو برود.

ثم أخذ النائب يلقي تعليقات تجعل الجميع يضجون بالضحك، دون أن تكون مضحكة. كان طعمة أكثرنا استجابة وقهقهة لدعابات النائب، يعقب قهقهته في كل مرّة بأن يخبط ظهر النائب برفق على ظهره.

بعد قليل، أصبح محمود مركز الحديث. حكى طعمة حواره مع محمود حول الأساس الاقتصادي للزواج، وكيف أن محمود حاول أن يفنّد ذلك بفيلم أمريكي شاهده، وروى تلخيصاً للفيلم. أضاء وجه موسى وأخذ ينظر لمحمود بضحكة ملأت وجهه كله، ثم قال:

ـ رامي رأسه في الأرض. ورّينا عيونك.

كان أثر هذه الكلمات مذهلاً على محمود. أخذ جسده كلّه يتحرّك ـ بدا لي في محاولة للاختفاء ـ وكأن آلاف البراغيت دخلت تحت ثيابه وباشرت فعلها. ولاحقه موسى:

ـ إيش الفيلم الأميركاني ؟ اتجوز العمة وبنت أخوها؟

ثم قهقه موسى وقال:

ـ ما فيه حدا منتبه. لابس قميص أميركاني.

وبحركة لا شعورية حاول محمود أن يغطّي القميص بكفّيه، فأغرق الجميع في الضحك. خبط طعمة ظهر النائب وهو يضحك، فارتسمت تكشيرة على وجه النائب، وأمسك بخيت بكتف محمود وأخذ يهزّه بقوة جعلت محمود يكاد يفقد توازنه ويسقط، وقال بخيت وهو يضحك:

ـ جاوب يا زلمة، وين بلاغتك؟

نهض محمود فجأة وقال:

ـ إيش يا أخي، إيش يعني، بخيت وما بخيت. إنتو مفكرين إني أهبل، وإلاّ مضحكة؟ كركوز يعني.

واستدار لينصرف، فقال موسى:

ـ قال عصبي، قال.

ثم غيّر صوته وأضاف:

ـ بنمزح معاك يا زلمة.

وقف محمود متردداً، فقال له النائب بوقاره المتزمّت:

ـ ارجع مكانك.

وتهاوى محمود على كرسيه ـ سقط فوقه بالفعل ـ وقد طوى ذراعيه على صدره، ووضع كفّيه تحت إبطيه، وأخذ ينظر فوق رؤوس الجالسين، وقد نفخ طاقتي أنفه. كانت الحركات العصبية في وجهه مثيرة للأسى: تقلّصات العين اليمنى، وإغماض عينيه وفتحهما بسرعة متزايدة.

بدأ موسى حديثاً جاداً في السياسة. كان واضحاً أنّه يريد أن يحوّل اهتمام الآخرين عن محمود. قال إنّ أمريكا بدأت تتسلّل إلى الأردن من خلال النقطة الرابعة، وأنّ أول من استجاب لذلك الانجليز، فقد التقى غلوب باشا، قائد الجيش، مع عدد من الوجهاء، وقال لهم إنّ الأمريكان يريدون أن يزرعوا أجزاء من الصحراء حتى يأتي الجراد من السعودية ويأكل الأخضر واليابس في الأردن. ثم أضاف:

ـ لكن مبيّن أنّ الأميركان مرتّبين أمورهم.

ثم تكلّم طعمة طويلاً. قال إنّ آخر كتاب لستالين يدور حول هذه النقطة: أي أنّ الصراع بين الدول الاستعمارية أشدّ عنفاً من الصراع بين المعسكرين، الشرقي

والغربي، وإنّ هذا الصراع سيزداد حدّة مع الأيام. ثم أخذ يفصّل أسباب ذلك.

كان ردّ فعلي الداخلي في البداية نوعاً من خيبة الأمل: لقد انتصرنا قبل أن نبدأ، كما فقدت الاتجاه: لم يعد الصراع بين الخير والشر هو الصراع الأساسي. كان ذلك أشبه بقراءة رواية بلا قمّة درامية.

يبدو أنّ طعمة أدرك ذلك، لأنّه قال: إن ذلك بالطبع لا ينفي أنّ الصراع بين المعسكرين سوف يستمر إلى أن تزول الرأسمالية.

ثم تحدّث النائب. كان يزعق بصوت خشن، حلقي، خال من العمق والتلوين، وقد احمرّ وجهه، وأخذ يلوّح بذراعيه؛ وقد أخذ العرق ينعقد قطرات على جبينه. قال إنّ الإنجليز جاءوا إلى بلادنا ليستعمروها، لا من أجل سواد عيوننا؛ وأنّه متأكّد من ذلك، عنده أدلّة قاطعة. أضاف:

ـ بدكوا الصراحة، والأميركان كمان نيّتهم مش صافية. مين طلب منهم ييجوا؟ جايين يخلّصونا من الإنجليز؟ أنا رأيي أنّهم متفقين. وقاعدين يضحكوا علينا، ويتظاهروا أنهم مختلفين.

باستثناء موسى بدا الجميع معجبين بخطبة النائب. أما طعمة فقد أخذ يفسّر كلام النائب مستعملاً تعبيرات جديدة مدهشة: أزمة النظام الرأسمالي، مرحلة الامبريالية، أعلى مراحل الرأسمالية، السوق الرأسمالية التي ضاقت بسبب ثورة الصين... خلال ذلك اكتسى وجه النائب وقاراً غاضباً، وعنفاً، وأخذ يهزّ رأسه دلالة الموافقة على ما يقوله طعمة، وعلى ما سيقوله، كأنّه يعرف مقدّماً ما سوف يقوله. كانت هزّات رأسه تقول لطعمة بوضوح وحسم: أنت على حق، ولكن توقّف عن الكلام بحق الله.

أزحت كرسيي إلى الأمام قليلاً وحرفته قليلاً نحو اليمين حتى أرى النائب بشكل أوضح، وكذلك طعمة. استلزم ذلك تقديم الكثير من الكراسي التي على يساري. لاحظت النائب يرشح عرقاً وغضباً قاتماً. كان يتنفّس بصعوبة.

عندما انتهى طعمة من كلامه بدا حائراً أين يضع يديه اللتين شاركتاه الحديث بحيوية مدهشة. طواهما على صدره، ثم وضعهما على فخذية، ثم رفع اليمنى ـ بحركة لا إرادية، كما خطر لي ـ وخبط ظهر النائب برفق.

جعلني حديث النائب في حيرة شديدة. استعدت ما قال، لاكتشف عمقاً خفياً

فيه، فلم أجد. قلت لنفسي - عبر مشاعر خيبة وانكسار الوهم - تلك هي طريقة السياسيين في الحديث. أقنعت نفسي بذلك.

ما زال النائب يتنفّس بصعوبة، ووجهه يفور بذلك الغضب القاتم. ماذا حدث؟ قلت لنفسي، فلم أجد جواباً. ساد صمت مربك. معظم الحاضرين - كما لاحظت - أحنوا رؤوسهم موحين بموت شخص عزيز عليهم، بجو مأتم وقف بخيت، فاتحاً علبة سجائره ودار بها على الحاضرين. بعد قليل تكوّنت غيمة زرقاء فوق رؤوسنا. شعرت أنّ سمير يتأهّب ليهمس شيئاً في أذني. تصلّب عنقي بانتظار همسه وأنفاسه، ولكنني رأيته يعود إلى استرخائه. يبدو أنّه خشي أن يلفت الأنظار حين يحطّم جو الصمت المشحون بالتوتّر.

فجأة انطلق محمود يضحك، يضحك دون توقّف. كتفاه كانتا تهتزان بإيقاع منتظم كراقص الدبكة. حاول أن يسيطر على ضحكه، فصمت قليلاً، ثم انفجر بضحك أشدّ، وكان ضحكه هذه المرّة برذاذ من فمه، وبدموع غزيرة. غادر النادي محني الظهر من الضحك. ضحك طعمة بلا مرح وأمسك بيد النائب ليشركه في الضحك. اكتفى النائب بابتسامة صغيرة مريرة. أمّا موسى فقد ظلّ مكشّراً.

قال أحد الحاضرين:

- الزلمة مجنون.

وكان ذلك إيذاناً بانقشاع الصمت المتوتّر. أخذ عدد من الحاضرين يحدثون الجالسين بجوارهم. نادى واحد إسماعيل ليأتي له بشاي. التفت موسى إلى النائب وقال له:

- شفت الزلمة؟ أخينا؟

التفت النائب إلى موسى وهو يبتسم، كأنّه يعتذر عن شيء ما. وجه موسى كان بلا تعبير. كان ينظر إليه فقط. كان النائب يقول إنّه قابل «أخينا» اليوم، ودار حديث. قال، إنّه قال له جماعتك ما فيه فايدة منهم. غضب.

ثم صمت النائب، وانتظر بابتسامة خجولة ردّة فعل موسى، الذي أخذ ينظر أمامه، ثم قال وكأنّه يخاطب الهواء:

- ناس منحطّين يا مولانا، باعوا أنفسهم.

ثم التفت إلى النائب وأتمّ حديثه، الذي لم أفهم منه شيئاً.

ضحك النائب وقال :

ـ مش لهاي الدرجة .

قال موسى بحسم :

ـ لهاي الدرجة ونص . يعني أنا مش عارفه ؟

ومضى الحديث على هذا النحو الذي يستحيل فهمه بالنسبة لي . فجأة قال النائب بصوت واضح :

ـ لا . هذي مسألة شخصية .

كان طعمة ، خلال هذا الحديث ، قد مال بجذعه إلى الأمام ، وأدار وجهه في اتجاه الاثنين ـ وقد جعّد جبينه وكأنّه يشارك فعلاً في الحديث . ولكن النائب وموسى تجاهلاه . حين سمع هذه العبارة قال :

ـ لكن المسائل الشخصية جزء أساسي من حياة الإنسان العامة . مش ممكن نفصل الاثنين عن بعض .

قال النائب بسرعة :

ـ بنتكلّم في موضوع ثاني ، موضوع ثاني .

فردّ طعمه :

ـ ما أنا عارف عن مين بتتكلّموا .

قال النائب :

ـ بنحكي في مسائل خاصة .

ولكن طعمه واصل التدخّل . ولم يعودا يعيراه أي انتباه . حاولت أن أسأل طعمة ، الذي تصوّرت أنه أصبح صديقي ، عمّن يتكلمون . جذبت كوعه الأيسر وهمست :

ـ مين هوه؟

جذب ذراعه من يدي . لم يرد ، ولم يلتفت إليّ .

٣

غادرنا النادي بعد أن انصرف النائب وموسى مباشرة . كنت خائفاً من مغادرة

النادي، وتمنّيت لو ينسى أصحابي موضوع المرأة. ولكن سمير، حين أصبحنا في الشارع، تنهّد، ونظر إلى ساعته، وقال:

ـ هذا موعده.

سرنا نحو ساحة الساعة. عندما أصبحنا أمام الممر التجاري قال سمير:

ـ شفناه هون.

وتوقّف. قال شفيق:

ـ مش معقول يظل واقف هون طول عمره.

قال خالد:

ـ ندورّ عليه في الممر.

قال سمير:

ـ صحيح.

من الواضح أنّ ما قاله شفيق لم يخطر له، إذ تصوّر الرجل مزروعاً في هذا المكان منذ أن قابلوه. كان أصدقائي قد رأوه في هذا المكان ليلاً. استوقفهم وسألهم عن الوقت. ثم اقترح عليهم أن يأخذهم إلى امرأة. سألوه إن كانت جميلة، فقال لهم هنالك عدد من النساء يستطيعون أن يختاروا من بينهن التي تعجبهم. كانوا مفلسين، فقالوا له إنهم مشغولون الليلة. وسألوه عن المكان الذي يستطيعون أن يجدوه فيه إذا احتاجوه. قال لهم: في هذه المناطق.

اكتشفت أنّ هذه هي كل معرفتهم بالعالم السري للمرأة في عمّان.

سرنا نتفحّص الوجوه. حاولنا أن نتظاهر أننا مجرّد متسكعين. ولكن خطواتنا وتعابير وجوهنا المتجهّمة، وحركاتنا العصبية كانت تفضحنا. مررنا أمام مطعم أبو العبد، ثم صعدنا إلى الشارع الهابط من جبل عمّان. وسرنا على الرصيف المقابل للممر التجاري. مررنا أمام محلات باتا لبيع الأحذية. بعد قليل كنّا نقف أمام مكتبة الاستقلال. عبر سمير الشارع إلى مبنى البريد المركزي. تبعناه، ثم توقفنا أمام المبنى، اعترضنا طريق رجلين قادمين من ساحة الساعة. نظرنا إليهما بتدقيق، فنظر إلينا أحدهم بحدّة وقال:

ـ إيش فيه؟

من الواضح أنّه كان مستعداً للعراك. قال شفيق:

ـ ما فيه إشي.

وتخطّيناهم. لم نكن مستعدين للشجار.

كان سمير أشدنا حماساً، يغضب من كل تلكؤ يصدر عنّا. يقول بصوت مشحون، مختنق:

ـ بلاش نضيّع الوقت.

ويتقدّمنا.

اقترح بعد قليل أن (ننظم المسألة)، معطياً لشفيق وحده الحق في الحديث مع القوّاد إذا لقيناه. وافقنا على ذلك، رغم شعورنا بالضيق من حدّة سمير وتنظيمه للمسألة الذي لا ينتهي. كان سمير هو أول من خرق النظام الذي اقترحه. قال لشفيق:

ـ الزلمة الواقف قدّام محلات عصفور.

وتقدّمنا سمير نحوه. بدت الدهشة، ثم الخوف على وجه الرجل عندما رآنا ننظر إليه، ونسير نحوه مصممين. غادر مكانه أمام الفترينا، حتى إذا وصل إلى شارع جانبي، دخله راكضاً.

عندما بلغنا الممر التجاري، قال سمير إننا نسينا المقهى الذي في الممر. قال شفيق بارتياح:

ـ صحيح، صحيح.

قال سمير:

ـ يمكن بقعد هناك.

ونحن في طريقنا للمقهى ذكّرنا سمير بأن لشفيق وحده الحقّ إذا رأى القوّاد أن يغمزه. قلت: ـ يغمزه بأي عين؟

أردت أن أكون ساخراً؛ فقال سمير بعصبية:

ـ مش مهم.

ثم أضاف تأكيده على حق شفيق في الغمز، واقترح علينا ـ حقيقة المسألة أنّه أمرنا ـ أن لا نتحدّث عن النساء في المقهى، بل في مسائل عامة.

في ضوء المقهى الشعبي الأصفر كان وجه سمير مبللاً بالعرق، وعيناه لامعتين. طلبنا شاياً بالنعناع، ثم قال شفيق إنّ النائب المعارض مثقّف بورجوازي، وإنّ البورجوازية تلعب دوراً تقدّمياً ووطنياً في المرحلة الحالية. قال خالد إنّ هنالك تناقضاً بينها وبين تحالف الاستعمار مع الإقطاع ومع البورجوازية الاحتكارية.

قلت لنفسي لن أستفهم عن معنى هذه التعبيرات الآن، وأخذت أفكّر في المرأة التي سأضاجعها الليلة. كانت أحلام يقظتي تدور في وضع نموذجي. أسأل عن قصة حياتها، كيف تحوّلت إلى مومس؟ فتروي حكاية مؤلمة. أنصحها بالتوبة. بعد تردّد، ونقاش حول حل آخر لحياتها، توافق. نتحدّث عن الكتب، هي عن «آنسة الكاميليا» وأنا أحدّثها عن «مدام بوفاري».

انتبهت إلى كأس الشاي يلسع يدي، فوضعته على الصينية، وأنا أصفّر متأملاً. قال سمير همساً:

ـ هوه ؟

بدا الذهول واضحاً على وجه شفيق، وقال:

ـ مين؟

قال سمير:

ـ الزلمة. حسّيت أنك بتغمز في عينك.

فقال خالد:

ـ غمزني أنا.

وضحك.

قال سمير إن ضحك خالد فيه عدم تقدير للظروف، فقال شفيق:

ـ بلاش تكون عصبي يا أخ سمير.

ـ مش عصبي.

قال سمير وصمتنا. قال شفيق:

ـ لو كان الوكت بكير، كنا طلعنا للنّور.

قال خالد :

ـ النّور ودهم سيارة تكون معاك.

قال شفيق باستسلام:

ـ ومصاري.

قال سمير بحدّة:

ـ مش قلنا يا أخي بلاش، يعني، نتكلّم في المواضيع هذي؟

قلت لأثير غضبه:

ـ عندك حق.

تشنّج وجه سمير وهو يقول:

ـ بدهم إيّانا الليلة ننام في الشرطة، وعلى إيش؟ منشان واحدة شرموطة، واحدة...

قلت:

ـ صحيح.

ضحك شفيق:

ـ بلاش تشعلله.

في الثانية عشرة، أو قبل ذلك بقليل، أخذ الجرسون يمسح الموائد الفارغة بفوطة مبلولة، ثم يكوّم فوقها الكراسي. لاعبو الطاولة والورق أخذوا يتثاءبون، فقد أوحت لهم الكراسي المقلوبة فوق الموائد بالنوم. تثاءبوا وتمطّوا، وأخذوا يتكلّمون خلال التمطّي:

ـ الساعة اثنا عش؟ مش معقول.

ـ سرقنا الوكت.

ـ خايف؟

ـ من المرة؟ المرة في سابع حلم.

وضحك. من يخاف من امرأة؟ بل إنّ مجرّد قول نكتة لهذه مستوحى من الأفلام المصرية. وتحرّكوا نحو الباب ببطء.

أخذنا نصعد الجبل. قميصي ملتصق بجسدي، والعرق ينساب في ظهري مثيراً إحساساً بالاشمئزاز من جسدي ورغبة في النقاء والطهر. لاحظت أنّ يد خالد تبحث عن يدي، فتحاشيتها. أن تضيع هذه الليلة في بحث عقيم عن امرأة... عن قوّاد

Abu Abdo Al Bagl

شوهد مرّة واحدة. . . وددت أن أبكي، أن أطلب المغفرة من إنسان ما. عشت حلم يقظة العائد من مدينة عاش فيها حياة فجور وانحلال. . . ثم يعود إلى القروية الجميلة التي تحبه، ولكنه هجرها، يعود تائباً، مستغفراً . . . تدخله الحمام، وهي تقول:

ـ لن ألمسك حتى تغسل كل أقذار المدينة عنك.

يخرج من الحمّام طاهراً. يجلسان على قمّة الجبل المشرف على وادي الأردن، يراقبان غروب الشمس. ثم ينحل حلم اليقظة في احتجاج العقل: لا يوجد في المدينة فجور، ولا حبيبات كالزهرات في القرية.

كنا نسير صامتين، نلهث. اقترح شفيق أن نرتاح قليلاً. كان صوته مهجوراً، خشناً. كنّا قد وصلنا الدوّار الأول من جبل عمّان. جلسنا على الرصيف، متجاورين، محاذرين أن نلمس بعضنا، أو أن نتواصل. سمعت وقع أقدام، ثم اقترب منا الحارس الليلي، قال:

ـ منين جايين الشباب؟

ردّ خالد:

ـ مروّحين على البيت.

ـ بسأل منين جايين؟

ردّ خالد:

ـ ليش بتسأل؟

ـ ممنوع.

ـ إيش الممنوع؟

قال سمير:

ـ إيش اسمك؟

ـ وشو بدّك في اسمي؟

قال شفيق:

ـ يمكن نطلع قرايب. مبيّن عليك كركي.

قال الحارس بلهفة:

ـ إنتو كركية؟

وتم التعارف. أخرج علبة سجايره وضيّفنا، وقال:

ـ لا تزعلوا مني يا شباب. عندي أوامر. اقعدوا مثل ما ودكوا.

وانصرف.

قال سمير:

ـ طلع كركي.

في الطرف الآخر من الشارع فيللا ساكنة، محاطة بالشجر والظلمة. نافذة واحدة رأيتها مضاءة، يتسلّل ضوؤها عبر الأشجار خالقاً إحساساً بالألفة في داخلي.

قال سمير:

ـ طلع كركي.

لم يعلّق أحد على ذلك. قال شفيق:

ـ في بلاد العالم، بلاد ربنا، مش بلدنا هذه، الواحد بمشي هو وصاحبته من غير مؤاخذة، ولا انتقاد.

ـ في تشيكوسلوفاكيا، في البلدان الاشتراكية كلها الطلاب بتجوّزوا وهمه في الجامعة، وإلهم معاش من الحكومة.

واستمر شفيق كأنّ أحداً لم يقاطعه:

ـ لو بست صاحبتك قدّام الناس، ولا حدا بقول لك وين رايح.

قال خالد:

ـ عندنا جريمة لا تغتفر.

قال شفيق:

ـ بتعرفوا عبدالله؟ اللي كنا بنسميه الساهي؟ عبدالله؟

قال خالد:

ـ عارفينه يا عمي.

قال شفيق:

ـ كان في إنجلترا، وكان مصاحب واحدة. بنت طالبة معاه. يخلص دروسه ويروّح العصر لأهلها، يقول إلهم I beg your pardon [1] ويطلع هوّه واياها

(١) أرجو المعذرة.

ويسهروا، ويسووا السبعة وذمّتها ويرجعها لبيت أهلها وجه الصبح. بتباوسوا عند الباب وهي تقول Tomorrow please [1] وأهلها ما يفتحوا فمهم في كلمة . . .

وقاطعة خالد:

ـ ليش تبعد بعيد. في مصر البنات قاعدات في الحدائق العامة، وبنات عائلات محترمة، تيجي لها وبتقول: عندي رغبة يا هانم أروح أنا واياك السينما، تقول هيه: حاضر يا أفندم.

قال سمير:

ـ تقول: حاضر يا جدع.

واستمر خالد:

ـ وبقولوا الطلاب اللي في مصر إنها ما بتخلّيك تدفع الحساب. إزّاي يا جدع؟ ازّاي كده؟ إحنا بدخلنا في الشهر ألف جنيه. أنا أبوي باشا.

قال شفيق:

ـ إدفعي ولا تزعلي.

قال سمير:

ـ إذن عندها سيارة.

قلت:

ـ ويمكن عندها باص.

ضحك سمير، وقال خالد:

ـ لو اني أنا. كنت قلت لها: ادفعي واقرضيني.

قلت لخالد:

ـ مفلّس؟

كان واضحاً أنّه عرض مني بتقديم قرض، قال خالد:

ـ فيه، من خير الله وخيرك.

قال شفيق:

---

(١) غداً من فضلك.

ـ لو أنا، قلت لها لمي غربتي يا هانم وسكّنيني عندكو . وما إلي حدا يا عيني .

قال سمير جاداً:

ـ إيش فكرك يعني؟ بتسكنك عندها والله .

حكى شفيق عن طالب فلسطيني كان يسير في أحد شوارع القاهرة، فإذا بسيارة آخر موديل تقف بجواره، ويخاطبه سائقها:

ـ اطلع!

ـ وين؟

قال السائق :

ـ الهانم بدها تكلّمك كلمة يا افندم .

ـ مين الهانم؟

قال خالد:

ـ يقطع نصيبك . اركب .

قلت:

ـ الصبر مفتاح الفرج يا عم خالد .

قال خالد:

ـ إشي بسطح يا زلمة . وين ؟ ومين الهانم؟ وليش . وكيف ؟ خلص اركب يا اخي وتوكّل .

قال سمير:

ـ يمكن مكيدة .

وضحكنا لكلمة مكيدة .

ومضى شفيق يصف الحديقة الواسعة جاعلاً كل الأشجار مثمرة، والثمر ناضجاً، والأثاث الفاخر (لم يصفه) والهانم امرأة تدوّخ بجمالها، والتي تبلغ من العمر أربعين عاماً .

قال سمير:

ـ أربعين؟ إيش أربعين ؟

Abu Abdo Al Bagl

ودار نقاش حول صلاحية المرأة في الأربعين. قال شفيق إنها أصلح ما تكون في هذا السن. قال خالد:

ـ إنت بتفتكرها واحدة من نسوانا؟ طول النهار بتجرف الجلّة وبتطلعها عالحيطان، وبتوكل خبز يابس؟

ولكن شفيق تراجع عن تقديره. قال إن سنها مجرّد تقدير من جانبه، لم يخبره الشاب عن سنها. قلت:

ـ يمكن خمسة وثلاثين.

كنت أفكّر في سلطانة.

قال سمير:

ـ لا. ثلاثين.

ـ المهم.

نهضت ونهضوا، وسرنا في اتجاه البيت. انتعشنا بالكلام والراحة. سأل سمير عمّا حدث بعد ذلك، فقال شفيق:

ـ إنت وذكاءك.

فألحّ سمير:

ـ لا، يعني، وبعدين. بعد هذا كلّه؟

قال شفيق بسأم:

ـ حمّل الهدمتين اللي عنده، وسكن عندها.

ضحك خالد وقال:

ـ والله لو مدفع هاون ما طلّعه. رسا يا عم.

قال شفيق:

ـ غطس. جنة يا عم. ما لذّ وطاب.

قال سمير:

ـ تجوزها؟

ـ لا.

ـ وإلاّ إيش؟

قال خالد:

ـ إيش؟ نعم ربك خوخ ورمّان وتفاح. غطس، وما طلع. إيش بده في الجواز.

٤

استحممت. علّق خالد على الاستحمام قائلاً بعد المضاجعة لا بد من الاستحمام. تناولنا العشاء: مقدوس وجبنة، ولبنة وزيتون وزيت وزعتر؛ كلّه مما يصل أصحابي من أهاليهم في الكرك. أعدّ لنا خالد الشاي. أحسست أني قادر على مواصلة السهر لعشرين ليلة قادمة. كان يوماً طويلاً جداً، ولكنني شعرت أنني جائع للحياة.

كان قد انضم إلينا شخص اسمه نضال. كان اسمه غريباً بالفعل، ولكن خالد همس لي أنّ هذا ليس اسمه الحقيقي. تصوّرت أن ذلك يعني أنّه مطارد من البوليس، وهو لذا من قلب العالم السري للشيوعيين. أحببت أن أتأكّد. سألته عن عمله، وهل هو شيوعي. نظر إليّ سمير مقرّعاً، أما خالد وشفيق فقد أحنيا رأسيهما (خجلاً كما تبيّن لي). علمت فيما بعد أنّه يعمل موظفاً صغيراً في وكالة غوث اللاجئين (الأونروا)، وأنّه ليس بالأهمية التي يضفيها على نفسه. كل ما في الأمر أنّه كان هو الذي يأتي بمنشورات الحزب لأصدقائي، وقد رأيته يفعل ذلك فيما بعد، بطقوس، بدت لي، مفتعلة.

شعرت بالتحدّي ساعة دخوله. كنت أعلم أنني، خلال أيام قليلة، سوف أستوعب كل جديد عند أصحابي، وأنني سوف أستعيد دور المثقف الأول، الموجّه. كان ذلك يحدث بإرادته، ودون بذل مجهود كبير مني. ولكن، منذ أن رأيته، يطلّ علينا بوجه لا انفعال فيه (سوى تعبير ضيق)، ويصافح الأيدي المتشوّقة بفتور، ويقبل على طعام أصدقائي دون استئذان (كانوا قد وضعوا أمامه دجاجة من الدجاجات المشويّة التي أحضرتها، والتي كنا قد قررنا أن نبقيها للغد لنأكلها مع العرق) مع توجيه تهمة البورجوازية لأنهم يأكلون لحم الدجاج، وقول أصحابي لذلك بضحكات صغيرة مرتبكة... عندما رأيت ذلك شعرت أنني خسرت المعركة، وبأسلوب ـ تصوّرته ـ

Abu Abdo Al Bagl

غير شريف. كان سمير أكثرنا ذلّة أمامه، وأسرعنا إلى الموافقة على ما يقول.

أكل بنهم، وكأنّ الطعام له وحده، وانتهى قبلنا كلّنا. كان قد التهم الجزء الأكبر من الدجاجة. قال له خالد، وهو يبتسم، وعلى وجهه تعبير استعداد التراجع وقبول للإهانة المنتظرة:

ـ نعمل لك شاي يا أستاذ نضال؟

ردّ بهدوء، ولكن الغضب كان واضحاً في نبرات صوته:

ـ إيش أستاذ هذه؟ كلنا رفاق يا رفيق.

ثم وافق في نهاية الأمر على إعداد الشاي، على أن يغسل الإبريق جيداً قبل أن يوضع الماء فيه، وأن يكون جيد الصنع. تناول علبة سجايري، وأخذ منها سيجارة دون استئذان، وأشعلها. غاظني ذلك، وفعلت شيئاً تصوّرته طعنة في الصميم. أمسكت علبة سجايري، وقدّمت منها للآخرين بتودّد، ثم أشعلت سيجارة، ووضعتها في جيبي. لم ألاحظ أنّ ما فعلته قد أزعجه، أو حتى أثار انتباهه. لهذا السبب ناديته باسم استقلال، فقال سمير:

ـ نضال يا أخي.

عندما أخذ يتحدّث في السياسة اندهشت. تحدّث بوقار واعتداد كبيرين وبسذاجة تقترب من البلاهة. ومع أنّ هذا كان منسجماً مع لهجته التي تخلو من الثقافة، ومظهره الذي يبدو أنّه لم يعرف الثراء يوماً، فقد شعرت بخيبة الأمل، انتظرت أن أجد خصماً فيه قدرة وذكاء يساويان، على الأقل، اعتداده. كان يقول ـ ولم يكن يسمح لغيره بالتحدّث ـ إنّ الاستعمار هو عدو الشعوب. وما فائدة الاستعمار؟ إنّه يمتص دماءنا. الاستعماريون مصاصو الدماء، مثل البق، هل فيه فائدة؟ هل للبق فائدة؟ طبعاً لا. يمص دمنا، ويحرمنا من النوم ويزعجنا ولا فائدة منه. ومضى هكذا: الاستعماريون سفاحون، يقضون على ثورات الشعوب بالحديد والنار...

قال سمير بحذر:

ـ مثل نيرون.

نظر إليه نضال بغضب وقال:

ـ نيرون يا رفيق كان في عصر العبيد.

Abu Abdo Al Bagl

قال شفيق :

ـ المجتمع العبودي اللي بعد المشاعية البدائية .

واحتد نضال :

ـ يا رفيق ما احنا قرينا مع بعضنا كتاب تطوّر المجتمع ، المراحل الخمسة : المشاعية البدائية ، الإقطاع ، الرأسمالية ، ثم الاشتراكية .

قال سمير :

ـ آخر شيء الاشتراكية .

قال نضال :

ـ ما تقاطعني يا رفيق لما أكون بتكلّم .

أعجبت بشفيق عندما قال :

ـ ما قاطعك يا رفيق .

وكأنّ نضال قد انتهى من سمير ـ وتجاهل ردّ شفيق ـ فتوجه إلى خالد ، وقال له كأنّه يلومه :

ـ سمعنا أنّك يا رفيق كتبت قصة . بدنا نسمعها .

أصبح وجه خالد قرمزياً ، وقال :

ـ لا ، مش نافعة .

قال نضال :

ـ بدنا نسمعها .

قال سمير :

ـ اقراها ، منشان ينتقدها الرفيق نضال .

وألحّ شفيق ضاحكاً . :

ـ سقت الله عليك تقراها .

قال خالد :

ـ يمكن ضيّعتها .

قال شفيق بمودة :

Abu Abdo Al Bagl

ـ دوّر عليها . أكيد رايح تلاقيها .

تردّد خالد قليلاً، ثم كما يستل مدية استل خالد مجموعة أوراق من جيبه الداخلي، وأخذ يقرأ بسرعة :

إنه ـ والقصة مكتوبة بضمير المتكلّم ـ بينما كان يسير في حديقة غنّاء، البلابل تغرّد على أغصانها، و الفراشات تطير جذلى بين أحواض الزهور، والغزالة تتوسّط كبد السماء، مرسلة أشعتها الحانية على بساط الحديقة السندسي، كأنّها قبلات زوجة حنون على وجوه المتنزّهين . جلس في مقهى، أقيم بين الشجر، وطلب كأساً من الخمر المعتّقة، جاء بها النادل، فأخذ يحتسيها وهو يراقب الحسان بعيونهن الغزلانية وخدودهن الأسيلة، وأجيادهن الصيد . ولكنّه كان حزيناً، لأنّه لم يجد فتاة واحدة تلتفت إليه وتشعر بوجوده .

قال لنفسه : لو كنت من أصحاب الثروات الطائلة لأحطن بي ـ يعني الحسناوات ـ إحاطة السوار بالمعصم . لكن أنّى لي ذلك، وأنا فقير، لا أجد ما يكفيني قوت يومي، وأنا رجل شريف أرفض أن أستغل الكادحين لأملأ جيوبي بالنقود . فتباً لهؤلاء النساء اللواتي يفضّلن اللص، مصّاص الدماء على العامل الشريف .

وبينما هو في هذه الأفكار الحزينة يرى فتاة قادمة، كأنها الشمس المضيئة، هبطت من السماء، وأخذت تخطر بين الشجر . عيناها تلمعان ككوكبين . ونحرها صقيل كأنّه الذهب النقي، وشفتاها مثل حبتي كرز، وصدرها ناهد . ويا للعجب، رأت نظراته مسلّطة عليها فابتسمت له، وأخذت تقترب . كان قلبه يرقص فرحاً . ثم وقفت أمام المائدة التي يجلس عليها، وهي تبتسم، كاشفة عن صفّي أسنان كالدرّ المنثور، وقالت له :

ـ أراك وحيداً .

قال :

ـ وحزيناً أيضاً .

قالت :

ـ أتسمح لي أن أجلس إلى مائدتك فأزيل وحدتك، وأخفّف حزنك؟

قال :

ـ بل أرجوك أن تفعلي ذلك .

ومضت القصة تقول إنّه بعد حديث قصير يكتشف أنّ الفتاة غانية تبيع جسدها مقابل النقود. يستولي الحزن على ا لراوي، ويقول لها:

ـ لقد فجعت بك.

تقول:

ـ لماذا؟

يقول:

ـ لقد حسبتك ملاكاً هبط من السماء فإذا بك شيطان في صورة إنسان.

أحنت رأسها، فرأى الدموع تتساقط من عينيها، ثم قالت والألم يمتزج بكلماتها، ودموعها لا تكفّ عن الانسياب:

ـ إنني ضحيّة وأنت تعتبرني مجرمة.

قال لها:

ـ كيف؟

وحكت له عن زوجها الذي استشهد وهو يدافع عن الوطن وعن طفلتها التي مرضت بالالتهاب الرئوي ولم يكن معها ثمن الدواء، وعن جارها الرأسمالي العفن الذي أبدى استعداده لدفع ثمن العلاج إذا بذلت له جسدها ساعة واحدة. ماذا تفعل؟ هل تكون عفيفة ومجرمة؟ وهكذا منحت جسدها للرجل. ومرضت الطفلة مرّة أخرى، فباعت جسدها مرّة أخرى.. وهكذا: الطفلة لا تكف عن المرض، وهي تبيع جسدها المرّة بعد الأخرى.

ـ والآن؟

لقد توفي ذلك الرأسمالي، وطفلتها مريضة الآن. قالت:

ـ احكم عليّ بأنني شيطان إن استطعت إلى ذلك سبيلاً. إنني ضحيّة الظروف الاجتماعية.

واستفاض الراوي في شرح الظروف الاجتماعية، التي دفعتها إلى الخطيئة: الاستعمار، وتحالفه مع رأس المال الاحتكاري والإقطاع. (ولسبب لا يبرّره السياق شرح لها الدور التقدّمي، في مرحلة من المراحل، الذي تلعبه الرأسمالية الوطنية). وأضاف الراوي أنّه لا يمكن أن تحل مشكلتها بشكل أساسي إلاّ بتحالف الكادحين،

Abul Abbas Al Bagl

تحت قيادة الطبقة، والقضاء على الاستعمار وعملائه.

قالت:

ـ الآن عرفت طريق الخلاص.

وينهضان. يذهبان إلى الطفلة المريضة، ويأخذانها إلى الطبيب فيعالجها ويعودان إلى بيتها. وهناك تعلن المرأة أنها سوف تمنحه جسدها:

ـ كنت أمنحه لذلك الرأسمالي العفن من أجل النقود لعلاج ابنتي، والآن أمنحك جسدي لأني أحبك.

ولكنه يرفض ويقول:

ـ سوف يكون جسدك لي، بعد الزواج.

كانت نهاية القصة مخيّبة للأمل. لقد قتلت المرأة وطفلتها في مظاهرة ضد الاستعمار. ماتت قبل أن يتزوّجا.

ما الذي يجعلها تحمل طفلتها وهي تسير في مظاهرة تعلم أنّ قوّات الشرطة سوف تهاجمها؟

كانت القصة طويلة جداً، ولكننا تابعناها بلهفة. بعد أن أتمها سادت فترة صمت كانت عيون أصدقائي معلّقة بوجه نضال، تحاول أن تقرأه، وتعد نفسها لاستقبال حكمه، والقبول به. ظلّ نضال صامتاً، مسبلاً عينيه، ثم قال، دون أن يوجّه كلامه لأحد:

ـ و . . . و . . . مش بطّالة.

ثم حدّق بخالد وقال:

ـ بس بدي أقول إشي . . اللغة ضعيفة شوية.

قاطعته بحدّة:

ـ لا ، بالعكس الأسلوب جميل جداً، جداً.

لم يكترث بي ، ومضى يقول:

ـ شوفوا، إحنا الماركسيين لازم نعرف اللغة منيح، لأنّه فيه فكرة مغلوطة، إنه إحنا الماركسيين ما بنهتم في اللغة. ومثل ما بعلّمنا الرفيق ستالين أنّ اللغة بناء فوقي . لا. لا . مش بناء فوقي. اللغة مهمة جداً.

قال سمير ، وهو يدقّق النظر في أصابعه :

ـ اللغة ضعيفة .

وهنا اندفع شفيق يقول بحدّة :

ـ إيش هذا ؟ يا أخي ليش تثبيط العزايم . قصة ممتازة ، وبدفع خمسين جنيه للي بعرف يكتب مثلها .

قلت إنني مصر أنّها قصة رائعة . وأنّ اللغة والأسلوب رائعان . ومرّة أخرى تكلّم نضال دون أن يهتم بي :

ـ شوفوا أنا بدي أقول إشي . بلاش نتناقش في مسألة اللغة ، لكن بدي أقول إشي . . . إحنا الماركسيين بنهتم في الظروف الموضوعية . يعني جوزها مات في الحرب . هه ؟ إيش سبب الحرب ؟ مين اللي عمل الحرب ؟ إيش هيه أسباب الحرب الاقتصادية ؟

أجاب خالد ، وقد أصبح صوته نحيلاً :

ـ أنا قلت أخلّيها مش متعلّمة كتير .

قال شفيق بضيق :

ـ شرموطة وبدّك إياها تقرا (رأس المال) .

واندفع سمير يقول بانفعال :

ـ ليش يا أخي ، ليش يعني ، بغايا باريس تلاقي أكثرهن عندهن شهادة دكتوراه .

عدا نضال ، انفجرنا جميعاً ضاحكين . عبس نضال ، وفتح سمير فمه ليضحك ، ولكنه لم يفعل . قال شفيق من خلال ضحكه :

ـ خفّف يا زلمة ، خفّف . خليها بكالوريوس .

قلت :

ـ ماجستير ماشي الحال . .

وأضاف شفيق :

ـ والا ماجستير . بنترجاك يا أخ سمير .

كان سمير مهتاجاً ، فزعق :

ـ كلكوا بتعرفوا ابن العيوش ؟ والله العظيم وشرف ربنا . .

قاطعه شفيق :

ـ صادق من غير حلفان .

واستمر سمير :

ـ إنه قال لي، ابن العيوش إنّه كان بعرف شرموطة في باريس معاها دكتوراه. في إيش يا ربي؟ في إيش؟ آه، تذكرت، معاها دكتوراه من جامعة السوربون في علم التغذية . . . علم التغذية . . .

قال شفيق :

ـ هذا كان يمكن قصدها تغذّيه . كان ناقصه تغذية . زلة كان بوكل خبزه ناشف، قالت له : تعال غمّس .

قال سمير :

ـ اتركونا من المزح .

قال شفيق :

ـ ما بمزح والله . بقول إنت يا أخ سمير لو ربنا يطعمك دكتوره في التغذية، يمكن تربرب مثل العجل . (ثم أخذ يداعب ظهره) عظم مجروم . . لا حول ولا قوّة إلاّ بالله . . .

قال نضال :

ـ يا رفاق . .

ولكن شفيق استمر وهو يداعب ظهر سمير :

ـ كيف أي أخ سمير؟ دكتوره في التغذية؟ من زمان وأنا شايف عندك نقص في التغذية . حمص أبو العبد طلع من عيونّا . اصحى . . بقول لك احرص تستغلها لحالك وتخلّي اخوانك من غير تغذية .

قال نضال :

ـ المزح غلط لما نبحث مسائل مهمة . خلينا ننظم النقاش .

قلت لنفسي إنّه يحاول أن يستعيد مكانته كزعيم بين أتباع تجاهلوه . إنّ معنى تنظيم النقاش، بالنسبة له، هو أن نمتنع جميعاً عن الحديث، ويتكلّم هو وحده . المزاح ليس مجاله للزعامة، فهو ليس من نمط موسى . ولكن الموقف أفلت من بين يديه بسبب

ارتباك سمير، إذ قال:

ـ أنا موافق. لازم ننظم التغذية.

وانفجر الضحك والتعليقات، وسمير يقول:

ـ كنت بدي أقول ننظم النقاش.

فزاد الضحك. قال نضال بحزم:

ـ مش هيك يا رفاق. مش هيك.

هدأ الضحك وواصل نضال:

ـ القصة بدون شك رائعة.

قال سمير:

ـ رائعة.

التفت إليه نضال، وقال:

ـ أرجوك يا رفيق لا تقاطعني. بقول القصة رائعة. لكن لازم نناقش بعض المسائل. كنا بنقول...

وتكلّم كثيراً. (بدا لي أنه تكلّم كثيراً جداً. وأنّه يقول أي كلام لمجرّد أن يتكلّم وأن يرغمنا على الصمت). كان قد تناول سيجارتي المشتعلة، ليشعل سيجارته، واحتفظ بها دون أن يشعل سيجارته، رغم تنبيهي له، ثم أخذ يدخنها. قد يكون فعل ذلك سهواً بسبب استغراقه في الحديث، ولكنني عزوت ذلك إلى سوء النيّة. قلت لنفسي إنّه يشعر لو إنه توقف عن الكلام لحظة واحدة فسوف يفلت الزمام من يده، ويصبح على الهامش. وشعرت أنّه أصبح يخشى شفيق. فلقد كان يتكلّم وهو ينظر إليه كأنه يستأذنه.

ردّاً على ذلك أشعلت سيجارة، وقلت لنضال:

ـ خلّي السيجارة إلك.

ولكنه لم يكن يهتم بهذه المسائل الدنيوية. واصل حديثه وكأنني لم أقل شيئاً يستحق الرد أو الاعتذار. بعد قليل أخذت أتمطّى وأتثاءب، وقلت إنني مرهق جداً، لقد استيقظت مبكّراً.

ابتسم لي نضال وواصل حديثه. كانت ابتسامته مهينة، كأنّه يسكت بها طفلاً

مشاغباً، ولكن ابتسامته كانت جميلة . بعد قليل نظر إلى ساعته ـ كان سمير قد أخذ يتثاءب ـ رسم تكشيرة مندهشة ، وقال :

ـ الساعة ثلاثة . . لازم أمشي .

وانصرف . الساعة الثالثة بعد منتصف الليل؟ لم أسهر أبداً حتى هذا الوقت المتأخّر في حياتي .

أخذ أصدقائي يعدّون الحجرة للنوم ، وخرجت أنا إلى الحوش . تبعني شفيق بعد قليل . قال :

ـ مش نعسان؟

ـ لا .

صمت وأخذ ينظر إلى النجوم التي كنت أتأملها ، ثم قال :

ـ إيش حكايتك إنت ونضال؟ كنتو مثل الديوكة .

قلت :

ـ شخص غريب .

قال : كيف؟

قلت : جاهل ويتكلّم كأنّه آلة .

قال شفيق :

ـ هوه مش هيك دايماً . لكنّك استفزّيته .

قلت :

ـ أنا اللي كنت استفزازي؟

اندهشت حقاً . قال شفيق :

ـ كان مبيّن إنّك بتعامله باحتقار ، لأنّه مش متعلّم مثلك ، ومش مبيّن عليه أنّه من عائلة غنية . يا أخي هوّه إنسان بسيط ، لكنه مناضل .

شعرت بالطعنة التي جعلتني عاجزاً عن الكلام . لم يكن شفيق بهذه القسوة معي من قبل . قلت بتلجلج :

ـ صحيح . بس نضال هوّه اللي ابتدا الاستفزاز .

صمت شفيق . كان صمته أشدّ إيلاماً من كلماته . حاولت أن أقول شيئاً ، ولكنني شعرت أنّ كل كلمة سأضيفها سوف تزيد موقفي ضعفاً . ولكنّه أسعفني بعد قليل ، حين قال :

ـ أنا تضايقت منه ، بيني وبينك ، وحاولت أخلّيه يسكت . لكن إنت كان لازم تكون أكثر مرونة .

وضحك ، وقال :

ـ شفت الاشمئزاز على وجهك وهوه باكل الجاجة .

قلت :

ـ نسي أنّه فيه حدا غيره .

ضحك شفيق وقال :

ـ ما بدّك تنام؟

شعرت فجأة بالإجهاد يحطّ عليّ . دخلنا . دلّني شفيق على فراشي . خلعت ملابسي ، لبست البيجامة ، وتمدّدت في الفراش .

٥

لم يجيء النوم . كان وجودي في حجرة معتمة ، والفراش الذي لم أتعوّده قد جعلني قلقاً . افتقدت السماء ، ومراقبة النجوم . وخلال ذلك ، وعبر مجرى آخر من مجاري الذاكرة كنت أستعيد كلمات شفيق . جمّعت ، بنصف وعي ، دفاعي عن نفسي . من الطريقة التي كان يتنفّس بها سمير علمت أنه مستيقظ ، وحدست تحفّزه للكلام . حاولت تجنّب ذلك . أغمضت عيوني واسترخيت . قلت لنفسي هكذا سوف أنام بسرعة . وجانبي المحاذي لسمير حذر مترقّب . سلطانة؟ هل أراها غداً؟ لم تستجب سلطانة لدعوتي في الانخراط في حلم اليقظة . وجهها جاد ، بعيد . كان حضور سمير قوياً ، وملحاً ، فلم تجيء . أنظر إلى وجهها ، وجه موسى عندما اقترب مني فيه تغضّنات حول عينيه ، عيناه سوداوان لامعتان . . . كان يصغي بانتباه مؤدّب وتركيز عندما يحدّثه أحد :

ـ يا مولانا ، ناس تجّار . ناس منحلين .

صوته منغّم ، وعندما يصمت يصغي بانتباه ، هكذا ، بتركيز وانتباه شديدين عندما تكلّمني سلطانة ، أستمع لها باحترام وانتباه ، وجسدها عندما تقف ، جسد موسى طويل ، بلا انحناءات ، لا كرش ، ولا عجيزة ، كأنّه جسد صبي .

ـ جريس .

لماذا لا يصمت هذا السمير؟ لن أرد . أقول ، ماذا كنت أقول؟ جسد سلطانة : الانحناءات تبرز فجأة عندما تنهض ، عندما تنحني ، عندما تمشي ، عندما تستدير . .

جريس . .

عندما قبّلتها . . . أميرة منشغلة بإعداد العشاء ، وجهها منصرف عنّا ، منصرف عني «إيش فايدة البق؟ يمص دمنا . . » مصّاص الدماء دراكيولا . . .

وهبطت إلى النوم ، ولكن .

ـ جريس . . .

حين أغمضت عينيّ شعرت بدوار ، كأنني أسرفت في الشراب . سمير يتقلّب بجواري مبعداً عنّي النوم . أمّي الآن تنام وحدها على سطح الدكّان ، تسمع خلال نومها بكاء بنات غيث . صرخات الدجاج النائم القصيرة الحادة : قد تصحو على نباح كلب ، أو صياح الديك ، وسوف تفكّر بي ، بأخي هل هو حي أم ميّت ، وبالذين ماتوا . . ثم تصلي : «يا قديسة مريم ، يا والدة الإله ، يا حنونة . . . » ثم تستيقظ تماماً عند الفجر ، حين تهرب الأشباح والمشاريع ذات المقاصد الشريرة ، ترسم إشارة الصليب على وجهها ، تتناول ثوبها من تحت الوسادة ، يختفي في داخله وجهها ويداها ، وكل جسدها داخل الثوب الأسود الواسع ، السابغ ، ثم تنبثق منه يداها من الكمّين ، ثم رأسها ، وتقف فوق الفراش ، كتلة سوداء ، مبهمة في ضوء الفجر الشحيح . صوت رشق الماء على وجهها ، صوت خفق العجين ، صوت حركة الدجاج وهو يخرج من خمّه ، عتمة الدار المخلخلة بضوء أبيض ، لامع ، يمتلئ به الباب ، محدّداً بإطاره المستطيل . بحرف كفها ترسم إشارة الصليب فوق العجين . والقرية تستيقظ من فوق أسطح البيوت : أشباح تنهض من سطوح ساكنة ، وصوت سمير :

ـ جريس نمت؟

أصمت . يقول :

Abu Abdo Al Bagl

ـ وين كنت بتقابل أميرة؟

ـ بعدين، بعدين. نام شويه.

يقول:

ـ ما أنا نعسان.

ـ أنا نعسان.

بعد صمت قصير يهمس:

ـ بعدها بنت؟

ـ لا. صارت زلمة.

قال:

ـ يعني، ما فيه حدا لعب معاها؟

قلت:

ـ ما بعرف. نام.

ـ يا أخي أنا شفتها مرّة. عجيبة يا أخي والله. لما قرّبت منها ما كان فيه ولا شعرة في جسمها، في رجليها يعني . . . ن . . . ا . . . عمـ . . . ـه . . .

ـ آه.

يقول:

ـ لو أنّ أهلها عرفوا عنها بذبحوها؟

ـ ما بعرف.

يصمت وأعتقد أنّه انتهى. أحاول أن أتذكّر بماذا كنت أفكّر: أمي؟ المقابر؟ ويأتي صوته:

ـ بس هاي غلطة ظروفها، ظروفها الاجتماعية والاقتصادية، مش غلطتها. مش هيك.

ـ طبعاً.

يهمس:

ـ ما كنت خايف حدا يشوفك إنت واياها؟

ـ لا .

رفع رأسه واقترب مني وقال :

ـ كانت بتشلح قدّامك ؟ إحكي يا زلمة . كنتوا بتناموا على الأرض؟ بتعرف على الأرض فيها لذّة .

لم أجب . قال :

ـ ما حاولت تنصحها تتوب؟

ـ لا .

ـ ليش؟

ـ لأني ما شفتها غير مرّة واحدة . دقيقتين بس .

قال باستنكار :

ـ دقيقتين؟ وكيف كنت بتقول . . .

قاطعته :

ـ أنا ما قلت إنت اللي كنت بتقول . اسكت خلّيني أنام .

٦

عندما استيقظت رأيت أقدامهم تتحرّك . أغمضت عينيّ . صوت وابور الكاز أصبح له إيقاع أغنية . وعدت إلى النوم . سمعت الباب يغلق وأنا نائم ، وأصدقائي يغادرون الحجرة .

كان المكان غريباً . كنت في القرية بالطبع . ولكن هذا السطح الواسع المرشوش بالماء والمصابيح الكهربائية ، وأغنية تذاع من راديو غير مرئي . أسمع أصواتاً غير مميّزة ، ولكنني لا أرى أحداً . أنادي :

ـ شاي يا إسماعيل .

ربما جاء بالشاي قبل أن أطلبه ، أو جاء به بعد أن ناديته ، أدخله دون أراه . صفّقت بيديّ وناديت .

ـ شاي لسلطانة يا إسماعيل .

سمعت ضحكة نسائية بجواري. التفت لأرى امرأة تلبس الثياب القروية السوداء، تغطي وجهها بردن ثوبها الواسع، وتدير لي ظهرها. ملت نحوها وهمست:

ـ سلطانة.

أغرقت في الضحك وكنت خائفاً أن ألمسها. كانت الأصوات غير المرئية تتصاعد. أحدها ـ استطعت أن أميّزه ـ كان بوق سيارة. همست بإلحاح:

ـ سلطانة.

استدار الوجه نحوي. كان وجه طعمه.

ثم رأيت نفسي أسيرفي حقل. الوقت ربيع، والأزهار حمراء، زرقاء، ورديّة، بيضاء لها نواة صفراء بلون التبغ النقي الأشقر، بنفسجية. توقفت عند الزهرة البنفسجية وأخذت أتأمّلها. كان اسمها (سراج الغولة). نظرت إلى الحقل حولي. كان ساكناً، وكبيراً، وشمس دافئة، ناعمة تغمره.

لم يكن المشهد بريئاً. أعني كان مسكوناً. أحسست به يتحرّك على نحو غير مرئي، حركة غير ملحوظة. كأنّ نسمة تتسلّل بين سوق الأزهار، نسمة تحتية فتجعلها ترتعش ارتعاشات طفيفة. يشبه ذلك أن يكون هنالك من يزغزغها، فتكتم ضحكها. كان هناك صوت يشرح، صوت طعمة يقول:

ـ هلق، عمّالها بتتنفّس.

وكان ذلك صحيحاً. الحقل يتنفّس، ولكنه تنفّس النائم. سمعته يقول:

ـ يتخلل عالم النبات، وينبض.

كنت أعلم أنه يتحدّث عن سلطانة. قلت:

ـ طبعاً، سلطانة...

يتكلّم بأسلوبه التعليمي، الحار، المفتعل قليلاً:

ـ قوانين الجدل...

قلت:

ـ سلطانة؟

فجأة اكتشفت مصدر الصوت: الرجل. كان طعمة يتمدّد بثوبه النسائي بين

الأزهار: نهض. قال وهو ينهض:

ـ سلطانة تتشكّل.

وأخذ بسبابة اليد اليمنى، تلك السبابة القصيرة السمينة، يشير إلى أزهار سراج الغولة البنفسجية. قال:

ـ تطلع. هذا هو الساق الأيمن، وهذا الساق الأيسر، وبينهما طابة صغيرة، البطن...

ومضى يشرح. وأمام عينيّ يتشكّل ـ وكأنه يستجيب لكلمات طعمة ـ جسد امرأة، مرسوماً بأزهار سراج الغولة. مدّ يده عبر ردفه النسائي وأمسك زهرة من الزهرات البنفسجية. صرخت:

ـ ابعد إيدك.

وأراني إصبعه. كان ملوّثاً بالدم. وسمعت أنّة متألمة. كان يقول شيئاً ما، يتصل بشروحه الطويلة... ثم أصبحت أنا وسلطانة وحدنا، نسير في حقل الزهور. كنت أمسك يدها. قلت لنفسي: «هذه فرصتي. إنني في حلم.» وضممتها إليّ. كانت تقاومني، وأنا أحاول أن أسقطها على الأرض. قالت:

ـ اتركني. الناس رايح يشوفونا.

قلت:

ـ ما فيها شي. إحنا بنحلم.

وفجأة دفعتني بقوة غير متوقعة. سقطت على ظهري، ووقفت تطل عليّ. لم تكن سلطانة.. كان طعمة. كان غاضباً. فمه يمتد كخطّ مستقيم، وأنفه منتفخ. وعيناه تبرقان. قال بإيقاع بطيء، غاضب حدّ الاختناق:

ـ البورجوازية لـمّا تشعر أنّ نهايتها قريبة ومحتومة...

قاطعته صارخاً:

ـ مش وهيه بتحلم.

واستيقظت.

كنت أحلم حلماً غريباً، ولكنني عجزت عن تذكّره. استيقظت بنشاط، وشعور بالذنب. لقد تأخرت. عن ماذا؟ لم أكن أعرف. وقفت تحت الدوش. تركته يغرقني.

انبعثت ذكرى ـ ذكرى؟ أم حلم؟ ـ كنت في البحر. البحر بدا على سطح بناية، وهنالك ورود، ونساء. لم يكن مشهداً، ولكن فرحاً لا مثيل له، يبحث عن تجليّاته. أين كان ذلك؟ ربما كان في حيفا، فوق جبل الكرمل. وأنا أرى تحتي ممتداً المدينة، والميناء، والبحر.

جففت جسدي. وأخذت أرتدي ملابسي، وأنا أنظر خلال الباب الذي فتحته. رأيت امرأة تلبس ثوباً أزرق، وتتكىء بمرفقيها على حاجز الشرفة. كانت بعيدة، فلم أستطع تمييز ملامحها. جعلتها بيضاء ممتلئة، بشعر أشقر، مرتدية قميص نوم أزرق، يكشف عن النحر النقي، وأعلى الثديين، والشق الفاصل بينهما(١). ثم تقمّصتها؛ اتخذت مكانها، وزاوية نظرها: ترى حجرة معتمة، في المنطقة البائسة التي تنحدر من جبل عمّان إلى حارة المهاجرين. وإذا دقّقت النظر أكثر فسوف ترى شبحاً يتحرّك. سوف تكون رؤيتها له موسومة بسوء النيّة التي يحملها الحي الغني للحي الفقير.

ـ «أهو لص يراقب بيتنا ليسرقه؟».

ـ «أهي مومس ضاجعت العديد من الزبائن في الليلة الفائتة حتى وقت متأخر، وهي الآن تستعد لتبحث عن صيد جديد؟».

ـ «أهو قروي قادم من أعماق الريف جاء ليبحث عن عمل يأكل منه؟».

أسرعت في ارتداء ملابسي. كنت أودّ أن أتخلّص من هذه الثنائية التي أعانيها: المراقب المتعالي، والشيء المراقب. ولكن خروجي من البيت لم ينقذني. سرت بإحساس الفضيحة التي يستثيرها سوء نيّة آخر مصمت، غير قابل للمناقشة والإقناع. سرت محمّلاً بعبء عار قروي.

التفت خلفي. اختفت المرأة. امتلكت حريتي مرّة أخرى إلى حد ما. ما زلت أعيش شعور المراقب.

مرّة أخرى أرى عمّان مدينة جديدة. كنت فرحاً بمحاولة تأكيد انتمائي إليها، بمحاولتي الدائبة أن أنتصر على كبريائها، على سوء نيّتها، وأجعلها تعاملني بنديّة.

(١) لم أكن أدرك آنذاك أنّ العناصر التي أبنيها منها مستعارة من تلك المرأة التي كنا نراها من شباك القسم الداخلي وهي تحمل العجين إلى الفرن. حتى الوضع لم يكن وضع إنسان يرى آخر يقف في مكان أعلى منه، بل يطل عليه من فوق.

هذا البيت الواقع غربي مدرسة المطران. لم أغب إلاّ شهرين عنه ولكن أشجار حديقته كبرت، أوراق الشجر التي كانت خضراء فاتحة اللون، تكاد تكون شفّافة، أصبحت داكنة الخضرة. أين العجوز التي كانت تجلس على الشرفة في مثل هذا الوقت كل يوم؟ كل شخص يمرّ كانت ترفع قامتها من خلف حاجز الشرفة، وتنظر إليه بعين عانس حاقدة. الأنف الحاد، الذي تملؤه بالتجعدات حين تراقب السائر في الشارع، هو الذي كان يوحي لي بالحقد الذي يملأ قلبها. ماذا حدث لها خلال هذين الشهرين؟ هل ماتت؟

ها هو القروي الذي فتح دكاناً، واستقر في عمّان. من الواضح أنّه لا يسعى إلى الانتماء إليها، فهو لم يبدّل ملابسه القروية: القمباز، والكوفية، والعقال، والذقن غير المحلوقة.

ـ صباح الخير يا أبو محمد.

يندهش. يدقّق فيّ النظر. يقول:

ـ صباح الخير يا أستاذ.

ـ كيف صحتك؟

ينهض. تضطرب ملابسه. يصافحني. طلبت منه علبة سجاير جولدستار. ناولني إيّاها وأمسك بالنقود، وقال:

ـ وين اليوم؟

ـ رايح للجامعة في بيروت.

ـ خلّصت؟ طيّب موفق إن شا الله.

قلت:

ـ شكراً.

وانصرفت.

أبطىء سيري. هل أراها، تلك البنت الأرمنية؟ أرى الحديقة، والبيت الذي من طابق واحد. نباتات متسلّقة تغطّي السور. أشجار مشمش ولوز في الحديقة. لا حركة في البيت. رأيتها مرّة تصعد ببطء من وراء السور. شعرها أشقر أولاً، عيناها الزرقاوان على سعتهما مفتوحتان. تزدادان اتساعاً وهي تنظر إليّ. ماذا تريد أن تقول؟

هل هي تدعوني ؟ تناديني : أنا لك . لا أحد في البيت . ادخل؟ هل هي تحذّرني؟ في ذلك اليوم نفسه ـ وقد كنت في دوّامة ـ ذهبت إلى سوق البخارية ، واشتريت لها زجاجة عطر بثمانية قروش . مررت العصر . اقتربت كثيراً من السور . كانت واقفة . مددت يدي بالهدية . قلت :

ـ خذي .

كنت أرتعش ، وأعرق بجنون ، وحلقي جاف . اندهشت البنت حقيقة . دققت النظر فيّ ـ كأنها لم ترني من قبل ، لم تصعد من خلف السور ، وعيناها تتسعان حتى كادتا تحتويان وجهها كلّه ـ ودقّقت النظر في الزجاجة الصغيرة جداً . ضاقت ، هذه المرّة ، عيناها ، حتى أصبحتا شقّين في وجهها العسلي اللون المشرّب بالحمرة ، ومالت :

ـ إيش؟

ملعون هذا الصوت الذي يخونني في مثل هذه اللحظات . وكذلك يدي التي كانت ترتعش . كان فمي جافاً ، ولم يكن بإمكاني ، مهما جاهدت ، أن أجعل صوتي يخرج ، وهي تلحّ :

ـ إيش؟

ـ بغضب ونفاد صبر ، وصوتي لا يخرج ، ولكن هنالك سؤالاً موجهاً إليّ ، ولا بد من الإجابة عليه . قلت :

ـ هـ . . هد . . . . .

كنت أريد أن أقول : هديّة .

قالت بعصبية :

ـ أنت أطرش؟

كم كانت قاسية!

لم أقل شيئاً . مدّت سبابتها :

ـ روح . . امشي . شايفه؟

قالت ذلك بلكنة أجنبية منفّرة . قلت :

ـ مين؟

ومددت يدي بالهدية. كانت يدي ترتعش، وزجاجة العطر مبللة بالعرق، فزعقت البنت دون لكنة:

- روح قطيعة تقطعك وتقطع أهلك.

كان لها ثديان كبيران. بدوا صلبين وشامخين. انصرفت مسرعاً، وأنا أنظر حولي، خوفاً أن يكون أحد قد رآني. لم يكن ذلك أقسى ما فعلت. التفتّ إليها. رأيت ذراعها ممتدة نحوي، وسبابتها تشير إليّ وهي مستغرقة في ضحك يكاد يكون هستيرياً. من الواضح أنها كانت تكلّم أحداً، تصف له ما حدث: والصبي المضحك الذي فعل ذلك، ها هو هناك. لم يكن هنالك معنى آخر لضحكها وإشارتها الغريبة.

وقفت في المحطة التي يقف فيها الباص. وأخذت أراقب بيتها. كان ساكناً تماماً كأن أهله أموات. جاء الباص. صعدت إليه، وهبطت في الرصيف المقابل لمقهى وادي النيل. اجتزت الشارع ودخلت المقهى.

كان المقهى خالياً من الزبائن، عدا فتاة - تصوّرتها أمريكية - تتصفّح مجلة أزياء الأغلب أنها فرنسية. رمقتني الفتاة بنظرة سريعة. لم يعبّر وجهها عن استياء أو غضب عندما التقت عيوننا. تأملتني بوجه مؤدب، محايد؛ وعندما أبعدت عينيّ عنها وجلست عادت تقرأ في مجلّتها. كانت تقرأ فيها باستغراق، ولم ألاحظ عليها توتّر من يشعر أنه مراقب.

جاء الجرسون وقال:

- وين الجماعة؟

قلت:

- في الشغل.

وطلبت قهوة فرنسية بالحليب. ثم أخذت أتأمّل الفتاة. بين آن وآخر كانت ترفع رأسها وتنظر إلي، وعلى وجهها طيف ابتسامة، تبعث الآمال، ولا تشجّع على الإقدام. لم تكن تبدو جميلة في البداية. كانت طويلة الأطراف ونحيلة. ذراعاها معروقتان، وعلى المعصم وظاهر اليد تبدو شرايين بارزة، فاتحة الزرقة، كما أنّها كانت تفرك أنفها بين الآن والآخر. وشعرها فاتح الشقرة كاد أن يكون أبيض.

مع استمرار التأمّل والرغبة الجامحة، التي تعبّر عن نفسها بخجل وخوف، أعدت بناء المكان وصياغة الفتاة. عشتهما في لحظتين متباعدتين: لحظة الوجود الحقيقي،

Abdul Abdo Al Bagi

ولحظة مشهد سينمائي أمريكي. اللحظة الثانية أكسبتني حريّة في التخيّل. بدا الجرسون والمارة الممثلون لمجتمع مقموع محايدين. وأخذت الفتاة تكتسب الملامح المغوية لممثلة أمريكية تجلس وحيدة في بار. الآن تصبح ممكنة في حلم يقظة عناصره الحركة البارعة، الواثقة، العنف والجنس.

أوقف حلم اليقظة نظرة الجرسون الثابتة. تذكّرت المطاعم التي كنت أدخلها وأنا صبي. كنت أخاف من الجرسون ـ أن يأخذ نقودي دون أن يأتي لي بالطعام، أن يقرعني لأن ملابسي لا تليق، أن يضربني لأنني أتناول الطعام دون معرفة بأصول من المفروض أن أعرفها . . . خطر لي أنّ الجرسون قد ضجر مني لأن هذه هي المرّة الثالثة التي أدخل فيها المقهى خلال أقل من عشرين ساعة. عاودت تذكير نفسي أنني كبير الآن، لم أعد أخاف من خدم المطاعم، بل أوجه إليهم الأوامر، وأنّه ليس من شأنهم أن يغضبوا لدخول المقهى أكثر من مرّة في اليوم، وأنّ الجرسون مهموم لقلة عدد الزبائن، لا لكثرتهم.

أصبحت متماسكاً، ولكنني أضعت حلم اليقظة والفتاة الأمريكية، شعرت بفراغ وضجر حقيقيين. فتحت رواية (مدام بوفاري) وواصلت القراءة. كانت مدام بوفاري تخلع الكورسيه ومشد الصدر، تتعرّى تماماً بسرعة ولهفة، ثم تندفع نحو عشيقها الذي يتمدّد على السرير. ولكنها، مهما فعلت، لم تكن تشعر بالاكتفاء أبداً. ثم انقطع عشيقها عن لقائها. كان خائفاً طيلة الوقت الذي يكون فيه معها. كما أنّ أمّه قد سمعت الشائعات التي تقول إن ابنها على علاقة ـ علاقة جسدية ـ بامرأة متزوجة. فأمرت ابنها أن يمتنع عن لقاء المرأة الجميلة، فأطاع. فكّرت وقرّرت: أمي لن تستطيع أن تمنعني من لقاء امرأة مثل مدام بوفاري.

بعد قليل دخل المقهى رجل وامرأة. كان الرجل يرتدي بذلة أنيقة من طراز قديم، كويت بعناية، له وجه طويل، رقيق الملامح. يضع على رأسه كوفية بيضاء من الحرير، تدلّت من أطرافها خيوط تنتهي بكتل بيضاء صغيرة. أعتقد أنّ هذا هو السبب الذي جعل القرويين يسمونها (حطة بلابل)، لأنّ تلك الكتل البيضاء تشبه ذلك المخروط الخشبي ذو الرأس الحديدية المدبّبة، والذي كنا نلفه بخيط ونلقيه فيدور طويلاً حول نفسه مرتكزاً على الرأس المعدني. كنا نسميه بلبلاً. فوق الكوفية كان يضع عقالاً أسود رفيعاً. أما المرأة فقد كانت ريفية، تلبس ثوباً أحمر واسعاً جداً، وطويلاً يصل إلى

حذائها، وله ياقة تخفي رقبتها. وكانت تلبس فوقه جبّة الفلاحات: خضراء، دون إزار، واسعة الأكمام، لها زيق مطرّز من خيوط سوداء، زيق يدور حول أطرافها، وطرفيّ الكمّين. أرخت شعرها بجديلتين، تستقران على صدرها، وشعرها من الأعلى كان مضغوطاً. فبدا أنفها كبيراً. كان لها يدان كبيرتان، خشنتان.

كانت المرأة تمانع في دخول المقهى، تقول:

ـ وروح المرحوم بلاش نخسّرك.

وظلّت تقاوم حتى عندما أصبحا في منتصف المقهى. كان الرجل يجذب يدها بعصبية، ووجهه يتفصّد عرقاً، وقد ارتفع جانبا أنفه، فأصبحا على شكل زاويتين منفرجتين. كان يقول بفحيح غاضب:

ـ بلاش تفضحينا يا آدمية.

كم كان غاضباً ويعاني. وكانت المرأة خجلة، محرجة، وجهها قرمزي، وتقول من خلال ضحكها المرتبك:

ـ بلاش الخسارة.

وتحاول أن تفلت يدها من يده، متوجهة بجسدها الطويل نحو باب المقهى. كان الرجل الذي يرافقها قصيراً، نحيلاً، لا ترتفع قمّة رأسه عن كتفها إلاّ ببضع سنتيمترات.

أحدث الجرسون ضجّة، وهو يعيد وضع الكراسي حول أقرب الموائد إليّ، ويقف أمامهما، ويقول:

ـ شرّفوا.. أهلاً وسهلاً.

الأغلب أنّه كان يود أن ينهي هذا الموقف الكوميدي والمؤلم معاً. تمتمت المرأة بلهجة أهل جنوب الأردن. وهي تحني رأسها:

ـ بتعزم على دارأبوك. نفسك طيّبة.

كانت الفتاة الأمريكية، خلال هذا المشهد، قد وضعت المجلة أمامها على المائدة، وأخذت تنظر مباشرة إلى المرأة القروية ورفيقها. التقت عيناي بعينيها، وابتسمت لها. رفّت أجفانها عدّة مرات، وابتسمت ابتسامة صغيرة مؤدبة. ثم أمسكت المجلّة، وأخذت تقلّب أوراقها. وبين الحين والآخر كانت تلقي نظرة سريعة إلى الرجل والمرأة

Abou Abdo Al Bagl

ـ بعد أن جلسا ـ وتمر على وجهي بسرعة، كأنني جزء من المشهد، ثم تعود إلى مجلّتها.

كان الرجل يجلس واضعاً كوعيه فوق المائدة، ضاغطاً بكفيه على خديه، وقد أسبل جفنيه وصمت. لاحظت أنّه، تحت المائدة، يضع قدماً فوق قدم، وأنّ قدمه العليا تهتز بسرعة كبيرة. كانت المرأة تحني ظهرها وتهمس للرجل، وهو لا يستجيب حتى بالتفاتة. رفعت المرأة قامتها ونظرت إلى الفتاة الأمريكية، قالت:

ـ قاعدة من حالها.

ولما لم يجب الرجل قالت:

ـ أجنبية.

ثم تنهّدت، ووضعت كفيها على المائدة كأنها تتأهّب للنهوض، اجتذبتني هاتان اليدان: يدا فلاحة مارست الكنس خلف الدواب، ولصق روث البقر على الجدران، لتجفيفه واستعماله كوقود، يدان أمسكتا بالفأس، والمجرفة، والكوريك، أصابعهما غليظة، وغير مستقيمة. يدا أم وزوجة، يدا امرأة قوية. أخذت تسترضي الرجل:

ـ يا خويي. أنا قلت بلاش أخسّرك.

فرد الرجل بفحيح وعيناه مسبتلان:

ـ فضيحة كانت ، فضيحة.

قالت المرأة:

ـ بعد الشر يا خوي.

ثم رمقتني المرأة بنظرة عدائية، وحدّقت قليلاً في الكتاب الذي أقرأه. ثم أدارت وجهها عني وهي تتنهّد، كأنها تشكو أمري لله. تقدّم الجرسون من مائدتهما وأخذ ينظفها بخرقة مبلولة وعندما انتهى ألقى نظرة سريعة على المرأة، ثم اقترب من الرجل وقال:

ـ نعم؟

قال الرجل:

ـ اثنين شاي بالحليب.

حاولت المرأة أن تعترض فرمقها الرجل بنظرة رهيبة. فصمتت. لاحظت أنّ المرأة

تضع روجاً على وجنتيها وخدّيها. من الواضح أنها غير خبيرة بمثل هذه الأمور. بحق الله ما الذي يجعلها تفعل شيئاً كهذا! وفكّرت ببشاعة هذا الانتزاع القسري لهذه المرأة من محيطها، وكيف أنها لو كانت في القرية، تلبس ثوبها القروي، بين أهلها، وفي سياق حياتها اليومية، ولم تضع على خدّيها هذا الروج المضحك الذي أضفى على وجهها ملامح مهرّج السيرك، ولا هذه التسريحة القبيحة لشعرها، لبدت جميلة، وذكيّة، ومحبوبة. وانصرفت نقمتي إلى هذا الرجل الذي عاملها بكل هذه القسوة لأنها لا تعرف أصول التعامل والسلوك في هذه المدينة الخاوية ـ على الأقل خاوية بالنسبة له.

وجّه إليّ الرجل نظرة صاعقة، فبادلته النظر، وحاولت أن أنقل خلاله كل احتجاجي على ضيق أفقه وسوء معاملته للمرأة. اضطر الرجل في نهاية الأمر أن يسبل جفنيه. عدت إلى الرواية. مدام بوفاري تعاني من الضجر. تنتظر أن يحدث شيء فلا يحدث. توقفت وأخذت أصغي للحديث الدائر بجواري. لم أرفع رأسي حتى لا أشعرهما ـ الرجل والمرأة ـ أنني أصغي.

قالت المرأة:

ـ آخر باص الساعة ثنتين.

لم يرد الرجل. مرّت فترة صمت، ثم قال الرجل:

ـ لو ضربني واحد في سكين ولا عملتك اليوم.

شعرت أنّ المرأة قد سئمت هذه الشكوى التي لا تنتهي. كانت المرأة تسترق النظر إلى الفتاة الأمريكية، فقالت دون حماس:

ـ ابعد يا شر. سلامتك يا خوي.

يبدو أنّ الرجل فوجىء بالبرود الذي ردّت به، فرفع رأسه وأخذ يحدّق فيها، وقال:

ـ الله لا يسلمني. أنا جبت لنفسي فضيحة.

لم تعد المرأة تنظر إلى الفتاة الأمريكية. تنهّدت وأخذت تنظر إلى يديها. لم ترد. ومرّت فترة صمت. كان الرجل ينظر إلى المرأة وهي تحني رأسها وتتأمل يديها. تثاءبت، وغطّت فمها بكفها وقالت:

ـ يا رب سترك.

ثم قالت للرجل:

ـ يا الله، حتى ألحق الباص.

نظر الرجل إلى ساعته وقال:

ـ لما أدفع الحساب.

قالت المرأة:

ـ تركت الأغراض في الكاراج.

ناديت الجرسون وسألته إن كان يوجد تليفون في المقهى. فقال:

ـ طبعاً.

حين ردّ السنترال طلبت رقم سلطانة. فأجابني صوتها. لم أكن أتوقع أن تكون قد وصلت. صرخت بصوتها الثري خلال ضحكة أطلقتها:

ـ جريس؟

قلت:

ـ كيف عرفت؟

قالت:

ـ عرفت صوتك.

ثم قالت:

ـ بنظّف في البيت. كلني تراب.

قلت:

ـ يعني...

فقاطعتني:

ـ هلأ. تعال عاون أختك، وحديها...

ـ جاي.

دفعت الحساب ومضيت.

خلال الطريق إلى بيتها كنت أفكّر: إنها وحدها.

Abu Abdo Al Bagl

١

لم أركب سيارة أجرة، لأنني أردت أن أتجنّب لفت الأنظار إليّ. أنظار من؟ لم أكن أعرف، ولكنني عندما أقترب من المرأة، في هذه المدينة، فالخوف حاضر على الدوام. العنوان الذي أعطاني إياه مسعد كان في جبل اللويبدة. وهو من الجبال التي بدأ فيها البناء حديثاً - ربما في أواسط الأربعينات - أي حين ارتفعت أسعار أرض البناء. وعندما أخذت أمانة العاصمة تدرك - مؤخراً جداً - أنّ المدن لا تقوم بأن يقيم أي إنسان بيتاً أينما يشاء، وكيفما يشاء، بل لا بدّ من حد أدنى من التخطيط في هندسة المدينة. لعل هذه كلها بعض الأسباب التي جعلت جبل اللويبدة واحداً من أكثر جبال عمّان دقة في التنظيم، وأناقة في البناء. إنّه جبل ليس فيه مكان للفقراء.

بيت سلطانة كان في منطقة حديثة من الجبل، تلك المنطقة التي تقع إلى الغرب من كلية تيراسانتا. كان ذلك الجزء من الجبل أجرد، عارياً من الخضرة، يتكوّن معظمه من صخور كلسية. من المدهش حقاً أن يتم تسوية هذه الأرض، فتصبح فللاً أنيقة، محاطة بالشجر، وبأحواض الورد. (كان الورد الجوري هو أكثر انتشاراً في حدائق الطبقة الجديدة الصاعدة، في حين كانت النباتات المتسلّقة، والعطرية، وعبّاد الشمس، وأحواض البقدونس والنعناع الأخضر الأكثر استعمالاً في البيوت القديمة للطبقات المتوسطة والفقيرة).

في هذه الفترة بالذات بدأ الذوق الأمريكي - في الضواحي والمدن الأمريكية الصغيرة - يغزو المناطق الجديدة في عمّان، البيوت المتباعدة، التي تفصلها الحدائق المسوّرة البالغة الأناقة... والغريب أنّ أهالي عمّان، حين كانوا يفعلون ذلك كانوا يعتقدون أنّهم يقلّدون النمط الإنجليزي في البناء.

أحسست أنّ أهم ما فقدته عمّان، في هذا التقليد للنمط الأمريكي، هو تلك الألفة التي كانت طابع الأحياء القديمة نسبياً، وتلك الشوارع الضيّقة التي كانت تقي

المارة من صهد الشمس، والبرودة في الشتاء، لعنة الأوتوسترادات الواسعة ، المكشوفة لعوامل الجو دون وقاية، وتلك العزلة التي تعيشها البيوت المتجاورة. كانت عزلة تفتقد وجهها الإيجابي ـ أعني الحياة الخاصة . فالعزلة عن الجيران، كان يقابلها انفتاح مرهق للعلاقات العائلية والقبلية.

٢

كان العثور على البيت أكثر صعوبة مما قدرت. تصوّرت أنني بمجرّد أن أتجاوز كليّة تيراسانتا بقليل سوف أجد البيت بسهولة. ولكن عدداً من البيوت التي ينطبق عليها الوصف الذي ذكره لي مسعد إمّا كانت خالية أو خرج منها أناس تطلّعوا إليّ باسترابة، وأغلقوا الباب بسرعة.

الخطأ الذي وقعت فيه كان بسبب أن مسعد لم يقل إنّ البيت ليس على الشارع مباشرة. بل كان خلف البيت الثالث على يميني. كان بيتاً كبيراً، ولكنني شعرت أنّه أقرب في مظهره إلى بيوت القرية، منه إلى بيوت هذا الجبل الأنيق. ربما كان سبب هذا الانطباع هو السور المحيط بالبيت، الذي يشبه أسوار بيوت القرية: أحجار صغيرة، غير مشذّبة، قد صفّت دون انتظام، ودون إسمنت. أو ربما كان ذلك بسبب الأعمدة الحديدية الطولية المستديرة، الموضوعة بشكل عامودي في الشبّاك، وتلك القطع المستطيلة العريضة التي تتقاطع معها.

عندما اجتزت السور، الذي كان بلا باب، رأيت باب البيت مفتوحاً، وسلطانة تقف في الداخل. كانت ترتدي ثوباً زهري اللون، يكشف عن نحرها، وقد طوت كميه فبدا ذراعاها عاريين. كما كانت تلف قطعة من القماش الأحمر تخفي به شعرها. كانت تضع يديها على خصريها، وتميل برأسها إلى اليمين، وهي تبتسم ابتسامة معاتبة، غريبة عليها.

قالت. وهي ما تزال واقفة في الداخل:

ـ ضعت يا خوي؟

وضحكت بتلك الطلاقة التي تميّز الضحكة التلقائية. كانت تنظر إليّ بعينين مشعّتين ـ ضحكاً أم عشقاً؟ ـ وقالت بنبرة آمرة، مرحة، وهي تضم ثوبها من

الخصرين، وتجمعه بيد واحدة على بطنها:

ـ تفضل، ادخل، خجلان؟

وعندما دخلت، ومددت يدي، أمسكت يدي الممدودة بيدها اليسرى، واحتوتها في يدها الكبيرة، ومالت نحوي وقبّلتني على خدي:

ـ العوافي يا جريس.

كان ذلك مخيّباً لتوقّعي، إذ كانت الصورة التي في خيالي أن نحتضن بعضنا، ونمارس الجنس على الفور. هذا لا يعني أنني كنت أفضّل أن تسير الأمور على هذا النحو. كان ذلك يخيفني قليلاً، ويثير إحساساً بالذنب لديّ. وأخذت تنظر إليّ بعينيها الغريبتين. قلت:

ـ إيش هذا اللي على راسك؟

ضحكت كثيراً، وأمسكت بكتفي، كأن الضحك سوف يجعلها تقع إن لم تتكىء عليّ. قالت:

ـ قول، أولاً، كيف حالك يا سلطانة، قول: الحمد لله على السلامة، متى وصلت؟

وحاولت تقليد صوتي:

ـ إيش هذا اللي لافّه راسك فيه يا سلطانة.

أمسكت بيدها التي تتكئ بها على كتفي، وقبّلتها. قالت:

ـ مش نظيفة يا جريس.

نظرت إلى اليد. رأيت جرحاً صغيراً، أحمر في الجزء من خنصرها. لم تكن حمرته حمرة جرح جاف، بل جرح ينزف. أحسست فجأة بالدوار، بأنني في عالم غير حقيقي. تذكّرت على الفور حلم البارحة.

ـ جريس!

كان صوتها ملهوفاً. تذكّرت كيف كانت تنبثق وتتشكل من زهور بنفسجية، وطعمة يقطف إحداها، والدم يلوّث أصابعه السمينة، ونظرت إلى الجرح لأرى إن كان سوف يبوح لي بسر هذا اللغز.

ـ جريس. مالك يا حبيبي؟

قلت :

ـ سلطانة حبيبتي ، تعالي نقعد .

ـ مالك؟

ـ قبّلت جبينها ، وقلت :

ـ شفت الجرح مبارح في الحلم .

يبدو أنها لم تسمع كلماتي بوضوح . قالت :

ـ قلت مريض؟

لفّت ذراعها حول خصري وقادتني إلى كنبة ، وجلست بجواري . وضعت رأسي على كتفها . الرغبة في البوح كانت أشبه بدافع للبكاء لا يقاوم . صمتت ويدها تمسح العرق عن وجهي . أحسست بسلام داخلي . وأخذت أتأمّل عينيها المذهلتين . كان لبياضهما لمسة أنيقة من اللون الرمادي الخفيف . والجزء العسلي منهما كان سائلاً ، أشبه بعسل مشع ، أوضوء عسلي سائل .

قالت :

ـ مالك؟

قلت :

ـ عيونك أجمل عيون في الدنيا .

قالت :

ـ يا كذّاب .

قلت بحرارة :

ـ والله مش كذّاب! والله مش كذّاب! والله مش كذّاب!

أضفت :

ـ خليني أشوف الجرح .

مدّت يدها . لم تكن هناك . قلت :

ـ إيدك التانية .

ورأيته . قبّلته . قالت :

Abu Abdo Al Bagl

ـ أمرك عجيب غريب .

وحكيت لها الحلم الذي رأيته البارحة . كانت تصغي بذلك الاستغراق والخوف الذي يكون على وجه طفل يسمع حكاية مشوّقة . لاحظت أنّ تنفسها ازداد عمقاً . عندما انتهيت ، قالت :

ـ مين طعمة؟

أحسست بفزع ، وللحظة ، حدست أنها تعرف طعمة . تحدّثت لها عنه . الحلم جعلني أكرهه بشكل حقيقي . صمتت . تاهت عيناها ، ويدها تداعب شعري ، ابتعدت عني .

قلت لنفسي : إنها نسيتني . وبتوارد غريب قالت :

ـ جريس ، انساني .

قلت مفزوعاً :

ـ ليش؟

أخذت تقبّلني ، وهي تقول :

ـ انساني ، انساني ، انساني يا جريس .

كان في صوتها دموع .

انتهى هذا الموقف الميلودرامي بأسرع وأيسر مما كنت أتصوّر . قالت فجأة :

ـ وبعدين معاك؟

كان التغيّر في نبرة الصوت والمزاج واضحين . التفتُ إليها فرأيت تعبير طفلة مشاغبة على وجهها ، قلت :

ـ إيش؟

قالت :

ـ فيه واحدة بتقعد مع حبيبها وهيه كلها تراب وعرق . .

قلت :

ـ فيه .

ـ مين؟

ـ إنتِ .

Abu Abdo Al Bagl

ضحكت.

ـ رايحة أقوم أتحمّم، أولاً، بعدين نتغدّى، رايحة أموت من الجوع.

قلت:

ـ وتنظيف البيت؟

قالت:

ـ خلّصته تقريباً. ظال شويه أميرة بتخلّصه.

وقفت، ثم التفتت إليّ:

ـ ما سألت عن أميرة؟

ـ لا.

قالت بنبرة حزينة:

ـ ليش؟

قلت:

ـ ما سألت عن شيء.

وانصرفت.

جلست وحدي والعديد من الأسئلة تلحّ عليّ: متى؟ وأين؟ وكيف؟ تعلّمت أن تتكلّم بهذا التأنق والذكاء، وأن تغازل، وأن تقرّر كل شيء للطرف الآخر؟ هنا كلمات وتعابير وأسلوب في التعامل لا يمكن أن يكون مصدرها القرية. ثم خطر لي. وانغرس في قلبي كطعنة: إنها تعرف طعمة؟ قالت: «طعمة؟» وكأنها تريد أن تقول «أنت أيضاً تعرفه؟» وكأنني ارتكبت خطأ ما. لم أسألها متى جاءت، وكيف؟ لا بد أنّ هزيم جاء بها في الشاحنة، وأميرة معها. ومن الواضح أن أثاث حجرة الجلوس في القرية قد جيء به أيضاً.

أخذت أتمشّى في الصالون الكبير. في الطرف الآخر باب زجاجي، مفروض أن يؤدي إلى حديقة لم توجد بعد. كان هنالك درجات من الحجر المشذّب تهبط إلى الحديقة. في صدر الصالون بوفيه، لها بابان من تحت، ثم واجهات زجاجية من فوق. كانت ثقيلة المظهر، مدهونة بلون بني غامق. ثم مائدة مستديرة عارية، وحولها عدد من الكراسي. يفترض أنها لتناول الطعام.

كان ذلك الجزء الخلفي من الصالون. ولكن أين أميرة؟ الساعة الآن الواحدة والنصف. لا يمكن أن تكون قد جاءت قبل التاسعة. وها هي قد غادرت البيت بمجرّد وصولها، وتركت أمها تنظّفه. أين ذهبت؟

الجدران مدهونة بلون زهري فاتح. من المؤكّد أنّه ليس مدهوناً بالزيت، فأنا أعرف هذا الحرص القروي. ولكن الغريب حقاً هو هذه اللوحات ـ نسخ عنها ـ المعلّقة بوفرة على الجدران، موضوعة في إطارات كبيرة الحجم، مطلية بلون ذهبي، ورديئة الذوق ـ أعني الإطارات والصور. كانت إطارات من الجبس، على شكل ورود، وأوراق العنب، وقطوف العنب أيضاً، وكيوبيد الذي لا مفرّ منه يحمل جعبة أسهم، وقد وضع أحدها في قوسه، مهيئاً للانطلاق. وكان اللون الذهبي اللامع متنافراً إلى الحدّ الأقصى مع اللوحات القاتمة الخضرة، والزرقة، يتخللها لمسات بياض، لغابات وأنهر وثلج قليل بين بعض الأشجار.

فاجأني صوتها من الخلف:

ـ عاجبينك؟

قلت على الفور:

ـ لا.

كانت ورائي، تلف شعرها بفوطة أخرى، وتلبس قميصاً زهرياً، وفوقه روب. وقفت أنظر إليها. بشرتها لدنة، رطبة، تتسرّب منها شهوة.. لا أدري كيف، ولكن هذه المسام المفتوحة كانت تفيض بعصارة أنثوية، شبقة، غير مرئية.

تضرّج وجهها، وقالت بلهجة مرتبكة إنّ نظراتي تربكها. وعندما احتضنتها تملّصت مني، وقالت بلهوجة:

ـ الأكل، الأكل.

خاطبت ظهرها المتجه إلى المطبخ:

ـ إنتِ بستان.

توقفتَ والتفتت:

ـ زهور وورود وعسل.

ـ مش فاهمة.

قلت :

ـ حلم امبارح .

قالت :

ـ أيوه ، ما نسيت .

وغابت .

كل شيء ملأني بالسعادة إلى أن قالت :

ـ بكرة مسافرة العقبة .

كانت دهشتي وإلحاحي بالسؤال مفهومين . ما الذي يجعل المرأة التي تحبني تسافر إلى مدينة في أقصى الجنوب . قالت :

ـ شغل .

توقعت أن تقول المزيد ، ولكنها أحنت رأسها وأخذت تأكل . أغاظني ذلك ، فهل كلمة «شغل» وحدها إجابة على كل أسئلتي؟ سألتها عن نوع الشغل ، الذي سوف تسافر من أجله ، فقالت :

ـ بضايع جاية . . .

ـ وبعدين؟

قالت إنها سوف تستلمها . قلت :

ـ وليش مسعد أو هزيم ما يروحوا بدالك؟

قالت :

ـ ما إنت عارف؟

ـ لا .

قالت :

ـ مسعد على الباص ، وهزيم على الترك .

أدركت أنها لا تريد أن تقول الحقيقة . قلت :

ـ بدك تسافري وحدك .

قالت دون أن تنظر إليّ :

Abu Abdo Al Bagl

ـ لا طبعاً. أميرة رايحة تكون معايي.

قلت:

ـ سلطانة.

فاجأتها نبرة صوتي، فنظرت إليّ بدهشة. قلت، وأنا أحاول أن أجعل صوتي طبيعياً:

ـ بدكن تسافرن في القطار؟

أدهشها السؤال كثيراً. ألقت نحوي بنظرة جانبية لم تكن ودودة؛ قلت لنفسي: ربما كانت خائفة. ولكن ما الذي يخيفها بحق الله؟ لقد بدأت أنا أشعر بالخوف. قالت بصوت محايد:

ـ ليش بتسأل؟

قلت متظاهراً بأن سؤالي طبيعي تماماً:

ـ حتى أودعكوا.

قالت:

ـ لا مش في القطار.

وكأنها خافت أن أواصل أسئلتي أضافت:

ـ في سيارة.

ـ باص؟

قالت:

ـ سيارة.

ـ تاكسي؟

ـ لا.

وصمتنا. صوت تناول الطعام وحده كان يسمع. أخافني هذا الصمت، أشعرني بأن وجودي غير مبرّر. قلت:

ـ أميرة وينها؟

ابتسمت وأمسكت بيدي.

ـ هلأ فطنت إنها مش موجودة؟

Abu Abdo Al Bagl

ـ لا ، طبعاً.

قالت :

ـ راحت في شغل وراجعة.

شيء ما حدث ـ لا أعرف ما هو على وجه التحديد ـ جعل حديثنا متكلّفاً. حتى حين جلسنا متجاورين، نشرب الشاي، ورأسها على كتفي شعرت أنّ بقائي لم يعد مرغوباً فيه. جعلني ذلك عاجزاً عن التركيز. كانت تقبّل خدي وتقول :

ـ علامك؟

ولكن من نبرة صوتها شعرت أنها تعرف تماماً ما بي، وأنها تطلب مني أن أكون البادئ في طلب الانصراف.

عندما أعلنت عن رغبتي في الانصراف بدت مندهشة دهشة حقيقية.

قالت :

ـ وين رايح؟ هلأ أميرة بتيجي.

ولكنني شعرت في أعماقي أنني مطالب بالانصراف. فانصرفت: قالت إنها ستعود بعد أسبوع أو أقل. قلت :

ـ أسبوع؟

قالت :

ـ كلّمني بعد أربع أو خمس تيام بالتليفون.

قلت :

ـ رايح أتصل.

قالت، وإن أرادت أن تتصل هي بي؟ قلت إنني عادة أجلس في الصباح في مقهى وادي النيل.

ـ فيه تليفون؟

قلت :

ـ فيه، بس ما بعرف رقمه.

قالت :

Abdul Abdo Al Bagl

ـ بسيطة .

عانقتني . كنت وأنا أعانقها بارداً كلوح الثلج(١) .

في طريقي إلى مقهى وادي النيل حيث كنت أتوقع أن أجد أصدقائي ، أخذت أتخفف شيئاً فشيئاً من الحالة السوداوية التي كنت فيها . فقدت هواجسي الواحد بعد الآخر . وبدا لي ، وأنا أسير في هذا الحر ، أنني غادرت لتوّي جنة ، وأنني أعود إلى ذلك الجو المقبض من أحلام لا تتحقق . حتى ذلك العالم السري للشيوعيين الذي فتنني ، في البداية ، غرق في ذلك الجو المقبض الذي خلقه نضال ، وقسوة شفيق معي .

وجدت أصدقائي في المقهى يشربون القهوة الفرنسية مع الحليب . تكلّموا معاً حين رأوني :

ـ وين كنت؟

قلت إنني كنت أزور أقاربي .

ـ تغدّيت؟

سألني شفيق . قلت :

ـ تغدّيت عندهم .

شعرت بالود الذي يحمله سؤاله ، وعلمت أنه نادم لقسوته البارحة معي .

قال لي شفيق :

ـ إيش بتشرب؟

ضحكت ، وقلت :

ـ يعني .

ضحك ، ونادى الجرسون :

ـ هات قهوة فرنساوي بالحليب .

---

(١) حين قلت ذلك ، فيما بعد ، لسمحة ، قالت :

ـ لا يا شيخ؟ بتحسّبني هبلة؟

كانت مقتنعة أنني في ذلك اليوم مارست الجنس مع سلطانة ساعات طويلة . وأنا أسأل نفسي الآن : لماذا لم أفعل ذلك؟

بعد قليل همس لي شفيق:

ـ موسى بده يشوفك في الدائرة. الساعة عشرة.

ـ أي دائرة؟

قال:

ـ وزارة الخارجية.

وفجأة استعاد عالم الشيوعيين السري إغواءه.

Abu Abdo Al Bagl

١

كانت وزارة الخارجية في الطابق الأرضي، وفوقها مباشرة كانت رئاسة الوزراء. دخلت حجرة موسى في الساعة العاشرة بالضبط. رفع رأسه عن الأوراق التي أمامه. ابتسم بود وصافحني بحرارة. أحسست أننا أصبحنا أصدقاء، وأنني لست بحاجة للتكلّف معه.

نادى الفرّاش وسألني:

ـ إيش بتشرب؟

قلت له أفضّل الشاي. قال للفراش:

ـ هات واحد شاي وقهوتي.

علمت فيما بعد أنه لا يشرب القهوة إلاّ مرّة، مغلية جيداً، ودون سكّر، قال لي وهو عابس:

ـ رايح أكون معاك بعد دقيقة.

وأخذ يقرأ الأوراق التي أمامه، ثم يكتب بسرعة مذهلة، ثم يضع الورقة في ملف. حين جاء الفرّاش يحمل الشاي والقهوة كان موسى قد انتهى من وضع الأوراق في الملف. سلّمها للفرّاش وقال:

ـ أعطيها ليوسف بك.

ثم أخذت شخصيته تتضح أمامي.

سألني عن مشاريعي للمستقبل، فقلت له إنني سوف أواصل الدراسة في الجامعة الأمريكية في بيروت. قلت ذلك متحرّجاً لخشيتي أن يسحب كراهيته لأمريكا على الجامعة. ولكنّه تحدّث عن مزايا الجامعة الأمريكية في بيروت، وعن مزايا التعليم الجامعي بشكل عام. قال:

Abu Abdo Al Bagl

- إحنا راحت علينا.

اندهشت، لأنني تصوّرته حائزاً على شهادة جامعية.

كان حديثنا ينقطع بشكل متكرّر بالعديد من التليفونات، التي يكون فيها، في الغالب، مستمعاً، والعدد الكبير الذين كانوا يدخلون حجرته. جعلني ذلك أشعر أنني أمام شخصية لن تستطيع أن تختلي بها، أو أن تحكي لها أسرارك الخاصة. كنت أتصوّر الشيوعي انفعالياً، مليئاً بالعواطف الحارّة، مثل أصدقائي الثلاثة. بل كنت أتصوّر أنهم في المستويات العليا أشدّ انفعالاً، وحماساً. ولكن هذه الشخصية الاجتماعية، اللبقة، المتحفّظة بدت غريبة.

شعرت أنني مطالب أن أسرد كل معارفي النظرية والسياسية عن الشيوعية، ففعلت، وأضفت إليها أفكاراً طرأت لي وأنا أتحدّث. وقد اكتشفت، فيما بعد، أنّ هذا أسوأ أسلوب لكسب صداقة إنسان، حتى لو كان شيوعياً.

كان لموسى ذلك الأسلوب في الحديث الذي يميّز الموظفين القدماء: استعمال عبارات التفخيم في المخاطبة، وتكرار عبارات بعينها كنت أظنها من مخلّفات العهد العثماني. كان يتخاطب بهذه اللغة في التليفون، ومع بعض الذين يدخلون مكتـ
وكان يمزج ذلك بلهجة أردنية عامية، لم يعد المتعلّمون يتخاطبون بها.

عندما كنت أتحدّث إليه كان يصغي بانتباه وأدب مبالغ فيهما. وعند
الكلام، وجاء دوره ليقول شيئاً تبيّن لي بوضوح أنّه لم يسمع كلمة وا-
قال:

- حضرتك قاري كثير.

قلت:

- بالعكس مش لاقي كتب.

قال:

- مثل ما تفضّلت، أول عن آخر، هدف الوا
غلطان؟

وافقته رغم أنني لا أذكر أنني قلت شيئاً
هكذا؟ نضال، ثم موسى، ثم أصدقائي

الجلسة طالت، ومعظم الوقت كان موسى منشغلاً عني، وهو يحتفظ بي كالأسير في حجرته. أزعجني أنّه لم يسألني إن كان عندي عمل آخر؛ كما أنّه لم يقدّمني إلى زوّاره الذين كان ينصرف إليهم دون التفات حتى لوجودي. رغم ذلك، فلقد طلب لي، خلال الجلسة، شاي، ثم كازوزة، ثم قهوة . .

بلغت الساعة الواحدة، وأنا على هذه الحال (١). وفجأة قال لي:

ـ رد الباب.

نهضت وأغلقت الباب. قال:

ـ سكايرك خلصت؟

قلت:

ـ ما بدخن كثير.

ضرب جرساً وجاء الفرّاش. طلب منه أن يأتي لي بعلبة سجاير جولد ستار. وبفنجانين قهوة سادة، بعد أن سألني:

ـ بتشربها بسكّر؟

قلت:

ـ سادة:

قال للفرّاش:

ـ رد الباب.

ثم قدّم لي سيجارة وأشعلها، ثم أشعل سيجارة لنفسه، وقال وهو يضحك:

ـ زهقتك يمكن؟

لم أرد. فقال:

ـ الله وكيلك في هالحالة . . .

سأل نفسي الآن: لماذا لم أحزم أمري وأنصرف؟ لماذا بقيت، حيث كان الاستمرار في إهانة؟ لا أستطيع أن أجيب إجابة قاطعة. الأغلب أنني كنت أشعر أنني أمرّ في تمهيداً لعوالم سريّة مبهمة. لم يكن من المعقول أن أجلس طيلة أربعة ساعات ثم شيء. وكنت متلهفاً إلى حدّ الموت لأن أخرج من دائرة الضجر.

Abu Abdo Al Bagl

دخل الفرّاش ووضع القهوة وعلبة السجاير أمامي، ثم وضع القهوة أمام موسى الذي قال له:

ـ الله يخليك ما تدخل حدا عليي.

قال الفرّاش:

ـ أمرك يا موسى بك؛.

ذاب غضبي تماماً، ولكنني تماسكت. من غير المعقول أن أنسى أنّه تجاهلني لثلاث ساعات. تكلّم عن طعمة. سألني:

ـ بتعرفه من زمان؟

قلت له إنني لم أره قبل البارحة، ولا أعرف عنه شيئاً. قال:

ـ لاحظت أنك معجب فيه.

قلت إنه مثقف، قال:

ـ صحيح، لذلك خطورته أكثر. زلمة معادي للحزب.

ـ سمعت.

قال وكأنّه ينهي الموضوع:

ـ خلّيك حذر منه.

صمت وأخذ يشرب قهوته. بعد قليل تكلّم عن أصدقائي فقال إنهم غير ناضجين، تنقصهم الخبرة. ثم استدرك:

ـ سمير أكثرهم نضج. مبيّن بتعب على نفسه.

إنني أمام مهزلة حقيقية. منعت نفسي من الضحك بصعوبة. قلت لنفسي يجب أن أتماسك وأكون حذراً. ذكر موسى اسم قريتي، وقال:

ـ أنا عارف إنكم قبيلة إقطاعية كبيرة، وإلكم نفوذ.

رغم أن هنالك عائلة فقيرة أخرى تتألّف من رجل عجوز وزوجته، بالإضافة إلى أمي وأنا، هم كل قبيلتنا في القرية، ولكنني لم أحاول أن أصلح معلومات موسى. أضاف:

ـ طبعاً إحنا كشيوعيين ما بنهتم بالعائلات الإقطاعية، لكن بنحاول نستفيد من نفوذها.

قلت :

ـ طبعاً .

وقبل أن أذكر مثال الشيوعيين الصينيين سبقني إليه . قال :

ـ لا تنسَ يا رفيق أنّ الشيوعيين الصينيين أجّلوا رفع شعار مصادرة أرض الإقطاعيين لفترة ، حتى يستفيدوا من الإمكانيات الثورية لأولاد الإقطاعيين ا لمثقفين . كمان ممكن نستفيد من الإمكانيات الثورية ، للبورجوازية المتفسّخة .

كان موسى يكثر من اقتباس التعابير الشيوعية ، ينطقها بفصحى متقعّرة ، تبدو غريبة في سياق اللهجة العامية التي يستعملها ، والتي لا تشبه لغة المثقفين التي أصبحت وسطاً بين العامية والفصحى . وقد أثار إعجابي بالفعل مجموعة المفارقات التي يتسم بها موسى : وقار الشيوخ ولغتهم التقليدية ومحافظتهم على المظاهر ، وفي التعالي عن كل ما هو شخصي وانفعالي ، وتلك العبارات الشيوعية الجديدة والمدهشة للغاية ، وكذلك الجمع بين الشكل الغلامي والملابس ذات الطابع الوقور للموظّفين القدماء ، بما فيها استعمال حمّالات البنطلون بدلاً من الحزام ؛ وكذلك المزيج من التعالي التقليدي لكبار الموظفين ، والتعامل النديّ والناضج مع أبناء الطبقات الدنيا ـ كما حدث مع إسماعيل ، فرّاش النادي ، وفرّاش مكتبه الذي كان يعامله دون تكليف (١) .

أضاف بعد قليل :

ـ لكن البورجوازية ، في أوقات الاستقلال الناجز ، بتؤيّد النضال ضد الاستعمار . . مصالحهم ملاعين الوالدين . . مصالح . . . تجّار . . . واحنا بنستفيد منهم . .

صمت . وعلى التو أصبح عابساً وبعيداً ، وقد ارتسم على وجهه تعبير اشمئزاز ، والتفت برأسه نحو الشبّاك الذي على يمينه . استمرّ في هذا ا لالتفات وكأنّ النظر ليس هدفه وإنما غيظ وتقزّز من ذلك ، وما وراءه .

---

(١) أعتقد أنّ الذي لمسني بعمق نوع من الصلابة والأصالة يستحيل اختراقهما . عرفته وتابعت أخباره لأكثر من عشرين سنة ؛ أثبت تماسكاً نادراً في مواقفه السياسية ، وثباتاً في متابعة النضال . لم يخضع للإغراءات ، رغم إلحاحها ؛ ولكنه رغم هذا ظلّت ثقافته السياسية محدودة ، كما أنّ موقعه الحزبي لم يتقدّم كثيراً .

تلامس الشباك أغصان شجرة مشمش، حجبت المنظر الذي وراءها ـ جزءاً من الجبل ـ سوى ذلك لم أكن أستطيع أن أرى إلاّ طريقاً جانبياً خالياً من المارة، وجانباً مائلاً من سطح بيت قرميدي، ومساحة صخرية من الأرض، وقطعة من السماء لامعة، تكاد تكون بللورية بيضاء.

كان المنظر كلّه يطل علينا. شعرت كأنني في جوف بئر. فجأة التفت إليّ موسى وقال:

ـ بتعرف طبعاً أميرة؟

لم يكن سؤالاً، بل تقريراً لحقيقة. قلت:

ـ إيش؟

رغم أنني سمعته بوضوح، ولكن سؤاله كان مذهلاً. قال:

ـ أميرة؟ أكيد بتعرفها؟

قلت له إنها من قريتنا، وأنا أعرفها بالطبع، ولكنني مندهش من معرفته بها. قال إنها «مسوّية مشكلة كبيرة مع المنحرفين والبورجوازيين المتفسّخين.» قلت له:

ـ مش فاهم.

قال:

ـ ما أنا رايح أفهّمك.

وبدأ بسؤال:

ـ عارف طعمة؟ إنسان منحرف وعدو للحزب. . .

قلت:

ـ عارفه.

أشعلت سيجارة. وللتوّ تأكّدت أنّ حدسي كان صادقاً: سلطانة تعرف طعمة إذاً؟ كان ذلك مؤلماً. . مؤلماً جداً. .

وأخذ موسى يتحدّث قائلاً إنّه هو أصل البلاء. البنت كانت بتشتغل خدّامة، أنت عارف؟ وفي طريقها إلى السوق كانت تمر قرب بيت طعمة. تصوّر رجل في هذا السن ويشغل نفسه بطفلة. استدرجها إلى بيته وأفسدها تماماً. طبعاً كان أجبن من أنّ يفضّ بكارتها، ولكنّه علّمها كيف تكون مومساً. كان قد اتفق أنّه سوف يعطيها قرشاً مقابل

كل قبلة.

قال:

ـ إنت بتعرف أحمد، النائب اللي...

قلت:

ـ طبعاً، طبعاً.

قال إنّه متزوج، ولكنه يقضي معظم وقته في مكتبه. ومكتبه مجهّز للسكن، وكل أصدقائه يزورونه في المكتب، وفي أحيان كثيرة ينام فيه. أخذ طعمة، الذي كان يزور النائب كثيراً، يتحدّث عن علاقة بفتاة جميلة. ردّد ذلك كثيراً إلى أن قال له النائب مرّة:

ـ هاتها يا أخي.

المهم أنها جاءت. اسقوها جن بالليمون ودخل معها النائب. وحين خرج كان غاضباً جداً. قال لطعمة:

ـ هذي بنت يا عكروت.

فقال طعمة:

ـ ما دامت ماشية في هالطريق لازم حدا يفتحها إنت ولا غيرك.

وأصبحت تتردّد على مكتب النائب، والنائب لا يعرف كيف يتخلص منها، حتى تعرّف عليها شاب منحل، وكيل لإحدى الشركات الأميركية، فطار صوابه. جعلها تتخلّى عن عملها واستأجر لها حجرة عند خيّاطة على طريق المحطّة. وفي كل يوم كانت تأتي لها سيارة عند العصر وتعود بها عند وجه الصبح. حملت البنت وأجريت لها عملية إجهاض، وعادت الأمور إلى وضعها الطبيعي. ولكن البنت دوبلت.

ـ قلت:

ـ إيش؟

ضحك وقال:

ـ ما بتعرف معنى دوبلت؟ رايح أحكي لك.

قال إنّ الولد التافه، صديق أميرة، استأجر لها شقّة. كان يغيب كثيراً، وأخذت أميرة تستقبل زبائن. كلهم على مستوى عال. وفي أحد الأيام فوجئت بطعمة يطرق

الباب عليها، وجرى بينهما حوار طريف ـ كما أخبرت صديقها فيما بعد . حاول طعمة أن يقبّلها . فقالت له :

ـ البوسة بقرش؟

وأبعدته عنها . قال لها :

ـ مش أنا سبب العزّ اللي إنت فيه؟

سألته إن كان يريد ثمن القوادَة . ارتبك الرجل، وتلعثم ، وقال :

ـ يا أميرة أنا بحبك .

فسألته :

ـ اللي بحب واحدة، بوخذها لناس ثانيين يناموا معها؟

ريقه نشف . قال :

ـ تسمحي يا ست أميرة تشربيني فنجان قهوة .

قالت :

ـ أمرك .

خرجت وفي يدها دينار ونصف، وضعتها في يده، وقالت :

ـ ثمن القوادة والقهوة . خذها وما تخليني أشوف خلقتك مرّة ثانية . سامع؟ ألقى النقود على الأرض وخرج وهو يقول :

ـ مش غريب عليك . شرموطة .

ضحكت ضحكة ـ كما قال طعمة ـ لا تضحكها إلاّ فاجرة .

المهم أنّ أميرة واجهت مشكلة مع صديقها بعد أن علم أنها تستقبل آخرين في شقّتها . قالت له إن عملها يقتضي ذلك . ولم يزدني موسى إيضاحاً عن طبيعة عملها .

نظر موسى إلى ساعته فقال إنها اقتربت من الثانية ، ووقف . دعاني إلى الغداء فاعتذرت ، كما تقتضي اللياقة الأردنية [1] . شدّد العزيمة ، فكرّرت الاعتذار . ولكنّه قال بحسم :

---

(١) تقتضي اللياقة الأردنية أن تدعى إلى الطعام فترفض ، فيصرّ الداعي وتصرّ أنت على الرفض، إلى أن يرغمك على القبول، والكريم الحقيقي هو من يلح في دعوتك مستعيناً بالقوة العضلية حتى يمزّق جزءاً من ملابسك .

Abdo Al Bagl

ـ بلاش يكون عندك رواسب بورجوازية.

وددت أن أقول إن تلك رواسب إقطاعية، ولكن الموقف لم يكن مناسباً. فسرنا سوية صامتين إلى مطعم السنترال.

كانت المرّة الأولى التي أدخل فيها مطعم السنترال. بدا لي فخماً، كأنّه منقول من العالم السحري للأفلام الأمريكية. طلب زجاجتين من البيرة دون أن يستأذنني، ولم أجد فرصة للاعتذار، إذ تصوّرت البيرة غالية جداً في هذا المكان. كان جميع الجرسونات يعرفونه، ويعاملونه بمودّة واحترام؛ كما كان يعرف أسماءهم، ويتحدّث معهم بألفة. عدد كبير من الحاضرين حيّوه، وبعضهم صافحه.

رأيت الفتاة الأمريكية التي كانت تجلس في مقهى وادي النيل بصحبة شاب، وأمام كل منهما قدح بيرة ممتلئ حتى نصفه. كان الشاب يتحدّث الإنجليزية بطلاقة، ودو توقف، والفتاة تدقّق النظر في كأس البيرة، وتدور بسبّابتها حول حافة الكأس، ثم ترفع رأسها فجأة، وتنظر إليه. أصبحت جذّابة بشكل ملفت للنظر. بدت حزينة وضجرة. قدّرت أنها تضيق بحديث الشاب الذي لم ينقطع منذ أن دخلنا.

أكلنا صامتين. اختار موسى طعامه ـ وطعامي أيضاً ـ بعد نقاش طويل مع الجرسون حول الأطعمة الموجودة، وأكثرها طزاجة. نصحنا الجرسون بالموزات مع الصلصة الحمراء والرز. لاحظت أنّ موسى يأكل بتأنّق مفرط، ودون شهية؛ وإنه لم يأكل إلاّ جزءاً قليلاً. أما أنا فقد أكلت طعامي مع المقبلات والسلطات التي جاء بها الجرسون.

فجأة دفع موسى كرسيه، ونهض ليصافح رجلاً سميناً، أبيض الشعر، ذا وجه أحمر جداً، وكابي الحمرة. كان الرجل يلهث. قال لموسى إنه يود أن يراه لأمر ضروري، واتفقا أن يمر موسى على بيته في الساعة الثامنة، واعتذر عن الجلوس معنا.

كان وجه موسى قد أصبح ودوداً وجذّاباً وهو يتحدّث مع الرجل. وعندما أدار الرجل ظهره، وسار إلى مائدته بمشية عجوزة، بقدمين متباعدتين، عاد التعبير العابس على الفور إلى وجهه. سألته عن الرجل فتظاهر بعدم سماع سؤالي (١). فلم أكرّر سؤالي. قال:

---

(٥) علمت فيما بعد أنّ الرجل وزير خارجية سابق.

ـ نشرب قهوة.

لم أعترض. تعلّمت أن أوافق على كل اقتراحاته. كانت أوامر. شربنا القهوة صامتين.

اندهشت عندما رأيت الفتاة الأمريكية قد أصبحت شديدة الحيوية: تتحدّث، وتقهقه، وتكثر من الحركة. لم يكن الشاب سعيداً ـ كما تصوّرت ـ بهذا التحوّل. كان ينظر حوله، ويبتسم، ويقول شيئاً، وهو ينظر حوله. اجتذب الاثنان أنظار موسى، وأخذ يراقبهما. رآه الشاب فنهض فجأة وجاء إلينا. صافحنا، وقال لموسى إنّه يريد أن يراه. قال موسى، دون أن يغيّر تعبيره العابس:

ـ مرّ بكرة على الدائرة.

تريّث الشاب قليلاً، ثم انصرف.

غادرنا المطعم، وفي الشارع وقف موسى يتأمّل سيارات الأجرة، فاقتربت واحدة، دخلها موسى وجذبني إلى داخلها، وقال للسائق:

ـ اطلع فينا يا أبو غازي.

قال السائق:

ـ على البيت موسى بك؟

أخذ السائق يتحدّث وعيناه تراقبان الطريق:

ـ ابني يا موسى بك ما قبلوه في المدرسة. قلت والله ما فيه غيرك يدبّر لينا المدير.

سأله موسى عن اسم المدير، وعندما أخبره، قال موسى:

ـ مرّ عليّ بكرة في الدائرة، بكون كلّمته.

بعد فترة صمت قال السائق:

ـ سمعنا أنك رايح تترشح للبرْلمان في الدورة الجاية.

قال موسى:

ـ لحينها فرج.

حين دخلنا البيت نادى موسى أن يأتوا لنا ببطيخ مثلج. حجرة الجلوس كانت فخمة وقبيحة، موسومة بالثراء الريفي ونقص العناية. كنبات هائلة الحجم من الستيل

قد بهت قشرها الذهبي، منجدة بمخمل أزرق. كانت صلبة القاعدة، وهنالك صوفا طويلة تبلغ حوالي ثلاثة أمتار طولاً مغطّاة بمخمل قهوائي اللون، ومساند للظهر مستطيلة من نفس اللون. استغربت وجود السجادة في هذا الجو الحار، من الواضح أنّها سجادة فاخرة، ولكنها غير معتنى بها. في مواضع كثيرة من السجاد والكنبات كنت أشاهد بقعاً سوداء لم يحاول أحد إزالتها. على الجدار خدوش وأشكال إنسانية مرسومة بقلم رصاص، لها أنوف متعرّجة وعيون جاحظة بلا أجفان.

في صدر الحجرة، على الجدار المقابل للباب، صورة زيتية كبيرة الحجم لرجل له نظرة غاضبة، يطالع الكاميرا بتهديد حقيقي. له أنف هائل وجبين متسع وشاربان كثيفان فوق لحية سوداء مستديرة، بدت كأنها قطع قار جافة ملصقة. كان يضع على رأسه كوفية بيضاء وعقالاً، وعلى صدره علّقت نياشين عديدة كنت عاجزاً عن تمييزها. تحت الصورة مباشرة كانت قطعة مربّعة من المخمل الأسود معلّقة، مطرّزاً عليها بخيوط ذهبية خمسة أبيات من الشعر في مدح صاحب البيت، تقول إنّه مجاهد وطني لا طمعاً في المال ولا الجاه لأنه يملك منهما الكثير(١)، ولكن بسبب حبّه للخير، واحتقاراً لهذه الدار وحباً في الجنة التي وعد الله بها المجاهدين. وهم أكرم خلق الله، باستثناء النبي محمد. وقد كتب اسم الشاعر بحروف من القصب الأبيض، ولم أستطع التعرّف عليه.

كان هنالك زاوية في الحجرة للنحاسيات: مائدة خشبية وضعت فوقها صينية كبيرة من النحاس الأصفر، قد غطّي سطحها بنقوش دقيقة على شكل أرابيسك وفوقها صفّت دلال القهوة التقليدية، أربعة، تتدرج في الحجم من أكبرها، التي على الطرف، إلى أصغرها التي كانت على الطرف الآخر. في وسط الصينية كان بكرج قهوة، ذو لون فضي كاب، وله يد طويلة من الخشب الأسود. بجوار المائدة مزهرية نحاسية هائلة الحجم، موضوعة فوق طرابيزة منخفضة، لها قوائم قصيرة، غليظة.

في الخارج كنت أسمع هرولة أطفال، ونداءات نسائية، وبكاء طفل ارتفع فجأة ثاقباً، مثيراً للأعصاب، صمت فجأة. بعد قليل جاء البطيخ المثلج، كميات كبيرة منه. أدخلته فتاة نحيلة، تسكنها عفاريت. دخلت بخطوات راقصة، ووضعت البطيخ

---

(١) كان والد موسى زعيم عشيرة كبيرة، ومالكاً لأراضي واسعة جداً، وقد قام بدور بارز ضد الإنجليز، وشارك خلال حياته في كل المجالس التشريعية والبرلمانات الأردنية.

أمامنا وهي تنحني ببطء. نظرت إليّ مباشرة وقالت:

ـ كايد فتح جاعورته.

قال موسى:

ـ إيش ماله؟

قالت:

ـ بده أحمله.

قال موسى:

ـ احمليه.

قالت:

ـ حملته شويه هدّ حيلي، ثقيل مثل العجل.

وقفت قليلاً، وتنهّدت كأنها لم تعد تحتمل. من الواضح أنّها تقلّد امرأة أكبر منها سنّاً، ثم انصرفت.

قال موسى إنّ للمسألة جانبها السياسي. قلت:

ـ كيف يعني؟

قال إنّ النائب وقع ضحية ابتزاز. في البداية كانت المسألة معقولة. جاء بعض أقارب أميرة فأعطاهم بعض النقود. بين آن وآخر كانوا يأتون للنائب يطالبونه أن يساعدهم في إدخال أحد الأقارب إلى الجيش، أو توظيف آخر في الحكومة، أو إدخال طالب إحدى مدارس عمّان. كان ذلك كلّه معقولاً. ولكن المسألة بدأت تأخذ منحى خطيراً.

جاءت القهوة. أحسست بالغثيان بمجرّد أن شممت رائحة القهوة القويّة، المخلوطة بالهيل. ربما كان فنجان القهوة العاشر الذي أشربه خلال أربع ساعات. الرشفة الأولى لسعت فمي. كانت الصبية ـ الأغلب أنها في العاشرة ـ واقفة تراقبني. قالت:

ـ مش عاجبيتك القهوة.

ابتسمت لها وقلت:

ـ ساخنة.

قالت :

ـ خليها تبرد .

وانصرفت .

قال موسى : المسألة دخلت في السياسة . بدأت جهات معيّنة تهدّد النائب وتطالبه بأشياء . إنّه مهدّد بالسجن عشر سنوات على الأقل لاغتصاب فتاة قاصر ، وأنّ على النائب أن يفعل أشياء محدّدة لاتقاء الفضيحة . وهنالك شيء في صالح النائب . طعمة؟

قلت :

ـ طعمة . عارفه .

قال موسى ، رغم أنّ طعمة منحرف ، وعدو للحزب رفض أن يشهد مع البنت . بل إنّهم هددوه أن يتهموه بها وأن يأتوا بشهود على ذلك ، ولكنه أصرّ على الرفض . وبيني وبينك كان موقفه أصلب من موقف النائب . ولكن التهديد مستمر على النائب . ـ طعمة ؟

قلت :

ـ مش فاهم . مين اللي بهدّد؟

صمت موسى ، كأنّه لم يسمع سؤالي . وأخذ يشرب قهوته بأناقة وبطء . كان واضحاً أنه مستمتع بشربها . وكان يدخّن سيجارته بنهم ، ويخرج دخاناً كثيفاً من منخريه الواسعين . كنت مصراً هذه المرّة ألاّ أدعه يتجاهل سؤالي . انتظرت قليلاً ثم قلت :

ـ ما قلت لي . مين اللي بهدّد؟

قال دون أن ينظر إليّ :

ـ رايح أقول إلك .

بدا هذا الوعد وكأنّه تأجيل للحديث . لم يكن واضحاً إن كان سيقول ذلك الآن ، أم فيما بعد . وصمتنا . انتهينا من شرب القهوة ، وقدّم لي سيجارة وأشعل هو سيجارة من عقب سيجارته ، وبقينا صامتين . نظرت إلى ساعتي . كانت تشير إلى الخامسة .

سألته فجأة :

Abu Abdo Al Bagl

ـ إيش فيه في العقبة؟

فوجىء وقال:

ـ العقبة؟

قلت:

ـ أميرة سافرت اليوم للعقبة.

لم أذكر سلطانة:

قال بذهول:

ـ هيه المسألة وصّلت للعقبة!

في البداية قال لي موسى إن كل ما دار بيننا يجب أن يظل سراً. برقت عيناه، وقال:

ـ سر يعني سر.

قلت:

ـ مثل ما بدّك.

قال لأن المسألة خطيرة. واستفاض في الشرح: على مقربة من مدينة العقبة، وعلى الخليج مباشرة، هنالك مخيّم مقام. أقامه رجال في قمة السلطة. وضعه الجغرافي أنّه يقابل مرفأ إيلات الإسرائيلي. وبين المرفأ الإسرائيلي والمخيّم اتصالات مباشرة بواسطة زوارق إسرائيلية مسلّحة.

كان موسى يقطّر معلوماته تقطيراً. قال إنّ في الصحراء المحيطة بمدينة العقبة يجد الإنسان أحجاراً على شكل البيضة، مختلفة الأحجام. إذا كسرت هذه الحجر فسوف تجد في قلبها قطعة من الماس. المشكلة أنّه إذا جرى كسر هذا الحجر بدون خبرة فالغالب أن يتحطّم الماس الذي في داخلها ويختلط بقطع الحجارة الصغيرة. وأحياناً أخرى يكون القلب الماسي غير ناضج ويحتاج إلى وسائل معقّدة لانضاجه. وإسرائيل تملك الأجهزة لذلك: لقطع الحجارة بالشكل الصحيح، وانضاج الماس. لذلك يقوم العاملون في المخيّم بجمع هذه الأحجار، ووضعها في أكياس معدّة خصّيصاً لذلك، وتقوم الزوارق الإسرائيلية باستلامها وإدخالها إسرائيل عبر مرفأ إيلات.

جاءت الصبية بالشاي. وضعته وقالت:

ـ دبّيت كايد كتلة . .

قال لها موسى وهو يبتسم :

ـ حرام عليك .

قالت :

ـ يحرّم جلده عن عظمه . حرق ديكي .

قال موسى منهياً الحوار :

ـ ما دام هيك بستاهل .

كان في الشاي طعم الهيل . انصرفت الفتاة ، وواصل موسى حديثه . قال إنّ هذا ليس كل شيء . الحشيش . عارف الحشيش؟ قلت : عارفه . قال إنّ البدو يأتون به من تركيا ولبنان ، عبر صحراء بادية الشام ؛ ويسلّمونه للمخيم . ومن هناك يتم نقله إلى إسرائيل ، التي تنقله إلى صحراء النقب ، وهناك تسلّمه إلى بدو سينا ، لإدخاله إلى مصر . وهنالك عمليات أخرى صغيرة كبيع المواشي والحبوب لإسرائيل . وشراء بعض البضائع الإسرائيلية .

قلت :

ـ والحكومة؟

كنت أعلم أنّ سؤالي ساذج ، ولكنني كنت متلهّفاً للحصول على أكبر قدر من المعلومات ـ هذه المعلومات المدهشة . توقعت أن يقول لي موسى إنّ الحكومة ضالعة في هذه العملية ، ولكنّه قال :

ـ الوزارة ، ما الوزارة؟

قلت :

ـ آه .

قال :

ـ غلبانة . فيه صراع في أعلى مستويات السلطة ، ولازم مجموعة تصفّي الثانية ، جماعة المخيم واحدة من المجموعات .

تذكّرت وقلت :

ـ والتهديد ؟ مين اللي يهدّد النائب؟

Abu Abdo Al Bagl

قال موسى :

ـ متذكّر واحنا قاعدين في مطعم السنترال . . .

قاطعته :

ـ البنت الأمريكانية . . .

ضحك وقال :

ـ مبيّن عليك مش قليل . أيوه هيه والولد اللي معاها .

ردّاً على نظرتي المتسائلة ، قال :

ـ نعم . المخابرات الأمريكية .

قلت :

ـ إيش بدهم من أحمد؟

قال :

ـ عملية كبيرة . مستعدين يقدّموا له كل الوثائق عن مخيم العقبة ، على أساس يطرحها في البرلمان ، ويسقط الحكومة ويجيبوا حكومة تابعة إلهم . وبدّهم مشروعاتهم تمشي . . .

وصمتنا صمتاً طويلاً . كنت بحاجة لأستوعب كل هذه الحقائق . كنت أعيش نشوة توسع وتنوّع العالم السري ، وأرى أميرة والفتاة الأمريكية في إطار دراما غريبة ومثيرة ، أشارك فيها . وسلطانة؟ بدت محاطة بغموض جعلني أشتاق لها . . سأجعلها تقف معي ، معنا . . . ولكن فلأتوقف عن هذا . إنّ الساعات القليلة التي أمضيتها مع موسى أنضجتني ، وجعلتني أدرك الفارق بين أحلام اليقظة الجنسية ، والحقائق الواقعية الصلبة .

انتبهت . كان موسى يتكلّم . قلت :

ـ إيش ؟

قال :

ـ أما عندكو خوري صفيق .

قلت :

ـ الخوري صليبا؟

قال:

- اسمه صليبا؟

قالت:

- أيوه، صليبا. وين شفته؟

قال إنّه كان يجلس - أعني موسى - فدخل صليبا وأميرة وواحد قال إنه عمها، إسمه إيش؟

قلت:

- مسعد.

قال، تذكرت الآن مسعد، ورجل آخر له سن ذهبية. ذكر موسى آخرين لم أستطع التعرّف عليهم. والحكاية التي رواها كانت غريبة بالفعل، فقد اقتحم الأب صليبا المكان، يتبعه الآخرون، وهو يقول:

- هوه وينه ؟ وينه ؟

وعندما أشارت أميرة إلى النائب، قال:

- إنت . . إنت . . يا عرّة الرجال . . !

صمت النائب خوفاً ودهشة، وأخذ صليبا يهدّد:

- شوف، والله العظيم، وثوب كهنوتي إنه دمك ودم عشيرتك من أكبر واحد لأزغر واحد ما بكفيني. فتّح عينك! إنت قدّام رجال، مش قدّام حريم. والله في إصبعي هذا (ومدّ سبابة يده اليمنى الطويلة الغليظة إلى وجه النائب حتى اصطدمت بأنفه) شايفه؟ في إصبعي هذا لأقلع عيونك الثنتين، والعن أمك فوق أبوك.

واستمر الأب صليبا قائلاً:

- بنت من جيل بناتك . . .

ولم يتوقف حتى تدخّلت أميرة:

- فيه حكومة، وفيه رب.

قلت لموسى إنني متأكّد أن الخوري صليبا خالي الذهن من كل ملابسات المسألة، وأنّه يعتقد أنّ بدافع عن بنت مسكينة اعتدي عليها، وأنّه استعمل في عملية الابتزاز دون وعي منه. هنالك ظروف خاصة أعرفها، وتجعلني متأكد مما أقول.

Abu Abdo Al Bagl

هل قلت أكثر مما يجب؟ ولكن مهما حدث فلن أقول شيئاً عن سلطانة. لم يقل موسى أكثر من كلمة واحدة:

ـ ممكن.

في نهاية الأمر شرح لي موسى السبب في هذا اللقاء الطويل جداً. قال إنت واحد منا، وهو لا يريدني أن أكون طرفاً في هذا الموضوع.

قلت:

ـ أنا ما إلي علاقة. كيف رايح أكون طرف؟

قال إنّ النائب في البرلمان يريد أن يلتقي بي، ويطلب مني أن أستعمل نفوذ عشيرتي في تهديد أميرة وأهلها وإسكاتهم.

ضحكت، فالتفت إليّ موسى بدهشة. قلت إنني آسف، ولكن عشيرتي لا تسكن القرية. هنالك أمي العجوز، وعائلة أخرى متوسطة الحال، وعجوز أخرى تعيش في بيت صغير، ومصدر رزقها ديناران يبعث بهما إبنها الذي يعمل جندياً في الجيش. وهؤلاء جميعاً ليس لهم أي نفوذ. أما العشيرة فهي تسكن في مكان آخر.

لم تدهش موسى هذه المعلومات، ولم يعلّق عليها. قال إنّ النائب يريد مقابلتي غداً مساء، وسوف يكون موسى معي. يريدني ألاّ أعد النائب بشيء، إلاّإذا أبدى استعداده لإثارة موضوع مخيم العقبة. طبعاً يهمنا أن يستمر النائب في معارضته، ولكن إذا كان وطنياً حقاً، فعليه أن يكشف مسألة المخيّم، والدور الذي تقوم به المخابرات الأمريكية.

وانصرفت على أن نلتقي في السابعة مساء غد، في مكتب النائب.

غادرته في السابعة.

١

في الحجرة لقيت أصدقائي يستعدون للخروج. قال شفيق عندما رآني داخلاً:

ـ وين يا ابن آدم. وين انت؟

قلت لشفيق:

ـ ما إنت عارف.

قال:

ـ من ساعتها؟

لم يحاول خالد أن يسأل، وإنما قال:

ـ إشلح هدومك وخذ لك دوش، وأنا بسوّي لك شاي.

كان الدوش منعشاً. خرجت منه جائعاً. أكلت قطعة من الجبن مع خبز وخيار، ثم شربت الشاي. همس لي سمير، ونحن في الخارج:

ـ مسائل سريّة؟

لم أفهم. قلت:

ـ إيش؟

قال:

ـ يعني إنت ومو سى؟

قلت:

ـ لا.

اعتقد سمير أنني أريد أن أبدو غامضاً ومهماً.

وصلنا النادي في الساعة الثامنة. جلسنا وحدنا في الفسحة، وطلبنا عصير

Abu Abdo Al Bagl

ليمون. كان الجميع قد نقلوا كراسيهم إلى الفسحة، وكوّنوا مجموعات دائرية. ما زال استرخاء نوم ما بعد الغداء في وجوه الجالسين، وفي أصواتهم.

اشتعلت الأضواء فأصبح الفضاء أسود. بلادة تحطّ على المكان.

انبعثت حيوية في المكان عندما دخل شاب أنيق، له عينان تشتعلان وتبرقان وهو يصافح الحاضرين بصخب. علمت بعد قليل أنّ اسمه سالم، وهو ابن أحد زعماء القبائل في الشمال، الذي أصبح وزيراً قبل وفاته. وقد تخرّج سالم من الجامعة السورية محامياً، وفتح مكتباً في شارع السلط.

كان هذا النمط من خريّجي الجامعة الأمريكية في بيروت والجامعة السورية في دمشق قد شاع في عمّان مؤخراً. يتّسمون بالأناقة في اللباس، وبأنك لا تستطيع إتمام جملة واحدة في حضورهم، إذ لا يتوقفون عن الكلام. يعرفون كل شيء، خاصة خفايا السياسة، وما يجهلونه فهو لا يستحق أن يعرف. كانوا يحتفظون بطابع مناقشات مقاهي رأس بيروت، والمعارك الكلامية المتبادلة بين القوميين العرب والبعثيين والشيوعيين. وكان للشيوعيين سمات خاصة: يحملون باعتزاز كل انتصارات الشيوعيين في العالم، ويحتفظون بذكرى لقاءات مع قادة الحزب الشيوعي السوري ـ اللبناني (خالد بكداش و فرج الله الحلو ونقولا الشاوي) عندما كان موحّداً. كما أنّهم قد قرأوا بعناية ما كتبه قدري قلعجي عن مقاومة الشيوعيين الفرنسيين للاحتلال النازي، وغير ذلك من الكتب التي كانت تعيد رواية ا لتاريخ من وجهة نظر ماركسية.

وكانت لهم حكاياتهم التي كانت تلهب أخيلتنا، ونعتبرها أطرف وأعمق حديث يمكن أن يقال في السياسة. هنالك تلك العبارة الشهيرة التي قالها القائد الشيوعي الفرنسي: «إنّ الذين كانوا يهتفون بالأمس يحيا المارشال يهتفون اليوم يحيا الجنرال»، ويوضحون لك أنّ المارشال هو بيتان والجنرال هو ديغول. ويحكون لك عن كتاب فكتور كرافشنكو (آثرت الحرية) والبراهين الدامغة التي لديهم أنّ هذا الكتاب قد تمّ تأليفه في مقر وكالة المخابرات الأمريكية. لقد ثبت ذلك من سير الدعوى التي أقامها المؤلف ضد صحيفة سي سوار الفرنسية. الشهود الذين أتى بهم ثبت أنهم شهود زور من خلال الاستجواب البارع الذي قام به محامو الدفاع إلخ...

كان سالم نموذجاً متطرّفاً لهذا النمط. يجوب الفسحة كأنّه راقص، لا يكاد

يجلس حتى يقف زاعقاً . حتى كأس الليمون شربها وهو واقف . عندما انتهى مدّها بأقصى ذراعه وقال :

ـ خذ يا إسماعيل .

أمسكها الفرّاش وانصرف .

كانت آراؤه ، بالنسبة لي ، غريبة وجذّابة جداً، حيث كل شيء يبدو جديداً وواضحاً جداً. عندما أحاول أن أستعيد آراءه الآن أعجب لنفسي. فقد كانت تدور حول فكرة واحدة: إنّ البشر ينقسمون إلى قسمين: الشيوعيون قسم، والقسم الآخر عملاء لمجموعة من الجنرالات الفرنسين. من الواضح أنّ السبب وراء تشكّل هذه الأفكار هو أنه عاصر ـ في سوريا ولبنان ـ فترة جلاء القوّات الفرنسية عن البلدين، وقرأ الأدبيات الشيوعية في تلك الفترة، فتأثّر بها، ولم يستطع أن يستوعب فكرة أنّه أصبح الآن يعيش في بلد آخر، له ظرف مختلف .

كان يقول :

ـ طبعاً عارفين الكتائب ؟ الأم فرنسا! الأم الحنون . . . .

ويضحك . يضيع صوته ليعود إلى الطرف الآخر من الفسحة :

. . العصبة التيتوية طبعاً. معروفين. انكشف ارتباطهم بالدوائر الفرنسية واليوغسلافية.

ويذكر العديد من الأسماء التي لا أعرف عنها إلاّ القليل. ثم يرتفع صوته محتجّاً:

ـ اخوان عمر فاخوري قال!

أحنى رأسه، وكانت عيناه تلمعان بضوء غريب . قال :

ـ خذوا مثال بسيط، حسني الزعيم ، وإذا مش عاجبكم . . الكولونيل حسني الزعيم استفاد من النقمة الشعبية بعد الحرب الفلسطينية وعمل انقلابه العسكري. وبعدين يا مولانا اتفاقيات عسكرية سرية مع فرنسا، وأسلحة . . منين؟ . . من فرنسا . . ومين حسني الزعيم هذا؟ واحد من الضبّاط اللي ساندوا حكومة فيشي في سوريا ، واحد من عملاء الفاشست الفرنسيين. بعد هيك صديق شخصي لديغول . يوم مع بيتان ويوم مع ديغول .

وكما توقعت ردّد عبارة جاك دي كلو عن الذين كانوا يهتفون لبيتان واليوم يهتفون لديغول.

ثم انتقل إلى الحديث عن فكرة سمّاها (السيد الغني والسيد الفقير). كانت غريبة بالفعل. قال:

ـ فرنسا أصبحت بلد فقير. استعمار صغير. بلد شبه تابع. سيد، لكن مسكين، فقير. هلأ إجا دور السيد الكبير يصفّي التركة. لا. لا. إنت يا فرنسا مسكينة وفقيرة وشحّادة، ما بتقدري تحتفظي في مستعمراتك ولا في عملائك.. إيش رأيك نساعدك؟ طبعاً لوجه الله، مساعدة بريئة لوجه الله والإنسانية ولسواد عيون شراميط باريس.

يضحك يقهقه. ثم يواصل:

ـ ها؟ إيش رأيك يا فرنسا؟ لا. لا. يا مدام فرنسا، لازم إحنا نمسك الحكاية كلها. صحيح إنك رايح توخذي جزء بسيط من الغنيمة. لكن لا تنسي إنه أحسن من بلاش. الرمد ولا العمى.

ثم أخذ يسرد قائمة طويلة من الأسماء ـ من السياسيين السابقين والحاليين الذين تحوّلوا من خدمة فرنسا إلى خدمة أمريكا. كان محمود يجلس قريباً منّا، وإلى جواره يجلس بخيت. خبطه بخيت على ظهره وقال:

ـ هاه؟ كيف الأحوال؟

قال محمود بسرعة:

ـ أهلاً بخيت.

قالها بسرعة، دون أن ينظر إليه وعيناه تتابعان سالم. التفت إليهما سالم واقترب من محمود، وقال:

ـ ها، يا مولانا المحترم، ما فيش أفلام أميركية جديدة؟

وضحك. وضع يده على رقبة محمود التي حاول أن يخفيها داخل قميصه، وأحنى ظهره، وهو يضحك بارتباك. أحنى سالم رأسه حتى بدا وكأنّه ينوي أن يهمس شيئاً في أذن محمود، وأخذ يجذب رأس محمود إليه باليد التي تمسك بالعنق وقال:

ـ شوف، الأفلام الأميركية بتختلف في شيء واحد: عدد القتلى المطلوبين حتى يتجوّز البطل البنت الحلوة. هيك في أميركا. بدفعوا السياق روس بني آدمين. مثل

أبوك ما يروح يخطب لك واحدة، وهذا مجرّد افتراض، لأنّه مش رايح يلاقي واحدة تقبلك. . مثل أبوك ما يروح يخطبك لك واحدة ويدفع لأبو العروس المنكود الحظ والسيء الطالع سياق عشرين راس غنم. . .

ويضحك. استقام وقال مخاطباً محمود:

ـ اسمع يا كونت دي شاي. اللي مثلك مش رايح يتجوّز في أميركا لأنك مش ممكن تذبح فرخة. أبوك دبّر حاله لما اشتغل عميل زغير للفرنسيين، لكن هلأ مدام فرنسا شريك مسكين. . .

ما أربكني بالفعل هو أنّه حين تحدّث عن فرنسا كان صوته مليئاً بالتعاطف كأنها طفل صغير يعذّبه إنسان شرّير.

الواقع أنني لا أستطيع استعادة كل ما قاله سالم في تلك الليلة، ولكنني أتذكّر انطباعي. لقد ذكر سالم قائمة طويلة جداً من أسماء عملاء الدول الغربية، خاصة فرنسا، حتى تكوّن لديّ إحساس بأنّ العمالة لدولة قدر لا يُرد. شعرت أنني قد أكون عميلاً دون أن أعلم، وخاصة أنني ذاهب للدراسة في جامعة أمريكية. أردت أن أتأكد.

كنت قد عرفت الوسيلة التي اجتذبت بها انتباه سالم. يكفي أن أتحرّك حتى يهاجمني. كان ينقض على كل شيء يتحرّك. أحدثت ضجّة بجر الكرسي الذي أجلس عليه إلى الأمام، ووضعت يدي على كتف سمير الذي فوجئ والتفت إليّ محدثاً ضجّة بكرسيه. قلت بصوت يستطيع الجميع سماعه:

ـ كيف صحتك؟

كان سمير ينظر إليّ بذهول. وفي اللحظة ذاتها توقّف سالم عن الكلام. كنت أعلم أنّه ينظر إليه، وحاولت ألاّ أرتبك وهو يتجه نحوي. توقف أمامي وأخذ يحدّق بي. كانت عيناه تبرقان. انحنى، فرأيت الشعر داخل أنفه، ولاحظت أنّ الطرف الأيمن لأنفه، والعضلة التي تجاورها يرتعشان ارتعاشات سريعة. قال:

ـ مين الأخ؟

نهضت وصافحته. وعرفني شفيق، ثم أضاف:

ـ إنسان مناضل.

نظر إليّ سالم بتمعّن، ثم قال:

ـ لازم يا عزيزي المارشال تبذل جهود كبيرة جداً حتى تكفّر عن سيئات العائلة الكريمة.

قال ذلك بصوت وقور خشن، ثم ارتفع صوته وأصبح حاداً:

ـ من دخول الإنجليز والفرنسيين والعائلة الكريمة بتقوم في دور بارز في الخيانة. قريبك أبو ميخائيل كان عميل للفرنسيين والإنجليزفي وقت واحد. قروش، قروش يا عم. ركب مع ديغول في سيارة واحدة في بيروت. هاه؟ والضابط الفرنسي سلام قف! سلام تعظيم! هاه؟ والليرات نازلة رش مثل المطر.. هاه؟

وأمسك بشعري وأخذ يردّد:

ـ يا عزيزي المارشال جريسوفسكي، يا عزيزي المارشال جريسوفسكي. قاتلك الله..

أحسست بقدر من الزهو، وباحترام جديد نحو أقاربي الذين ذكر أسماءهم. وأنا بالطبع كنت أعلم أنّ أبو ميخائيل ركب مع ديغول في سيارة واحدة؛ غير أنّه لم يخطر لي قط أنّه أصبح بذلك عميلاً من ذلك النمط من العملاء الذين نقرأ عنهم في النشرات السريّة.

لم يتوقف سالم عن سرد التاريخ الغريب لعشيرتي حتى ناداه الفرّاش وقال له إنّ هناك شخصاً يريده على التليفون. فخرج مسرعاً ولم يعد. خلال ذلك لاحظت أن طعمة كان يجلس قرب السور المنخفض، المطل على الساحة والجامع، مديراً ظهره للحاضرين؛ ولكنّه كان غالبية الوقت يدير وجهه إلينا متابعاً حديث سالم، ولم ينطق خلال ذلك بكلمة واحدة.

بعد أن غادر سالم النادي ساد صمت أحسست بوطأته منذ اللحظة الأولى. كان الحاضرون يعانون من هذا الصمت الذي حطّ فجأة، أو من الانقطاع المفاجئ لذلك الصخب المتصل والحركة الدائبة. وهنالك الكثيرون الذين كانوا يرون في صخب سالم وحركته الغريبة أمراً مضحكاً. ولكنهم أخفوا ذلك بانطواء على الذات. فمن كان منهم على استعداد لمواجهة سالم وأنصاره في مجال التندّر والسخرية؟ محمود؟ ولكن محمود كان منكمشاً، يخفي رقبته في ياقة قميصه، محني الكتفين، ذراعاه مصلوبتان على صدره. كان باختصار يعيش حالة ذعر حقيقية.

كنت أختنق. اقترحت أن ننهض فوافق أصدقائي.

٢

لم نعثر على القوّاد. بحثنا عنه في كل مكان: حارة المهاجرين، الجسر، شارع الملك طلال، الممر التجاري، المقهى الذي في الممر، شارع وادي السير... قلبنا الدنيا ولم نجده. كنا مرهقين ومتوترين، ولهذا عندما اقترح شفيق أن نذهب إلى مطعم جبري لنأكل كنافة بالجبنة وافقنا دون تردّد.

اجتذب انتباهي أنّ هنالك عدداً من النساء الأنيقات في المطعم. رأيت واحدة تأكل الآيس كريم بأن تمدّ لسانها، وتضع ما في الملعقة عليه ثم تبتلع لسانها، لتكرّر العملية مرّة أخرى. كان من الواضح أنها تفعل ذلك حتى تحافظ على مكياجها. كانت هنالك امرأة تدخن، وتخرج الدخان من منخريها خطّين متوازيين. كان على وجهها تعبير اشمئزاز وضيق، من ذلك النوع الذي يجعلك تعتقد أنها ولدت بذلك التعبير. عندما كانت تتكلّم تلتوي الشفتان ويتعمّق تعبير الاشمئزاز حتى أنّك تظن أنه موجه إليك بالذات. كان يجلس معها رجل متوتّر، لا يكف عن تحريك كرسيه، أو مدّ رأسه حتى يبرهن لها أنّه يصغي لكل كلمة تقولها؛ وكان يستجيب لكل ما تفعله بضحكات خائفة، معتذرة. بين آن وآخر يستفسر إن كان هنالك شيء يضايقها. لكثرة حركته اعتقد الجرسون أكثر من مرّة أنّ الرجل يناديه، فيقترب منه، ثم يكتشف أنّ الرجل فوجئ به، فيتراجع الجرسون معتذراً.

قالت المرأة:

ـ ا.. ف.... ت حر.

ضحك الرجل محرجاً، كأنّه هو الذي سبّب الحر، وقال:

ـ والله حر. شوب. افت. من الظهر وهيه نار.

لم ترد المرأة. قهقه الرجل فجأة، وأشار بسبابته إلى مروحة يد كانت أمام المرأة، وقال:

ـ المروحة.

هذا الجو الذي بدا لنا متأنقاً أشعرنا أننا دخلاء، وولّد في داخلنا عداء فأخذنا نتصرّف كأننا فلاحون قادمون لتوّنا إلى المدينة. أمام هذا الاحتقار المتخيّل أحسسنا بود وألفة نحو بعضنا لا نحسّهما في الأحوال العادية. قال شفيق للجرسون:

ـ نص كنافة .

ـ مثله .

ـ مثله .

قال خالد :

ـ أنا آيس كريم .

قال شفيق :

ـ مقطوع النصيب . أمه فطمته على شو إسمه؟ آيس كريم؟

أتى الجرسون بالطلبات ، فقال له خالد :

ـ قطمة خبز أغمّس فيها .

انفجرنا ضاحكين .

مدّ الجرسون عنقه متسائلاً ، فقال خالد :

ـ قطمة خبز أغمّس فيها . ربنا يخلّي لك عيالك .

انصرف الجرسون ، ونحن نضحك ، شفيق واصل الضحك بقوة ، وأخذت دموعه تسيل على جانبي أنفه . قال .

ـ قطّعت قلبي من الضحك . ربنا يجازيك يا خالد .

صاح خالد فجأة :

ـ ووه . . ووه . . ربنا يسخطكو من ربع زادكو ساقع . حطّوه عَ النار شوي .

ضحكنا ، ونحن نضغط أكفّنا على بطوننا . المرأة التي تشكو من الحر نظرت إلينا بدهشة ، وقد زال من وجهها تعبير الاشمئزاز . بل إنّ تعبيراً شبه ضاحك ، خفيف الظل ارتسم على وجهها .

غادرنا المطعم . اتجهنا إلى الممر التجاري ، نتظاهر أمام أنفسنا أننا نتسكّع بلا هدف . ثم انتهينا إلى الطرف الآخر منه و سرنا في شارع وادي السير . توقفنا أمام مبنى البريد ، ثم الممر التجاري . كنّا خائفين من فشلنا ، من تلك اللهفة المصممة التي قد تنتهي بالفشل .

توقفنا أمام إحدى المكتبات ، وقد علّقت على خيط داخل الفترينا الصحف اللبنانية والسورية . أخذنا نقرأ العناوين وعيوننا تنتقل بسرعة إلى الممر التجاري ، ثم

تعود إلى الصحف. قرأ سمير بصوت مرتفع: «هيئة الأمم تبحث مشكلة تعويض اللاجئين.».

قال خالد:

ـ من ألفين سنة وهيه تبحث التعويضات.

واستمر سمير يقرأ: «يطير، يقابل، يجتمع، يصرّح، يستقبل، يودّع، يستقبل...».

قال خالد:

ـ واستقبله هاشاً باشاً.

وضحكنا، وقد تذكرنا قصة عضو البرلمان الذي قال: «الشريف عبدالله استقبل الهاشا باشا».

واصلنا السير صامتين. كل جملة يلقيها أحدنا تقابل بردود فعل باردة. وكان الشارع قد أصبح شبه خال. أصبح لخطواتنا أصداء موقعة.

بعد مضي ما يزيد على ساعة من مسيرتنا لم نعد نستطيع التظاهر بأننا مجرّد متسكّعين. التظاهر قد أرهقنا وأصبحت أحاديثنا مناقشات جارحة. لهذا نظمنا البحث. كل اثنين يسيران سويّاً. قال سمير:

ـ لقيناه، لقيناه؛ ما لقيناه ندوّر على غيره.

قال شفيق:

ـ إحنا عارفين حدا غيره.

قال سمير:

ـ بنعرفوا من وجوههم.

قال خالد بحدّة:

ـ مكتوب عليها؟

قلت وقد أزعجني هذا النقاش:

ـ بلاش نختلف. إحنا وجهدنا.

أحنى شفيق رأسه وقال إنّ هذا كلام معقول. دخلنا الممر التجاري. شعرت أنّ هنالك أعيناً تراقبنا. جلسنا في المقهى الشعبي. كان مزدحماً بالروّاد. كانت الضجة لا

تطاق. طلبنا شاياً لأننا لم نستطع أن نفكّر في شيء آخر. بعد قليل خفتت الضجة، أو ربما تمثّلت إيقاعها واعتدتها. كنا خائفين فصمتنا. شرب شفيق من الشاي. فكشّر وقال:

ـ يحرق ديكه، مثل النار بلسع.

ارتفعت أصوات تهدّد بشجار. نظرنا باستنكار. ثم هدأت الضجة فقال شفيق:

ـ شوب والله.

وكأنّه أصدر أمراً. خلع سمير جاكتته وفعلنا مثله. أخرج سمير ورقة من جيب جاكتته الداخلي وأخذ يهوّي بها. مدّ شفيق يده وأمسك بيد سمير التي تهوّي بالورقة، فتوقفت عن الحركة، وبدا الذهول على وجه سمير وهو ينظر إلى يد شفيق.

قال شفيق بحدّة:

ـ إيش مخّك يا زلمة؟

اكتشفنا، واكتشف سمير، أنّ الورقة التي يهوّي بها كانت جريدة الحزب الشيوعي السريّة (المقاومة الشعبية). رأينا الشعار بوضوح، المنجل والمطرقة مرسومة بخطّ أسود عريض. ابتسمنا نعتذر لسمير عن غلطته. وضعها داخل قميصه، بين القميص والفانيلة بسرعة، وضحك مرتبكاً. قال:

ـ لو واحد...

قلت:

ـ لا. لا. ما حدا..

قال سمير:

ـ بقول لو.

دفعنا الحساب وغادرنا المقهى بسرعة. قال سمير لشفيق:

ـ زعلت؟

قال شفيق:

ـ أنا أزعل؟ يمكن إنت مش عارفني.

أدركت أنّ شفيق يردّ اتهاماً بالجبن. قلت:

ـ لكن لازم يكون عندنا يقظة ثورية.

كان سمير مبتئساً . قال :

ـ غلطت .

قال خالد :

ـ صار خير .

صوت سمير نصف الباكي أربكني . أدرك شفيق أنّ الكآبة سوف تسيطر علينا ، إن لم نغيّر الموضوع . قال بمرح :

ـ الإفلاس يا رفاق بدا يضرب أطنابه .

قال خالد بانفعال :

ـ كل واحد بكره يقدّم ورقة سلفة .

أحسست أنّ عليّ أن أقول شيئاً . قلت :

ـ لا تهتموا . أنا معايي مصاري .

قال شفيق :

ـ خلّي قريشاتك معاك . ملحقين عليهن .

قال خالد :

ـ اطّمن . حتى لو خلصت مصاريك ما احنا رايحين نخلّيك تسافر .

قال شفيق :

ـ وجودك ضروري يا رفيق جريس .

وهكذا زال الحرج في داخلي . كنت الوحيد الذي يملك نقوداً يمكن أن أستغني عنها . قال سمير :

ـ والله يا رفاق عمرنا ما بنصير أصحاب أموال .

قال شفيق :

ـ أصحاب أموال؟ قول عمر الواحد ما يملّي بطنه .

قال خالد :

ـ اللهم إلاّ في الديموقراطية الشعبية .

قال سمير :

Abu Abdo Al Bagl

ـ لا، لا، هذا موضوع ثاني. في الديموقراطية الشعبية بكفّي أنّا بنعيش أحرار. بكفّي إنه الواحد ضامن مستقبله ومستقبل أولاده.

قلت:

ـ آه يا أخي الواحد بده يضمن مستقبل أولاده.

وضحكنا. خالد وحده واصل ضحكاً لم يستطع السيطرة عليه. توقف وتوقفنا، وقال خالد خلال ضحكه:

ـ تصوّروا، تصوّروا، سمير بابا، سمير بابا...

انفصل شفيق عنّا، قائلاً:

ـ دقيقة.

سار مسرعاً، تخطّى رجلاً يسير على مهل، ثم استدار فجأة وأصبح في مواجهته. نشأ موقف مضحك. شفيق والرجل الآخر حاولا أن يفسح كل منهما الطريق للآخر ليمر، ولكنهما تحرّكا يميناً ويساراً سويّة. تكرّر ذلك أكثر من مرّة، ثم انفلت شفيق وهو يضحك ـ والرجل الآخر كان يضحك ـ وعاد إلينا. قال:

ـ حسبّته...

واستغرق في الضحك. ثم قال:

ـ الواحد قال... ملعون الوالدين طمس.

قال خالد:

ـ يا بخت المتجوّزين.

ساعة الساحة تشير إلى الحادية عشرة، كنت أشعر بانطفاء الرغبة، ولكن تصميماً ملحّاً في داخلي كان يدفعني إلى مواصلة البحث عن المرأة.

٣

ما كدنا نشعل الضوء، ونستعد لخلع ملابسنا حتى رأينا نضال يدفع الباب ويدخل. كان يرافقه شاب آخر قدّمه إلينا بقوله:

ـ الشاعر المناضل عبدالجبّار.

ثم أضاف بعتاب صارم:

ـ وين يا رفاق؟

قال خالد:

ـ كنا . . .

واستمر نضال:

ـ من ساعة ونص تقريباً واحنا بنستناكوا يا رفاق. لا هذه مش صحيحة وإلاّ إيش يا رفيق سمير؟

قال سمير:

ـ كنا في النادي.

كان الشاعر شديد الارتباك. ظلّ واقفاً في مكانه يبتسم بخجل وحرج، إلى أن قال له نضال:

ـ ليش مستحي؟ هذول رفاق.

ازداد ارتباكه، فتقدّم وصافحنا بعينين مسبلتين. وعندما جلس حاول أن يشغل أقل حيّز ممكن. ضمّ ركبتيه إلى صدره وطوّقهما بذراعيه. قال نضال بجدّية غاضبة:

ـ أقدّم لك الرفاق سمير وشفيق وخالد و . . .

كان يشير بيده إليّ ويهزّها، كأنّه يقول لي: «هيا! اكشف عن اسمك» فقلت:

ـ جريس.

فأكمل نضال كلامه:

ـ جريس؟ جريس.

وضيّق عينيه كأنّ اسمي قد سبّب له ألماً مفاجئاً في المعدة فانسحب وجهه، وأخذ يصغي إليه. ثم توجّه إلى عبد الجبّار وقال:

ـ الرفيق خالد من كتّاب القصة المتازين، ولازم تستفيدوا من بعضكم. يا رفيق خالد، هات القصّة سمّعها للرفيق عبدالجبار.

كان عبد الجبّار يعود إلى ارتباكه بمجرّد أن نتوجه إليه بالحديث أو بالاهتمام. قدّمت له سيجارة فاحمرّ وجهه وقال:

ـ شكراً.

فقال له نضال:

ـ بلاش الأساليب البورجوازية هاي يا رفيق.

فضحك وتناول السيجارة. وعندما قدّمنا له الشاي لم يغيّر من جلسته. أخذ ينقل كأس الشاي من الأرض، يمرّ به بين ركبتيه، ثم يشربه باقتراب فمه من الكأس.

بعد تردّد، بدأ خالد يقرأ قصته. كان نضال يقاطعه بين الحين والآخر موضّحاً الدلالات ومنبهاً إلى الأحداث القادمة. فعندما قرأ خالد الجزء الذي يصف فيه الفتاة وهي تدخل الحديقة وتنظر إلى الراوي، قال نضال:

ـ ما كان بعرف إنها شرموطة.

رغم أنني قررت ألاّ أصطدم بنضال ـ بعد حديث شفيق معي عنه ـ إلاّ أنني لم أعد أطيق سماع تعليقاته. فنهضت وخرجت إلى الحوش.

الخروج من ذلك الجوّ الحار، الخانق بالروائح كان نعمة حقيقية. برودة خفيفة تشيع في الجو، وظلمة خالصة نقيّة، والنجوم تشعّ بقوة، والصمت. أحسست بجسدي يرتوي بعذوبة الليل. ماذا أفعل مع نضال هذا؟ قلت لنفسي. تسرّب نضال إلى داخلي فحدست معاناته. إنّه إنسان حسّاس حدّ المرض، ومعتد بنفسه، وقد جرحته بعمق. أدركت أنّه يعرف سخف سلوكه، ولكنه يتقصّد هذا السخف حتى يردّ على ما يعتقده من إهانة وجهّتها له.

ثم خطرت لي صورة عبدالجبّار في جلسته و ارتباكه. لقد أحببته بحقّ. كان نقاء محضاً. عندها شعرت أنني أسيء إليه بخروجي من الحجرة خلال قراءة القصّة. دخلت الحجرة. كان خالد يقرأ الفقرات الأخيرة للقصة، تلك الفقرات التي لم أحببها. كنت أشعر أن خالداً آخر يكتب. ذلك الذي يريد أن يستمتع بامرأة جميلة دون أن يرتبط معها. كنت أفكّر بسلطانة. حلمت كثيراً بها كزوجة، ولم يخطر بخيالي قط أن تموت.

قلت لعبد الجبّار بعد أن جلست:

ـ أنا سامع القصة قبل هيك.

رمش بعينيه ولم يقل شيئاً.

عندما انتهى خالد من قراءة القصة طواها بعناية، وهو يحني رأسه، ووضعها في جيب جاكتته الداخلي التي كانت ممددة خلفه. توجه شفيق إلى عبدالجبّار وسأله:

ـ إيش رأي الرفيق؟

نهض عبدالجبّار فجأة وصافح خالد بحرارة، وقال:

ـ عظيمة.. يعني فظيعة.

تبيّن لي أنه أصغر سناً مما تصوّرت في البداية. بعد أن انتهى من مصافحة خالد عاد إلى الجلوس بنفس جلسته السابقة، وهو أشدّ ارتباكاً. نظرت إليه فرأيت كتفيه ينحنيان تحت عبء نظرتي. قلت:

ـ هلا بدنا نسمع قصيدة من الرفيق عبدالجبّار.

قال:

ـ والله، يعني...

قلت:

ـ إيش؟

قال:

ـ مش حافظ.

ثم وافق في نهاية الأمر أن يقرأ لنا قصيدة بعد إلحاح طويل، أخرج ورقة من جيبه وأخذ يقرأ. كان طيلة الوقت ينظر إلى الورقة. قرأ بوضوح ودون ارتباك.

كانت القصيدة تدور حول البؤس داخل المخيّم الفلسطيني: هذه المرأة العجوز المحنية الظهر، المجعّدة الوجه كانت تعيش في نعيم قبل أن تطرد من يافا ولكنها الآن تعيش في خيمة تخنقها في الحر، وتجمّدها في الشتاء.

عندما انتهى الشاعر قال شفيق:

ـ قصيدة فظيعة، ممتازة.

ابتسم نضال، وأحنى رأسه، وكأنّ المديح موجّه إليه. قال سمير بحماس:

ـ فن رفيع يا أخي.

قال نضال:

ـ تصوّروا يعني لو كان الرفيق عبدالجبّار بعث هاي القصيدة لجريدة من الجرايد الصفراء كان طبعاً...

فقاطعه سمير وقال كمن يسمّع درساً:

ـ طبعاً مش رايحة تنشرها .

وأخذ نضال يقارن بين هذا الشعر الثوري وشعر أبو نوّاس الذي يصف الخمر والنساء والفحش، يصف الحياة البورجوازية المنحلة، والحياة في قصور الخلفاء. لسبب غير مفهوم رأى سمير أن يعارض نضال ـ وذلك يحدث للمرّة الأولى أمامي ويقول :

ـ لكن أبو نواس شعره سلس متين .

قال نضال بحسم :

ـ والرفيق عبدالجبّار شعره سلس متين .

Abu Abdo Al Bagl

١

في الساعة السابعة مساء وصلت مكتب النائب. كان في الطابق الثالث من بناية في شارع السلط. توقفت وأنا ألهث إلى أن استعدت تنفسي الطبيعي ثم ضغطت على الجرس، وعلى الفور انفتح الباب. كان النائب نفسه هو الذي فتحه. قلت:

ـ موسى . . .

ولكن الرجل استقبلني بحرارة وقال:

ـ موسى جوه.

الحجرة التي دخلتها كانت أشبه بحجرة انتظار في عيادة طبيب: كنبات قديمة مصفوفة لصق الجدران الأربعة، وطرابيزة طويلة، منخفضة، فوقها مجموعة من الجرائد والمجلات. على الجدران صور للمسجد الأقصى على خلفية مدينة القدس. كانت صورة فوتوغرافية. ونسخ عن صور زيتية لصحراء، وخيام سوداء، وجمال، وبدو يركبون الخيول.

كان يفصل الحجرة عن الحجرة التالية باب خشبي أشقر. عندما انفتح رأيت فخامة لم أتوقعها. كان الجدار المواجه للداخل مغطى بستائر بنية غامقة من المخمل، والأرض مفروشة بسجاد ذي ألوان هادئة. والحجرة كانت مقسومة إلى قسمين: الأول، على يسار الداخل. مكتب كبير جداً في الطرف، له لون القهوة المحمّصة، سطحه مغطى بمخمل أخضر، وفوقه لوح من الزجاج السميك. ظننته في أول الأمر بيانو. وراءه كرسي جلدي، وأمامه عدد من الكنبات الفخمة. أما القسم الآخر، الذي على يمين الداخل، فقد كان صالوناً كبيراً تحيطه كنبات أنيقة، بين كل اثنتين طرابيزة خشبية فوقها لوح زجاج. في نهاية الصالون باب خشبي يؤدي إلى الداخل.

لم أرَ موسى إلاّ حين وقف. صافحني بمودة وألفة، وقال:

ـ دقيق في مواعيدك .

وضحك .

ابتسم النائب لي حين جلست وقال :

ـ أهلاً وسهلاً استاذ جريس .

ـ شكراً .

قلت . وترقبت الخطوة التالية . لم يكن موسى ينظر إلى أي منا . كان يتأمل صورة معلّقة على الجدار الذي يواجهه . التفت إلي النائب فأصبح وجهه قريباً مني . عن قرب لم استطع أن أرى بؤبؤي عينيه . كانا ممتزجين بالسواد . ومن هذا القرب بدا لي أحول ؛ له نظرة أعمى يعتقد أنه ينظر إليك ، في حين ، تلاحظ ، أن عينيه تنظران إلى داخله . قال :

ـ نشرب ويسكي قبل الأكل؟

وهو يفرد مسافة صغيرة بين إبهامه وسبابته . فتصورت أننا سوف نشرب في كؤوس صغيرة جداً . قلت :

ـ مثل ما بتحب .

قهقه النائب دون سبب واضح وقال :

ـ مثل ما بتحب أنت . أنت الضيف .

ثم قال بلهجة جادة :

ـ بتشرب جن؟

وقد ضيّق المسافة بين إبهامه وسبابته ، احتفظ بيده وبفمه مفتوحين قليلاً في انتظار إجابتي . قلت :

ـ يعني مثل . . .

قاطعني موسى قائلاً :

ـ ويسكي ، ويسكي!

فتح النائب خزانة صغيرة ، أضيئت من الداخل ، وأخرج منها أكبر زجاجة ويسكي رأيتها في حياتي . وضعها على المائدة المنخفضة الموضوعة بيني وبين موسى . أمسكها موسى من عنقها ، وأخذ يتفحصها ، ثم قال :

ـ كوين ماري . منين لك هاي ؟

قال النائب :

ـ اجتني هدية .

لم أكن أتصور أن مذاق الوسكي سيء إلى هذا الحد . كنت أتصور أن طعمه سوف يكون أشبه بطعم الليمون . نفذت لسعته إلى أنفي واستقرت كالنار في معدتي . ابتسم لي النائب وهو يحمل كأس الويسكي في يده . كان الخجل يبدو على وجهه حين قال لي :

ـ مشروب بورجوازي . لا تؤاخذنا .

الجرعات القليلة من الويسكي جعلتني أكثر جرأة . كنت أعلم أن النائب يسخر مني ، فقلت :

ـ بتسمح لي بشوية ميه ثورية اخفّفه .

رغم سوء مذاق الويسكي ، فقد قررت أن أواصل الشرب . لكنني بدلاً من النشوة التي كنت انتظرها أحسست بدوار . قررت أن اتماسك وأبدو طبيعياً ، وأن لا أتكلم كثيراً . ولكن الدوار اشتد . وعندما كنت أتكلم أسأل نفسي : هل يسمعونني؟

حاولت أن أركز انتباهي على الحديث الدائر ، و لكنه كان يدور حول مسائل غير مفهومة . شعرت بالإهانة . نظرت إلى ساعتي ، فابتسم لي النائب وقال :

ـ شرفت .

نظرت إلى موسى فقال :

ـ بكّير . الساعة ثمانية .

عندما نظرت إلى ساعتي تصورت أنها بلغت الثانية عشرة إلا ثلثاً . قلت :

ـ بس ؟

بعد قليل وضع أمامنا على الطرابيزة الطعام خادم يلبس قمبازاً حريرياً . بدا شكله غريباً . ثم اكتشفت إن مصدر الغرابة هو لأن الخادم يلبس قمبازاً في حين إن رأسه كان عارياً . لقد تعودت رؤية القمباز مع الكوفية والعقال . وضع أمامنا كمية كبيرة من "لحم المقطّع رأس العصفور والمقلي بالسمن والبصل . كان هنالك سلطة ، وجبنة بيضاء ، وبيض مسلوق ، وزيتون ، ومقدوس . أكلت دون توقف . لم أكن استطيع

أن أتوقف . شعرت أنني ازداد جوعاً وأنا آكل .

قال لي النائب :

ـ إن شاء الله رايح تواصل تعليمك؟

بدا وكأنه ينبهني إلى شناعة إقبالي على الطعام. كان موسى ينظر إلي بغرابة، توقفت عن الأكل وقلت :

ـ رايح بيروت .

وضحكت دون سبب .

قال النائب :

ـ بيروت؟

قلت :

ـ آه الجامعة الأميركية .A.U.B .

وضحكت أيضاً .

كانت الكنبة التي أجلس عليها مريحة . شعرت ، بعد الطعام ، باسترخاء فأخذت أتثاءب . الأغلب إنني نمت . ولكن موسى قال شيئاً جعلني انتبه . يبدو أنه تكلم كثيراً ، وكانت آخر عبارة قالها وجعلتني أستيقظ :

ـ . . . رايحة تنال الثقة ؟

قال النائب :

ـ إذا شدينا حيلنا وعدّلنا قانون الاقتراع .

استوضحت من النائب عن القانون ، فقال إن القانون الحالي لمجلس النواب ينص على أن الحكومة تسقط إذا صوّت ضدها أكثر من الثلثين بواحد ، والتعديل يطالب أن تسقط الحكومة بالأغلبية العادية : نصف زائد واحد .

قال موسى شيئاً غير واضح فقلت :

ـ الوسائل البرلمانية . . .

ثم تبينت أنه خير لي أن أصمت ، لأن رغبة مفاجئة في التقيؤ انتابتني عندما تكلمت . أخذت ابتلع ريقي بصعوبة ، وشعرت بالحجرة تدور . سألني موسى إن كنت أشعر بتعب فهززت رأسي لأنني خفت أن أتكلم فأتقيأ . نادى موسى الخادم

Abul Abdo Al Bagi

وطلب منه أن يأتي بعصير ليمون . جاء الخادم ، بعد قليل ، بكأس ممتلئ حتى النصف بعصير ليمون دون إضافة ماء إليه . قال موسى :

ـ اشربه مرة واحدة .

شربته فشعرت بتحسن على الفور . شعرت كأن غشاوة كانت تغطي عيني وزالت عنهما ، قال لي موسى :

ـ أحسن ؟

فقلت :

ـ أحسن .

قال موسى ، موجّهاً حديثه إلى النائب :

ـ جريس عنده فكرة عن الموضوع .

فالتفت النائب إليّ وقال :

ـ والله العظيم إني حشرت في هذه المسألة حشراً ، وأنا بعيد عنها وما إلي فيها أي علاقة . يعني . . يعني . . حتى البنت عمري ما شفتها في حياتي إلا لما جابها الأب المحترم .

ضحك موسى وقال :

ـ قال ، عمره ما شافها في حياته .

ضحك النائب وقال :

ـ مؤامرة ضدي .

قال موسى :

ـ جريس عارف كل شيء . أدخل في الموضوع .

قال النائب :

ـ يعني في إيدك إسقاط حكومة بتبيع بلادنا للمستعمرين .

سمعت شخصاً يصرخ ويعربد في الخارج ، ثم اقتحم علينا الحجرة كالقنبلة وهو يقول :

ـ سعيدة مباركة عليكم جميعاً يارجال ولا رجال .

قال موسى :

Abu Abdo Al Bagl

ـ إجا ، يا رجال ، ولا رجال .

محاولاً تقليده بتخفيف حرف الجيم حتى يقترب من حرف الشين .

كان الشاب ضخم الجثة ، قصيراً ، له خدان مدوّران كخدود الأطفال . كان يلبس بذلة شاركسكن بيضاء . صافحه النائبُ وهو جالس ، وقال :

ـ أهلاً أبو برمك .

نظرإلي أبو برمك وقال :

ـ مين الببو هذا ؟

قال له النائب :

ـ الأستاذ جريس . . .

ثم رمقه بنظرة ذات معنى وذكر له اسم قريتي . قال أبو برمك :

ـ وكمان استاذ ؟

نهضت ، فصافحني بيد لينة ، مبللة بالعرق وهو ينظر إلى موسى ، ويكلمه ، ثم صافحه موسى باشمئزاز وهو يقول :

ـ دايماً قليل أدب وفوضوي .

قهقه وهو يدندن لحناً ويرقص . كان ينحني ويمسك بيدي وهو جالس ويرقص . لم يكن ينحني بالضبط (فلقد كان قصيراً جداً ، ليس أطول من موسى بكثير وموسى جالس) بل يتراجع كرشه إلى الوراء ، وتبرز عجيزته ، وخلال ذلك كان يردد :

ـ عزيزنا ، حبيبنا ، موسى بك ، ، دام سعده ، كان أمة وحده ، سامحك الله ، عبد الله . . .

جذب موسى يديه بعنف وقال :

ـ خليك زلمه .

والنائب . خلال ذلك ، يحاول أن يجذب انتباهه بنظرات صاعقة ، وجذب طرف جاكتته ، ومناداته : «ولك ، يا حمار» ولكن أبو برمك يتفلت منه ويواصل رقصه وصخبه . قال النائب بحزم غاضب :

ـ الأستاذ جريس شاب ممتاز .

فلا يلتفت إليه ، ويقول :

- شرف كبير .

يقولها بعدم اكتراث ويواصل رقصه وحكاياته ، والنائب لا يكف عن مناداته . كنت أرغب بالفعل أن يعرف من أنا ، ولماذا دعاني النائب هذه الليلة لأسهر في مكتبه ، وأنه يستعمل ستار الوطنية حتى أساعده في التنصل من عملية اغتصاب قاصر ، وأن يعرف أنني هنا لأضغط على أهل أميرة ، وأن ينخدع ، كما انخدع النائب ، بالاعتقاد أنني صدقت ما يقوله . رغبت في ذلك بالفعل لأن الجو المتوتر وصخب أو برمك قد أرهقاني ؛ ولأنني - مع موسى - لنا لعبتنا الخاصة ، ولي ، أيضاً ، حبي الخاص لسلطانة .

استمر أبو برمك في ضجيجه ، ثم أخذ يتحدث إلينا كالخطيب . كان جذعه مائلاً إلى الأمام ، وعجيزته بارزة خلفه ، والعرق يغطي وجهه بعشرات النقط الرجراجة ، البرّاقة من العرق . كان يتكلم بصوت مختنق ، حاد ، شاك كصوت الأطفال المنفعلين :

- اليوم ، تصوروا يا أخوان ، بنشرت سيارتي على طريق صويلح . وقّفت تاكسي وضربنا تليفون . لقيت ما عندي ريزيرف . المهم ، تصوروا ، الوسخ ابن الشرموطة مأمون مرّ في سيارته من قدامي وما وقف . بتقول ما شافني؟ (لم يقل أحد ذلك) ما شافني قال . . .

وصرخ :

- عيني إجت في عينه ، مثل ما أنا شايفكو . .

ثم أخذ يذرع الحجرة بخطوات راقصة . كانت هنالك نقطة عرق كبيرة تقف على طرف أنفه ، تتأرجح استعداداً للسقوط ولكنها لا تسقط . تابعتها بلهفة كنت أرغب أن يتخلص منها . كان يقول :

- يا سـلام يا أخـوان . . تاتاتم . . . تراتاترم . . ت تتم . . . تم . . . ويرقص ويتكلم :

- مبارح كنت في نادي عمان . رقصت مع واحدة . يا حبيب الله!

ثم أخذ يقلّد صوت المرأة :

Oh, please, please, kiss me my darling. (1)

(١) أرجوك ، أرجوك، قبّلني يا حبيبي .

ومضى :

ـ تصوروا ما كنت بعرفها . أما إيش يا مولانا ، إشي فخم . مش مثل صاحبتك عميرة والاخميرة . . .

زعق النائب وقد احتقن وجهه بالغضب :

ـ اخرس يا أخي .

ضحك أبو برمك وقال :

ـ بعدك بتحبها ؟

أشار النائب إليّ :

ـ الأستاذ جريس .

قهقه أبو برمك وقال لي :

ـ حضرتك متعصب؟ خلّوه علي .

ضحك النائب بمرارة وقال لموسى :

ـ إيش رأيك في ها البغل اللي قدامك؟

فضحك أبو برمك بطيبة وقال :

ـ اتركوه إلي ، أنا الليلة مواعد واحدة تخليه يكفر في الأب شربل ، القديس اللي لسّه الميّه بتنقط من جسمه . . .

أمسك النائب بيد الشاب وأخذ يجذبه ، فأخذ أبو برمك يزغزغ النائب تحت إبطيه وفي خصريه ، فيتلوى النائب كالراقصة ، بينما وجهه قاتم ، عابس . نهض النائب فجأة ودفع أبو برمك بعنف أمامه ، وأبو برمك يلتفت إلينا بذهول ضاحك . قال النائب :

ـ تعال معايي جوه أقول لك كلمة . .

سأل أبو برمك :

ـ فيه شي ؟

ثم التفت إلينا وقال :

ـ مبين فيه شي .

ثم وضع يده المبللة بالعرق على رأسي وقال :

ـ باي ، باي ، لمدة دقيقتين .

موسى ألقى رأسه على مسند الكنبة ، وأخذ ينظر إلى السقف ، كان غاضباً ، فقلت :

ـ الدنيا حر .

ردّ دون أن يحوّل عينيه عن السقف :

ـ نار .

ثم استقام جذعه والتفت إلي وقال :

ـ تقوم كمان شويه؟

قلت :

ـ أحسن .

كانت ستائر القطيفة الحمراء تنتفخ بالهواء الخارجي وتتلوى ، وكأنها مصابة بمغص . فكرت أن أميرة قد جلست في هذه الحجرة في أول مرة ، فتغيّرت مصائر كثيرين . لحظة التقاء الذكر مع الأنثى ، حتى لو كانت تلك الأنثى خادمة لا يزيد عمرها عن أربعة عشرعاماً ، تغيّر العالم . امرأة مرصودة لتغيير المصائر . لماذا لم اخترها هي؟ ولكن من الذي اختار الآخر : أنا أم سلطانة؟

اندفع أبو برمك كالقنبلة . وتبعه النائب على مهل . تصورت أن أبو برمك سوف يواصل اندفاعه حتى يصل إلى نهاية الحجرة . كان هذا مدى الاندفاع . ولكنه توقف أمامي وقال :

ـ يا سيد مرقس!

فكرت أن أذكره باسمي ولكنني عدلت عن ذلك . كان وجهه غاضباً ، وعيناه تحدّقان بي بشراسة . قال :

ـ ما كفتكوا المصاري اللي أخذتوها ، وجاي هلأ بدك مصاري؟ وبعدين؟ هذا اسمه ابتزاز . . .

سار نحوه النائب وقال :

ـ يا حمار . انقلع بره .

أخذ أبو برمك يتكلم برجاء :

ـ كلمتين وماشي .

ثم التفت إلي وقال :

ـ قديش بدك يا مرقس أفندي؟ بس هاي رايح تكون . . . .

صفعه النائب على وجهه وقال :

ـ غور، انقلع .

ظل النائب يتبعه . وهو يدفعه حتى أخرجه . في الحجرة الخارجية سمعت صوت صفعة وأمراً بالخروج فوراً .

عاد النائب يلهث، وحيداً ؛ وجلس محني الرأس ، لا ينظر إلى أحد منا . قدرت أن موسى سوف يتكلم ، ولكنه نظرإلي وابتسم ، وقال :

ـ شفت؟

التفت إلينا النائب وقال :

ـ سكران . أنا متأسف يا أستاذ مرقس .

ضحك موسى ، فقال له النائب وهو يبتسم :

ـ إيش صار ؟

قال موسى :

ـ ولا شي .

قال النائب :

ـ اشربوا يا جماعة ، الليل في أوله .

قال موسى :

ـ اللي شربناه بكفّي .

أخذ النائب يتحدث . قال :

ـ انت بتعرف انجليزي منيح ، مش هيك؟ ليش بسأل ، لأنه فيه عندي جرايد انجليزية ، فيها مقالات بتفضح الحكومة . بدنا إياك ـ بتكلم باسم الحركة الوطنية طبعاً ـ تترجمها ، وطبعاً رايح ندفع لك .

قلت :

ـ لا .

Abu Abdo Al Bagl

قال :

ـ يا سيد خذها وأعطيها للرفاق .

قال موسى :

ـ رايح أكلمك بصراحة . جريس إنسان ملتزم ، ومش مسموح يكون إلك صلة مباشرة فيه . لما بدك إشي منه اتصل في الحزب ، وانت عارف في مين تتصل . سامعني .

ونهض ، ونهضت .

٢

لا أدري كيف نمت . ولكنني استيقظت عند الفجر ، والجميع نيام ، وتقيأت . في حلقي وأنفي ألم ، وطعم مر . عدت إلى الفراش ونمت . استيقظت في العاشرة صباحاً . شعرت بدوار . نهضت وحاولت أن أتقيأ فلم استطع . دخلت دورة المياه ، فاكتشفت إنني مصاب بإسهال .

أعددت شاياً . كان هنالك بقايا خبز وقطعة جبنة أكلتهما مع الشاي . للطعام مذاق مر . نظرت إلى الشرفة البعيدة حيث تقف الفتاة عادة بملابسها الزرقاء . كانت الشرفة خالية ومحايدة . اعتبرت ذلك حظاً سيئاً ، وإن يومي سوف يكون مليئاً بالاحباطات .

سرت في الشارع . ضوء الشمس كان قوياً ، ولم أستطع رؤية الشارع بوضوح . جلست في مقهى صغير . طلبت قهوة دون سكر . جاءني به الجرسون مع كوب ماء مثلّج . قال :

ـ إيش مالك؟

قلت :

ـ دايخ .

قال لي :

ـ سلامتك . أجيب لك إسبيرين؟

قلت :

- لو تسمح .

دفعت الحساب وأنا أشعر بتحسن بعد أن شربت الأسبيرين والقهوة . من دكان يبيع الخضار اشتريت ليمونة كبيرة . قشرتها وأكلتها . استولت علي يقظة باهرة .

أمام بيت قريبي أدركت، لأول مرة ، أنني سوف أزورهم بالفعل . داهمني الضيق لما ينتظرني عند زيارة الأقارب : رائحة النظافة[1] ، الوجوه التي تحمل الإدانة ، إدانة قاطعة ونهائية تجعلك تحس بالوحدة «انت حر» ولأنك حر فأنت لا تنتمي إلينا «ورّينا أسنانك حتى نعرف أنت بتدخن والا لأ» ورغم إنك لا تدخن ولكن مدان : «أنا شو بخصني؟ دخّن وذنبك على جنبك» . . والنظرات المستنكرة ، تمضي في استنكارها حتى تصبح غائمة لا ترى - أنت لم تعد موجوداً ، فكيف تراك؟ - الخطايا التي لا تُغفر، ولا تنسى، تظل دوماً معلقة في الهواء تهدد بالسقوط على رأسك في كل لحظة، تتخلل كل كلمة تقال ، كل إيماءة ، وكل حركة وإيماءة . . آلهة منتقمة . . وأشعة الشمس في الحوش المبلّط صورة ثابتة للملل وخوف طويلين، وحذاء طفل على الأرض ، وجورب قديم ، ولعبة مكسورة ،ورائحة لا تنسى . . يجب أن أعود . .

طرقت الباب . صوت حركة مبهمة في الداخل . ما زال الوقت متسعاً لأنجو . حذاء طفل وصفيحة ماء لمسح الأرضية . النظرة التي تجاهد أن تخفي الضيق فتفشل ، الضيق بسبب دخول إنسان قد يلوّث الأرض الممسوحة بأقدامه ، قد يسبب خللاً في الميزانية المحسوبة بالمليم . . اهرب ، لا تتوقف ، قدماي لاتطيعان . انفتح الباب فجأة. خلفه طفل وطفلة يقولان معاً :

- عمو جريس ، عمو جريس.

وأمهما تقف في منتصف الحوش تقول :

---

(١) ما زلت حتى الآن أعيش كابوس البيوت اللامعة بالنظافة. ترتبط في ذهني بالأيدي المتورمة الحمراء ، والوجوه الغاضبة الحاقدة ، والأوامر التي تجعل الحركة محسوبة ومراقبة «نظف الكندرة قبل ما تدخل . أدخل بسرعة حتى الذبان ما يدخل» خليك واقف الأوضة ما نشفت . . . بالتقديس لنظافة البيت حد الخيانة والوشاية :«يا ماما خليل رمى الخبز على الأرض. لا والله يا ماما هيه اللي شدت إيدي وخلتني أوقّع الخبز . . . » وترتبط رائحة النظافة في خيالي برائحة الفقر، والتظاهر الطقسي ، الاحتفالي بالثراء.

ـ أهلين وسهلين .

ما أرهب تلك اللحظات التي تعقب انحسار موجة الترحيب الأولى ، اللحظات التي تطالبني بالانصراف . استقبلتني بلجيا بوجه عرقان ، وأنف منتفخ بالإجهاد والغضب المكبوت . وجسد مبلل (بلجيا وكل نساء العائلة لا يخطرن في خيالي إلا مبللات) وشعر منكوش ، ونحرها عار حتى أعلى الثديين (اللحم المبذول ، اللين ، العرقان ، المقزّز : لحم المحارم) . قبلتني بشفتين جافتين على خدي وقالت :

ـ كيف حالك ياجريس؟

أدخلتني حجرة الجلوس . غابت وعادت بعد قليل بصينية عليها فنجان قهوة واحد . . وأنا أعرف هذه القهوة التي تتحول إلى ماء بني اللون إذا لم أشربها على الفور . سؤالها الأول ـ شعرت ـ له طابع استنكاري : لماذا جئت إلى عمان ما دامت الإجازة الدراسية لم تنته؟ وأين أسكن؟ لماذا لم أسكن عندهم؟ سألتها عن صحتها فقالت إنها في صحة جيدة . ولكن ظهرها يؤلمها . تمسك يدي وتجعلني أضغط على المكان الذي يؤلمها . عندما ضغطت أنّت :

ـ أيّ .

وأضافت :

ـ هون الوجع .

وسألتها عن ابن العم غانم . قالت إنه في صحة جيدة ، ولكنه يدخّن كثيراً . أحياناً ، عندما ينام في الليل ، يصبح صدره كالصفّارة . قالت :

ـ صدره مزّك ، مزّك . . .

قدمت لي علبة الحلوى الطفلة عزيزة . رأيت يدي بلجيا الكبيرتين تنضغطان على ركبتيها . رأيت اللون الوردي يهرب من أظافرها ليصبح أبيض . تناولت قطعة التوفي . تابعت عيناها يدي وهما تنزعان الغلاف الورقي الشمعي ، وأنا استخرج قطعة الحلوى ، ثم تتابعني العينان وأنا أضعها في فمي . وشهدت شيئاً غريباً يحدث وهي تراقبني . انفتح فمها قليلاً . وانكشفت أسنانها البيضاء المتسقة . ثم أغلقت فمها وبدأت حركة ابتلاع تنتفخ بها رقبتها قليلاً ، ثم تتقلص . وخلال ذلك كانت عيناها تتأملان حركة فمي بنظرة ثابتة .

ثم تنهدت ، وأحنت رأسها ، وأخذت تنظر إلى يديها اللتين تستقران على بطنها . كانت تلك هي اللحظة المأساوية التي تسبق الوداع . كان المطلوب في تلك اللحظة أن أنهض بشكل مفاجئ، فترفع نحوي وجهاً جنائزياً ، وتقول بذلك الصوت الذي تتخلله التنهدات :

ـ خليك قاعد .

فأصرّ على الانصراف ، وتقول هي ، وهي تسبقني إلى باب الحوش، إن علي أن أبقى للغداء ، فأقول إنه لا بد لي أن أنصرف وفي الحال . فتقول هي ، وهي تفسح الطريق لخروجي ،إنها لا تعتبر هذه زيارة ، وإنني يجب أن أزورهم مرة أخرى . ولكن ما حدث كان خلاف ذلك . خطر لي ، وهي محنية الرأس ، تتنهد وتعد وجهاً جنائزياً لتوديعي، الخاطر التالي : كيف تكون في السرير مع زوجها؟ وفي اللحظة ذاتها أحسست بمعدتي تثور ، والرغبة في التقيؤ تعاودني . ولكن الخاطر ألحّ علي وأخذ مساره الخاص به . حاولت أن أتخيّلها وهي تندفع في ممارسة الجنس بشبق وعربدة ، فلم استطع . لم أرها ـ خلال ممارسة الجنس ـ إلاوهي تحمل هذا الوجه الحزين ، البارد. أحسست بالضحك يكبس عليّ .

لقد حررتني هذه الصورة من كابوسية الموقف . لذا قرّرت أن أبقى للغداء وليحدث ما يحدث . إنني أستعيد ، الآن ، ذلك الموقف ، وأسأل نفسي : ما الذي جعلني أبقى في هذا الجو الكئيب ، في بيت أناس لا يرغبون في وجودي؟ أهي الرغبة في إهانة الذات ، أم هي إعلان الثورة على قيم السلوك المحترم التي تقدّسها العائلة ؟

لا أدري السبب .

كانت الطفلة قد وضعت علبة الحلوى على كرسي خشبي قريب من الباب ، ووقفت تنظر إلى أمها . ولاحظت أن ثديي الأم الكبيرين أخذا يدفعان الثوب ببطء إلى الأمام . قدرت أنها تتأهب للنهوض ، وحتى لا تفعل ـ لأن ذلك معناه أن أودعها ـ أمسكت بيد الطفلة وجذبتها بقوة نحوي . حاولت أن تقاوم ولكنها فشلت . قلت :

ـ بتروحي المدرسة؟

قالت الطفلة بعصبية :

ـ اتركني .

قلت :

ـ مش رايح أتركك إلا لما تقولي انت في أي صف .

ألقت الأم ظهرها على مسند الكنبةَ وأسبلت جفنيها . بدت كالنائمة لولا ذلك الانتفاخ في منتصف الأنف . وكان ذلك يدهشني في النساء . أعني كيف يستطعن نفخ ذلك الجزء الصلب من الأنف، بينما تظل طاقتا الأنف على حالهما . وصدر صوتها ، وهي ما تزال مغمضة العينين :

ـ قولي لعمك في أي صف أنت .

كان صوتها هادئاً جداً ، ولكنه يفتقد التلوين الأنثوي . كان يمكن أن يكون صوت رجل .

أخذت الطفلة تصرخ :

ـ اتركني ! بقول إلك اتركني!

نظرت بلجيا إلى أصابعها وقالت :

ـ يا خوي بتتضايق وبتبكي بسرعة . نهضت وحملت صينية القهوة وخرجت . بدت من الخلف سمينة . كان وجهها خالياً من التعبير ، كأنها تجاهد مأساة مفجعة . ولكنني أصررت على البقاء . قالت وهي خارجة :

ـ خليك قاعد .

بدا من بنرة صوتها وكأنه سؤال ، وكان ذلك يشير بأقصى قدر من الوضوح إلى معنى واضح : «ماذا يبقيك؟ هيا انصرف!» .

جلست وحيداً . كانت الطفلة قد انصرفت مسرعة . اشعلت سيجارة وأخذت أفكر : ماذا أفعل الآن؟ هل أنصرف؟ نهضت ودخلت المطبخ . رأيت بلجيا تجلس مقرفصة وقد انكشف فخذاها . أعمياني بصلابتهما ولمعانهما . كانت تمسح المياه المتجمعة تحت مغسلة المطبخ . قلت لنفسي : من كان يظن أنّ لبلجيا مثل هذين الفخذين؟ رفعت رأسها ولقيتني واقفاً . كانت مندهشة ، ووجهها أحمر وعرقان من الجهد . قلت على الفور :

ـ نسيت أقول إلك . شفت عمتك أم غانم، وبتسلم عليكو .

قالت ببرود :

ـ الله يسلمك . شفتها؟ مبسوطة ؟

تكوّنت الحكاية في رأسي بسرعة خارقة . قلت إنني مررت ببيت عمتها ـ هكذا تسمى الحماة هنا ـ قبل أن أسافر، وقلت لها إنني مسافر إلى عمان ، إذا كانت تريد أن ترسل شيئاً ، فقالت : اسألهم، إذا كانوا يريدون شيئاً فسوف أرسله لهم .

كانت بلجيا تركع على ركبتيها . وتتكئ بيديها على المسحة فوق الأرض، وترفع وجهها نحوي . كانت تصغي متجمدة . وعندما انتهيت ، نهضت بخفة واقتربت مني وأخذت تزعق . في البداية قالت :

ـ هيك قالت ؟

قلت لها .

ـ آه .

ـ مش عارفة إيش بنعتاز .

وبدأ الزعيق . كان رذاذ من فمها يتساقط على وجهي . قالت إن عمتها تعرف تماماً ما هم بحاجة إليه ، ولكنها ـ أي العمة ـ تتظاهر بأنها ليست عندها أدنى فكرة عن الموضوع . كان صدرها يرتفع وينخفض بانفعالها . ثم صمتت فجأة ، ونظرت حولها وقالت :

ـ رفعت صوتي . يمكن الجيران سمعوني .

ولكن انفعالها لم يستهلك بعد . واصلت كلامها بصوت أقل ارتفاعاً، ولكن مشحون بالانفعال حتى الاختناق . استحلفتني بروح المرحوم والدي أن اتبعها . أمسكت بيدي وأدخلتني المطبخ ، وأرتني صفيحة رفعتها أمام وجهي بيديها الاثنتين، قالت :

ـ شم ؛ وروح المرحوم تشم .

فشممت . قالت :

ـ صدقت ؟

لم أقل شيئاً لأنني لم أعرف ما هو مطلوب مني . علمت بعد قليل أنه كان علي أن أستنتج أن السمن البلدي مخلوط بشحوم حيوانية ، وأنه رغم ذلك فإنه لم يتبق ما يكفي لطبختين .

قالت :

ـ مش بس هيك . بتصدق إنه صار إلنا أسبوع بنشتري خبز من السوق؟
وأخرجت رغيفاً من النملية وأرتني إياه . وقالت :

ـ صدقت ؟

قلت :

ـ خبز من السوق .

قالت :

ـ الله وكيلك من السوق .

ومضت : والبرغل ؟ اقترضت من الجارات . مرة واثنتين وثلاثة . ولكنها خجلت . هي خجولة ـ واعتبرتني عارفاً بذلك ـ لذلك امتنعت عن الاقتراض من جارتها . إنها تطبخ الرز الآن . كل يوم رز ، تشتريه من السوق؛ ومنذ شهر لم تطبخ كبة ، رغم أن غانم نفسه فيها . ورغم هذا كله فهل تقصّر هي مع عمتها؟ إنها لا تكف عن إرسال الهدايا لعمتها . مرة سلة عنب . وموز؟ تصور مرة أرسلت لهم موزاً فطبخوه مع لبن حامض . وعلى كل فهي ليست بحاجة لأن تقول كل هذا ، لأنني أكثر الناس معرفة بها .

قلت إن كل أهل القرية يحسدون عمتها لأن لابنها مثل هذه الزوجة . قلت هذا وقد أخذت أشعر بالإرهاق لهذه الحكاية السخيفة التي اخترعتها ، والتي خلقت كل هذا الضجيج .

كنت أنوي الانصراف عندما أمسكت يدي وأخذت تعد الهدايا التي أرسلتها إلى عمتها : جبة جوخ عندما توفي المرحوم ، عصابة لرأسها ، خمسة كلسونات لم تعرف عمتها كيف تستعملها فباعتها ، وحذاء . قالت : أين القصور إذن ؟

قلت :

ـ ما فيه قصور .

قالت :

ـ وحياةربنا ، وجراحات يسوح الحي ، وإلا يعدمني نور عيوني إني بحب عمتي مثل ما بحب أمي ، ويمكن أكثر .

قلت إن الجميع يشهدون بذلك .

وعادت بي إلى حجرة الجلوس . وأجلستني ، ووقفت أمامي ، تضع يديها على خصرها ، واستمرت تقول : هل تعرف كم مرة أعطيت نقوداً للقسيس لكي يصلّي على روح المرحوم عمها ؟

قلت :

ـ طبعاً . . .

ولم تدعني أتم . قالت إنها نسيت كم مرة لكثرة ما دفعت . سألتني إن كنت أشك في كلامها. قلت :

ـ مصدقك .

كان الطفلان خلال تنقلنا بين المطبخ وحجرة الجلوس يأتيان إلينا ، يطرحان أمام الأم مشاكل فقهية خالصة : هل يجوز أن تستولي عزيزة على لعبة وليم، وأن تضربه أيضاً ؟ وتقول عزيزة :

ـ كذّاب والله يا ماما كذّاب . كان رايح يكسرها . .

قال وليم :

ـ كذّابة . أكذب واحدة .

وبعد قليل جاء وليم ليهمس لأمه :

ـ عزيزة قاعدة بتاكل .

عند ذلك فقدت بلجيا اتزانها وهرولت نحو المطبخ . سمعت صرخة عالية، أصوات صفعات ، وبكاء . ورغم أن المسألة انتهت عند هذا الحد ، لم يكف الطفلان عن الوشاية، والشكوى من بعضهما .

ما جعل مشهد الطفلين مؤلماً وجارحاً هو البرود وروح التقوى اللذين يطرحان بهما شكاويهما . لم يكن فيهما مرح الطفولة ولا انفعالها الجامح . وتخيّلت الكراهية التي تملأ قلب الطفلين، وأحلام اليقظة بالانتقام والتي تدور حول الاكتشاف المفاجئ لخطيئة رهيبة ارتكبها الطفل الآخر، والعقاب الرهيب الذي سوف يناله . لن يلجأ أحد منهما إلى حب الآخر ، أو إلى تسامح الأم ، بل إلى قانون صارم يسحق كل من يقف في طريقه . . سيتفوقان في الدراسة، ولن يعيشا قصة حب أبداً .

عادت بلجيا تلهث ، غاضبة . وجلست مكشِّرة، انتفخ أنفها كله وامتلأ

بتجعدات كبيرة ، وتصلب الفم . كانت مخيفة حقاً ، ونهضت استعداداً للانصراف . رمقتني بنظرة نارية ، وقالت :

ـ خليك .

لم يكن رجاء ، بل أمراً . جلست أبادلها الصمت . فجأة قالت :

ـ أنت مش غريب ، ما لحقت أعمل لك غدا .

لا بدّ أنها في حالة يائسة حتى تقول شيئاً كهذا . كان هذا يعني أنها وافقت أن أبقى للغداء . في تلك اللحظة رغبت بقوة في الانصراف . ولكن الطريق كان مسدوداً أمامي .

خرجت بلجيا دون أن تقول شيئاً . كان الصمت مريباً . شعرتُ بوحدة وإرهاق حادين ، ورغبت أن أغادر هذا المكان بسرعة .

في الثانية والربع جاء غانم . عند دخوله اعترض طريقه الطفلان ، وصرخا ، وهما يقفان وقفة تهيؤ ، بصوت واحد :

ـ Welcom papa (أهلاً بابا) .

لم يبد عليه إنه سرّ بهذا الترحيب . أمسك بكتفي الطفلين وأبعدهما عن طريقه ، وهو ينظر إليّ . صافحني وقال :

ـ سمعت إنك هانا من زمان .

قلت :

ـ صار لي يومين ثلاثة .

قال إنه مرّ بجراج القرية وعلم أنني جئت إلى عمان منذ فترة . ثم أضاف إنهم اتصلوا به ، في الدائرة ، بالتليفون (كان يعمل موظفاً في وزارة المالية) للاستشارة . اكتشفت أنهم يريدون أن يشتروا تراكتور لحراثة الأرض وحاصدة . ثم قال ، وكأنه يخاطب نفسه ، إنه لم يكن يتصور أن مسعد سوف يكبر إلى هذ الحد .

اختفى الطفلان . وكنت أسمع أصوات ارتطام الملاعق بأطباق الصيني قادمة من المطبخ . شعرت بالجوع فجأة . خطر لي أن أحكي لغانم حكاية مسعد وسلطانة وأميرة ، وكل ما يتعلق بهما . ولكن الجوع الذي هبط كصداع مفاجئ ، والرغبة الملحة في الانصراف منعاني .

قال غانم :

- قالوا لي في الجاراج إنها شركة .

قلت :

- مين المشاركين؟

قال :

- ما بعرف . ليش ما تشتركوا معاهم بدال مصاريكم ما هي نايمة .

قلت :

- مش عارف . أمي . . .

قال :

- انت صاحب الشور كبير العيلة .

وابتسم .

جاءت الزوجة بالطعام . كانت فاصوليا خضراء وأرز ، وسلطة . وضعت بلجيا كمية كبيرة من الرز في طبقي، وقليلاً من الفاصوليا، ولدهشتي ، قطعة كبيرة من اللحم . اكتشفت ، بمجرد اصطدام الملعقة بها ، إنها قطعة عظم كبيرة، التصقت بها قطعة رقيقة من اللحم . لاحظ غانم ذلك بطرف عينيه، فتناول قطعتين من اللحم ووضعهما في طبقي . شخصت عينا بلجيا ، ثم أحنت رأسها ، وكأنها تعتذر . لقد انكشفت مؤامرتها ، وهي تعلم أن غانم قد غضب .

كان الطفلان قد جلسا معنا على المائدة، وكانت الأم تراقبهما بتلك النظرة الصارمة، الرادعة ، وكان الطفلان يراقبان بعضهما ، ويختلسان النظر إلى أمهما . شعرت بالتوتر والكراهية المتبادلة بين الأطراف الثلاثة يخترقاني كالإهانة . بالنسبة للثلاثة، كانت لحظة تناول الطعام لحظة شبق ولحظة خوف من العقاب ، كل إنسان فيها وحيد ؛ وحيد يشق طريقه، وسط جو مشحون بالحقد ، والعنف المقموع ، الذي تحوّل إلى جبن ونميمة . كنت أراقبهم خلال تناول الطعام، وهم يراقبون بعضهم بعيون هاربة، مراوغة ، ووجوه صارمة ، متحفزة للإدانة . تشخص العيون فجأة ، وتتوقف الأيدي - في منتصف طريقها إلى الفم - والأفواه - نصف مفتوحة - عند المضغ ، وكأنها تتأهب لإطلاق صرخة فزع مدوّية ، والأنوف تضمر وتستطيل كأنها تقول : «بلغت

بك الجرأة إلى هذ الحد؟» . . . مشهد نموذجي في فيلم رعب، يتشكل ، عندما تمتد يد إلى قطعة لحم.

كنت أريد الإسراع بالهرب . كان تثاؤب غانم بعد انتهائه من الطعام إيذاناً بهروب دون تعقيدات . ولكن بلجيا أصرت أن أبقى حتى أشرب القهوة. وكان ذلك مضحكاً، بعد كل هذا الحرص. ولكنها اعتبرت شرب القهوة في المرتبة الأولى من الأهمية ، القهوة التي تصنعها هي بالذات ، والتي تتحول إلى سائل أصفر ، شاحب بعد ثواني قليلة من صبها .

Abu Abdo Al Bagl

١

في المساء لم نذهب إلى النادي . بدأنا بحثنا مبكراً عن القواد . اتفقنا على أسلوب جديد في البحث عنه : أن يسير كل واحد منا في شارع تم تحديده ، فإذا التقى بالقواد يصحبه إلى الممر التجاري حيث سنلتقي بعد ساعة واحدة.

أعتقد أنني الوحيد الذي لم يقم بالمهمة الموكولة إليه. قلت لنفسي إنه من المستحيل أن أتعرف على القواد. وحتى لو تعرفت عليه فلسوف ارتبك ولن أجرؤ على التحدث إليه. لقد قال لي أصحابي إنه ما علي سوى أن أسير في الشارع ، وسوف يعرف القواد ، من نظراتي ، أنني أبحث عن امرأة . قلت لنفسي «هو ربنا؟» وركبت باص جبل اللويبدة . نزلت عند خزان المياه ، وتجولت في الجبل.

على جانبي الشارع تقوم بيوت من طابق ، أو طابقين ، تحيطها حدائق حديثة العهد. كنت أرى الأضواء الكهربائية تلوّن زجاج النوافذ بصفرة لامعة ، تتسرب عبر أوراق الشجر بألفة عتيقة لبيوت قديمة في روايات القرن التاسع عشر . كان ورق الشجر القاتم الخضرة وهو يتلقى بفتور ناعس الضوء القادم من الشبابيك ، هو الذي بعث الإحساس بالألفة .

أواصل السير. صوت موسيقى راقصة. وراء إحدى النوافذ يمرق وجه امرأة ، منظر جانبي للوجه ، ثم يختفي ، تاركاً لوعة ، وشعوراً بالنفي . أسمع أصوات ارتطام سكاكين وشوك بالأطباق. أمام أحد البيوت أرى سائقاً ينام داخل سيارة خاصة. يقبل نحوي شبان وبنات . يقول أحدهم شيئاً ، فيضحك الآخرون ضحكة سريعة كالانفجار ، تنتهي ، وتظل وراءها ذيول ضحكات نسائية ناعمة كأنها قصاصات من الحرير. ضوء الشارع الشحيح يلغي تفاصيل وجوه النساء ، ويخلق وهم فتنة خارقة .

Abdo Al-Bagl

من بعيد رأيت ضوء بقالية أنيقة ، تشع أنوارها بقوة . دخلتها . كل شيء فيها أنيق كالبقاليات في السينما الأمريكية . راقبت نفسي : السيجارة في فمي، وأنا أقول للبقال :

ـ علبة جولد ستار .

وأخرج يدي مليئة بالنقود، وأتناول العلبة باليد الأخرى . يتناول البقال سبعة قروش ، ثمنها الرسمي . اعتقدت أنه سيأخذ أكثر من ذلك. بدوت لنفسي ممثلاً في فيلم أمريكي . غادرت البقالية بإحساس من تتابع الكاميرا حركته وتلتقط كل تعابير وجهه .

توغلت في الجبل حيث البيوت ما زالت في طور البناء . يكربني الصمت والظلمة فأعود إلى الجانب المضيء من الجبل . تندفع سيارة بقربي ، أسمع من داخلها صوت فيروز مثقلاً باللوعة يغني «حاجة تعاتبني يئست من العتاب» وتبتعد السيارة ويظل الإيقاع في داخلي .

عدت إلى الممر التجاري بعد ساعة ، بالضبط . بعد قليل رأيت خالد قادماً من شارع المحطة . خاطبني قبل أن يصل :

ـ خالي الوفاض .

لم يسألني عن نتيجة بحثي .

بعد قليل جاء شفيق . كان متجهماً . لم يقل شيئاً . قال خالد :

ـ إيش يا عم شفيق ؟

قال شفيق :

ـ ما فيه فايدة . وين سمير؟

ـ بعده ما إجا .

قلت :

ـ على الله تضبط معاه .

بعد مضي نصف ساعة جاء سمير عرقان ، مفتوح الفم قليلاً ، يلهث . سرنا ، وأخذ سمير يتحدث دون أن يسأله أحد . قال إنه رأى القواد . توقفنا فجأة ونظرنا إليه . قال خالد :

ـ طيب ، وينه ؟

قال سمير إنه رآه عن بعد ، وتبعه . رأى سيارة خاصة تقف بجواره، فدخلها ومضى .

واصلنا السير . قال سمير إنه رأى امرأة محجبة . اشتبه فيها ، فسار وراءها، وهو يردد :

قل للمليحة في الخمار الأسود ماذا فعلت بزاهد متعبد

قلت :

ـ إيش فعلت ؟

نظر إلي ، ثم قال إنه سبقها، ثم استدار وواجهها . نظر إلى عينيها وهو يضع يده على شعره . قال خالد :

ـ ليش حطيت ايدك على شعرك ؟

قال سمير :

ـ يعني مسا الخير .

قلت :

ـ وإذا كنت لابس حطة ؟

قال :

ـ برفع طرفها ، وبخليه على رأسي ، وإذا كانت ، يعني ، واحدة منهم بتقوم تمشي ورايي .

قال خالد :

ـ طيب . . . طيب ، وإذا كنت لابس برنيطة؟

ـ برنيطة؟ برفع طرفها وبغمز المرة في عيني .

ـ وبعدين؟

قال سمير :

ـ بعدين بتمشي ورايي .

قال خالد :

Abu Abdo Al Bagl

ـ لو كنت ، كنت ، كنت . . .

تردد قليلاً ، ثم قال :

ـ لابس إيشارب؟

هنا فقط ضحك سمير .

قال شفيق بضيق :

ـ وبعدين إيش صار في النهاية ؟

لم يكن للسؤال داع ، فها هو سمير أمامنا . فأخذنا نصعد جبل عمان صامتين . قال شفيق بعد قليل :

ـ اتعبنا رجلينا يا أخوان على الفاضي .

ثم أخذ يضحك :

ـ أما والله محسوبكو استهميت ، وكل ما أشوف واحد لابس بنطلون أصفر الحقه وأطل في وجهه ، وارجع بخفي حنين .

قال سمير إنه لا حل لنا إلا الزواج ، ولكن ذلك لن يتم إلا في الديموقراطية الشعبية . قال شفيق :

ـ بدكوا الصحيح وإلا ابن عمه ؟

ـ الصحيح .

قال :

ـ الحل في أيدينا .

فضحكنا . بعد فترة صمت ، ضحك سمير وهو يردد :

ـ في أيدينا ، في أيدينا .

سرنا صامتين . دخلنا الحجرة . أخذ سمير يعد الشاي . قال خالد إنه أدخل بعض التعديلات على قصته . ربما كانت هذه هي المرة الخامسة التي يفعل فيها ذلك . ولم تكن تعديلات ، في حقيقة الأمر ، بل إضافات . أغلبها مزيد من الوصف لمفاتن المرأة ، أو جمال الحديقة .

قرأ القصة بشكلها الجديد ، امتدحناها دون حماس ، وأخذنا نتثاءب . اقترح شفيق أن نقرأ مقطعاً من رواية غوركي (الأم) . انفتح الكتاب تلقائياً على خطبة بافل

أمام المحكمة. أخذ شفيق يقرأ، ثم يتوقف ليقول: «روعة، روعة». تنتهي الخطبة، فيقول سمير بحماس:

ـ تعاد، تعاد.

يتنهد شفيق ويعيد قراءة الخطبة:

«ـ حضرات الشهود.

ـ أنت أمام المحكمة».

قرأناها مرات عديدة من قبل، وعدا بعض التفاصيل الصغيرة، كنا نعيد نفس المشهد.

ثملنا. وأنا أتوقع يوماً جديداً حافلاً.

٢

ارتديت ملابسي بسرعة في الصباح. جلست في مقهى (وادي النيل). كانت بعض الوجوه مألوفة. معظم أصحابها يجلسون صامتين، يدخنون ويراقبون الشارع من خلف الزجاج. طلبت قهوة فرنسية بالحليب، وتابعت القراءة في رواية (مدام بوفاري). كانت ذاهبة إلى بيت عشيقها الثاني لتقترض منه نقوداً، اعتذر لها بأسلوب فهمت منه أنه لا يريد إقراضها، وألمح إنه قد قرر إنهاء العلاقة بينها. فعادت إلى بيتها وهي في حالة نفسية سيئة. شعرت بالحنق بسبب نذالة هذا العاشق. منعني توتري من مواصلة الجلوس. دفعت الحساب وأخذت أذرع الشوارع دون هدف. نسيت مدام بوفاري وعشيقها النذل، ولكن التوتر بقي يخنقني، يدفعني إلى مواصلة السير دون توقف.

كانت صورة مدام بوفاري تطفو أمامي: امرأة قصيرة، متناسقة الملامح، مبذولة لممارسة الجنس. تبينت أن ما كان يوتّرني هو الغيرة: اختارت مدام بوفاري ذلك الوغد عشيقاً، ولم تلتفت إليّ رغم أنه طردها من بيته. كان ذلك مؤلماً، ومضحكاً في الوقت ذاته.

٣

كنا نبحث عن القواد ، فلقينا سعد . قال شفيق :

ـ أظن هذاك هوه . الماشي قدام .

كان يسير أمامنا . أسرعنا حتى تجاوزناه ، ثم التفتنا إلى الخلف دفعة واحدة صحت :

ـ سعد .

تصافحنا بحرارة . سألته عن وجهته ، فقال إنه ذاهب إلى بيت يوسف الطحّان . وأضاف إن عودة يسكن عنده . اندهشت : عودة له بيت في عمان ، فما الذي يدعوه للسكنى عند يوسف؟ لم أقل ذلك . كان سعد قد اقترح أن نرافقه ، فقلت :

ـ أمر أسلم على يوسف .

وافق أصدقائي أن يرافقونا ، خاصة عندما عرفوا أن عودة هو أبو أميرة . وخلال الطريق حكى لي سعد ما حدث له خلال السنتين الماضيتين ، بعد أن غادر القرية بدأ أول الأمر يبيع الحلوى على عربة يد ، في أسواق عمان . كان مكسبه قليلاً . ثم جاءت الحرب الفلسطينية فاشترك مع المجاهدين ، وكسب (قرشين) . فتح دكاناً في جبل عمان ، وبنى حجرة خلفه ينام فيها .

سألته :

ـ صار لك زمان بعيد عن القرية؟

قال :

ـ من يوم ما طلعت منها ما رجعت . من سنتين ونص . أعوذ بالله إني أرجع إلها ، أعوذ بالله ، أعوذ بالله .

كان قد أحب سمحة . أفهمته آمنة إن سمحة بنت مدارس ؛ سوف تتعلم ، ولن تتزوج الآن . باع الأرض واشترى فرساً معتقداً أنه بذلك سوف يكسب قلب سمحة . ولكنه أصبح سخرية الجميع ، وضاعت نقوده كلها ، فتسلل هارباً من القرية في فجر أحد الأيام ، ولم يعد .

وواصل سعد :

ـ بتعرف يا استاذ جريس قيمة الإنسان في قروشه .

واستمر يتحدث دون توقف حتى وصلنا بيت يوسف . طرق سعد الباب فأتانا صوت يوسف من الداخل :

ـ خش . تفضل .

وفتح يوسف الباب . لم يتغير فيه شيء . ما زال ضخماً ، طويلاً ، قاتم السمرة، عيناه تضحكان . كان حاسر الرأس ، وقد حلق شعره كله عدا! قذلة في منتصف أعلى الجبين . صاح :

ـ أهلاً ، أهلاً ، عمي جريس! عشنا وشفناك .

صافح الجميع بحرارة ، ودعاني إلى الدخول . كان يتمتع بحيوية مدهشة انفتح الباب على فسحة ، تنفتح عليها ثلاث حجرات . كانت واحدة منها مضاءة ، قادنا يوسف إليها .

كان المطبخ على يسار الداخل ، في داخله جلست امرأة ، رأسها محنية، كأنها تتأمل يديها المستقرتين على فخذيها . شعرها كستنائي ، ينساب دون نظام ، تدلت منه خصل في الهواء، تكاد تلامس فخذيها . . وأخرى على وجهها . كان الشعر حياً ، يرشح عنفاً . وفي انحناءة ذلك الجسد ، والمنظر الجانبي للوجه ، وبروز الثدي، شحنة من الطاقة الأنثوية المتحفزة أصابتني كصدمة تيار كهربائي .

دخلت الحجرة وصافحت عودة ، وزوجة يوسف التي قبلتني على خدي . في تلك اللحظة ، وقبل أن أجلس ، أدركت أن الفتاة الجالسة في المطبخ كانت أميرة .

كانت الحجرة تشبه حجرات الضيوف في بيوت القرية الميسورة . لصق الجدران ألقيت أبسطة تتخللها خطوط عريضة بيضاء وسوداء ، وفوقها فرشات ، وضع بينها عدد من الوسائد ، وغطيت بأبسطة صوفية ملونة بالأحمر والأصفر والأزرق. كان اللون الأحمر طاغياً. أما الجدران فقد زيّنت كيفما اتفق : قطع سوداء وخضراء من المخمل طرّزت بزهور حمراء وبيضاء ، صورة أبو زيد الهلالي يشرع سيفاً ، ويركب فرساً بيضاء ، سمينة جداً ، مناظر طبيعية (أشجار هائلة خضراء وبيوت من قرميد أحمر ، ونهر أزرق يغطيه زبد أبيض) منتزعة من أحد التقاويم ، صورة ملوّنة لتشرتشل وهتلر وجورج الخامس وأم كلثوم وعبد الوهاب ، وصور شمسية للعائلة ، مجتمعة وأفراداً .

سألتني مرثا ، زوجة يوسف ، عن صحة أمي ، وعن سبب مجيئي ، فقلت لها إن صحة أمي جيدة وإنني قادم لعمل بشأن دخولي الجامعة . كان يوسف يسأل أصدقائي عن عائلاتهم وآبائهم . اكتشف أنه يعرفهم ، وقد أدهشه ذلك وأسعده . ثم التفت إلي :

- خلصت مدرسة ؟ علمت من يومين بس ، قال لي عودة ، قلت : لا حول بالله لازم نبارك للزلمة . وين ناوي ؟

كان ذلك الحديث المتقطع ، السريع ، جزءاً من شخصيته . إذ كانت حيويته تفيض عبره ، فيبدو كلامه وكأنه مزيج من المرح والجد .

قلت :

- ناوي أكمل في الجامعة الأميركية في بيروت .

قال :

- الموفق ربنا .

ثم سأل سعد عن عمله ، فتحدثنا بعض الوقت . التفت إلينا كأنه تذكر شيئاً ما فجأة ، وقال لزوجته :

- عشا للضيوف يا أم خليل . الأستاذ جريس عزيز علينا وزمان ما شفناه ، والأساتذة أول مرة بشرفونا .

قلت :

- مكتور الخير . وحياة خليل متعشيين .

أكد أصحابي قولي ، فقال يوسف :

- يا ابن آدم ضيف المسا ماله عشا . من حواضر البيت . شقفة جبنة ، زر لبنة وعَ الماشي . من حواضر البيت .

فأكدت له مرة أخرى أننا تعشينا . قال :

- يمكن بعد شوية تجوعوا .

أتى يوسف إلى عمان من خلال تجارة الحبوب . احتفظ ببيته وأرضه في القرية ، واشترى بيتاً في عمان وفتح دكاناً . وكان يزيد ثروته هنا وهناك . يشترى مزيداً من الأرض ، ويتوسع في تجارته في عمان . أضاف إليها فيما بعد تجارة شراء وبيع أراضي

البناء في عمان.

التفت يوسف إلى أصحابي وقال :

ـ انتوا المتعلمين أظن بتقولوا ربنا مش موجود .

خوفاً من اندفاع سمير قلت :

ـ ما فيه حدا بقول هيك .

قال سعد :

ـ لا ، يا أبو خليل ، هذول الطبيعيين اللي بقولوا .

قال يوسف :

ـ الشيوعيين مش طبيعيين .

الأخبار تنتشر بسرعة في عمان ، كما في القرية . قلت :

ـ لا .

ضحك يوسف وقال :

ـ أنا كنت طبيعي مثلكو . كنت أقول إذا كان ربنا خلقنا ، طيب هوه مين اللي خلقه؟ طيب ليش خلقنا؟

قلت :

ـ احنا مش طبيعيين.

قال وهو يضحك :

ـ ما أنا عارف . انتو شيوعيين.

قالت أم خليل:

ـ صحيح يا جريس؟

قاطعها يوسف :

ـ كنت بقول : ليش ربنا خلقنا؟ للتعب والجوع؟ لكن لما ربنا أطعمني عرفت إنه موجود ، وفهمت .

واندفع سمير :

ـ يعني موجود لأنه أطعمك ؟

Abu Abdo Al Bagl

أغرق يوسف في الضحك وقال :

ـ كلامي اختبار إلكو . قلت أرمي كلمتي وأشوف إيش بتقولوا .

شاركناه الضحك . أضاف :

ـ جيل نجاسة . أنا عارف الأستاذ (وأشار بسبابته إلى سمير) إيش في فكره . بقول لو كان ربنا موجود ليش ما يخلي الناس كلها شيوعية ، كل واحد مثل الثاني! أنا عارفكو الشباب .

قالت أم خليل :

ـ لا . يقطع الشيوعية واللي جابوها . بقولوا عن مريم العذرا إنها مرة مثل كل النسوان .

نظر إلينا يوسف بعينين ضاحكتين وقال :

ـ شايفين الجهل ! مش مريم العذرا يا أم خليل ، هذول بقولوا ربنا ذاته مش موجود .

قالت :

ـ شرهم عليهم .

ومضى يوسف يتحدث بصخب وحيوية :

ـ جاهلة . طيب ، جاوبيني : ليش فيه غني ، وفيه فقير إذا كان ربنا موجود ، هه؟ ردي .

قالت أم خليل وهي تضحك :

ـ حكمة ربنا .

التفت إلينا يوسف وقال :

ـ شايفين الجهل ؟

ثم قال لزوجته :

ـ الشيوعيين بقولوا : ليش حكمة ربنا تكون هيك ؟

قالت : دخلنا في الكفر !

ثم التفت إلينا وقال بلهجة جادة :

Abu Abdo Al Bagl

ـ اسمع يا استاذ سمير . الفكر الكثير بخربط المخ . ربنا إيش بقول في الكتاب المقدس؟ من عرق جبينك تأكل خبزك . حتى عند المسلمين بقولوا : اسعوا في مناكبها . الغربيين فهموا هذا الكلام ، ليل نهار بشتغلوا ، واحنا مثل ما احنا . احنا العرب شاطرين في ايش ؟ في فلان كريم ، فلان فارس ، فلان هيك ، فلان هيك . . .

تكلم عودة لأول مرة ؛ قال :

ـ كنا مرة يا أبو خليل ، ولا يهون السامعين ، في القدس ، قاعدين في باب العامود . كنا جماعة كبيرة منهم أبوك الله يرحمه (يقصد أبي) وقاعدين بنحكي وبنضحك . مر من قدامنا واحد يهودي . كلمنا ، كلمناه ، وكلام جر كلام . قال : «انت خبيبي مش عرب ، أنت جرب . أنت خمار . قاعد يحكي يحكي ويضحك يضحك وما بشتغل . أنا في ساعة واحد بجيب جنيه» .

وحكت أم خليل عن مليونير يهودي كان مريضاً ، لم ينفع معه طب ولا دوا . مر يوماً من باب العامود فرأى عتّالاً جالساً ، أمامه أربعة أرغفة خبز وثلاثة رؤوس بصل ، يأكل بشهية . فقال له اليهودي : «يا خبيبي اعطيني صحتك وخذ قروشي» .

تقبلنا الحكاية دون تعليق ، رغم أن مغزاها مخالف لما يحاول زوجها أن يثبته .

قال يوسف :

ـ شوفوا عودة كان مضيّع نفسه ، وهسّاع ربنا هداه .

عبس عودة وأطرق . لم يتضح لي ما عناه يوسف . قال سعد إن الأمريكان يقدرون الإنسان بنقوده . مال يوسف نحوي فجأة وأمسك يدي ووضعها بين يديه وقال :

ـ أنا عمك ، وأنت مثل ابني . قديش رايح تصرف في بيروت؟

أجريت حساباً سريعاً ، وقلت :

ـ أربع سنين . حوالي ألف وخمسمائة جنيه .

رأيت عودة وسعد يحملقان بي في دهشة . قال يوسف :

ـ لما تخلّص جامعة قديش بتوخذ؟

قلت :

ـ ثلاثين جنيه في الشهر إذا لقيت شغل .

قال :

ـ إذا لقيت . ورايح تصرفهم كلهم ، ويمكن تستدين فوقيهم . إيش رأيك تخلّي في ايد عمك الفين جنيه . نشتري تراكتور وحصادة ونشغلهن . سعد وعودة مشتركين . وكل شهر يا عمي لو ماتت ، لو ماتت ، بدخلك ستين جنيه وأنت قاعد مرتاح .

في تلك اللحظة تذكرت أميرة التي تجلس وحيدة في المطبخ . قلت :

ـ وين بيت الميه؟

وسحبت يدي من يديّ يوسف . وصفت أم خليل لي الطريق إلى دورة المياه ، وخرجت . كان المطبخ مضاء . تنحنحت معلناً عن وجودي ومددت رأسي من باب المطبخ . لم يكن أحد في الداخل . سرت نحو دورة المياه ، وتوقفت بعض الوقت في داخلها حتى شعرت أنني أختنق . غادرتها ودخلت المطبخ . قلت لنفسي : إذا فاجأني أحد فسوف أقول : إنني أريد أن أغسل يدي . لم أجد أحداً . فتحت الحنفية وغسلت يدي وخرجت .

حين دخلت الحجرة اكتشفت أن موضوع الحديث قد تغيّر . كان سعد ، فيما يبدو ، يعقّب بحماسة على حكاية رويت . كان يقول :

ـ كان الناس عندها شرف وذمة . مش مثل اليوم ، كل واحد يا ربي نفسي .

استغربت كلام سعد الذي ينفي كل حديث سابق .

قال يوسف موجهاً حديثه إليّ :

ـ مرة جدتك ، الله يرحمها ، خليناها لما نامت ـ كنا بنلعب شدة في داركو ـ قام أبوك ، الله يرحمه ، قال : يا عيال ، صار إلنا زمان ما اكلنا جاج . قمناعَ الجاج ، وقضبنا ثلاث عتقيات . مصعنا رقابهن وحطيناهن في الطابون . عمتك ما بتعرفها؟ ماتت وأنت بترضع ، صحّيناها . نظفتهن ورمتهن في الطابون . جدتك صحت عَ الريحة ، قالت : سويتها يا مقرود!

واستغرق يوسف في الضحك .

حكت أم خليل عن ثلجة الجمال . ناموا والجو صحو ، وفي الصباح كان الثلج يغطي الدينا . تثلجت الجمال ، وهي واقفة . وأخذ الناس يذبحونها ويشوون اللحم .

يبدو إن الشعور بالجوع كان جماعياً . فبمجرد أن اقترح يوسف أن نأكل وافقنا كلنا . وعندما جاء الطعام لم يتوقف الحديث .

قلت ليوسف :

ـ ما دمتو مشتاقين للقرية ليش تركتوها؟

تنهدت أم خليل وقالت :

ـ عندك حق .

التفت إلي يوسف وتكلم بجدية حزينة :

ـ شوف يا عمي ، الآدمي بدورّعَ السترة . يستر نفسه ، ويستر عيلته ، وما يقوم يذل نفسه للناس . الواحد لازم يحسب حساب إنه عياله ما يناموا من غير عشا . فاهم مقصدي ؟

قلت :

ـ صحيح .

أضاف :

ـ وإلا يا عمي ، هيه في الساهل ، الواحد يترك بلده وعشيرته ويرمي حاله في عمان ، لا صاحب ، ولا قريب ، ولا أنا غلطان؟

قلت :

ـ لا . مش غلطان .

قال :

ـ براوه . بتعرف إني بشتاق لريحة واحد من القرية . والله العظيم أنا عندي أعيش على مزابل بلدي ، ولا أسكن في قصر في عمان . في عمان صاحبك اللي يستفيد منك . بطّل يستفيد منك ، لا يعرفك ، ولاهوه صاحبك .

كان حديثاً مقبضاً بإيقاعه الحزين ، وبهذا النحيب الذي تولّد فجأة . لم اصغ . كنت أسمع : «عيال مثل الأرانب . . . حرام يموتوا من القلة . . » واقترحت أن ننصرف ولكن يوسف كان يؤخرنا ، وقد فقد حديثه كل بهجة أو مرح .

١

عثرنا على القواد في الوقت الذي لم نكن نبحث عنه . كنا متجهين إلى النادي ، فأمسك بذراع شفيق ، وابتسم ، كاشفاً عن أسنان صفراء ، وقال :

ـ مرحباً يا أستاذ .

تأمله شفيق قليلاً ، ثم هرب الدم من وجهه ، وأخذ يلهث ، وقال :

ـ أنت ، أنت . . . !

ضحك القواد وهو يكوّر كفيه ، كأنه يحمل بطيخة بينهما ، وأخذ يباعدهما وهو يهزهما ، وقال :

ـ إشي على كيفك .

كان شديد القذارة . كفاه خشنتان ، لهما لون لحاء الشجر الجاف . يرتدي بنطلوناً من الخاكي الحائل ، الناصل ، وحذاء دون جوارب . كانت البسمة ملتصقة بوجهه كأنها ملمح ثابت ، وكانت تشكّل مع أسنانه الصفراء ، وشاربه الخفيف ، وشفتيه الرقيقتين المبلولتين ، تعبير تواطؤ ذليل وبذيء .

استوقف شفيق سيارة أجرة ، وجلس القوّاد بجوار السائق ، وأخذ يوجهه . اخترقنا شارع الملك طلال وحي المهاجرين ، ثم درنا يميناً ، وغادرنا السيارة قرب بركة السباحة . تصورت أن القواد سيتجه بنا يساراً ، إلى الجبل النظيف . ولكنه هبط بنا يميناً إلى سيل عمان . سرنا بمحاذاة سور البركة ، واجتزنا السيل الضيق بقفزة ، ثم واصلنا السير بين كروم العنب .

كان الظلام كثيفاً أصم ، وأضواء حارة المهاجرين عمشاء ، توحي بمكان مهجور . وكان سيرنا بطيئاً بسبب وعورة الطريق ، والظلام . وكنا صامتين . حاول شفيق أن يبدد الصمت ونحن نجتاز السيل ، إذ قال :

ـ سيل عمان الخالد.

أصدرنا أصواتاً من أنوفنا تدل أننا تذوقنا النكتة . كان فمي جافاً . وضع سمير يده على كتفي وهمس :

ـ خايف ؟

أبعدت يده المبلولة ، المرتعشة عن كتفي . كنت عصبياً جداً . أحسست بتنفسه قريباً من أذني ؛ همس :

ـ شد حيلك .

قلت بضيق :

ـ اسكت يا أخي.

لم أكن عصبياً بسبب الخوف فقط ، بل لخيبة الأمل . المرأة ـ الحلم في هذا المكان الموحش ؟

صوت مذياع مقهى بعيد يتلو نشرة الأخبار . حاولت أن أركز السمع لمتابعة ما يذيع ، فلم استطع . أخذنا نسير بين مزارع (كنت أعرف من رؤيتها السابقة في وضح النهار أنها مزارع خضار) ذات أسوار ، بعضها من الحجر الدبش ، وبعضها الآخر من الأسلاك الشائكة ، الملتفة حول أعمدة خشبية قصيرة. من المزارع كنا نسمع أصواتاً مبهمة ، وخشخشة انسياب الزواحف بين الأعشاب الجافة .

قال القواد :

ـ اوعوا اللبص.

أبصرنا بركاً سوداء ، صغيرة ، تنعكس النجوم في مائها. أخذنا نقفز من فوقها ، ورغم ذلك شعرت بحذائي قد تلوّث ، وبالماء تسرب إلى داخله أشعرني ذلك بالضيق والقذارة. بعد قليل انتهينا من المزارع ، وسرنا في درب ترابية ، تتلوى بين مجموعة من الأكواخ الصغيرة ، المبنية من الطين والقصب. كانت مضاءة من الداخل بلمبات كاز ، يتسرب منها ضوء أصفر ، معتم . عبر شبابيكها المربعة كنا نرى ظلال ساكنيها تتحرك بسرعة البرق . أطل رأس من أحد تلك الشبابيك. يبدو أنه قال شيئاً ، لأن خالد قال :

ـ مين ؟

التفت إليه القواد وقال :

ـ خليك ماشي على طول .

كان صوته طبيعياً . أصواتنا الخائفة وصمتنا جعلته يتخذ موقف الآمر . قال خالد وكأنه يعتذر :

ـ حسّبته بكلمني .

لم يرد القواد . كان يتقدمنا قليلاً ، ويلتفت بين الحين والآخر إلينا ، ثم يواصل سيره . سأله سمير :

ـ مطولين؟

كان يلهث . قال القواد :

ـ لا . وصلنا .

عبر الضوء المنساب من باب كوخ مفتوح ، انبثق صبي يعدو على امتداد الضوء المتسرب من الباب ، ثم غاب في الظلام . صوت أقدامه استمر في سمعي ، ثم في خيالي . استطعت أن أرى امرأة في الداخل ، كبيرة الحجم ، تجلس صامتة على الأرض ، تحيط بها هالة ضوء أعمش من الخلف . بدت في صمتها تجسيداً مصمتاً لتلميحات بذيئة . بدت مستباحة لنا .

سمعت صوتاً نسائياً ينادي :

ـ يا بنت . . .

فترة صمت مرت ، ثم ارتفع صوتها مرة أخرى :

ـ يا مقصوفة الرقبة .

وعندما صمت النداء ارتفع صوت بكاء طفل . انفجر زاعقاً فجأة ، مدوياً ، وسط سكون مشحون بالتربص ، كانفجار قنبلة .

واصلنا السير ، وحاصرنا الصمت . ظلّ صوت المرأة في ذاكرتي ، مختنقاً ، لاهثاً . كان فيه بحة خشنة لسعتني كالنار . لأول مرة أشعر بالرغبة صافية ، خالصة من كل الانفعالات التي تثيرها امرأة مشتهاة ومحبوبة . امتزج ذلك برائحة العرق ، بلحم يفوح سخونة ، ناراً مشتعلة تحت الجلد الناعم ، الزلق ، وبرائحة النبيذ في الفم . وشاع ذلك الإحساس في امتداد الليل . أصبح له ملمس . كل ما كان يحيط بي أصبح

مشحوناً به ، وشعرت إنني محتوى داخل ضباب كثيف ، من ذوب أجساد هو رغبة محضة .

تخلل ذلك الإحساس كل ما حولي ، واستحالت أصوات الليل إلى امرأة تفح بسعير رغبتها . وبدا القواد الذي يتقدمنا في ضوء جديد . كان الرسول الصارم لهذا العالم ، وتسلل إلى سلم جديد من القيم ، يقف في قمته رجل يفقد ذاته في عمان الحياة المحترمة ، الرتيبة ، ليستعيدها في هذا العالم الذي يفح شبقاً .

أخذ الطريق يصعد بنا . وأخذنا بعد قليل نسير في طريق مترب واسع . أصبحت الأكواخ تحتنا . وفي ضوء الليل الشحيح كنا نستطيع أن نرى هياكلها المعتمة ، ومربعات أسقفها . وفي داخلها أجساد هامسة ، مبحوحة بالرغبة ، تدعوني ، وأنا لا أستجيب ، مستسلماً لخطوات قائدنا ، وإحساس بأن فرصاً تفلت من بين أصابعي ، وسأندم لأنني لم أبادر للإمساك بها .

همست :

ـ مطولين ؟

لم يجب أحد . لم يسمعني أحد . سببت الكلمة ألماً في حلقي الجاف .

توقفنا أمام بوابة خشبية كبيرة ، في منتصفها باب صغير . كانت مكسوة بصفيح . طرقها القواد بقبضة يده . سمعنا صوت رجل من الداخل يقول : «مين؟» ثم سمعنا صوت خطواته تقترب من الباب ، ثم كرر سؤاله : «مين؟» والقواد لا يجيب .

ساد صمت في جانبي الباب . ثم قال الرجل الذي في الداخل بصوت مسموع ، ولكنه هامس :

ـ مين عَ الباب؟

قال القواد بنفاذ صبر :

ـ افتح يا أخي .

انفتحت البوابة الصغيرة ، أحنى القواد رأسه ومرق منها ، وتبعناه . كنت أول من دخل . يبدو أننا دخلنا إلى حظيرة مواش . استطعت أن أميّز في الظلمة هيكل جمل وعدد من البقرات وحيوان أقل حجماً ، ربما كان حماراً صغيراً . شممت رائحة روث الدواب ، وسمعت الأصوات الخافتة ، المتصلة لحركة الحيوانات غير المرئية .

Abu Abdo Al Bagl

لم يكن للرجل الذي فتح لنا الباب أثر . سار القواد أمامنا وتبعناه. انتهينا إلى بوابة أخرى، وإلى حوش آخر ، يفصل بينه وبين الحظيرة سور مرتفع . على يميننا أبواب مغلقة، مضاءة من الداخل ، وفي مواجهتنا أيضاً كان باب مضاء من الداخل .

قال لنا القواد :

ـ استنوا دقيقة .

واختفى ، دون أن ينفتح باب من تلك الأبواب التي على يميننا أو في مواجهتنا. بدت لنا بعبارة القواد وكأنها أمر بالحركة ، بأن نقوم بفعل ما . تحركنا دون أن نبتعد عن بعضنا . اصطدمت بأحد أصدقائي فلم نقل شيئاً . تبينت بعد قيل إنه سمير . عرفت ذلك من حركته المعتادة عندما يكون متوتراً ، إذ يرفع يده ويفرك أنفه .

تنحنح شفيق بقوة، كان ذلك نمطاً من التهريج لإزالة الخوف من قلوبنا ، خمنت أن ذلك سوف يجعل سمير يقول شيئاً. أوحى الي بذلك اضطراب تنفسه. قال لي بعد قليل بهمس :

ـ خايف؟

ألاّ يكف عن ترديد هذا السؤال؟ أحسست أنني على وشك أن أنفجر به . أمسكت بكتفه وقلت بهمس مختنق كالفحيح :

ـ أسكت يا أخي !

فتنحنح وأخذ يفرك أنفه .

كان الضوء يتسرب من شقوق الأبواب ، ولكنه لم يكن يصل إلى أرض الحوش. كانت الظلمة كاملة حولنا . أحسست بالضوء في الداخل يضع حداً فاصلاً بيننا وبين حفل يدور في الداخل، في صمت ، تمارس فيه طقوس غريبة، واستعراضات وممارسات جسدية فاجرة وصارمة ؛ يسيطر على المحتفلين هوس الاندماج الكامل. والرجال عابسون، يقتحمون النساء بذلك الغضب الكامن ، المصمم ، الواثق ، وكأنهم ينفّذون حكماً بالقتل .

كل شيء يحدث في ذلك الحفل جاد وصامت .

بدا لي أنني أعيش ذكرى قديمة ، عشتها منذ آلاف السنين ، واختزنتها خلايا الذاكرة منذ تلك العهود السحيقة. لم تكن ذكرى تستعاد في تلك الحجرات المغلقة ،

الصامتة ، المضاءة بوهج قاتم ، يخفي الأسرار في داخله ، وهج يوحي ويشير إلى عالم غامض في داخله . . . بل بدا وكأن هذا الحفل مستمر منذ آلاف السنين ، منطو عن عالمنا ، يحاذيه ، دون أن يتواصل معه .

كان الضوء يحتجب من وراء أحد الأبواب ، فأشعر بالخوف . أحسست بأن هنالك من يراقبنا ، عين بيضاء ، صارمة ، متعالية ، تريد أن تتأكد أن كل شيء يسير حسب الخطة الموضوعة ، حسب تدبير مرسوم مقدماً . وخطر لي : هل هي مؤامرة أعدت للسخرية بنا؟ هل ستنفتح الأبواب فجأة ، لينبثق منها جمهور تقي ، ورع ، غاضب . سوف يسحقنا بسبب الخطايا التي جئنا لاقترافها ؟

ولكن لماذا ؟

وشعرت بذلك الخوف الأصم ، الذي ينتابني أمام الشر الخالص ، الذي لا تبرير له ، ذلك القدر الذي يضع قانونه ويعاقبك طبقاً له . وهو ليس قانوناً ، بل نزوة شريرة . وددت أن أقول شيئاً لأصحابي لأتخلص من عبء الموقف .

أخذت أدقق النظر في المكان . بعد أن اعتادت عيناي الظلام تبين لي أن هنالك عدداً كبيراً من الناس يجلسون ، أو يقفون ، أو يتجولون في الحوش . كان أصحابي الثلاثة يقفون أمامي كأعمدة سوداء . ولكن الآخرين ؟ من يكونون؟ ماذا يريدون؟ هل هم جزء من ذلك التدبير؟ استطعت أن أرى وجه أحدهم ، للحظة ، عندما جذب نفساً من السيجارة التي في يده ، فأضاءت وجهه . كان يخفيها في كفه ، فيما يبدو . ولكن ، لماذا هذا الصمت ؟

لاحظت بعد قليل إن الجالسين يتهامسون . عزوت ذلك ، في البداية ، إلى حركة الدواب في الحظيرة المجاورة . ولكنني ، بتتبع حركة الرؤوس الملفعة بالكوفيات البيضاء ، تبينت مصدر الهمس . ربما كان الخوف هو الذي جعلني أتصور موضع ذلك الهمس . لم أفطن إلى أن الآخرين عاجزون عن رؤيتنا كعجزنا عن رؤيتهم .

همست :

ـ شفيق .

قال بصوت رائق :

ـ طوّل العرص .

أراحني صوته .

أشعل أحدهم سيجارة بواسطة سيجارة مشتعلة في كف جاره . عندما أضاء وهج السجارة وجهه لبعض الوقت ، تخيّلت أنني أعرف صاحب ذلك الوجه . حاولت أن أتذكر .

تصورت أن القواد قد تأخر علينا وقتاً طويلاً جداً . بدأت أتوتر . الغضب أبعد عني شعور الخوف . ثم خطر لي أن أحدد موقعنا . تذكرت القهوة، في شارع المهاجرين، بواجهتها الزجاجية . أين نحن منها الآن ؟ إنها فوقنا دون ريب، ولكن هل تقع إلى شرقنا ، أم إلى غربنا؟ لم استطع معرفة ذلك. وسألت نفسي ، إن كنا سوف نعود من نفس الطريق الذي جئنا منه . من الأفضل أن نوالي صعودنا إلى حارة المهاجرين ، نجتازها ، ثم نصعد جبل عمان. ما الذي ، إذن ، جعل القواد يجيء بنا من تلك الطريق الطويلة المعقدة؟ ثم سئمت هذه الخواطر وأخذت أراقب من حولي .

انفتح باب على يسارنا ، وفي هالة من الضوء الأصفر الخاثر ، خرج إلينا القواد . فتح الباب وأغلقه دون تعجل .بدت الحجرة ، للحظة ، جوها مليء بدخان السجاير ، ولون أحمر قاتم كالضباب حجب الرؤية. سار نحونا ، كأنه كان يعلم أنه سيجدنا حيث تركنا ، وقال :

ـ تفضلوا .

قال ذلك بصوت طبيعي تماماً كأنه يدعونا لتناول الطعام . حدثت حركة عامة بين الجالسين ، وعلا الهمس. أحد الجالسين ضحك ضحكة صغيرة نفذت إليّ كالسكين ، وشاركه آخر. خطر لي : ماذا يفعل هؤلاء الجالسون؟ جئنا قبلهم ، وها نحن ندخل قبلهم. هل جاءوا ليكونوا مجرد شهود على فضيحتنا؟ لم يفعلوا شيئاً سوى الصمت. والتجاهل ، وضحكات السخرية والهمس المريب. تجسدوا أمامي كضمير اجتماعي .

تبعنا القواد إلى حجرة كانت على يميننا . فتح لنا الباب رجل طويل جداً ، محني قليلاً ، يرتدي جلباباً أبيض . استدار واختفى بمجرد أن رآنا . الحجرة التي دخلناها كانت خالية من الأثاث ، عدا حصيرة طويت واسندت إلى أحد الجدران. كان هنالك، أيضاً ، زير ماء ، كبير الحجم، أغلقت فوهته بقطعة مسطحة من الخشب أصبح لونها أسمر . حول الزير تكونت دائرة سوداء من نشع المياه . أرضية الحجرة كانت من الطين، وأما الجدران فيبدو أنها لم تدهن قط، ما زال القش والطين بادياً ، وكان لبعض القشات لمعة. كان السقف مكوناً من القصّيب الذي يستقر على جسور

خشبية ، وكان أسود . النافذة الوحيدة كانت مغلقة بلوح خشبي .

على يسارنا ممر ضيق ، طويل ومظلم . في نهايته ضوء خافت ، أصفر ، ضوء سراج . نادى القواد :

ـ يا عبد !

انبثق الرجل الذي فتح لنا الباب . كان يمسك رغيف خبز بيده ، وبيده الأخرى حبة طماطم ، قد استهلك جزءاً منها . استمر في الأكل دون أن يبدو عليه أنه لاحظ وجودنا . استطعت أن أرى وجهه بوضوح . كان أبيض ، ذلك البياض المرضيّ ، عظامه بارزة ، طويلاً ونحيلاً . تغطي الوجه مئات التجاعيد الدقيقة . له شفتان رقيقتان ، وأنف حاد ، طويل ، ينحني طرفه إلى الأسفل . المخيف عيناه : لامعتان ، بياضهما ناصع كطبق الصيني النظيف .

تهامس هو والقواد ، ثم ألقى نحوي نظرة ـ بدت غاضبة ـ أحسست بها كاللطمة . ثم دخل الاثنان الممر ، واختفيا . إلى متى سوف يستمر هذا الانتظار !

قال شفيق بضيق :

ـ وبعدين ؟

وفي تلك اللحظة أطل رأس امرأة من طرف الممر . شعرها كستنائي كثيف ، ووجهها كبير ، مطلي بالبودرة . تقدمت خطوة ، وقال سمير :

ـ هاي هيه .

وقفت المرأة للحظة ، تطالعنا باندهاش . كانت ترتدي ثوباً أحمر ، شفافاً ، يصل إلى كاحليها ؛ وكان كل ما فيها كبير . ثدياها ، وقد انكشف نصفهما الأعلى فوق ياقة الثوب ، الذي غطى الصدر بثنيات متجاورة ، وبطنها الكبير وكأنها حبلى ، وفخذاها اللذان بدا حجمهما الهائل من تحت الثوب ، وذراعاها العاريتان ، المستديرتان .

تأملتنا المرأة قليلاً ، ثم ضحكت وقالت بصوت ثري :

ـ يوه !

وعادت إلى الممر ، وأجزاء جسدها تتفكك وتلتئم ، وهي منطلقة فيما يشبه العدو . سمعت ضحكة امرأة ، ثم صوتها ، وهي تقول كلاماً غير واضح ، ثم تسأل بجرس مختلف :

ـ مين ؟

ردّ عليها صوت نسائي آخر ، حاد ، من خلال ضحك بدا لي مفتعلاً ، بكلام لم استطع تمييزه . في تلك اللحظة عاد الرجل الشاحب الطويل . اتجه إلى الزير وغرف منه وأخذ يشرب . خلال شربه ، كانت تفاحة آدم ، المحاطة بجلد مترهل وعروق بارزة ، ترتفع وتنخفض ، أعاد الكوز إلى مكانه ، وتمطى ، وتجشأ . ثم نظر إلينا بمعاتبة وهو يحرك حاجبيه ، وابتسم . كانت له بسمة جميلة ، إذ بدت أسنان بيضاء ، صقيلة ، لامعة . أخرجت علبة سجايري ، فتحتها ومددتها له . تناول منها سيجارة ، وقال :

ـ بدها سيكارة .

اشعلتها له . كانت يدي ترتعش . لاحظت أنه لاحظ ذلك ، قدمت العلبة لأصدقائي فتناول كل منهم سيجارة . جذب الرجل نفساً عميقاً من السيجارة، وأخرجه من فتحتي أنفه قال :

ـ من الصبح ما أكلت !

خطر لي أن أنصحه بتناول طعامه بانتظام ، لأنه من الواضح أنه يحتاج إلى غذاء جيد . ثم عدلت .

قلت :

ـ وين راح الـ . . .

ولم أعرف ماذا أسميه . أجاب الرجل وابتسامته تتسع :

ـ جاي .

الرجل يمتلك حس الفكاهة . شعرت بمودة نحوه . قال وهو يفتح عينيه على سعتهما :

ـ بنات مثل الورد .

قلت :

ـ يعني . . .

قاطعني :

ـ وحياتكو مش لكل الناس .

سأله سمير :

ـ وين راح الأخ يا أستاذ ؟

أشار الرجل بيده في اتجاه الممر ، فقال سمير :

ـ مطول ؟

فقال الرجل بجدية :

ـ دقيقة واحدة .

ألقى الممر نحونا شاباً أنيقاً ، وسيماً . كان يسير بتمهل ، ويضع سيجارة في طرف فمه . عندما رآنا أحنى رأسه وخرج مسرعاً . تبعه القواد ، محاولاً أن يسبقه . قلنا للقواد .

ـ طوّلت .

لم يرد .

كان الشاب قد خرج من الحجرة ، وتبعه القواد .

خطا من الممر شاب آخر ، في فمه سيجارة أيضاً . كان يزرر بنطلونه . أزرار قميصه الثلاثة العليا ما تزال مفكوكة . تأملنا بنظرة غاضبة وغادر المكان باستعجال .

سمعت الهمس يرتفع في الحوش ، وضحكات متفرقة .

سار الرجل الطويل إلى الباب ، وأطل برأسه منه . قال موجهاً كلامه إلى الذين يجلسون في الحوش :

ـ خلو عندكو دم . عيب .

ارتفعت ضحكات أخرى ، وقال صوت من الخارج :

ـ عيب ؟

وضحك . قال الرجل :

ـ طيب أنا بعرف شغلي معاك . بس نخلص من الزباين .

لم يكن الرجل جاداً في تهديده . ناداه أحدهم :

ـ تعال أقول لك كلمة .

وضحك . ثم أضاف :

ـ تعال شوف شغلك معايي .

وانطلق ضحك عام . قال الرجل :

ـ أما بياخة .

وأغلق الباب واستدار نحونا . قال :

ـ أما قلة أدب .

لم يكن الرجل جاداً . بدا وكأنه يجاهد لمنع نفسه من الضحك . قلت لنفسي : الرجل يمتلك حس فكاهة بالتأكيد .

انفتح الباب ودخل القواد . كان لوجهه ، في تلك اللحظة ، تعبير غائب ، منشغل ، كأنه لا يرانا . توقف أمام سمير وقال :

ـ ايدكو على المصاري .

قال شفيق :

ـ هسّا ؟ بعد الـ . . .

قال القواد وهو يمد يده :

ـ لا . هلّأ . كل واحد دينار .

قال شفيق باستنكار :

ـ دينار !

قال القواد :

ـ ايوه دينار . بدكوا ببلاش ، من غير مصاري ؟

قال شفيق :

ـ المرّة اللي فاتت دفعنا نص دينار .

قال القواد :

ـ احنا في الحاضر .

تدخل سمير وقال بصوت مختنق :

ـ يا استاذ نحكي لك بصراحة . ما فيه واحد معه دينار .

قال القواد :

ـ عطلتونا يا جماعة .

واستمر سمير :

ـ والله العظيم ، والله العظيم . . .

قال شفيق لسمير بغضب :

ـ اسكت .

ثم توجه إلى القواد :

ـ نص دينار ، وإلا السلام عليكو ، إحنا ماشيين .

واستدار نحو الباب .

قال سمير بحرارة ومراضاة :

ـ وقف يا شفق . والله العظيم ، والله العظيم مرتين إنه ما فيه واحد منا معاه دينار ، وإلا يعني . . .

قال القواد بغضب :

ـ يا أخي ، طيب ، نص دينار ، نص دينار ، على كل حال صرتوا واصلين . الواحد بتعلم .

تناول النقود منا وهو مقطب ، متألم . أعاد عدها ، ثم وضعها في جيب قميصه . قال :

ـ اثنين ، اثنين . اثنين يدخلوا واثنين يستنوا .

قفز سمير في اتجاه الممر ، ثم توقف ونظر خلفه . قال لنا القواد وهو يحدّق في سمير :

ـ كمان واحد .

ردد سمير .

دفعني شفيق وقال :

ـ ادخل معاه .

رفضت ، فألح :

ـ ادخل يا أخي .

رفضت ، ولكن خالد وشفيق دفعاني باتجاه الممر . قال خالد :

ـ ادخل يا ابن آدم . كل واحد رايح يخش .

قال شفيق :

ـ ما بدها رسميات .

الحجرة التي أدخلني إليها القواد كانت مربعة ، صغيرة ، عالية السقف ، لها شباك مربع في أعلى الجدار المواجه للباب . على الجدران الصقت العديد من الصور الملونة، المنتزعة من المجلات المصرية : ماري كويني بشعر أشقر وافر، مفروق من منتصف الرأس ، وعينين خضراوين ، تنظران بحياد ؛ فريد الأطرش يرتدي قميص كاروهات بنفسجي ، عيناه الجاحظتان حالمتان ، خائفتان ، وفمه واسع جداً ، فاتن حمامة منزعجة ، تحدق بتساؤل ؛ امرأة عارية الظهر ، يبدو المنظر الجانبي لوجهها . صورة كبيرة ذات ألوان حمراء وذهبية للملكة اليزابيت . كانت تضع تاجاً على رأسها الذهبي وتبتسم .

فوجئت بالمرأة . كانت سمراء سمينة (أكلهن سمينات؟) تتكوم على فرشة سمراء (ربما من القذارة) ملقاة لصق الجدار . كانت أرضية الحجرة من الطين ، مغطاة بحصيرة . ملابس المرأة معلقة بمسامير على الجدار ، وفي ركن الحجرة زير ماء صغير .

كانت المرأة عارية عدا سوتيان أحمر يخفي ثدييها ، وكلسون أحمر . كانت تتمدد على ظهرها، وعيناها تطالعان السقف . احترت ماذا أفعل . أدارت المرأة رأسها وأخذت تطالعني في صمت . ثم فجأة ، تناولت روباً أحمر حريرياً ، كان مكوّماً على الحصيرة ، قرب الفرشة ، وصرخت بذعر :

ـ يوه !

وغطت جسدها بالروب ، وأخذت تنظر بعينين عسليتين، كبيرتين ، كعيني الجمل . تصورت أن خطأ ما قد حدث حين دخلت هذه الحجرة ، وخطر لي أن انسحب . ثم ابتسمت . وتحولت الابتسامة إلى ضحكة ، أخفتها بكف كبيرة خشنة .

تقدمت خطوة ، وقلت :

ـ مسا الخير .

كان قلبي ينبض بعنف . ضحكت . أغرقت في الضحك ، وقالت خلال ذلك :

ـ الخير .

قلت :

ـ ليش بتضحكي ؟

قالت :

ـ خضيتني .

قلت :

ـ آسف .

ثم جلست بجوارها على طرف الفرشة . بحثت عن كلام أقوله لها ، ولكن خيبة عقلت لساني . أهذه هي المرأة الحلم . مالت على جنبها ، وضغطت ببطنها على ظهري بايقاع ، وقالت :

ـ أول مرة بتعمل مع ستات ؟

قلت كاذباً :

ـ لا .

كانت رائحة عرقها نفّاذة . نظرت إليها . تحت أنفها تشكل شارب من العرق ، على شكل حبيبات . أمسكت يدي بكف مبلولة وأخذت تداعبها ، وأنا حائر فيما علي أن أفعله . جذبت يدي وقالت :

ـ يوه ، ما تشلح هدومك .

نهضت وأخذت أخلع ملابسي باستعجال وأكومها على الحصيرة . كانت تراقبني بعينين محايدتين . اقتربت منها وأنا أشعر بعبء جسدي العاري . اشعرتني عيناها الباردتان أن منظري مضحك .

تمددت بجوارها وقلت :

ـ إيش اسمك؟

قالت :

ـ سوسو؟

قلت :

ـ كيف حالك؟

Abu Abdo Al Bagl

شعرت أنني أقول كلاماً سخيفاً. ازداد شعوري بذلك عندما تجاهلت سؤالي. أخذت أداعب كتفها. تنهدت، وظل جسدها مسترخياً ونظرتها معلقة في السقف. كانت ذلك مخيباً إلى أقصى حد. قلت:

ـ ما لك؟

قالت:

ـ استعجل يا حبيبي.

قلت بغضب:

ـ ليش بدك استعجل؟

ابتسمت وقالت:

ـ لأني مشتاقة إلك.

وأحاطت عنقي بذراع سمينة قوية. وقبلتني، أحسست إنها تركت على خدي بقعة من الماء. قالت:

ـ وأنت؟

قلت:

ـ مشتاق.

بحثت عن مكان جاف في وجهها لأقبله. قبلتها على وجنتها؛ رغم ذلك احسست بشفتي مبلولتين. مددت يدي وأزحت الروب الذي تغطي به جسدها. لم يكن ذلك سهلاً. قالت:

ـ يوه، عيب.

ثم قررت في النهاية أن تتخلى عن الروب. جذبته من فوق جسدها وألقته لصق الجدار. مددت يدي وداعبت بطنها. كان كبيراً، وليّناً، كطشت كبير من العجين الطري الخمران.

أخذت تضحك، وقالت:

ـ بتدغدغني.

ابعدت يدي وقلت:

ـ اشلحي السوتيان.

Abu Abdo Al Bagl

قالت وهي تهز سبابتها في وجهي :

ـ لا ، لا ، لا ، لا .

قلت :

ـ ليش ؟

ولكنها أصرت على الرفض . فازددت إلحاحاً . تنهدت وقالت :

ـ طيب .

وأخرجت أحد ثدييها ، وأمسكته بكفها . غير أنني الححت :

ـ لا ، لا ، لازم تشلحيه .

كانت المسألة ، بالنسبة لي ، مسألة كرامة في المحل الأول . ولكنها أصرّت على الرفض . عندها هددت بارتداء ملابسي ومغادرة المكان . عند ذاك فقط أدارت لي ظهرها وطلبت مني فك السوتيان .

عندما جذبت السوتيان سال ثدياها ، وأدهشتني ضخامتهما ، وطراوتهما . أمسكت بهما ، ثم انسابت يدي إلى فخذيها الهائلين . انزلقت يدي فوقهما وابتلت . كانت مستسلمة لمداعباتي دون حركة . عيناها شاردتان . قدرت إنها من الممكن أن تكون غاضبة بسبب إلحاحي عليها لتخلع السوتيان . نظرت إلى وجهها ، محاولاً أن اقرأه ، وقلت :

ـ ليش ساكتة؟

كان من الواضح إنها لم تسمع سؤالي ، فأعدته بغضب .

استدارت وضمتني إليها بقوة ، وقالت :

ـ ساكتة؟ يا تقبرني .

كان لها قوة جسدية هائلة . استسلمت لها ، فانحنت فوقي وأخذت تداعب شعري . ثم عادت إلى حركاتها العنيفة . أمسكت رأسي بين كفيها ، وانحنت وقبلتني . قالت :

ـ أموت في عيونك .

وغشتني رائحة جسدها ، كيد تكتم أنفاسي . كررت :

ـ عيونك . أموت في عيونك .

أخذت اتصرف كطفل مشاكس . قلت :

ـ عيوني مش حلوات .

وسط ضحك صاخب ، وعنف جسدي أكدت لي أن عيني جميلتان، وأنها عشقتني بسببهما . همست :

ـ يا تقبرني .

وأخذت تقبل عيني . ابعدتها قليلاً . وطلبت منها أن تحكي لي قصة حياتها . بدا واضحاً أنها لم تفهم سؤالي . فغيّرت صيغة سؤالي وقلت لها إنني أريد منها أن تشرح لي الظروف التي قادتها إلى هذا المصير . ماذا حدث بالتحديد وشعرت أن ذلك سوف يكون تعويضاً رائعاً عن خيبة أملي .

صمتت وشردت عيناها ، وداعبت يدها شعري . ملأتني بالضجر : أهكذا يتجسد الحلم الذي ألهب خيالي؟ أهذا كل ما يمكن أن يمنحه جسد المرأة وحديثها ؟

قالت فجأة :

ـ استعجل يا حبيبي .

قلت بغضب :

ـ ليش؟ زهقت مني؟

قالت وهي تتنهَد بعمق :

ـ لا . لكن خايفة جوزي ييجي .

قلت بصوت مجروح :

ـ أنا أهبل ، تقولي لي جوزك ؟

كنت أعرف أنني مزعج ، وأنني أضايقها . قالت :

ـ يالاه ، يا حبيبي . . يا ألله منك .

كانت منزعجة حقيقة .

كانت تحتي مغمضة العينين ، فمها كان مفتوحاً ، وكنت أجاهد لأؤجل لحظة الانتهاء . في الجدار ثقب مظلم . قد يخرج منه عقرب ويلدغني . قطعة صغيرة من الورق ، أو خرقة يمكن أن تسدَّه . هل تميت لدغة العقرب؟ لدغت أبي عقرب . كان متمدداً في وسط الدار ، أمام موقد النار ، يده المجاورة للنار ممدودة ومعصوبة بقطعة

قماش أبيض. تلك كانت اليد التي لدغتها العقرب. كانت اليمنى.

أحسست باختلاجتها تحتي وانتهى كل شيء. كا نت يد أبي الملدوغة تمتد من تحت اللحاف، وكان الزوار بلحاهم البيضاء الطويلة ينظرون أمامهم بصرامة وصمت.

كانت المرأة تضحك. قبلتني وأنا ممدد على ظهري، كانت أنفاسها ثقيلة، ولفمها رائحة غريبة، وقد تساقط شعرها على وجهي. قالت هامسة:

ـ بدك مرة ثانية. بس ماتطوّل. هه؟

قلت:

ـ لا ما بدي.

قالت:

ـ اخص عليك. زعلان؟

لم أجب. قالت:

ـ زعلان يا حبوبي؟

وأخذت تضمني. أحسست بطعم أصباغها الثقيلة على شفتي، وفي حلقي. كان ذلك أشبه بطعم الصابون. نهضت واغتسلت. ثم تناولت قميصي، فجذبت القميص من يدي، واحتوتني بين ذراعيها. حاولت أن أقاوم، ولكن ذلك كان دون جدوى أمام قوتها الجسدية الهائلة. استثارتني فاستسلمت.

عندما ارتديت ملابسي، قالت:

ـ مبسوط؟

قلت:

ـ ايوه.

وقد أحسست بالرغبة تلح علي مرة أخرى.

ـ لسّا زعلان؟

قلت:

ـ لا

وكنت صادقاً.

عندما خرجت كان ثلاثتهم في انتظاري ، مستعدين للمغادرة . نظروا إلي بتساؤل . قال شفيق .

ـ مبين انبسطت منك .

قدّرت أن الساعة بلغت الواحدة . هل ما زال الرجال الغامضون في الحوش؟ نظرت إلى ساعتي . فوجئت . كانت الثامنة والنصف فقط؟ قربتها من أذني لأتأكد أنها ما زالت تعمل . دقاتها منتظمة . ولكن هل هذا معقول؟ هل تم لقاؤنا يا قواد ، ومسيرتنا الطويلة ، والانتظار ، والمرأة . . . كل ذلك في ساعة ونصف؟ خطر لي أننا لو توجهنا إلى البيت في هذه اللحظة لعوضت الساعة عن بطئها ، وأصبحت الواحدة بعد منتصف الليل .

قبل أن نصل إلى الباب وقف القواد بيننا وبينه قال :

ـ ايوه يا أخوان .

قال شفيق :

ـ خير إن شا الله؟

ـ كل واحد عشرين قرش .

قال خالد :

ـ ايش؟

قال القواد :

ـ عشرين قرش . ما انتو عارفين .

قلت :

ـ ايش عارفين؟

قال شفيق :

ـ ولا عشرين مليم . فاهم؟

علا صوت القواد :

ـ لا ، انتو زدتوها . إحنا سايرناكم أكثر من اللازم . قلتوا : نص دينار ، قلنا : ماشي الحال ؛ بنقول إلكو عشرين قرش اجرتي عن الواحد . بتقولوا مش عارف ايش . هاي مش حالة .

قال له شفيق إن النصف دينار يحتوي على اجرته . هذا ما حدث في المرة السابقة .

أخرج سمير من جيبه بضعة قروش ، وأخرجت أنا كمية أخرى ، ووضعناها في يد القواد . واتجهنا إلى الباب . لم يستوقفنا ؛ وضع النقود في جيبه دون أن يعدها ، وقال :

ـ أنا الغلطان .

٢

يبدو أن الذين كانوا في الحوش ، هؤلاء الشهود الصامتون ، المرعبون بغموضهم ، وعدم تحدد هويتهم ، قد غادروه . كانت الظلمة مصمتة ، وكنا نخوض فيها ، وكأننا نعبر سائلاً أسود . توقفت قليلاً حتى تعتاد عيناي الظلمة ، حاولت أن أتعرف على شكل آدمي ؛ لم أرَ أحداً .

يبدو أنني فقدت أصحابي . لم أعد أشعر بهم حولي ، أو أسمع حركتهم . توقفت . كل خطوة بدت وكأنها سوف تؤدي بي إلى حفرة ، لا قرار لها . همست :

ـ شفيق .

لم أسمع رداً .

فجأة سمعت خلفي صوتا :

ـ الحمد لله على السلامة يا بطل .

لماذا أنا وحدي؟ خطر لي . لماذا لم يقولوا «يا أبطال؟» سمعت ضحكات مكتومة ، جعلت العرق ينساب في ظهري بغزارة . ثم ساد الصمت . وأنا واقف مكاني ، متوقعاً عنفاً مباغتاً ، خطر لي ، دون ترابط واضح ، ما قالته المرأة إنها خائفة أن يفاجئها زوجها . أحسست بالورطة شاملة . لو إننا أعطينا القواد ما طلب لما كنت في هذه الورطة .

ولكن أين ذهب أصحابي ؟

سمعت صوت أغنية لعبد الوهاب تذاع من الراديو . أصبح العالم معقولاً . الآن

Abdul Abdo Al Bagl

استطيع أن أواصل سيري . همست :

ـ سمير .

إنه أكثر أصحابي استجابة . انتظرت رداً ، فلم أسمع شيئاً . ثم جاء ذلك الصوت الذي جمّد الدم في عروقي :

ـ استنى شوية حتى نعمل إلك زفة .

كان صوت امرأة .

هل هذا معقول؟ امرأة! لقد أثار تعليقها ضحكاً وتعليقاً جماعياً ! ولكن الغريب إنه رغم أن عيني قد تعودتا الظلمة ، فإنني لم استطع أن أميّز أحداً في الحوش . لقد كان خالياً تماماً .

كان ذلك مخيفاً .

يبدو أنني فقدت الاتجاه . أخذت أسير بسرعة ، وبين كل حين وآخر كنت أصطدم بالسور . أدفع بيدي ، لعل ما وصلت إليه هو البوابة ، ولكن خشونة السور كانت تقنعني بأنني مخطئ . وأصحابي؟ وامتلأت بالفزع فعلاً حين خطر لي أنهم قد يكونون شركاء في هذه المؤامرة .

كان العرق قد بلل شعررأسي ، وأخذ ينساب في عيني . هذا ما كان ينقصني . صحت وكأنني استنجد :

ـ شفيق !

ولكن صوتي خرج نحيلاً ، باكياً ، مختنقاً . وكنت ألهث . نظرت حولي . حتى الضوء الذي كان يظهر من شقوق الأبواب اختفى .

درت في هذه المتاهة ، كما بدا لي ، طويلاً . وفجأة وأنا أسرع كالمجنون ، اصطدمت بجسد كثيف الشعر ، ساخن ، دفعني بعنف بمجرد أن لمسته . تمسكت به ، خوف السقوط ، وإذا بي أمسك جسداً اسفنجياً ، مبلولاً بغزارة ، واستطعت قبل أن أسرع مبتعداً أن أتبين ضوءاً أسود ، يبرق .

في تلك اللحظة ميزت صوت شفيق :

ـ جريس! وين راح جريس .

اندفعت نحو مصدر الصوت وأنا أقول :

ـ هون .

رأيت الباب الذي خرجنا منه مفتوحاً ، ومن خلال الضوء استطعت أن أميّز أصحابي ، والرجل الطويل الشاحب ، الذي ابتدرني بالقول :

ـ وينك؟

قلت :

ـ مش عارف .

ضحك وقال :

ـ دخلت في زريبة الدواب .

أغلق الرجل الباب ، وقال :

ـ تعالوا . رايح أمشي معاكو شوية .

تبعناه . كان مستطيلاً أبيض ، يسهل تمييزه في الظلام .

عندما غادرنا الحوش ، سمعنا صوتاً يقول :

ـ استنوا يا اساتذة .

فصرخت :

ـ اخرس .

استدار الرجل وقال :

ـ اتركك منهم .

قلت للرجل إننا نريد أن نعود من خلال حارة المهاجرين . أشار لنا في اتجاه الحارة، فسرنا . وعاد الرجل .

كان الجو لطيفاً . مثقلاً بروائح الكروم التي ترتفع من سيل عمان إلى حارة المهاجرين . عند المنحنى الذي أخذنا نصعد منه إلى الحارة اصطدم شفيق بشخص مسرع . قال الرجل :

ـ عفواً .

وغادرنا وانطلق مسرعاً . رن الصوت في أذني رنيناً مألوفاً . إنني أعرف صاحبه ، ولكن من يكون؟ كان الوجه يظهر في لمحة ويختفي ، وأحاول أن أمسك به ، وأعرفه ، ولكنه يفلت مني . صعدنا إلى البيت ، متسلقين جبل عمان من جهته الجنوبية . كانت

Abu Abdo Al Bagl

مسيرة شاقة ، وكان سمير صامتاً . بينما خالد وشفيق لا يكفان عن الكلام . قال خالد إن البنت قالت له إن عينيه جميلتان ، قال وشفيق إنها قالت له نفس الشيء . وانطلقا يضحكان .

قلت لسمير :

ـ ليش ساكت ؟

قال وكأنه فوجئ :

ـ مش ساكت .

في تلك اللحظة تذكرت الصوت . استعدته في ذهني ، أدركت أنه صوت سعد . سعد؟ ما الذي جاء به؟ قلت لنفسي : الذي جاء بنا . لم تقنعني الإجابة . شعرت بحزن لمجيء سعد إلى هذ المكان .

دخلنا الحجرة . اكتشفنا أن سمير قد فك أزرار قميصه وبنطلونه قبل أن ندخل . حين أشعلنا الضوء رأيناه عارياً ، يبحث عن المنشفة . وجدها ، فلفها حول جسده واتجه إلى الحمام .

٣

كنت أجلس في مقهى (وادي النيل) . كالمعتاد ، أمامي فنجان القهوة الفرنسية ، ورواية (مدام بوفاري) ، أوجه نظرات سريعة نحو فتاة تجلس مع شاب ، أراقب المارة في الشارع . بعد ليلة البارحة ، لم أعد شديد التعاطف مع مدام بوفاري . لم يعد لجسدها ذلك الإغواء . لقد رأيت جسد المرأة وخبرته : الترهل ، والعرق ، والرائحة النفّاذة .

فقدت حماسي للقراءة . وحتى الفتاة التي تجلس على مائدة قريبة ، تصورت تحت ذلك الثوب ، ورغم المظهر الرياضي ، والصلابة الظاهرية ذلك الترهل ، والعرق والرائحة . شعرت بكآبة عميقة ، بات كل شيء يفقد معناه . كأن حماسي للحياة كان مستمداً من صورة محددة للمرأة ، صورة جسد متماسك نظيف ، لا شعر فيه ، إلا ذاك الذي على رأسها وفي حاجبيها . . . كل ما تبقى من الجسد ساطع ، صبوح ،

Abu Abdo Al Bagl

صلب ومرن . وعندما انتهت هذه الصورة، أحسست وكأن كل ما كان يربطني بالحياة قد انفصم . لا شيء بإمكانه الآن أن يعيد لي صورة المرأة كما تخيلتها ، ورغبت فيها .

كان ذلك يشبه الموت . ثم خطر لي خاطر ، بعث بعض العزاء في نفسي : الا يجوز أن يكون هنالك أنواع مختلفة من النساء ؟ أن تكون هنالك نساء ذات أجساد صلبة ، ورائحة طيبة ؟

لم يكن العزاء كبيراً . كانت الفكرة مجرد مقولة منطقية . المرأة الحقيقية تلك التي منحت نفسها لي البارحة . إن مجرد تذكرها ، واسترجاع ما حدث بيننا ، استرجاع صورة البطن اللين كالعجين الخمران ، ورائحة الفم ، والفخذين الكبيرين ، الرجراجين ، مجرد استرجاع ذلك كان يشعرني بالقذارة، وبالرغبة في الاستحمام . كانت رائحتها في أنفي ، وملمسها في يدي ،وطعم أصباغها في فمي ، ملتصقاً بشفتي .

جاء الجرسون مسرعاً ؛ قال :

ـ جريس ؟

قلت :

ـ أيوه .

قال :

ـ تليفون .

اسرعت نحو التليفون . كان صوت سلطانة ، قالت :

ـ جريس؟

قلت :

ـ أنا جريس .

قالت :

ـ تعال بسرعة .

قلت :

ـ فيه إشي ؟

ضحكت ، وقالت :

ـ فيه . مشتاقة إلك .

أردت أن أقول لها شيئاً رائعاً وجميلاً . كلمات حب وشوق . ولكنني لم اجرؤ .

قلت :

ـ جاي بسرعة .

قالت :

ـ لا تتأخر .

قلت :

ـ و حدك؟ من حالك؟

ضحكت وقالت :

ـ تعال .

دفعت الحساب وأسرعت .

رغم سرعتي في السير كنت حذراً جداً من السيارات . لم أكن أريد أن يحدث لي شيء، قبل أن أرى سلطانة .

٤

مع سلطانة رأيت وجهاً جديداً للمرأة ـ الحلم . استعدت حماسي للحياة أكثر من أي وقت مضى .

قالت عزة :

ـ وبعدين؟ مش فاهمة؟

قلت :

ـ بعدين .

قالت بحدة :

ـ إيه دا بالضبط؟ بتعمل Suspense؟[١]

---

(١) تشويق .

Abu Abdo Al Bagl

القسم الثالث

التذكر

١ ـ طعمه يتذكر

٢ ـ جريس يتذكر

٣ ـ سلطانة تتذكر

Abu Abdo Al Bagl

Abu Abdo Al Bagl

أميرة تتذكر

١

الشرفة ترتفع عن الأرض مترين أو أقل قليلاً. هنالك درجات تصعد من الشارع إلى مدخل البناية المكوّنة من ثلاثة طوابق وست شقق. سور شرفة الشقة الواقعة على يمين الداخل يرتفع متراً. فوقه صُفّت أصص فخارية، فيها نعناع، ونبات كثيف العطر (يسمونه عطراً). وورود. هنالك أصص كبيرة مزروع فيها بقدونس ورشاد وبصل أخضر وطماطم. في الصيف تكتسب النباتات لوناً رمادياً، يزول بعد سقيها بالماء أو إزالة الغبار عن أعوادها، ليعود اللون رمادياً بعد ساعات قليلة.

الشقة تطل على شارع ترابي، يتفرع عن الشارع الذي يمر جنوبي مدرسة المطران، وقد بدأت محافظة العاصفة برصفه حديثاً، لهذا كان جو الشارع محملاً بالتراب بشكل دائم. حجرة النوم، في الشقة، تطل على المنحدر الجنوبي لجبل عمان. ينساب الجبل هابطاً، وكذلك البيوت إلى حارة المهاجرين، يليها منطقة عريضة يمر سيل عمان (الذي يجف في الصيف) في وسطها. يتلو ذلك ارتفاع جبل النظيف.

من بين المساحات الفارغة بين الأصص يستطيع العابر، إن دقق النظر، أن يرى وجه طعمة ـ أجزاء منه بالطبع. يستطيع أن يرى عينيه تطالعان كل ما يتحرك في الشارع.

كان يجلس على كرسي خشبي مدهون بلون أشقر. كان طعمة، ببيجامته السمنيّة، يبدو كبير الحجم. حين يغادر زائره الجالس على الشرفة ليرتدي بذلته، يبدو وكأنه بتر أجزاء من جسده حين يعود.

يجلس في هذه الساعة الصباحية وحيداً يقرأ كتاباً بعنوان «اخترت الحرية». طبعة بنجوين، من تأليف عضو مجلس العموم البريطاني زلياكص. من الواضح أنه لا

يستطيع التركيز على القراءة . كان يقرأ ، ثم يكتشف أنه لم يفهم ما قرأه . يكتشف ذلك حين يعيد قراءة الفقرة . يكتشف كأنه يقرأها للمرة الأولى . يضع الكتاب على افريز الشرفة . ويتأهب للنهوض لإعداد فنجان قهوة . ينهض ، ثم يعاود الجلوس .

ينظر إلى الساعة . العاشرة والنصف . هذا موعد مرورها .

٢

في كل مرة تغافلني . أرفع رأسي ، فأراها قد تجاوزت الشرفة . أراها تقترب ، وحين تحاذي الشرفة ، أناديها بصوت طبيعي :

ـ وأنت رايحة تشتري علبة سجاير إلي .

تنظر مندهشة :

ـ عندك مانع عموه ؟

ولكنني لاأرى إلا ظهرها وهي مبتعدة .

الكلمات تتراقص أمام عيني . أحتاج إلى نظارة طبية؟ هذه الفقرة قرأتها قبل قليل . العاشرة والنصف ودقيقتين . هل أستطيع أن أقود الجماهير وأنا عاجز عن التحكم في نفسي؟ طفلة ، خادمة ، تشل تفكيري ، فلا استطيع التركيز ، سوف أناقش نفسي فيما بعد . ليس الآن . الساعة العاشرة والنصف وأربع ، وخمس دقائق .

٣

يتذكر . قبل أن يراها يأخذ قلبه في الخفقان بسرعة . تجاوزت الشرفة دون أن يراها . يشاهدها تصعد المرتفع المؤدي إلى الطريق العام . عجيزتها تتقلص وهي تصعد ، وساقاها ينثنيان . ثم ـ أي حظ ! ـ ربما بسبب سرعتها ، ومع هبوب زوبعة ، ارتفع ثوبها . اعمته لمعة الفخذين . يتذكرهما قويين ، ساطعين ، ثم ملابسها الداخلية . يتخلى عن كل وقار . يسقط الكتاب على الأرض ، ينهض مصدراً من فمه صوتاً كالصفير (متسس . . بسست) . ها هي تلتفت إليه ، مرفوعة الحاجبين ، مفتوحة

الفم قليلاً . أي وجه؟ أي صدر؟ يقبّل كفه ، ثم ينفخ القبلة نحوها ، يكوّر قبضتيه على صدره ، مكوّناً ثديين ، ويهمس همساً عالياً :

ـ حلوين .

تقف وتنظر إليه ، تدقق فيه النظر ، كأنها تود أن تتأكد أن ما يحدث حقيقي .

تستدير فجأة وتركض ، سلتها ترتفع في الهواء ثم تخبط جنبها . تختفي، ثم تظهر ثانية ، لتغيب .

أعماه الفخذان ببريقهما . في داخله صوت ضعيف «كنت أحمق يا طعمة . فضحت نفسك» ، ولكن الهدير الذي في داخله جعله يسرع نحو دورة المياه . يقرفص، يغمض عينيه ، ويستعيد ذلك البريق . تقترب حتى يحس ملمس جسدها ، رائحتها ، تلهث ، تعوي ، تصرخ طالبة المزيد . وفجأة ينتهي كل شيء . أوغست فوريل يقول العادة السرية لا ضرر منها . يشعر بإرهاق جسدي ، بالاشمئزاز والقذارة . . يقول لنفسه «المسألة فيزيولوجية بحتة» يجب أن يركز على القراءة الآن . يجلس ،ولكنه لا يستطيع القراءة . عيناه تراقبان الشارع .

يتخذ قراراً صارماً بأن يواصل القراءة . هل نلوم الاتحاد السوفييتي إذا خلق جهازاً بوليسياً قوياً ؟ إن الغرب لا يزال يبذل جهوداً لا تتوقف للتسلل إلى قلعته ، إلى القيام بانقلاب داخلي ، أو تدميره من الداخل . محاكمة بوخارين ورادك، وعدد من جنرالات الجيش الأحمر تبرهن على ذلك . ولكننا لا نستطيع إلاّ أن نلوم الاتحاد السوفييتي لأنه سحب قواته من كوريا تاركاً اليابان لقمة سائغة للمستعمرين الأمريكيين .

محاكمات موسكو . يستعيد ، في ذهنه بسرعة ، ما كتبه السفير الأمريكي في موسكو آنذاك في كتاب «بعثة إلى موسكو» .

الأفكار الجديدة التي يقدمها الكتاب أثارت في داخله حماساً منعه من مواصلة القراءة ، وأنساه البنت ، والإحساس بالقذارة الجسدية . شعر أنه لا يستطيع الجلوس أكثر من ذلك . وفجأة رآها عائدة . أحس بقلبه يهبط . لم يعد راغباً فيها ، ولكنه لن يغفر لنفسه لو تركها تمر دون أن يكلمها . وأصابته الدهشة إلى حد الذهول . كانت تبتسم له . صرخ :

ـ آه يا ملعونة .

نظرت إليه ، إلى عينيه مباشرة ، فأحس بالشلل . ثم انفجرت ضاحكة ، وأحنت رأسها وأخذت تركض .

٤

قالت أميرة لنفسها : إنه مجنون . ألا يرى شعره الأبيض؟ لم يكن شعره أبيض ، بل خروبياً يتخلله شيب خفيف . لقد تملكها الخوف حين رأته يضع قبضتيه على صدره ويصيح : «حلوين» . كان ذلك مخيفاً بالفعل . ولكنها ، بمجرد أن غاب عن عينيها ، استولت عليها رغبة لا تقاوم بالضحك .

تأكد لها جنونه حين عادت حاملة سلة الخضار ممتلئة . كان يقف في الشرفة ، سميناً ، زائغ النظرة ؛ اختلج وجهه عندما رآها ولكنه لم يقل لها شيئاً . فغلبها الضحك وأسرعت ، رغم ثقل السلة ، والألم الذي كانت تسببه وهي تخبط فخذها .

عندما اختلت بنفسها بعد الانتهاء من الغداء ، وغسل الصحون ، والاسترخاء في الحجرة الصغيرة التي كانت تنام فيها ، تذكرت الرجل المجنون . كانت قد نسيته منذ اللحظة التي دخلت فيها البيت . استعادت كل شيء وكأنه يحدث مرة أخرى .

«متسست . . بسست . . . وترتفع قبضتاه إلى صدره» . وتوقفت عن التذكر ، أصبح المشهد ثابتاً : يقف كبيراً ، قبضتاه على صدره ، ولمعة ضاحكة في عينيه ؛ تشعر فجأة بقلبها يهبط ، وبلسعة تصعد من عمق صدرها وتنغز الحلمتين ، تشهق ، وتضغط على نهديها .

ثم تراه واقفاً بالباب ، طويلاً و نحيلاً ، تبعد يديها عن نهديها وتبادله النظرات .

يقول هامساً :

ـ إيش بتعملي ؟

كان صوته خشناً ، مختنقاً ، تقول :

ـ ولا إشي يا استاذ إحسان .

يقف ويبتلع ريقه . ترى حنجرته عبر عنقه الطويل وتهبط . وترتفع وتهبط .

ـ أنا . . .

يقول . ثم يدخل . ينحني فوقها ويمسك نهديها ويضغط عليهما بقبضتيه . تغمض عينيها ، تلهث ، وهو يلهث . ينفتح باب . فيخرج مسرعاً . يقف خارج الحجرة ، وينظر إلى يمينه ، وإلى يساره ، ثم يتأتئ :

ـ أنا . . أنا . . .

ابتل أنفه بالعرق ، وقال :

ـ بحبك . . .

وابتعد .

كانت تحس بقبضتيه على صدرها وهي مغمضة العينين ، ولكنها لم تكن تفكر فيه . كانت تحلم بالرجل المجنون . كان جسدها يستجيب بإيقاع بطيء لتلك البذاءة التي كوّر بها قبضتيه على صدره . كان لوجهه الكبير ملمس فاجر ، رأت نفسها تمد يدها وتلمسه بأصابعها .

٥

أحسّ بهبوط جسدي عام . لم يكن يرغب في شيء . كانت الأفكار التي تمر برأسه تؤلمه . الساعة الثانية عشرة . في الثانية يبدأ عمله . سار إلى السرير وتمدد عليه . جاءه النوم كالإغماء .

استيقظ واقفاً ، وخطر له : «تأخرت عن العمل» وأسرع إلى الحوض وغسل وجهه . كان نشيطاً عصبياً . فوجئ أن الساعة كانت تشير إلى الثانية عشرة والربع . فقط ؟ غريب .

وتذكر القدس . القدس القديمة . كان يصعد بسرعة ، رغم صغر سنه ، إلى قيادة الحزب . كان عضواً في اللجنة المنطقية لمدنية القدس . يتذكر باب العامود ، والشارع المرصوف بالحجارة الملساء الزلقة الذي ينحدر منه ، السور العريض الذي كان يستطيع أن يرى القدس الجديدة منه ثم يتذكر العودة إلى حجرته في المساء . كان يخلع حذاءه فيكتشف أن السير المتواصل ، والاستغراق في العمل الحزبي ، قد جعلا أصابع قدميه تنزّ دماً .

في تلك الساعات قرأ روايات «الدم» و «الفولاذ سقَيناه» و «مخلوقات كانت رجالاً» . وكان النوم يداهمه وهو يقرأ . لم يكن قط يعاني هذا التمزق الذي يعانيه الآن . لم يكن يتخذ قرارات لا يستطيع تنفيذها . كان ينهض نشيطاً في الصباح ، وكل شيء واضح ومحدد . ورغم هذا فقد كان يومه مليئاً بالمفاجآت .

ثم أطلقوا عليه ـ قادة الحزب ـ صفات من نوع : منحرف ، تيتوي ، عدو للحزب . تم تجميده ، ثم فصله ، حدث كل ذلك بسرعة ، وبشكل غير متوقع . حتى آخر لحظة كان يعتقد أن الرطانة المذهبية لن تقرر مصيره . كل ما حدث أنه قال بضع كلمات نصف مازح ثم ، من خلال الاستفزاز ، دافع عنها . وغادر الاجتماع . لم يتغير فيه شيء ، وما زال هو ذاته . وعاد إلى حجرته في المساء وأعاد قراءة كراس «الاستراتيجية والتكتيك» لستالن . وكما يحدث في كل مرة يقرأ فيها شيئاً لستالن ، يتوهج ذهنه ، وتبدو الأشياء ـ بمعنى من المعاني ـ في ضوء جديد . أي أنه يصبح للأحداث اليومية ، لمظاهر الحياة العادية أسماء ومدلولات جديدة .

لهذا السبب نام متأخراً . استيقظ على خبط عنيف ومتصل على الباب . «الشرطة» قال لنفسه . وسار إلى الباب مخدّراً بالنوم ، لم يتملكه الرعب بعد . عندما فتح الباب كان الرفيق أحمد يقف خلفه .

ظلّ واقفاً بالباب يحاول أن يفهم . فعندما يزوره عضو في المكتب السياسي ، في هذه الساعة المبكرة ، فلا بدّ أن شيئاً خطيراً قد حدث ، أراد أن يقول ويسأل عن أشياء كثيرة ، ولكن الرفيق أحمد قال :

ـ خليني أدخل .

قال ذلك بلهجة جافة ، قاطعة ، نفذت إليه كاللطمة . كان الوجه هادئاً ، ولكنه خال من الود . قال طعمة بصوت مرتعش :

ـ اتفضل .

وهو يشعر بخوف حقيقي . ابتعد عن الباب ، ودخل أحمد جلس ، أخذ ينظر إلى صورة على الجدار ، متربة وغير واضحة . قال طعمة :

ـ بتشرب شاي يا رفيق .

قال أحمد :

ـ اقعد بدي أكلمك في موضوع .

قال طعمة :

ـ أغسل وجهي . . أطرد النوم .

وضحك .

دخل ، وأشعل موقد الكاز ، ووضع إبريق الشاي فوقه . ثم رشق وجهه بالماء . كان خائفاً . كان يضع الشاي والسكر في الماء الذي اقترب من درجة الغليان عندما رأى أحمد يقف أمامه . قال :

ـ أنا مستعجل .

لم يقل ذلك بتلك الصرامة التي تميّز القائد الحزبي ، بل بغضب كامن ، محمّل بافتقاد المودة . قال طعمة :

ـ نص دقيقة يا رفيق .

جلسا يشربان الشاي . على الفور بدأ الرفيق أحمد بالأسئلة . قال له إن هنالك معلومات أن له صلات بضباط مصريين يعسكرون في منطقة الخليل . كان ذلك صحيحاً . ولكنه سبق أن قدم تقريراً وافياً عن ذلك . لقد تعرف ببعض الضباط المصريين . اثنان منهم كانا شيوعيين سابقين (أعضاء في التنظيم الشيوعي المصري : الحركة الديموقراطية للتحرر الوطني «حدتو») . استقالا من التنظيم بعد أن تبنى التنظيم قرار تقسيم فلسطين . كانا يعتقدان أن «حدتو» اتخذت هذا الموقف لأن أمينها العام ، هنري كورييل ، يهودي . كانا يقولان إنه صهيوني متستر . يقولان ذلك بحماس ، ويضيفان أن عندهما ما يثبت ذلك . وأنه ، على أية حال ، لا فرق بين اليهود والصهاينة . كان طعمة يحتد ، ويدور نقاش طويل . يقول طعمة : هنالك فارق بين اليهودي والصهيوني ، بل هما متناقضان . هنالك حلف بين الصهيونية والرجعية العربية ؛ ومن هذا المنطلق فهنالك تحالف بين الشعب اليهودي والشعوب العربية .

كان النقاش يستمر طويلاً ، وحاداً ؛ ولكن الضابطين كانا يعاملانه بمودة . لقد حكى كل ذلك بالتفصيل . فاندهش من أسئلة الرفيق أحمد حول هذا الموضوع . ولكنه أخذ يجيب عليها باستفاضة :

ـ لسّا بتقابلهم ؟

سأل أحمد .

ـ حالياً ؟ نادر جداً .

ـ إمتى آخر مرة؟

حاول طعمة أن يتذكر ، ثم قال :

ـ من شهرين ، ثلاثة . . .

قال أحمد بحسم :

ـ شهرين والا ثلاثة؟

وما أهمية التحديد ؟ قال طعمة لنفسه . الرفاق ، والرفيق أحمد بالذات ، يعرفون كل التفاصيل . قال :

ـ ثلاثة .

قال أحمد :

ـ لا يا رفيق . من شهر ونص .

ـ يمكن .

قال أحمد بغضب حقيقي :

ـ يمكن . هاه؟

ثم ساد صمت كان خلاله الرفيق أحمد يركّز نظراته على طعمة ، نظرات ثابتة ، مدققة ، لائمة ، وخلال ذلك كان طعمة يزداد ارتباكاً . ثم أخذ أحمد يسأله عن زيارة قام بها طعمة إلى دمشق وبيروت . كان واضحاً من الاستجواب أنه يتهمه بإقامة صلات ، دون علم الحزب ، مع مجموعة من المثقفين انفصلت عن الحزب الشيوعي السوري ـ اللبناني ، خلال حرب فلسطين لأنها كانت تعارض قرار التقسيم ، وإقامة دولة يهودية في فلسطين . كما أيّدوا دخول الجيوش العربية لفلسطين .

كان طعمة يدرك أن عليه أن يغضب ويستنكر هذه الاتهامات التي لا أساس لها . ولكن الخوف والخجل لجماه . الخوف من ماذا؟ والخجل لأي سبب؟ هذا ما عجز عن الإجابة عليه . كان يشعر فقط بأن عقله مشلول تماماً ؛ أو ربما إرادته ، على الأصح . فلقد كانت الردود جاهزة في ذهنه ، لكنها تحتاج إلى حماس غاضب لتخرج ؛ وهذا ما كان عاجزاً عنه تماماً .

عاد أحمد إلى الصمت والتحديق . أشعل طعمة سيجارة ، وتناول كأس الشاي

الذي أصبح فاتراً . لم تكن تلك الحركة حكيمة . فقد بدا واضحاً أن يده ترتعش ، وأن تلك الارتعاشة سوف تكون الرهان الأكيد على صحة الاتهامات الموجهة إليه . كان يعرف كيف يتم توفير مثل هذه الوقائع ، ويعرف جيداً كيف تتحول إلى حكايات متماسكة ، ثم إلى اسطورة تحكى كدليل على يقظة الحزب ، وقدرته على اكتشاف العملاء في داخله .

كلما ازداد إدراكاً للمأزق الخرافي الذي هو فيه ، كان خوفه وخجله يتزايدان . لقد استعاد هذا الموقف عشرات المرات ، وكان يدرك في كل مرة أنه لو ردّ بقوة وغضب لبقي أحد قادة الحزب حتى الآن .

ـ وإيش حكاية دول عربية رجعية ودول وطنية؟

قال أحمد فجأة .

ـ مش فاهم .

قال طعمة . فقال أحمد :

ـ الملك فاروق وطني وفيصل . . .

كان نقاشاً طويلاً ، أنهاه أحمد بقرار تجميده .

أصبحت الأمور أكثر سوءاً : الجميع يتجنبونه ، أو ـ إن اضطروا ـ يقابلونه بفتور . وتسربت إليه الشائعات ، أنه على علاقة بالأجهزة الأمنية . كان رد فعله مزيداً من الارتباك والخجل . لم يخطر له أن يغضب ، أو أن يتخذ موقفاً هجومياً من الحزب . كان يأمل كثيراً أنه سوف يأتي الوقت الذي سيكتشف فيه الحزب الخطأ الذي ارتكبه بحقه . كما تكونت لديه خطة أخرى ، كانت مزيجاً من المشروع الذاتي وحلم اليقظة . قرّر أن يقرأ جميع الأدبيات الماركسية ، باللغتين الانجليزية والعربية ، التي يستطيع الحصول عليها . وقرّر أن يتابع أخبار السياسة وأدق تطوراتها ، وأن يقيم ، في الوقت ذاته ، أوسع العلاقات مع أفراد من كل الطبقات . كان يهدف من وراء ذلك أن يجتذب العشرات إلى الفكر الماركسي .

عند ذاك سوف يدرك الحزب أية خسارة قد خسرها بفصله ، وسيسعى لاستعادته . عليه أن يكون دائماً على أعلى درجة من الاستعداد لاستقبال تلك اللحظة .

في البداية ، انصرف يقرأ بتركيز شديد ، ولساعات طويلة . تبين له أن كل كتاب

يقرأه كان كشفاً جديداً ؛ وأدرك أن النشاط الحزبي قد أبعده عن الاطلاع على الكثير من مجالات المعرفة . أدهشه ان كل كتاب جديد يعيد إليه المقولات الماركسية أكثر صفاء ووضوحاً .

خطر له أن يكتب تقريراً عن ذلك الحزب . ولكنه في كل مرة كان يبدأ في كتابة ذلك التقرير يكتشف أن ليس عنده أفكار كافية تبرر كتابة ذلك التقرير . فيتوقف ، على أن يقوم بكتابته بعد أن يتسع اطلاعه .

لم يكتب ذلك التقرير قط . كثرة القراءة جعلت الأفكار أقل تحدداً ، والحكم أكثر صعوبة . بالإضافة إلى ذلك ، منعه الخجل من إعادة المحاولة . تصور الاشمئزاز وعبارات السخرية التي سوف يتلقون بها هذا التقرير ، فشعر بذلك الشلل الذي سيطر عليه عندما واجهه أحمد باتهاماته . كان يملك دفاعاً كاملاً ومتماسكاً حين يخلو لنفسه . ولكنه كان يعلم أنه عاجز عن المواجهة . كان يهرب من المواجهة بإعداد نفسه ثقافياً وبتوسيع صلاته مع العديد من الشبان . سوف يأتي يوم يحتاج فيه الحزب إليه ، فعليه أن يستعد .

ولكن مشروعه لم يمض كما قدّر له . بالنسبة لاجتذاب الشبان للماركسية، لم تكن المسألة سهلة . كان يشعر أنه يغتصب حقاً ليس له حين يتحدث عن الماركسية للآخرين . اعتقد أن مستمعيه يخفون سؤالاً لا يستطيع الإجابة عليه : إذا كنت ماركسياً حقيقياً فلماذا فصلوك من الحزب الشيوعي ؟ كان يعاني في تلك اللحظة إحساس من ضُبط بفعل مخجل . كان الخجل يستولي عليه ، وتتشتت أفكاره .

مشكلة أخرى كانت تقلقه وهي أنه لم يعد يستطيع التركيز حين يقرأ . كانت أحلام اليقظة تتولد وتسيطر عليه فيكتشف إن ما قرأه لم يستقر منه في ذهنه شيء . حين يعيد القراءة يتبين له أن أفكاراً مدهشة قد تجاوزها ، وبدا كأنه يقرأها للمرة الأولى . في البداية كانت أحلام اليقظة تدور حول اللحظة التي يكتشف فيها الحزب الخطأ الذي ارتكبه بحقه ، وحين يكتشف الحزب أن طعمة ، رغم فصله ، استطاع أن يجتذب إلى الحزب عشرات من الكوادر المثقفة والمدربة على العمل السياسي .

كانت بنية الحلم ثابتة ، تكرر نفسها في كل مرة .

أخذت ترافق ذلك الحلم أحلام أخرى ، لم تكن ثابتة ، وإن اتخذت نسقاً محدداً . تبدأ بكلمات عاطفية مع امرأة غير محددة ، ثم تتحول إلى مشاهد جنسية مع

نساء أخريات ، أكثر سمنة وشبقاً من المرأة الأولى . أحلام الجنس هذه أقنعته بصحة موقف الحزب ، إقناعاً غامضاً ، لم يناقشه مع نفسه ، ولكنه تسرب إلى داخله وسيطر عليه .

حين انتقل من القدس إلى عمان ، وأصبح مدرساً للغة الإنجليزية ، اعتقد أنه سيبدأ حياة جديدة . ولكنه اكتشف أنه بعد مضي فترة قصيرة ، وبعد أن اتخذت حياته طابعاً مستقراً ، أنه يكرر نفس نمط الحياة التي كان يحياها في القدس . كان يتوقع أن يغيّره المكان الجديد ، أن يعد له مفاجآت تلغي ماضيه ، وتجعله إنساناً جديداً . ولكن الحزب موجود هنا ، في عمان ، كما هو موجود في القدس ، والعداء الذي يواجهه به في عمان هو ذاته ، وإحساسه بأنه يمارس حقاً مغتصباً حين يتحدث عن الماركسية أصبح أكثر حدة .

عذبته ، في البداية ، علاقات مع أناس يبطنون له الاحتقار والعداء ، ويعاملونه بذلك التهذيب البارد الذي لا يتيح مجالاً لعلاقة إنسانية عميقة . ولكن هذه العلاقات صاغته وأعادت تشكيله ، لقد أصبح ، هو نفسه ، يشعر بنفور عميق ، وباشمئزاز جسدي من أية علاقة حميمة . بل لم يعد يطيق تلك الأنماط التي تعاملك بمودة تلقائية ، وتتحدث إليك بما في قلبها . عندما كان يلتقي بشخص من هذا النمط كان يشعر بإرهاق وتوتر ، ثم يصيبه ملل يجعل الاستمرار في الحديث مستحيلاً ، كان يقاوم ملله ، دون فائدة ، فينظر في ساعته ويقول :

ـ تأخرت ، عن إذنك .

وينطلق مسرعاً .

وعندما عاد إلى القدس أصرّت أمه عليه أن يتزوج ، فقال :

ـ فيه عندك عروس؟

قالها نصف مازح . فقالت إن العروس جاهزة ، وعرفته على معلمة مدرسة . فُتن بالفتاة . كانت جميلة بالفعل . ولكن هذا لم يكن كل شيء . أدهشته بذكائها وبرغبتها في أن تعرف . كان تحسن الإصغاء . التقى بها على انفراد أكثر من مرة ، وكان إعجابه بها يتزايد . ولكن شيئاً ما أخذ يزعجه منها . لم تكن من النوع الذي يتمنّع أو يخطط . اعتبرت أن زواجهما أصبح مسألة مفروغاً منها . وكانت تسمح له ، دون مقاومة ، أن يمسك يدها . ولم تثر عندما قبلها ، لم تشاركه العناق ، لكنها ـ

عندما قبلها على خدها ـ ابتسمت ، واحمرّ وجهها ، وقالت ، وهي تبعده برفق ، نصف ممازحة :

ـ يا عيبك .

ثم أخذ يشعر بنفور منها ، خاصة عندما بدأت هي تمسك بيده ، وعندما أحسّ أنها تريد أن تختلي به ، فقدّر أنها تود أن يقبلها .

وفي أحد الأيام ، وقد اقتربت إجازته على الانتهاء ، رأى وجهها مرهقاً . سألها عن السبب فقالت إن عندها اضطراباً في المعدة ، وانتفاخاً . عاد إلى البيت وأخبر أمه أنه مسافر ـ قبل أن تنتهي إجازته ـ كما قال لأمه إنه صرف النظر عن موضوع الزواج . ردّ بعصبية عندما سألته عن السبب ، وغادر القدس بشعور من نجا من ورطة .

الأنماط الوحيدة التي كان يرتاح في الجلوس معها ، كانت تلك الأنماط الباردة ، المتعالية ، التي تعامله بتهذيب ، وهو يعلم أنها تبطن احتقاراً له . كان يشعر أمامها بأفكاره تتدفق ، وبلسانه يصبح ذلقاً ، وبأنه يعيش جواً درامياً متوهجاً . وأدرك ، وإن يكن لم يصغ ذلك بوضوح ولم يصارح نفسه به ، أن هذا النمط من العلاقات هو السائد بين الناس ، وأنه ، هو وحده ، علامة النضوج الاجتماعي . فكلما ارتفع مقام الإنسان الاجتماعي ، وازداد احترام الناس له ، اتسمت العلاقة به بذلك البرود . ولاحظ طعمة أن الأنماط التي تحتل منصباً هاماً ، وتتميز بالانفتاح والود ، يُنظر إليها بنوع من الاحتقار المبطّن ، باعتبار أنها تعاني خللاً عقلياً ما .

والغريب أن طعمة ، رغم ذلك ، كان يحلم بعلاقة حميمة مع تلك الشخصيات ذات العواطف الباردة ، وكان يفقد تماسكه أمامها ، ويحاول بكل الوسائل أن يجعلها ترضى عنه .

وكان يحلم نفس الحلم بالنسبة للنساء . كان يحلم بامرأة تمنحه جسدها بانطلاق ، وبدون مقابل . ولم يخطر له قط أن ذلك كان متاحا له مع معلمة المدرسة . كان يعشق ـ بسرعة ـ النساء اللواتي يقابلهن بالمناسبات الاجتماعية . يحلم بأن ينفرد بهن ، رغم معرفته أن ذلك مستحيل .

ربما كان هذا هو السبب الذي كان يجعله يفقد توازنه كلما مرت أميرة أمامه ، أو خطرت في خياله . كانت مثيرة إلى أبعد حد ، لكنها مستحيل . تمر به شامخة ، بارزة الصدر ، تهتز عجيزتها بذلك التحدي والتلقائية التي تميز فتاة تمتلك حرية الحركة .

كانت تبدو حرة ، وقوية ، وغير قابلة للإخضاع . بهذا تصبح موضوعاً لحلم يقظة متكرر . كانت حرة إلى حد يستحيل معه امتلاكها ، ولكنها خادمة ، وغريبة ، فهي غير صالحة كزوجة له .

وعندما كان يناديها ، لم يكن يتصور أنها سوف تستجيب . كان يصرخ فقط .

٦

كانت أميرة مرهقة ، بسبب العمل المجهد الذي كاد يستمر طيلة النهار ، وبسبب هذ التيار من الانفعالات الطازجة ، والقوية ، التي تجتاحها . عندما تستجيب لها ينتهي العالم الذي حولها ، وتفقد الإحساس بذلك الإلحاح المطالب بالاستجابة السريعة الذي يصدر عن أسيادها أصحاب البيت .

عندما كانت تغمض عينيها ، وتندمج كلياً بتلك الانفعالات ، يبرز أمامها ذلك الرجل الغريب ، بعينيه الواسعتين المبلولتين ، بخضرتهما الفاتحة . عينان توحيان بالجنون . وكانت تستعيد ، في خيالها ، جسده الضخم ، القوي ، الناعم ، لصق جسدها ، فيصبح للتذكر ملمس . ثم يأتي الخوف مبهماً ، ولكنه خانق ، فيعيدها إلى العالم المحيط بها .

تتمدد فوق الفرشة المطروحة على الأرض ، وتلف جسدها بالشرشف . تتمدد على ظهرها ، مسترخية ، والنوم يزحف إليها . ثم تبدأ انفعالات غريبة تجتاحها ، تزحف من احشائها فتلهث ، تعتصر قلبها ، فتميل على جنبها ، ترفع ركبتيها حتى تصبحا قريبتين من صدرها ، وتحني رأسها . تصبح طفلة في رحم أمها . في تلك اللحظة يذوب الرجل في الشرشف والفرشة . يحيطان بجسدها فيبعثان موجات متتالية من الرغبة ، تصعد من احشائها إلى حلقها .

عندما انفتح الباب ـ وكان ذلك متوقعاً ـ عرفت أنه الصبي . كان يقف طويلاً ، نحيلاً ، بيجامته البيضاء تجعله يبدو كشبح . وكان صامتاً . استمر ذلك بضع دقائق والصبي لا يتحرك . قالت بصوت طبيعي ، هادئ :

ـ مأمون .

أخذ يتأتيء :

ـ بـ . . بـ . . بـ . . بحبك .

قالت :

ـ ايش بدك ؟

تأتأ :

ـ يعني ، يعني ، بدي أتجوزك .

صمتت . وطال الصمت . أشفقت عليه ، فقالت بحنو :

ـ روح لأوضتك لتشوفك أمك .

قال :

ـ بابا وماما طلعوا يسهروا .

كانت تعلم ذلك .

قال :

ـ وأنا بدي أتجوزك .

قالت :

ـ تعال .

رفعت الشرشف فتمدد بجوارها . فكت أزرار جاكتة بيجامته وأخذت تداعب جسده . كان الصبي يضحكها . قالت له :

ـ كلك عظام .

ـ أحست به يحاول أن يقول شيئاً ، ولكن ما يصدر عنه كان أشبه بالنباح . فجأة قبلها . قالت :

ـ وبعدين معاك ؟

قال :

ـ ز . . زا . . زا . . زعلت ؟

قبلته على خده وقالت :

ـ بمزح معاك .

وكأن تلك العبارة كانت إيذاناً بالبدء . اندفع نحوها وتمدد فوقها وسكن . أحست

Abu Abdo Al Bagl

به ثقيلاً ، فقالت :

ـ خنقتني يا مأمون .

واختلج جسدها فسقط بجوارها . مالت نحوه وقبلته . قالت ، وهي تضحك ، وتتكئ على كوعها :

ـ خنقتني .

قال :

ـ ما بتحبيني ؟

قالت :

ـ بكفي هيك . روح نام .

مالت نحوه وقبلته على جبينه ، وقالت :

ـ روح نام يا مأمون .

رأته يقف ، يزرر جاكتة بيجامته ، ثم يخرج . وداهمها الضحك .

٧

لم تر الرجل جالساً على الشرفة . اقتربت منه ببطء ، وفجأة رأته يصعد من وراء حاجز الشرفة . قالت :

ـ يمه .

من الواضح أنه كان يترصدها من بين قوارير الزرع . قال :

ـ اسست يابنت .

نظرت إليه وهي تمشي ببطء . قال :

ـ خذي اشتري لي علبة سكاير غولد ستار .

ومد يده بالقطعة المعدنية . مدت يدها وتناولتها ، وأخذت تركض ، وفستانها يرتفع عن فخذيها . راقبها طعمة حتى اختفت .

عندما عادت لم تجده جالساً على الشرفة . توقفت أمام الشرفة ، وتحيرت ماذا

تفعل . نادت :

ـ عموه !

برز وجهه من شباك الشرفة ، فقال لها :

ـ اطلعي الدرج .

صعدت الدرج بسرعة ، ودخلت من باب البناية . باب شقة الرجل كان مفتوحاً، ولكن لا أثر للرجل . وقفت خارج الشقة ، تحمل السلة في يد ، وفي اليد الأخرى علبة السجاير ، وباقي العشرة قروش . أطلت برأسها داخل الشقة فأدهشتها الفوضى البادية . نادت :

ـ عموه .

رأته يطل من الباب الذي يؤدي من الصالة إلى الداخل . كان يحمل في يده قطعة شيكولاته . قال لها :

ـ ادخلي ،ادخلي .

قالت :

ـ هذي السكاير وهذا الباقي .

اقترب منها وأمسك بمعصم يدها التي تحمل السكاير وجذبها إلى الداخل ، وأغلق الباب ، وقال :

ـ خذي هذه .

ومد لها قطعة الشيكولاته ، وقال بإلحاح :

ـ ما تستحي . خذيها .

كان مايزال يمسك بمعصمها . فوضعت السلة المليئة بالخضار على الأرض ، وأمسكت بقطة الحلوى . ووقفا هكذا . كانت عيناها معلقتين بوجهه ، وهو ينظر إليها بعينين ضاحكتين . قال لها :

ـ خايفة؟

قالت :

ـ مستعجلة .

وعندما أخذ يداعب ظهرها بكفه الكبيرة وقفت جامدة كأنها لوح خشب . ثم

Abu Abdo Al Bagl

مـال نحـوها وأخـذ يقبلها . وعندمـا توقف كـانت ما تزال يدها اليـمنى ممسكة بعلبـة السجاير ، ويدها اليسرى ممسكة بقطعة الشيكولاته ، قالت :

ـ سكايرك .

تناول علبة السجاير وقال :

ـ شكراً .

قالت :

ـ الباقي .

قال :

ـ خليه إلك . بكره تجيبي لي علبة سكاير كمان؟

هزّت رأسها ، وتناولت السلة وخرجت .

شعر طعمة بالبلل بين ساقيه ، فأسرع إلى الحمام واغتسل . تمدد على السرير واسترخى .

٨

في ذلك الارتخاء ، الأشبه بالغيبوبة ، قال لنفسه «المسألة فيزيولوجية» . كانت أية حركة أو فكرة تسبب له إجهاداً يكاد يكون ألماً . لذلك لم يتابع الفكرة . كرّر «المسألة فيزيولوجية» ثم نام .

نام دقائق قليلة ، ثم صحا نشيطاً . وكأن الفكرة ولدت خلال نومه ، تشكلت ووقفت منتظرة لحظة يقظته . كانت الفكرة جادة بقدر ما هي معزية . قال لنفسه إنه لا يمكن طرح مسألة الجنس ، بالنسبة للمكافحين ، على مستوى واحد . فالثوري المحترف ، الذي يستغرق في العمل سبع عشرة ساعة يومياً ، لا تصبح المسألة بالنسبة له ذات موضوع . فهو لا يمتلك الوقت ولا جهد الفائض . أما عضو الحزب العادي الذي يعمل ساعتين ، أو ساعة في اليوم ، وقد تمر أيام لا يعمل فيها شيئاً . . . فمن الخطأ وضيق الأفق أن نطالبه بالامتناع عن التفكير في الجنس أو ممارسته . أن نطالبه بذلك ، بالامتناع عن ممارسة احتياج فيزيولوجي ، يشبه أن نطالبه بالامتناع عن الأكل والشرب .

نهض من السرير (الفكرة دفعته إلى الحركة)وأخذ يتمشى . يجب علينا أن نكون مرنين ، . . ثم ، ماذا نعني عندما نقول إن المسألة فيزيولوجية؟ هنالك الهرمونات ، وحاجات الجسد العضوية ، ونظرية التطور . هنالك الغرائز أيضاً. (يقال إنه لا يوجد هنالك غرائز) .

حين تخطر له أفكار جليلة كهذه ، فإنها تنتظم على شكل خطبة موجهة إلى جمهور محدد : كوادر حزبية مسؤولة ، بعضهم عمال قد تمرسوا بالنضال والنظرية ، ومثقفون بورجوازيون ضيقو الأفق ، ولكن الجميع يصغون إليه بإعجاب ، يحاولون أن يعترضوا فلا يجدون ما يقولون .

يتم ذلك في اجتماع سرّي .

أخذ يصغي لصوته ، في خياله ، وهو يلقي خطبته بإعجاب . وأخذت الأفكار تتولد بسرعة . ورأى الكلام يجتاحه . كان وعاء لكلام يندفع ولا يستطيع إيقافه ، أو السيطرة عليه . فرغم أن معرفته محدودة جداً بهذه «المسألة الفيزيولوجية» ، فإنه راقب نفسه ـ بإعجاب ـ وهو يندفع في شرح وجهة نظره بأسلوب علمي ، مليء بمصطلحات ليس عنده أدنى فكرة عن معناها .

حاول أن يقرأ لكنه لم يستطع التركيز بسبب هذه الفكرة التي كانت تتسع حتى تكاد تشمل كل معلوماته النظرية . كل ما يخطر له من أفكار راح يتخذ دلالات جديدة، ويندرج في سياق هذه الفكرة.

اكتشف أنه قد ارتدى ملابسه ،دون أن يفطن إلى ذلك . ساعة يده كانت تشير إلى الحادية عشرة وبضع دقائق . جلس على الشرفة وحاول أن يقرأ ؛ ولكن ملابسه الكاملة كانت تدفعه إلى الخروج . أين يذهب؟ وما زال هنالك ثلاث ساعات على بدء العمل .

أصبح في الشارع وهو لم يحسم مسألة مغادرة البيت ، قال لنفسه: ما دمت قد خرجت ، فلأتمش قليلاً ، ثم أعود إلى البيت . ولكن قدميه قادتاه إلى الشارع المحاذي لمدرسة المطران من جهة الغرب ، ثم استدار يساراً ، ثم يميناً ، وأخذ يهبط جبل عمان إلى قلب المدينة .

الساعة ما زالت الحادية عشرة والربع . هل هذا معقول ؟ سأل أحد المارة عن الوقت ، فقال له إنها الحادية عشرة وعشر دقائق . وتولاه إرهاق تمضية ثلاث ساعات

بلا هدف .

سار في زحمة الشارع ، عيناه تلتقطان النساء ، وتحدّقان بهن بنهم لم يعتده. أعجبته هذه الظاهرة الجديدة : الحجاب الملوّن ، الشفاف ، الذي تضعه النساء على وجوههنّ . الملامح تبدو من خلف الأحجبة أكثر أنوثة ، تبدو محمّلة برغبة مختنقة . أحب العيون الثابتة التي تنظر في عينيه مباشرة ، دون خوف ، وبنداء يلمسه في العمق . لقد حرّر القناع الوجوه من ذلك الارتباك الأنثوي ، الذي يبدو في وجوه النساء السافرات . لن تستطيع التعرف على وجه تحت الحجاب ، مهما كان شفافاً . هذا ما يمنحهنّ تلك الحرية .

رأى مكتبة . قرر أن يدخلها ليرى إن كان هنالك كتب جديدة ؛ ثم أدرك أن توتره لا يسمح له بالوقوف ومطالعة الكتب . نظر إلى الساعة . هل هذا معقول ؟ الساعة بلغت الثانية عشرة والنصف . وكأنها أرادت ، خطر له عبوراً ، أن تعوض عن بطئها القاتل في البداية . اتجه إلى المطعم الذي افتتح منذ عهد قريب في الممر التجاري .

طلب لحمة مشوية ، ونظر إلى ساعته . كانت تشير إلى الواحدة إلاّ ربعاً عليه أن ينتهي من تناول الطعام في الثانية إلا ثلثاً . حسب : خمس وأربعون دقيقة ، ثم اكتشف خطأه ، فرحاً ، خمس وخمسون دقيقة .

اشتاق إلى إنسان يجلس معه وهو يتناول الطعام . حين يتناول الطعام وحيداً يشعر بالضجر ، وبفقدان الشهية . ولكنه ، وبمجرد أن وُضع الطعام أمامه أحسّ بأنه جائع جداً . تبدت له ، للحظات ، ساعة الغروب في القرية ، والرجال يتهيأون للطعام ، جادين عابسين ، وأصوات النساء تصدر صادحة من داخل الدور المعتمة ، والنعاج والبقر عائدة من المراعي . كانت أمه تقول : القدس تخنقني . كان حنينها إلى القرية مثيراً للشفقة .

غروب القرية كان يستمر زمناً طويلاً . تغيب الشمس وتظل السماء مضيئة .

٩

استيقظت من نومها مرتعبة . أحست بيد تضغط على عنقها تكاد تخنقها . اليقظة لم تخلصها من الكابوس . ثم تبينت أن الصبي ينام بجوارها . أحست بالضيق : «كل

Abdo Al Bagl

ليلة ، كل ليلة» كانت مرهقة ونعسانة . قررت أن تحسم المسألة معه ، تطلب منه أن ينصرف الآن ، ولا يعود أبداً . سمعته يقول بصوته الوديع ، الخجول ، وبتأتأته المعهودة :

ـ شفتك نايمة ما حبيت أصحيكي .

امتلأ قلبها بالحنان ، فضمته إليها وقبلته . همس :

ـ زعلانة ، يعني مني؟

قالت والدموع تخنقها :

ـ لا . ليش أزعل منك ؟

قال :

ـ بتحبيني ؟

قبلته وقالت :

ـ بحبك .

جذبته بيد ، وباليد الأخرى أخذت تتحسس رأسه . كانت تصدر عنه أصوات ، كأنه يعاني صعوبة في البلع . وعندما قبلته ابتلت شفتاها بالدموع : «الصبي يبكي . ما الذي يبكيه؟» قالت :

ـ «إيش مالك يا مأمون؟» .

قال بصوت يخنقه البكاء :

ـ «أنا . . . أنا . . . بحبك» .

قالت :

ـ «هذا اللي بخليك تبكي؟» .

قال :

ـ «انت ما بتحبيني . » .

ـ مين قَال لك؟» .

وأخذت تضمه إليها وتقبّله . في لحظة تحوّل الحنان إلى رغبة . استثيرت واستثارت الصبي . وعندما لمس فخذها البلل ، وأحست بالصبي يرتخي ويتمدد على ظهره أدركت أنه انتهى . حدث له ما حدث للرجل السمين ، ولصبية القرية عندما

كانوا يضمونها حتى تحس بالبلل وبتراخي أجسادهم .

انحنت فوق الصبي الذي كان يتمدد على ظهره ، مسحت العرق عن وجهه بيدها، ثم قبلته على جبينه . قالت :

ـ «قوم نام يا حبيبي» .

نهض ، وغادر الحجرة ، وأغلق الباب خلفه دون أن يقول كلمة واحدة .

١٠

كان الانتظار عذاباً لا يطاق . ترك الباب مفتوحاً . سيبدو مغلقاً ، ولكن يكفي أن تضغط دفته اليسرى برفق حتى ينفتح . وارتفع غضبه «ها أنا ذا في الخامسة والثلاثين من عمري . . ولا شيء . . لم أفعل شيئاً ولن أفعل شيئاً . لم أكتب . لست مناضلاً ، لست حتى منحلاً . عاجز حتى عن إغواء خادمة . إنني مجرد شيء عتيق وصدىء . . سوف أصبح أضحوكة . لا فائدة . مجرد مثقف منحل . نعم ، منحل . ليتني على الأقل أعرف كيف أنحل . ولكنني عاجز عن تطبيق خادمة . مجرد مراهق ، في الخامسة والثلاثين من عمره . حين كان أبي في الخامسة والثلاثين من عمره كان عنده ستة أولاد . وأنا أكبر دون أن أزداد حكمة . أكبر في السن والحجم ، وفي داخلي . . . » .

ولكن الباب انفتح ببطء ، ودخلت أميرة تحمل سلتها الممتلئة بالطماطم والخيار وورق العنب واللحمة المفرومة وتفاح وعنب . في يدها اليمنى كانت تحمل علبة سجاير غولد ستار .

احتضنها وقال :

ـ دفعت منك؟

وضعت سلتها على الأرض ، وانفلتت منه مبتعدة . قالت :

ـ الباب .

قال :

ـ آه صحيح .

وأسرع وأغلق الباب ، وحملها إلى السرير . أخرج أحد ثدييها بيده وأخذ يرضعه ، فانطلقت تضحك . قبّل فمها ليمنعها من الضحك ، ولكن ضحكها تواصل. ابتعد قليلاً حى يتوقف ضحكها . توقفت وأخذت تنظر إليه بعينين بنيتين ضاحكتين ثم مدت يدها وداعبت صدره . قالت :

ـ شعر .

قال :

ـ كل الزلام . . .

فقاطعته :

ـ بعرف .

أمسكت ثديه وقالت :

ـ مثل بز المرة .

مد يده وأخذ يداعب ظهرها . أغمضت عينيها واستسلمت لمداعباته . لم تكن تلك الصورة المثلى للعملية الجنسية مع امرأة ليست مومساً ، بالنسبة لطعمة . كانت ساكنة ، كأنها ماتت . غير أن ذلك لم يدم طويلاً . لأنها وهي مغمضة العينين ، رفعت رأسها وقبّلت خده ، ثم اندفعت ، وهي تئن ، واحتضنته، وبإيقاع قوي ، عنيف، أخذ جسدها يصدم جسده . لم تتوقف عندما انتهى. حاول أن يبعدها ، ولكنه فشل . ثم فجأة ضمته وهي تطلق صرخات خافتة ، مختنقة ، ضمته بقوة شلته تماماً وأخذت عضلات جسدها ترتعش ، ثم استرخت . تمددت على ظهرها وعيناها مغمضتان . أنَّتْ تتنفس بعمق . وشفتاها منفرجتان قليلاً . وكان الدم قد هرب من وجهها .

بمجرد أن أفلتته نهض واغتسل ولبس برنس الحمام وتمدد بجوارها . أصبح يخشاها . لذلك رغب أن تسرع في الانصراف . فتحت عينيها وابتسمت . جمالها المذهل اخترق استرخاءه . أحس أنه يحبها ، يحبها إلى درجة أنه لا يريدها أن تبتعد عنه . أمسكت بطرف الروب وأخذت تتفرج على جسده العاري . لمست بسبابتها صرته فكاد يغرق في الضحك .

ـ قالت :

ـ كلك شعر .

وهي ترفع سبابتها إلى صدره .

قال وهو يغالب الضحك :

ـ كل الناس عليهم شعر .

قالت :

ـ أنا لا .

قال :

ـ يعني الزلام .

قالت :

ـ انت فلسطيني؟

ـ بتحبي الفلسطينيين ؟

قالت :

ـ ما بحبهم ولا بكرههم .

كان حبه لها قد تجاوز لحظة السكون . كان بحاجة إلى أن يلمسها . مال نحوها وقبلها . لم تستجب له ، بل مضت تعاين جسده باستغراق . حاول أن يضمها إليه فقالت :

ـ بعدين .

ابتعد عنها مجروحاً بصدها . قالت :

ـ أنت بتضحّك .

قال :

ـ بضحّك؟

نهضت . سوت ملابسها ، ولبست حذاءها . تناولت سلتها ، فتبعها ووضع عشرة قروش في يدها . وضعها في جيبها دون أن تنظر إليها . عند الباب قالت :

ـ بكره .

Abu Abdo Al Bagl

١١

كان شوقه إلى مجيئها يزداد . بمجرد أن تدفع الباب وتدخل يشعر أن شيئاً مستحيلاً ، شيئا لا يستحقه ، وليس جديراً به يحدث . فيحملها بين يديه ويلقيها على السرير . لم يخطر له أن يطلب إليها أن تخلع ملابسها . كان يدرك أنها تمنح نفسها حسب شروطها ، وأنه لا يستطيع حتى الاعتراض .

يقول لها أحياناً :

ـ تأخري شوية .

تسأل بدهشة :

ـ ليش ؟

يقول :

ـ نحكي مع بعضنا .

تقول بلهجة قاطعة :

ـ عن إيش نحكي ؟

يقول :

ـ عني ، عنك ، عن أهلك . . يعني عن اللي بتشتغلي عندهم .

تنظر بثبات وتقول :

ـ انت بتضحّك .

لم تكن تحب الكلام . عندما كان يحدثها أو يسألها كانت ردودها جارحة . عندما كانا ينتهيان ، تروح تتأمل بوجه جاد جسده ، راسمة بسبابتها خطوطاً على جلده . أحياناً تقول وكأنها اكتشفت أعجوبة ، بصوت طفلي :

ـ هون ، هون ، ما في شعر .

أصبح ذلك يثيره بقوة ، وعندما يحاول أن يضمها إليه ، كانت تبعده وتنهض وتنصرف . كانت تغادره وهو في حالة رغبة . فكان يتمدد على سريره ، بأحاسيس مختلطة ، ثم ينام دقائق قليلة لينهض ويواصل القراءة .

في أحد الأيام ، شعر وهي تدخل شقته أنه لم يعد يرغب فيها . لم يبدُ عليها أنها

لاحظت ذلك . وكان في السرير أكثر جرأة ، وأقل استغراقاً . كان يراقب نفسه ويراقبها . رأى في لهفتها الجسدية فعلاً مزعجاً ومبتذلاً . وعندما كانت تتأهب للانصراف لم يتبعها إلى الباب ، ونسي أن يضع القروش العشرة في يدها . بدت له مثيرة للشفقة ، خاصة عندما قالت :

ـ بكره .

لم يكن يملك الجرأة ليقول لها إنه لا يريد رؤيتها مرة أخرى . وفي اليوم التالي لم تجيء . شعر بأنه محظوظ . لقد غابت في الوقت الذي لم يعد يرغب فيها . قرأ بتركيز لم يتوفر له منذ فترة طويلة . انفتح الباب ـ فلقد تركه مفتوحاً ـ فشعر بالرعب، كان جاره . قال له :

ـ شفت الباب مفتوح .

شكره ، ودعاه للدخول ، وعندما رفض ، كما هو متوقع ، أغلق الباب . عاد إلى القراءة ، وهو متمدد على السرير . كانت هذه من المرات القلائل في هذا الصيف، التي لم يقرأ فيها وهو جالس على الشرفة . كان خائفاً أن تفاجئه وهو جالس . كان بحاجة إلى حماية نفسه بجدران . شعر أنه لو جلس على الشرفة فسوف يصبح معرضاً لأذى مجهول المصدر .

عندما غادر الشقة متجهاً إلى عمله ، مستعجلاً ، كان يسير بشعور الناجي . ولكنه بمجرد أن أخذ يهبط جبل عمان شعر بنوع من خيبة الأمل .

في اليوم التالي لم تجئ أيضاً . لم يكن يرغب بمجيئها ، ولكنه ترك الباب مفتوحاً . وعندما تأكد من أنها لن تجيء ، فلقد بلغت الساعة الثانية عشرة والنصف ، استجمع شجاعته وخرج إلى الشرفة . وعندما استعد للمغادرة لم يكن قادراً على تحديد مشاعره : هل هو حقاً سعيد بعدم مجيئها أم لا ؟

وفي هذا اليوم ارتكب خطأه القاتل . الذي سيدفع ثمنه طيلة عمره ، يدفعه احتقاراً من الآخرين ، واحتقاراً للذات ، يدفعه ندماً وخزياً . وقد حدث ذلك على النحو التالي : انتهى من التدريس في الخامسة . هبط من جبل الحسين إلى شارع السلط .

لم يكن هبوط الجبل في هذه الساعة ممتعاً . لم يكن الجبل ، آنذاك ، كالجبال الأخرى تكسوه البيوت ذات الحدائق ، والأشجار ، بل كان ما يزال يحتفظ بطابعه

الصحراوي الأجرد ، تتناثر فيه الصخور الكلسية ، وبعض بيوت من الحجر الأبيض بدون حدائق . كما كانت أشعة الشمس القوية تلهب الرأس وتزغلل العينين. كان ذلك عذاباً حقيقياً يضاف إلى تلك الحيرة التي كانت تتمدد وتتسع لتصبح خوفاً وقلقاً : لماذا لم تأت أميرة؟ وهل هو سعيد بامتناعها عن المجيء ؟

توق للتخلص من معاناته . كان بحاجة إلى حضور قوي ، يمتلك بشكل تلقائي القدرة على التعالي والاحتقار. يخلصه من معاناته. لم يكن النائب ودوداً، ولم يرحب بفتح حوار سياسي . وكان الصمت مهيناً ومبهظاً . وما سيلوم نفسه عليه دائماً أنه لم ينهض وينصرف ، بل قرر بعناد أن يكتسب احترام النائب ومودته. فأخذ يتحدث عن أميرة. جعلها ابنة جيران له ، بالغ في وصف جمالها ونهمها الجسدي . قال : إن هذه البنت لا ترتوي أبداً . ولم يوضح ، عن تعمد ، إن كانت العلاقة هي علاقة جنسية كاملة ، أم مجرد مداعبة .

بدا الاهتمام واضحاً في وجه النائب ، وإن كان يحاول اخفاءه . سأل طعمة :

ـ حب ؟

هنا ارتكب خطأه الآخر. قال : من جانبها ، حب؟ نعم. أما هو ، فالمسألة بالنسبة إليه فيزيولوجية خالصة . واستفاض في شرح ما يعنيه بقوله إن المسألة فيزيولوجية . عندما كان طعمة يستعيد ما قاله للنائب رأى أنه لم يكن يفعل شيئاً سوى أن يفتح الطريق أمام النائب ليتقدم بطلبه . إذ ما كاد ينتهي من شرح اطروحاته عن العلاقة بين الجنسين حتى قال له النائب :

ـ بتقدر تجيبها اليوم؟

شعر طعمة بجرح حقيقي . هل يغضب وينصرف؟ ولكن لماذا؟ كيف يبرر ذلك ؟ وأدرك النائب ما يدور في ذهن طعمة ، فقال له غاضباً : يجب أن تعاملني مثلما أعاملك . ذكّره عندما سمح له بمضاجعة مومس في مكتبه بعد سهرة حافلة . قال له : ادخلتك قبلي إليها . تذكر . . . وحكى النائب طويلاً ، بغضب في البداية ، ثم بمودة، ثم قطع على نفسه عهودا ووعوداً مبهمة .

لم يكن ما قاله النائب دقيقاً ، خاصة فيما يتعلق بأنه أدخل طعمة قبله . إذ كان هنالك مومسان : واحدة صغيرة وجميلة ، والأخرى طاعنة في السن وسمينة. وقد رفضت المومس الجميلة الدخول إلى حجرة النوم مع النائب، إن لم يدخل طعمة مع

الأخرى ، التي سمتها خالتها . رغم هذا فقد كان كلام النائب مقنعاً ، أو ، على الأقل، لم يجد ـ كعادته في أمثال هذه المواقف ـ ما يرد به عليه. تذكر لقاءه الأخير مع الرفيق أحمد ، عندما أبلغه بتجميد عضويته في الحزب . لقد شعر بنفس الدوار والشلل الذين يعانيهما في هذه اللحظة .

عندما صمت النائب وضع كوعيه على المكتب ، ورفع كتفيه ، ودفع رأسه إلى الأمام وقال :

ـ هه؟

كانت «هه؟» ملحّة ، تطالب بإجابة فورية ، خاصة وهي مدعومة بذلك الوضع الهجومي الذي اتخذه النائب . قال طعمة :

ـ بدي أقول ، يعني . .

قال النائب وجسده يندفع أكثر إلى الأمام :

ـ قول !

قال طعمة :

ـ هيه مسافرة . .

ابتسم النائب بمرارة :

ـ مسافرة ؟

وامتلأ وجهه بالاشمئزاز . كان ذلك أشبه باللطمة على وجه طعمة . وهنا ارتكب أشد اخطائه شناعة . شعر أن المسألة الأساسية ، في تلك اللحظة ، هي أن يثبت أنه ليس كاذباً ، فأخذ يقسم على ما قال ويكرر القسم . كان النائب محايداً وهو يصغي إليه ، ثم قال :

ـ يعني مش ممكن اليوم؟

هنا أقسم طعمة أنه سوف يجيء بها إليه في اللحظة التي تعود فيها .

رغم هياج طعمة ، في تلك اللحظة ، فقد كان يدرك أنه يورط نفسه في وعد لا يستطيع أن يفي به . لأن المسألة متعلقة بالفتاة ، التي يعلم جيداً أن لا سلطة له عليها . أحب أن يستدرك ولكنه شعر أنه مكبّل بوعده ، وبذلك الحضور العدواني للنائب .

جاء زوار فنهض طعمة لينصرف ، فقال له النائب :

Abu Abdo Al Bagl

ـ أنت عارف . أنا موجود كل يوم .

كان مهيناً جداً أن يقول له ذلك أمام الزائرين ، رغم أنه يدرك انهم لن يكتشفوا المعنى الحقيقي لعبارته .

في اليوم التالي لم تجيء أميرة. سعد بذلك لأن عدم مجيئها يجعله في حل من وعده للنائب . ودّ لو أنها لا تجيء أبداً . خطر له أن يستقيل من عمله ويذهب ليعيش في القدس . أو أن يذهب إلى النائب ويقول له بصراحة إنه عجز عن إقناعها بالمجيء : ولكنه لم يفعل شيئاً من هذا كله .

١٢

أخذ يلتقي بالنائب يومياً في النادي . كان بمجرد أن تقع عيناه على طعمة يدير عنه وجهه. كان ذلك يخيف طعمة . في إحدى المرات رأى نفسه في مواجهته وهو داخل ، فقال له النائب :

ـ أهلين بالنصاب .

حاول أن يعتذر ولكن النائب أسكته ودخل . شعر طعمة بأنه خائف ومحاصر بشكل لم يعرفه من قبل . توقع أذىً مجهول المصدر والحجم يترصد به . وفكّر جدياً أن يطلب نقله إلى القدس . خطر له أن يتوقف عن الذهاب إلى النادي ، ولكن الكسل والعادة ، والخوف من تفسير ذلك تفسيراً يزيد من غضب النائب عليه ، جعله يزور النادي يومياً كما اعتاد .

في أحد الأيام استيقظ من نومه وهو يسمع دقاً على الباب . اندفع من سريره وفتح الباب ، ودخلت أميرة . لم يكن يراها بوضوح ، ولكنه قال بلفهة :

ـ وين هالغيبة؟

وهو يحتضنها . يحس بها تنبض في جسده.

ـ وين كنت؟

قالت :

ـ كنا بنصيف .

جذبها إلى السرير ، وقال لها وهي ممددة بجواره :

ـ وين كنتو بتصيفوا؟

قالت :

ـ في رام الله .

قال :

ـ في رام الله ؟انبسطت؟

ثم أضاف :

ـ أول شي نعمل شاي .

قالت :

ـ أنا بعمل .

وعندما نهضت فوجئ . لم يكن يتذكر أنها طويلة إلى هذا الحد ، وبهذا الجمال . تبعها إلى المطبخ ، وهي تعد الشاي وسألها إن كانت تحب الفلسطينيين الآن؟ قالت :

ـ آه ، اللي في رام الله .

قال :

ـ والباقيين؟

قالت :

ـ اللاجئين؟ يعني .

شربا الشاي سوياً . كان عاشقاً حقيقياً . ما الذي جعله يقول ما قاله لها ؟ لا يدري . الأغلب أنه كان يود تحصين نفسه برفضها المتوقع . سألها إن كانت تستطيع أن ترافقه في زيارة إلى صديق بعد الظهر لأن اليوم إجازة . قالت إنها تستطيع بالطبع . وعندما ذكرها بأن العائلة التي تعمل عندها قد تغضب ، قالت :

ـ همه إيش بخصهم ؟

صمت ، وأخذت هي تلح عليه أن لا ينسى . قال لنفسه إن المسألة غير معقولة . عندما جاءته في الساعة الرابعة كانت قد أصبحت امرأة ناضجة فاتنة . كانت ترتدي تنورة زرقاء ، وبلوزة بيضاء ، وقد سرحت شعرها . شعر بالاختناق : أن تكون لي عشيقة بهذ الجمال كله ، بهذه الفتنة التي لم ير لها مثيلاً من قبل ، ثم أقوم بتسليمها إلى

Abu Abdo Al Bagl

آخر . . . فتلك حماقة لا مثيل لها .

قال لها :

ـ بلاش اليوم .

تكدّر وجهها وقالت :

ـ طيب ، ليش قلت لي ؟

وأخذت ترجوه وتلح عليه ، وتهدده بأنها لن تراه مرة أخرى إذا لم يأخذها في هذه الزيارة . خطر له أن يسألها إن كانت تعرف الهدف من وراء هذه الزيارة ، ولكنه لم يرغب في إهانة نفسه أمامها .

١٣

جلس طعمة يتشمس في الشرفة . هذه الشمس الساطعة في منتصف كانون الثاني لها فعل المخدر . فتح طعمة كتاب ستالن عن بعض القضايا الاقتصادية ، قرأ فيه قليلاً ، ثم استغرق في حلم يقظة .

أميرة تسير في الشارع ، تخطر بجسدها الطويل ، باستداراته الناضجة : عجيزة صغيرة ولكنها متمايزة ، تكاد تكون مستقلة عن الجسد . والصدر الناهد تبرزه وهي سائرة . لا ، ليست من ذلك النمط من الفتيات الذي يخلق لنفسه انحناءة لإخفاء الصدر . والعنق . ذلك العنق . شامخ ، مستقيم ، والنحر ، الذي كان ينبض تحت شفتيه . ثم الوجه المعجزة . العينان العسليتان تلمعان وتبرقان بوميض ساذج ، أعني تلك السذاجة المعتدة ، المكتفية بذاتها ، التي لا تستطيع أن تألفها ، أو أن تمتلكها . دائماً لها شروطها الخاصة بها ، على الآخرين أن يخضعوا لها . كانت تملك تلك السذاجة الأبدية ، ونقص الخبرة ، اللذين يجعلانها لا تنحني للأسماء الكبيرة ، أو للوجاهات . يشغلها شيء واحد : كيف تحقق أقصى قدر من متعتها .

تمر بجوار الشرفة ، تصعد الدرجات ، تدق الباب ، وعندما يفتحه تعبر كملكة . مستقيمة ، معتدة ، واثقة ، لا تكاد تشعر بوجوده .

ـ كيفك ؟

يقول . لا تجيب فوراً . تنظر حولها ، تفحص الأشياء ، بما فيها هو ، بنظرتها الساذجة ، المندهشة ، ثم تقول :

ـ منيحة .

يقول :

ـ فسطانك حلو .

تنظر إلى فستانها بنظرة ناقدة ، تسوّيه بكفيها ، تنزلق الكفان من الصدر ، مروراً بالبطن ، والخاصرتين ، وتتوقفان عند الفخذين . تقول :

ـ حلو؟

يؤكد لها ذلك ، فتقول :

ـ عندي أحلى منه .

يضمها ، ويقول صادقاً :

ـ القالب غالب .

ويحكي لها عن ذلك النائب المجنون الذي يريد أن يقيم علاقة معها . يقول فجأة بصوت موجوع :

ـ أميرة ، بحبك .

تنظر إليه وتضحك . وتقول :

ـ أنت بتضحّك .

ـ لازم نتجوز .

تفهم ما يقول . يشع وجهها . وتقوده إلى السرير . تقول :

ـ والنائب ؟

تكون إجابته ضحكة . يقول لها سوف يجعله يتمنى لو أنه لم يولد . يغادر البيت ويتجه إلى مكتب النائب . وعندما يغادر المكتب يترك النائب خلفه منطرحاً على الأرض كتلة من الثياب الممزقة ، ودماؤه تنزف .

يتثاءب ، ويواصل حلم يقظته مغمض العينين . تغيب الشمس خلف غيمة سوداء ، فيلسعه البرد على الفور . ينهض متراخياً ويتجه إلى الداخل . متى رأى أميرة آخر مرة؟ كان ذلك في الصيف ، عندما عرف أين تسكن . لقد طردته من بيتها . لقد

تغيرت كثيراً .

ويتذكر ما حدث في ذلك اليوم عندما ذهب معها إلى المكتب النائب . فخجل من حلم يقظته .

كان باب المكتب مفتوحاً . دخل وتبعته أميرة . أغلق باب المكتب خلفه . كان النائب واقفاً في وسط الحجرة . عندما رآهما ملأت الابتسامة وجهه . ثم انقض على أميرة ، مرحباً ، مصافحاً ، وقادها إلى الحجرة الداخلية . لم ينتبه حتى لوجوده . أحسّ بالعرق يغمر جسده ، وبأنه لا يستطيع الوقوف . هل هذا معقول ؟ وجلس على كنبة قريبة . اجتاحه غضب جامح ، نهض واتجه إلى الحجرة الداخلية . اكتشف أن الباب المؤدي إليها مغلق . أخذ يخبط الباب بقبضة يده . خبط كثيراً ، دون أن يستجيب له أحد . قال بصوت مختنق :

ـ افتح .

بدا له صوته مضحكاً . صرخ :

ـ افتح .

رأى أن موقفه هزلي ، فعاد وجلس على الكنبة . لم يكن يفكر في شيء محدد . خطر له أن يغادر المكتب . ولكن لا . ليس قبل أن يرد على هذه الإهانة . انفتح الباب المؤدي إلى الحجرات الداخلية . أسرع نحو النائب الذي كان يرتدي بنطلوناً وقميصاً ، وكان شعره مشعثاً ، ويسير حافي القدمين . كان وجهه أسود من الغضب . اقترب من طعمة ، الذي ابتسم له ، وصفعه على وجهه وأخذ يجذب شعره ، وهو يقول :

ـ ولك يا حقير ، هذه بعدها بنت .

بنت؟ ما معنى ذلك ؟ ثم عرف ما يعنيه ، وسبب غضبه . إنها عذراء ، والأدهى من ذلك إنها قاصر ، لم تبلغ الثامنة عشرة من عمرها بعد . استمر النائب فترة يوجه له الشتائم ، ويشد شعره ؛ ثم ، وكأنه استنفد انفعاله ، قال بنبرة شكوى :

ـ خرب بيتي ، خرب بيتي . . . يا رجل أنت هبيله؟

في تلك اللحظة انفجر طعمة بالبكاء . أخفى وجهه بكفيه . وأحنى رأسه ، وأخذ كتفاه يهتزان . أخذ النائب يطبطب على ظهره ويقول :

ـ عيب هيك يا طعمة . عيب . البكا للنسوان . . .

رفع رأسه فرأى أميرة قادمة . كان وجهها شاحباً ، أصفر كأنه مرشوش بعصفر ، وتمشي بخطوات غريبة ، إذ تباعد بين ساقيها ، وتخطو خطوات قصيرة كأنها حبلى . حاول أن يقول لها شيئاً ، ولكنها اتجهت إلى باب الخروج . لم يعرف ما هو مطلوب منه بالضبط . هل يتبعها ويوصلها إلى بيتها؟ نهض ، فقال له النائب :

ـ اقعد .

فجلس على الفور . رأى النائب يسرع نحو أميرة ، يلف ذراعه حول كتفيها ، ثم مال نحوها برأسه . لم يكن واضحاً له هل كان النائب يقبلها أم يهمس في أذنها .

١٤

كانت أميرة تتمدد في حجرتها الصغيرة جداً . أحست براحة حقيقية عندما سمحت لها سيدتها أن تأوي إلى حجرتها بعد وصولها البيت بقليل . قالت لها إنها دائخة ، فقالت السيدة «ادخلي اوضتك ارتاحي» . وعندما تمددت شعرت باختفاء الألم بين ساقيها . يلسعها فقط عندما تتحرك . وجاءها النوم بأسرع مما تتوقع .

كان نوماً مليئاً بالكوابيس . تصحو منه على لسعة الألم ، ثم تعاود النوم على الفور . صحت فجأة على حضور غريب بدا امتداداً للكابوس . قالت بفزع :

ـ مين هذا . . . مين . . ؟

نامت للحظات ، ثم استيقظت . رأت طعمة عارياً ، يضحك ببذاءة ، ويقفز إلى أعلى ليهبط فوق بطنها . تصرخ صرخة مختنقة . فيمد يده ويضعها على فمها ، فتصارعه ، فيلسعها الألم بين ساقيها ، تسمع الصوت :

ـ وطّي حسك .

إنه صوت مأمون . يقول :

ـ ماما بتسمعك بعدين .

قالت :

ـ مأمون ؟

قال :

ـ كنت بتحكي في نومك وبتتقلبي . . .

قالتَ :

ـ مريضة .

ـ أقول لماما؟

قالت :

ـ لا . تعال .

تمدد بجوارها . حاول أن يحتضنها فقالت :

ـ لا تصيبني . مجروحة .

شعرت بانتفاضة خوف تهز جسده . قالت :

ـ لا تخاف حبيبي .

وأحاطته بذراعيها . كان يرتعش . داعبت شعره وظهره . فهدأ . قال إنه كتب قصيدة عن حبه لها ، صمت ، وقد أخفى رأسه في نحرها ، وسكن . همس شيئاً في نحرها ، قالت :

ـ إيش؟

قال :

ـ مابدك تسمعيها؟

قالت :

ـ بدي .

لم تكن تصغي ، ولكن همسه المحبوح ، أنفاسه التي تداعب نحرها ، أثارت رغبتها . ضمته إليها بقوة وأحاطته بجسدها ، وفجأة لهثت وانفجر الألم والمتعة سوياً، ثم استلقت على ظهرها تلهث .

قالت له :

ـ روح لأوضتك.

قال :

- بدي أتجوزك .

قالت :

- بعدين . روح لأوضتك .

ونامت على الفور .

في الليلة التالية انتظرته بلهفة . وعندما دخل إليها علمته كيف يمارس الجنس الكامل .

١٥

اندهش طعمة أنه حين التقى بالنائب ، في النادي ، بعد ذلك الموقف في مكتبه ، كان النائب ودوداً ، عاتبه لأنه لم يزره . وتبادلا أحاديث طويلة في السياسة . كانت أسئلة النائب وصفاؤه قد جعلت طعمة يتكلم كثيراً ، دون توقف . وعندما زاره عصر اليوم التالي في مكتبه عامله النائب بألفة ، واستبقاه للسهرة . جاء ثلاثة آخرون . أكلوا وشربوا ، ثم جاءت امرأة متأنقة جداً . أصرّ النائب أن يكون طعمة أول من يدخل معها .

في طريق عودته ـ عاد سيراً على الأقدام ـ إلى البيت شعر أن النائب قد قدّم له اعتذاراً كافياً . وأدرك أيضاً بوضوح أنه لم يعد من حقه أن يزور النائب بعد الآن .

عليه الآن أن يبدأ من جديد .

وفي لمحة إضاءة خاطفة أدرك معنى عبارة «أن يبدأ من جديد» . عليه أن يبدأ الكتابة .

Abu Abdo Al Bagl

١

المكان : شقة في بناية تطل على ميدان الدقي ، في القاهرة . تحتوي على حجرتين وصالة . تنفصل حجرة النوم والحمام والمطبخ عن بقية الشقة (الصالة وحجرة الجلوس) بمدخل ، يعلوه قوس ، ومختف خلف ستارة . أثاث الشقة غير متناسق ، تم جمعه من مزادات ، وبيوت أصدقاء . . وبعضه مجهول الهوية .

الكتب في كل مكان . ذهبت جهود الخادمة أم محمد الدؤوبة وجهود عزة المتشنجة هباء في وضع نظام للكتب . كانت تتكاثر ، وتزحف إلى كل مكان في الشقة . امتلأت بها المكتبات الثلاث وتكدست فوق المكتب العريض جداً . تكدست إلى حد أنه لم يبق لجريس ، حين يكتب ، إلا مكان ضيق جداً .

شرح لأم محمد السبب الذي يجعله يمنعها من تنظيم الكتب المكدسة فوق المكتب . قال لها إنها لوغيرت تنظيم الكتب لما استطاع أن يستدل عليها . لن يعرف أين وضعت هذا الكتاب أو ذاك ، وسوف تكون مشكلة حقيقية إن لم يستطع العثور عليه .

كان مقتنعاً بما يقول ، رغم أن قوله لم يكن دقيقاً . فقد كان ، في كثير من الأحيان ، يضطر إلى شراء الكتاب الواحد أكثر من مرة لأنه لم يستطع العثور عليه . عندما أصبحت عزة ضيفة دائمة على الشقة استمعت بنظرة يقظة إلى تفسيره للأسباب التي جعلته يمنع أم محمد من تنظيم الكتب الموجودة فوق المكتب . صرخت :

ـ أم محمد .

كانت الصرخة قوية فجاءت أم محمد مسرعة ، متصورة أن كارثة قد حدثت . كانت عزة تمتلك حس فكاهة ذكي وسريع الالتقاط ، فعندما رأت وجه أم محمد المنزعج أطلقت ضحكة طلقة ، ثم قالت :

ـ تعالي ساعديني يا أم محمد نرتب الكتب .

Abdo Al Bagl

نظرت أم محمد إلى جريس ، فالمفترض أنه سيد البيت ، وقالت :

ـ الأستاذ قال لي ، ما لخبطشي الكتب .

قالت عزة :

ـ هيه ناقصة لخبطة .

رأت أم محمد أن جريس لم يعد سيداً حقيقياً ، وأن عزة أصبحت هي صاحبة الحول والطول ، فعاونت عزة في تنظيم الكتب .

تبين لجريس ، بعد أن تم تنظيم الكتب أنه يستطيع الاستدلال على الكتب التي يحتاجها بسهولة أكبر ، بقراءة العناوين على كعب الكتاب . هنا اكتشف العديد من الكتب التي لم يكن يعلم أنه يمتلكها ، كما اكتشف كتباً أخرى اعتقد أن أصدقاءه استعاروها ، دون إذن منه (بكلمة أدق ، سرقوها) . توجه نحو عزة ، التي كانت تقف قرب الباب ، فقالت :

ـ عارفة ، بدك تبوسني . . .

ـ قال :

ـ لا . كنت رايح الحمام .

قالت :

ـ كذاب .

ضمها إليه وقبّلها . قالت :

ـ كنت عارفة .

قال :

ـ عرفت ازاي ؟

وضعت سبابتها على جبينها ، وقالت :

ـ هنا مخ . مش مهلبية .

٢

تعرف جريس على عزة في تلك المظاهرة الطلابية ، التي انتهت في ميدان

التحرير، واحتلت الميدان واعتصمت فيه حتى الفجر . ثم جاءت قوات الأمن المركزي واعتقلت الطلبة المعتصمين . كان قد مضى على آخر مرة رأى فيها سلطانة سبعة عشر عاماً . وكان يجلس في مقهى (ايزائيفتش) يراقب المطاردة. ثم خفق قلبه بشدة عندما رآها بين الطلبة. كان لها طلعة : العنق الشامخ ، والصدر البارز ، والقامة الطويلة المشوقة . والوجه. كان لها ذلك الوجه الجاد ، الذي يجعلك ترغب في الضحك والمعابثة وأنت تتأمل جديته . كان وجهاً متحركاً ، منفعلاً ، لا يعرف السكون لحظة . كان وجهاً لا يرى ذاته، أعني لا تراقب صاحبته نفسها ، بل يستغرق في اللحظة كأن الآخرين لا وجود لهم .

هنالك بعض النساء اللواتي يستجبن لكل نظرة ، حتى ولو كنت تطالعهن من الخلف . تسير إحداهن أمامك فتراقبها من الخلف . تنخرط في حركة العجيزة، في المشهد الجانبي للثدي ، في صفحة الوجه ، والساقين . . تنخرط إلى درجة اللمس . ثم فجأة تلتفت إليك . تلتقي عيونكما ، فتقرأ التحرج واللوم، فتشعر أن عليك أن تركض مبتعداً .

لم تكن عزة من هذا النمط من النساء . لم يكن جسدها ينفصل عنها ، ليستجيب، رغماً عنها ، لعين شبقة. عندما تستجيب لرغبة تستجيب لها بكليتها ، بالجسد والروح . لم تعرف ثنائية الأجيال السابقة .

وكان لها طلعة . أعني ذلك الإشعاع الذي يخترقك رغم الزحام حولك . أعني إنك تراها على الفور ، وهي بين الكثيرين ، منشغلة ، مستغرقة . مستغرقة بهم ، ومنفصلة عنهم كأنها تقف وحدها .

وأحس جريس إنه ينفصل عن أصدقائه ، الجالسين معه في المقهى ، عن جموع الطلبة ، عن اليافطات والشعارات المكتوبة عليها ، وعن النقاش السياسي الدائر . بشكل ما شعر أنه وتلك الفتاة وحيدان. كان توقه إليها قد غزا جسده كله .

وعندما استجابت عزة له ، بعد ملابسات كثيرة ، وضع استجابتها في إطار نظرية صاغها ببطء . تقول النظرية إنه لا يمكنك أن ترغب بكل ذلك الاندفاع والتوق ، أن تعشق على التو وبتركيز يلغي العالم من حولك ، بل يلغي شعورك بجسدك ، وبالممارسات الاجتماعية التي يمليها الوضع واللحظة، حتى تجد ذلك الإنسان المرغوب قد استجاب لك .

Abdul Aziz Al Bagi

ثم أجرى توسيعاً وتطويراً لتلك النظرية. ما الذي يجعل ممثلاً أو ممثلة تستقطب اهتمامك دون سائر الممثلات والممثلين؟ وفي السينما، عندما شاهد بيتر اوتول في فيلم «بيكيت» رآه يمتص بحضوره كل ما ومن حوله، وحاول تفسير ذلك. عند انبثاق تلك النظرية فقط توصل إلى الحل الذي يرضى عنه. قال إنه التركيز العالي للشعور، الذي يجعله لا يعيش الدور فقط، بل ويرغب، وفي حدة، بأن يوصله للآخرين.

كانت نظريته تشكو بعض النواقص. ماذا لو لم يستجب الطرف الآخر؟ وماذا لو كانت استجابته سلبية؟ عشرات الأجوبة، غير المقنعة نشأت، مما جعله يحيلها إلى لحظة حدس تهبط وحدها.

حاول أن يتأكد من نظريته بشكل تجريبي، فسأل عزة إن كانت قد شعرت به قبل أن تراه. قال لها إنه كان يراقبها من المقهى بلهفة وشوق، فهل شعرت به؟ قالت:

ـ لا.

قال:

ـ لا؟ لا إزاي؟

قالت:

ـ انت مخك طاير. حا احب واحد إزاي قبل ما أشوفه، وقبل ما أعرف إنه موجود.

قال لها:

ـ بواسطة التليباثي.

وشرح إنهم في الإتحاد السوفييتي يجرون تجارب عليها.

حاصرها إلحاحه، فقبلت فمه، وقالت:

ـ أسكت، أسكت.

ثم وضعت سبابتها على شفتيه.

بدأت نظريته تفتقد إقتناعه بها. ورغم ذلك استمر يشرحها لأصدقائه، ولاحظ أنه أثار إعجابهم.

هكذا أصبحت عزة تزوره في البيت، مع بعض زملائها وزميلاتها أحياناً، وفي معظم الأحيان وحدها. في حضور زملائها وزميلاتها تكون ودودة معه، وعندما

تجيء وحدها كانت تتراوح ، في موقفها منه ، بين اندفاع العاشقة وعصبية الرفض .
كان يحبها على كلتا الحالتين .

٣

كان جريس يتمدد على صوفا عريضة ، مرتدياً بيجامته ، يضع كوعاً على مخدة ، وينظر إلى عـزة . وكـانت عـزة تجلس على كنبـة اسطمبـولي ، تمد سـاقـيـهـا باستـقـامـة ، وتجلس على طرف الكرسي ، يميل ظهـرها إلى الوراء ، ويرتكز كتـفـاها ورأسها على مسند الكنبة . كانت تلبس بنطلون جينز وقميصاً أبيض ، ينسدل فوق البنطلون .

كان جريس يستطيع أن يرى أجزاء من بطنها وظهرها في جلستها تلك ، إذ ينزلق القميص عن قطاع عرضي من ظهرها وبطنها . وقطاعات طولية بين أزرار القميص ، ثم نحرها ومنبت النهدين من فتحة القميص ، التي لها شكل سبعة .

كـانت في هذه الجلسة ، تعلن عن حـالة ومـوقف . إذ تجلس هكذا عندمـا تكون مستغرقة في شيء ما ، شيء يجعلها عصبية . كان ذلك يرغمه على الصمت . قال لها مرة إن هذه الجلسة سوف تسبب له انزلاقاً غضروفياً . نظرت إليه وكأنها استيقظت من غفوة وقالت :

ـ مش فاهمة . يعني إيه ؟

ـ انزلاق غضروفي .

ـ يعني إيه ؟

شرح لها ، بقدر معرفته ، الانزلاق الغضروفي . قالت :

ـ فهمت .

ولم تغيّر جلستها . سألها إن كانت تحب أن تصاب بانزلاق غضروفي . عـادت إلى استغراقها ، وقالت :

ـ مش مهم ، مش مهم .

لاحظ جريس أن ساقيها طويلتان ، ومتناسقتان . ثم تذكر أنه لاحظ هذا من قبل

Abu Abdo Al Bagl

أكثر من مرة. لم يكن يحب ذلك الإحساس ، أن يكتشف شيئاً اكتشفه من قبل .

قال جريس :

ـ بتفكري في إيه ؟

قالت :

ـ سلطانة : وتوقفت . لقد كشفت سرها .

٤

كان جريس قد بدأ يكتب رواية ، عنوانها «الخادمة» ، جعل أميرة بطلتها . قال لعزة إن الرواية قد خطرت له كإجابة على سؤال ، سبق وأن طرحته عليه : لماذا لا تعود إلى الأردن ؟

قرأت عزة بعض فصول الرواية ، وحكى لها كثيراً عن تفصيلات لم يوردها .

كانت تصغي بنهم . ولكن الشخصية التي استولت على اهتمامها كانت شخصية سلطانة . أكثرت من السؤال عنها، ومن التعليق عليها . كانت مفتونة بها .

أعادت عزة سلطانة إليه حتى استعاد عشقه لها . كبرت وانبعثت ذكريات منسية عنها ، وكبر حجمها . قال لعزة : سوف أعيد كتابة الرواية . قالت :

ـ وحايكون عنوانها سلطانة .

ضحك جريس وقال :

ـ أنت واثقة من نفسك قوي .

لم ترد . قال لها إن الرواية قد بنيت واكتسبت نسقاً ، وبموجبه لا يمكن إلا لأميرة أن تكون بطلتها . قالت :

ـ شكراً .

وصمتا .

كانت سلطانة تملأ خيال عزة . تكاد تكون موضوع حديثها الوحيد في هذه الأيام الأخيرة . تأتي أحياناً ، وتبدأ على الفور في وصف سلطانة ، وتلقي مزيداً من الأسئلة عنها . يقول جريس :

ـ يا فتاح يا عليم . مش تقولي السلام عليكو، الأول .

ولكنها تسكته بعصبية وتجعله يرضخ لأسئلتها .

في أحيان تتصرف بحكمة. وكان هذا ، في الحقيقة ، نادراً جداً. تبدأ بالحديث عن السياسة ، والاعتقالات ، عن آخر النكات عن أنور السادات، ثم تقول فجأة :

ـ بالمناسبة ، إيه أخبار روايتك ؟

يقول جريس :

ـ بتبوس إيدك .

ويمسك يدها ويقبلها ، فتجذبها وتقول :

ـ بلاش استظراف . جاوب على سؤالي .

يقول شاكياً :

ـ سلطانة!

فتضحك وتقول :

ـ بالضبط .

حين أعاد جريس كتابة الرواية أصبح عنوانها «سلطانة» ، كما تنبأت عزة. فقد اكتشف أمراً أذهله ، وكاد يرتكب حماقة إنباء عزة به ، لولا أنه تمالك نفسَه في آخر لحظة . لقد استعاد منظر عزة وهي تقف في ميدان التحرير، بين الطلبة . أحس بقلبه ينبض بقوة ، كأنه يعيش المشهد مرة أخرى. محاولاً أن ينظر إلى عزة حتى لا تضيع الرؤيا. يدقق النظر في عزة الواقفة في الميدان : ثم فجأة تتحرك ، تنتفض . يتذكر ما خطر له ، ونسيه على الفور . خطر له : «هذه سلطانة» .

امتلأ حماساً لهذه الخاطرة ، ورأى نفسه واقفاً . ثم عاود الجلوس .

كانت عزة تتأمله ، دون انفعال ، ثم قالت بهدوء :

ـ شكلك بيضحّك .

ـ تعرفي ؟

كاد أن يُنبئها .

قالت :

ـ مالك ؟

قال :

ـ ما فيش .

٥

إذا كان التذكر يحمل قدراً من الإرادة ، فإن ذلك لم يكن تذكراً بهذا المعنى ، إذ انصرفت عزة في الرابعة ، ونام ، كعادته ، بعد الغداء . كان يشعر بالإرهاق دون سبب واضح ، واستغرق في النوم بمجرد أن دخل السرير . كان يركب أتوبيساً من النوع الفاخر ، حيث الجميع جالسون . ولكن راكباً سخيفاً كان يقف غاضباً جداً . قال للراكب :

ـ في عرضك . كفاية .

ولكن ما أثار غضب جريس حقاً ، هو أن الركاب المتأنقين للغاية رأوا في مزاح الرجل الثقيل ظرفاً من نوع نادر . كانوا يكررون استحسانهم كلما دق الجرس . كانت فتاة تجلس قريباً من جريس ، تقول لصاحبتها بحماس :

ـ إنه يدق جرس عصرنا .

ونظرت إلى جريس بعينين بنيتين ، شفافتين . كأنهما ضوء سائل ؛ والجزء الأبيض كان به لمسة رمادية ، فاخرة . كانت تنظر إليه تطالبه بإبداء الإعجاب ، وبالضحك لما يقوم به الراكب الثقيل الظل . قال :

ـ سلطانة .

وازداد رنين الجرس وأدرك جريس أن الراكب السمج يحتج على تبادل الحديث مع الفتاة ، فقال جريس بتحد للفتاة :

ـ صاحبك دمه ثقيل .

اقتربت بوجهها وقالت بهمس :

ـ حكمت .

ثم وضعت سبابتها على شفتيها ، داعية جريس إلى الصمت . كان جريس يختنق من الغيظ . قال بحدة :

ـ رجاء الصمت . رحمانينوف يعزف البيانو لكونشيرتو رقم ٢ .

ونهض .

أشعل الضوء ، ونظر إلى الساعة . بحق الله ، ماذا حدث؟ إنها الواحدة . رأى الليل في الخارج . وقال : الواحدة بعد منتصف الليل . نمت سبع ساعات . سبع ساعات؟ وأعاد الحساب ، بل تسع ساعات . ما كان عليه إلاّ أن يتأمل هذه الحقيقة حتى يشعر بالنشاط يدب في أوصاله ، على شكل رغبة في المشي ، أو القفز .

خرج إلى الصالة وبمجرد أن أشعل الضوء رأى الأوراق المدسوسة من تحت عقب الباب :

«ضربنا جرساً يجعل الأموات تستيقظ . ما الحكاية؟» محمد .

«وجدناكم فلم نزركم» . نحن يحيى .

«مشتاقة لك جداً ، جداً» . بطة .

أعد القهوة بمزاج . أضاف إليها الهيل وجوزة الطيب . ثم ركبه عفريت المشي . كانت الذكريات تتوقف بمجرد أن يقف . لم تكن الذكريات صوراً ثابتة ، كصورة فوتوغرافية ، بل كانت تبرز وتطالب أن توضع في كلمات . تثبت الصورة منتظرة عندما يتوقف ليشعل سيجارة ، لا تبتعد . إلا إنها تطالب أن توضع في كلمات . وبمجرد أن يخطو تنساب الكلمات .

كان الجد الأكبر عواد بن يوسف ينام على فرشته التي لم يره جريس يغادرها قط . أميرة تقف مطلة عليه . قد تكون في السابعة أو الثامنة من عمرها . تمد ذراعها ، تهزها في وجهه . كان الرجل العجوز قد تبرز في فراشه . يستعيد صورة أميرة ، وهي تصرخ به :

ـ عملتها مرة ثانية ؟

يحاوَل الرجل أن يستند على كوعه ؛ يفشل ، فيعاود الكرّة . يغوص تحت اللحاف ، ويصعد ؛ ثم يغوص ويصعد . أرنبة انفه تسقط ، حاجباه الأسودان يلتقيان ويبتعدان . تواصل أميرة صراخها ، وهز ذراعها في وجه العجوز ، وهي تحني جسدها قليلاً نحوه :

ـ إيش هذا؟ إيش يعني! هو ما فيه حكومة في عمان!

سلطانة

الرجل العجوز يغوص ويصعد ، كأنه حوت . سلطانة تقف في الخارج ، تراقب ما يحدث . زوجها واقف ينظر إلى الأفق ، إلى التلة المقابلة . تزعق سلطانة بالبنت :

ـ ابعدي يا مقلوعة العين .

تلتفت أميرة نحوها وتقول شاكية :

ـ بحسّب ما فيه حكومة في عمان !

تقول سلطانة :

ـ اتركيه . هَي جريس جاي يلعب معاكي .

تلتفت إلى زوجها ، وتنفجر ضحكة مكتومة ، وتقول :

ـ ماني عارفة من وين بتجيب هالكلام . . .

الزوج عابس ، لا يلتفت .

تنحني سلطانة وتقول جريس على خده . وتقول :

ـ كيف أمك؟

ـ زينه .

ـ جاي تلعب أنت وأميرة ؟

ما زالت منحنية عليه . تبتسم وتقول :

ـ نجوزك أميرة .

قال :

ـ لما أقول لأمي .

تضحك وتقبله . قالت أميرة :

ـ بده يتجوزك أنت يمه .

يحمر وجه سلطانةَ .

أمه تقف أمام قدر اللحم . الحطب يشتعل والقدر يفور برقته البيضاء الخاثرة . تمسك قطعة اللحم بيدها وتقول :

ـ ما استوت بعدها ؟

وجهها أحمر عرقان . تقول وهي تجلس قطعة اللحم بأصابعها الطويلة الحمراء :

Abu Abdo Al Bagl

ـ والله لو حطينا عواد بن يوسف عَ النار كان استوى .

كان جريس يندهش ، عندما يسمعها تقول هذا . يتصور دائماً أنهم لو وضعوا عواد في ماء مغلي لذاب . كان باطنا كفيه أحمرين وناعمين كالحرير . تبدوان وكأنهما مصبوغتان بالدم . وكانت ذراعاه خاليتين من الشعر ، ممتلئتين ، تهبط عضلاتهما إلى أسفل ، وكأنهما ممتلئتان بالماء .

حلم يقظة جعل خطوات جريس تبطئ ، حتى توقف أمام موقد الغاز . أشعله ووضع كنكة القهوة فوقه . وأخذ يستعيد الصورة لتثبت . تقول سلطانة : نجوزك أميرة؟ فيقول : لما أقول لأمي . تضحك سلطانة ، تنحني عليه وتقبله . من فتحة الثوب يرى النحر ، والصدر ، الذي يبرز قليلاً ، ثم يغور في ذلك السرداب الذي يبدأ من منبت الثديين . تقول أميرة :

ـ هذا بده يتجوزك انت .

يحمر وجه سلطانة . اشتهى (في هذه اللحظة أم تلك ؟) أن تضمه ، أن يمد فمه إلى النحر والصدر إلى منبت الثديين . بعد سبع ثماني ، تسع سنوات فاجأها يجذب حزام الروب الحريري ، وانفرج عن نهدين ناصعي البياض ، ملمسهما الصلب المرن في يده (حتى هذه اللحظة) . شهقت ، وضمت الروب حول جسدها ، وهمست :

ـ جريس!

وسبابتها تشير إلى الحجرة . قال :

ـ مين؟

همست :

ـ مسعد .

ثم أخذت تنظر في و جهه . كان خائفاً ويعلم أنها ترى ذلك في وجهه . قبلته على خده ، وابتسمت :

ـ تعال نقعد جوه .

في الداخل ، في حجرة الجلوس حكت له عن مشروع تجاري كبير ستشارك فيه ، هي ومسعد طبعاً ، وسيكون مقره مرفأ العقبة . صمتت لحركة أقدام في الخارج ، ثم نهضت وهي تقول :

ـ مسعد .

قبل أن تخرج قالت :

ـ بدك تسلم عليه ؟

هز رأسه نفياً . ابتسمت بفهم وتواطؤ ، وخرجت . عادت بعد قليل وهي تضحك . قالت :

ـ مشيّته .

تردد قليلاً ، ثم سألها :

ـ بتحبي مسعد؟

كان يعتقد أن هنالك علاقة جسدية بينها وبين مسعد . هزت رأسها ، وانتصب جسدها بكبرياء . قالت :

ـ مين مسعد؟ هذا خدام تحت رجليي .

رأت الدهشة والإعجاب في وجه جريس فقالت :

ـ انت مش عارف حبيبتك سلطانة .

قالت له سمحة :

ـ بتعرف مسعد ؟ بتقعد ، وهوه واقف بره ، مع الضيوف وبتنادي : مسعد اعمل إلنا قهوة .

ـ وجوزها ؟

سأل جريس . فقالت سمحة :

ـ منعته يترك القرية . خالتي فاجرة .

يستعيد جريس صورتها ، وهي تقول «مين مسعد هذا!» ويتذكر على الفور منظر عزة ، عن بعد ، وهي تقف بين الطلبة . لقد اعتقد ، للحظة خاطفة ، انها سلطانة .

كان جريس يسرع في مشيته . منذ البداية وهو يؤجل تلك اللحظة . تبدو كرصيد ثمين يلجأ إليه عندما تفلس خزائنه . في الليلة التي سبقت تلك اللحظة عرف جريس جسد المرأة لأول مرة في حياته . التقى هو وأصحابه بالقواد فأخذهم إلى بيت دعارة سري . كانت التجربة خيبة أمل حقيقية . كانت امرأة مترهلة ، ولكنه تصور أن كل النساء هكذا . بريق خارجي ، وجسد مترهل عندما يخلعن ثيابهن . الغريب أنه ، رغم

ذلك مكان يحلم بامرأة مختلفة. كان حلم المرأة الفاتنة الجميلة، التي ليس لها جسد مترهل يفرض نفسه عليه، ويفتت صورة المرأة المترهلة، بجسدها المبلول الذي يفوح بصنة العرق.

وفي اليوم التالي، وهو جالس في مقهى (وادي النيل)، كلمته سلطانة بالتليفون، وطلبت منه أن يأتي فوراً. أسرع إلى بيتها، وقد نسي أن يدفع حساب القهوة. استقبلته سلطانة وهي تلبس روباً حريرياً وردياً. لاحظ على الفور جسدها المستقيم المشوق وصدرها الناهد. قالت:

ـ جريس!

وقبلته على خده. ثم نظر إليها، إلى وجهها وعنقها، وخطر له أنها لن تكون مترهلة من الداخل. جذب الحزام الحريري، فانفتح الروب عن شق من اللحم الساطع، وملأ بنهديها قبضتيه. كانا صلبين، مرنين، كحيوانين حيين. قال لنفسه: إنها امرأة مختلفة. شهقت سلطانة وقلت: «جريس»، ثم أشارت بسبابتها إلى باب حجرة مغلق، وقالت: «مسعد». وأدخلته إلى حجرة الجلوس.

يتذكر جريس المشهد، ويستعيده بتلك اللهفة، التي تجعله يعيشه أيضاً. عندما قالت: «مسعد تحت رجليي» انتصب جذعها بكل اعتداد. لاحظ أن نهديها قد اندفعا إلى الأمام: كرتين منفصلتين، والحلمتان تتشكلان بوضوح. اشتاقت يداه إلى احتوائهما، تذكر صدها ساعة دخوله، فقاوم رغبته.

نظرت إليه مبتسمة فمال نحوها قليلاً. لم يستطع أن يلمسها. تشكّل حاجز من الخوف بينهما، عندما قالت: «مسعد تحت ر جلي». قال:

ـ وين أميرة؟

قالت بحياد:

ـ ما بشوفها.

قال:

ـ ما بتشوفيها؟

قالت بضيق:

ـ دايرة.

هي تقول ذلك عن ابنتها؟ قال جريس لنفسه . تكاد تصفها بأنها مومس . لا يكاد يعرف هذه المرأة . سألته فجأة :

ـ أنت بتشوفها ؟

قال بقطع :

ـ أنا؟ لا .

قالت :

ـ لكن عندك علومها .

قالت ذلك ، وهي تحني رأسها ، وبهدوء كأنها تقرر حقيقة لا تحتاج إلى نقاش . لم يجب . هل كان عليه أن يجيب؟ كانت تتأمل أصابع يديها باستغراق . قالت هامسة :

ـ احكي لي عنها .

كان عليه أن يقاوم . هنالك أسرار يجب ألا يبوح بها . وهنالك اللياقة . ولكن صمتها المتوقع إجابة كان يلح عليه . يعلم أنه لا يمكن أن يستمر في صمته . قال :

ـ انت ما بتعرفي؟

قالت :

ـ مش كل شيء .

شعر أنه لو استمر في صمته فعليه أن ينصرف . كل شيء إلا هذا قال ، في محاولة لتأجيل اللحظة :

ـ عندكو قهوة؟

قالت بذلك الهدوء الثقيل ، الملح :

ـ بعدين القهوة . بعد شوية رايح نتغدى .

أخذ يتكلم . جعلته يقول كل شيء .

كانت تصغي إليه بحياد . عندما حكى لها عن زيارة صليبا للنائب وتهديده له ، انتفضت ، وقالت :

ـ الخوري صليبا ؟

قال :

Abu Abdo Al Bagl

ـ أبونا صليبا .

قالت وكأنها تكلم نفسها :

ـ حقير

ـ كانت أول امرأة في القرية اسمعها تقول كلمة كهذه . سألها إن لم تكن تعرف كل ذلك . قالت :

ـ لا طبعاً ، ما ناقصنا مصاري .

صمتت طويلاً ، ثم تنفست بعمق ، وقالت :

ـ كلها عمايل مسعد .

قال :

ـ مسعد ؟

قالت :

ـ غير أخرب بيته .

ثم أضافت بعد قليل :

ـ هيه السافلة .

ـ مين؟

قالت بهمس :

ـ أميرة . صار اللي صار ، تستر على حالها . لازم تفضحنا وتفضح نفسها ؟ كلبة .

ثم ابتسمت له . مدت يدها وأخذت تداعب شعره . كان ذلك ممتعاً ؛ ولكنه ودّ لو يبكي .

ثم أمسكت بيده ، وقالت :

ـ قوم معايي نحضر الغدا .

عندما وقفت ضمها إليه وقال :

ـ بحبك .

وضعت رأسها على كتفه ، عند التقاء العنق بالكتف . قال :

Abu Abdo Al Bagl

ـ حبيبتي .

لم تقل شيئاً . ثم رفعت رأسها ونظرت في وجهه . وبيدها مسحت العرق عن وجهه . كانت حركة أم قروية تتأمل وجه ابنها . بأصابعها أخذت تزيل العرق عن وجهه ، ثم قالت :

ـ ميتة من الجوع . تعال نحضّر الأكل .

٦

في مسيرته من باب الشقة ، مروراً بالصالة ، حتى باب المطبخ كان جريس يعيش ندم اللحظات الضائعة . حين كان يسترجع لحظاته مع سلطانة كان يشعر أنها جميعها لحظات غير مكتملة . وذلك يعني أنها وقائع مبتورة ، كان بالإمكان اغناؤها بتفاصيل ونهايات . كانت لحظات فقيرة دراميا . وذلك يعني أيضاً أنه ـ في لقائه مع سلطانة ـ لم يرها وما حولها بدقة . هنالك تفاصيل ، حين يستعيدها الآن ، يكتشف أنه لم يتم تسجيلها في الذاكرة . لهذا كان يعيد بناءها عبر أحلام اليقظة .

حتى تلك اللحظة الملتهبة في العلاقة . هل يستطيع أن يصف حجرة نومها ، والليلة التي قضاها فيها . يتذكرها حجرة واسعة ، تختفي جدرانها وراء ستائر مخملية حمراء ، لا ترى شباكا أو باباً . ماذا أيضاً ؟ لا يستطيع أن يتذكر . يقفز عن هذه الليلة كأنها لم تحدث . هل حدثت ؟

وذلك الحوار وهما يفطران . لا يتذكره بالضبط ، و لكنه كان شيئاً كهذا ، لا يستطيع أن يستعيد حتى اللهجة .

قال :

ـ لن أسافر إلى بيروت .

كان ذلك فيما يبدو رداً على سؤال لها عن موعد سفره لإكمال دراسته في الجامعة . تذهل وتسأل عن السبب (هل قالت : «ليش ما بدك تسافر؟أم اكتفت بالقول : «لشو؟» . . .) قال :

ـ رايح أظل هون .

ـ تظل هون ؟

ـ اتجوزك .

من المؤكد أن الحوار لم يكن هكذا . ولكنه يذكر قولها :

ـ ما أنا متجوزة .

يتذكر أنه استيقظ من نومه عندما قبلته . فقالت :

ـ صحّيتك من النوم؟ يقطعني .

قال :

ـ لا . . .

فضحكت وقالت :

ـ نام .

يتذكر الفتاة ، التي رآها في الحلم . يشعر بالغيرة والغيظ . يضحك : إنه مجرد حلم . ماذا لو تزوجها؟قالت :

ـ ما أنا متجوزة .

كأنه لا يعرف ذلك . تكلمت طويلاً : ضرورة أن يتعلم . قال :

ـ لكني بحبك .

قالت إنها سوف تزوره في بيروت . قال إنه يريد أن يكون بجانبها دائماً . كانت طيلة الوقت تضحك .

قالت سمحة :

ـ كان فيه شيء بينك وبين خالتي ؟

قلت :

ـ كان بدي أتجوزها .

اندهشت :

ـ كيف ؟ هذه أكبر منك بخمسطعش سنة . متى؟ وإيش قالت هيه؟قلت :

ـ ضحكت ، وقالت : لازم أتعلم .

تنفست سمحة الصعداء كأننا نجونا من الكارثة سوياً . قالت :

ـ حكمت كان بده يتجوزها . يمكن منشان هيك قتلوه .

ـ كيف قتلوه ؟

قالت :

ـ ما حدا بعرف . لقيوه مقتول على شط العقبة .

ويحاول جريس أن يتصور سلطانة عندما رأته مقتولاً . هل استسلمتِ ، أم ثارت على الشيخ؟ سمحة تعلم وأنا أعلم من قتله . لقد أصبحت عشيقة للشيخ . هذا ما قالته سمحة ، وما يعرفه الكثيرون في عمان .

لا يدري جريس متى نا م . بلغت الساعة السابعة وهو يتمشى . أحس بألم في ظهره . قال لنفسه : سوف اتمدد قليلاً ، ثم أعاود السير . ولكنه استيقظ فرأى عزة جالسة على طرف السرير .

في غبشة النوم وعتمة الحجرة بدت عزة امتداداً لحلم ، أو ، ربما ، تجسيداً لهاجس . كان عليه أن يستعيد أنه في القاهرة ، وأن هذه هي شقته ، ليعيد تنظيم حجرة النوم طبقاً لذلك ، ليقول :

ـ عزة .

قالت :

ـ امتى نمت مبارح ؟

قال :

ـ مش عارف ، بتسألي ليه؟

قالت :

ـ الساعة تنين تقريباً .

حتى دون أن يراها بوضوح قال لنفسه إن شيئاً ما قد تغير في عزة .

قال :

ـ قهوة حبيبتي ، الله يخليك .

نهضت برخاوة . يبدو أنه عاوَد النوم . أيقظته :

ـ إصحى بقى .

ـ بوسيني .

ضحكت :

ـ أقرع ونزهي . بتتشرط ؟

قال :

ـ لا لو تسمحي يعني .

جذبها إلى جواره ، وأخذ يقبّل وجهها بشكل منهجي ، كل جزء فيه ، ابتدأ من الجبين حتى نهاية الذقن . قالت :

ـ وبعدين معاك؟ القهوة .

صبت له فنجان قهوة ، وقالت : «اشرب» ، ثم فتحت الشيش ودخل ضوء قوي إلى الحجرة . حمى عينيه بيده ، وشرب رشفة من القهوة . شعر برغبة قوية بسيجارة .

ـ حبيبتي ولعي لي سيجارة .

قالت :

ـ مش عايزني اجوزك كمان؟

قال :

ـ تبقي عملت اللي عليك . قالت عزة : فيه إلك جواب ، وجرانين .

وخلال ذلك كان يشعر أن شيئاً ما قد تغير في عزة ، جعلها بعيدة عنه . خرجت إلى الصالة وعادت بسيجارة مشتعلة . قالت :

ـ تفضل مسيو .

كانت الرسالة من سمحة . بدأتها بالأشواق ، وتذكيره بكسله في كتابة الرسائل «مع إنك كاتب ، متل ما بقولوا» ولكن ما تلا ذلك كان غريباً على سمحة .

كتبت : «والله تقلطنا ، وصرنا نتكلم ماركسية وما ماركسية ، ونتكلم عن بعث الجوهر الثوري للماركسية . بتعرف كلام مين هذا ؟ صدق ، أو لا تصدق ، كلام خالتي العزيزة سلطانة . والحكاية من البداية للنهاية إنه خالتي زارتني . قلت لها :

ـ إنت ما بتكبري؟

صارت في الخمسين ، وتقول بنت عشرين ، وكل يوم بتزيد حلاوة وشباب .

قالت لي :

ـ اخص عليك . بدك تحسديني .

ـ عين الحسود فيها عود .

وتذكرناك . وضحكنا كثيراً . قلت لها إن جريس كان بحبك . قالت كان بده يتجوزني . وحكت كيف أقنعتك تسافر للجامعة . بيني وبينك خالتي ما بتتفوت، وخصوصاً إنها صارت في العلالي . وعندها اسطول سيارات ، و عازمة على أن تبعث الجوهر الثوري للماركسية .

كيف ؟

الجرايد التي أرسلها إليك ستوضح كل شيء . قالت قريت حديثي في مجلة وجريدة مش عارف إيش؟ قلت لها لو أن الواحدة قرأت في اليومَ عشرين ساعة ما بلحق على ما يكتبه الفلسطينيون . أصبح وجهها أحمر كأنها مراهقة ، فقلت :

ـ صرت كاتبة؟

فأخرجت الجريدة والمجلة من حقيبتها . وأخذت اقرأ . قلت بعد قليل :

ـ انت بورجوازية وطنية؟

قالت بتواضع شديد :

ـ بقولوا عليّ هيك .

قلت في عقلي : تهريب الحشيش من العقبة إلى إسرائيل ، ثم من خلال بدو التياهى إلى مصر ، وتهريب الألماز إلى إسرائيل ، والتآمر على أحمد المساعد وإخراجه من البرلمان . . كلها هذه وطنية . لم أقل لها ذلك طبعاً ولكن الضحك غلبني . فقالت :

ـ ليش بتضحكي؟ بورجوازية ونص .

قلت لها :

ـ يا خالتي ، أنا بضحك على الوطنية .

هؤلاء الفلسطينيون عجيبون جداً يا جريس . هل يضحّون بالمئات من شبابهم ليقولوا إن مشروع خالتي ، كبورجوازية وطنية ، يتعارض جذرياً مع المشروع الصهيوني؟ لست أدري ، أهم يضحكون علينا أم على أنفسهم .

وسألتها عن الجوهر الثوري للماركسية فقالت :

ـ ارجعي إلى كتاب لينين (الدولة والثورة) .

تقدمنا وصرنا مثقفين يا جريس يا أخوي .

Abu Abdo AlBagl

وكررت سمحة أكاذيبها إن أمي وأمي آمنة في صحة جيدة ، ويهديان السلام إلي ، رغم معرفتي أنهما توفيتا ، وفي شهر واحد تقريباً ، منذ سنتين على الأقل .

رغم محاولة سمحة المزاح ، فلقد أحس جريس أنها تعاني غيرة حقيقية من خالتها . إن ا لإكثار من استعمال الكلمات القروية كان يهدف بوضوح إلى خلق تضامن بينهما ضد سلطانة ، وإلى التذكير بالمنشأ الوضيع لها . هل بلغت سلطانة من الأهمية الاجتماعية ، وهل ما زالت تحتفظ بجمال يبرر تلك الغيرة؟ كان يكفي أن ينظر إلى صور سلطانة في المجلة الفلسطينية حتى يجد الإجابة على اسئلته .

أخذ يتأمل الصور قبل أن يقرأ حتى العناوين ، تأملها مشفقاً أن تكون سلطانة جميلة ما تزال ، كما يتذكرها ، وكما تصفها سمحة . لو كانت كذلك فإن الندم على فقدانها سوف يخالط كل لحظة من لحظات حياته ، مثلما يخالطها الخوف من الموت .

تحت العنوان مباشرة صورة كبيرة لها ، بعرض صفحتي المجلة ، وتحتل النصف الأعلى من الصفحتين . كان منظراً جانبياً لوجهها ، مطبوعاً على أرضية بيضاء . العنق الطويل عار . يميل إلى الأمام قليلاً ، وحول قاعدته قلادة من خرزات كبيرة ، تنساب على نحرها العاري ، وتستقر على بروز ثدييها .

قالت عزة شيئاً من الخارج لم يسمعه . قال :

ـ نعم ؟

ـ بتفطر ؟

ـ كمان خمسة .

لقد نسي عزة . أعني لم يعد حضورها جزءاً من اللحظة . كانت غائبة وأزعجه أن تذكره بوجودها .

قال :

ـ كمان ربع ساعة يعني .

واستغرقته الصورة مرة أخرى .

كان وجهها يميل قليلاً نحو الكاميرا ، فتبدو عينها الأخرى وجزء من وجنتها . فستانها ينحسر حتى يصل قريباً من الكتف ، يستدير على أعلى ظهرها بقوس ، ثم يشكل رقم سبعة ، قاعدته منبت الثديين ، كاشفاً منظراً جانبياً لنحرها ، مع ميل ناحية

الكاميرا . قال لنفسه : «اليد» لأنه يعرف أن اليد هي أكثر أجزاء الجسد دلالة على الطبقة والمستوى الاجتماعية لصاحبتها .

لم تكن الأيدي موجودة . بترها المصور . بحث في الصور الأخرى . هل اخفت يديها عن قصد؟ لا . إنها هنا ، واضحة كأنها تجيب على تساؤله . جميلة كأنها رد مفحم على محاولته تشويه سلطانة . كانت تلك اليد الكبيرة ، التي تبدو أصابعها الطويلة وكأنها تسيل من تلك الكف . كانت يداً لها ذلك الانفصال ، الوعي بذاتها ، كما ليد مطران تعود أن يقدم يده بشكل تلقائي إلى أبناء كنيسته ليقبّلوها .

كانت الصورة جميلة بقدر ما هي مخيبة . كانت صورة لامرأة فاخرة ، امرأة من نساء البلاط اللواتي يتمتعن بسلطة مطلقة ، والتي لا ينجح رسامو البلاط إلا في اقتناص الضخامة والأنوثة والبراءة ، مسدلين الستار على مكائدها ، وصلابتها الفولاذية وتدبيرها الحاذق . هذا ما كان يوحي به العنق الطويل ، المائل ميلاً خفيفاً إلى الأمام ، كاشفا أرستقراطية عريقة ، ورقة مفتقدة بين بنات الأجيال الجديدة . ولكنها لم تكن سلطانة . ليست سلطانة التي يتذكرها .

دقق النظر ، لا ليتأكد أنها سلطانة ، بل لينفي ذلك حتى لا يعيش الندم طيلة أيامه . نادى :

ـ عزة ، تعالي بصي . . .

قالت :

ـ بحضّر الفطار .

كان يريد أن يشرح لها السبب الذي يجعله يعتقد أن الصورة ليست لسلطانة . وفجأة ، وكأن الصورة تعدّل وضعها لتصبح نصف بروفيل ، رأى سلطانة تطل من الصورة ، تطل من الذاكرة ، وقد انكشف الروب ـ للحظة ـ عن نحرها وقطاع طولي من صدرها وبطنها . كانت سلطانة بالفعل . وكان ذلك اعترافاً مؤلماً .

ـ إيه الدوشة اللي عاملها ؟

انتفض ، ثم تمالك نفسه :

ـ تعالي شوفي صورة سلطانة .

قالت :

ـ بعدين .

كانت تعتقد أنه يمزح . قال :

ـ بتكلم جد .

تطلعت بحذر إلى وجهه وإلى الصورة . وفجأة خطفت المجلة من يده وأخذت تتأمل الصورة .

قال :

ـ عزة . أنت غريبة النهاردة .

وكان يعني إن عزة انكمشت فجأة . الرقبة قصرت ونحلت . و بدا أن انسجاماً ما، كان يسم جسدها وسلوكها ، قد تحطم . الثديان كبرا فجذباها إلى تحت ، إلى أنوثة مطواعة . أنوثة مستسلمة للجذب إلى أسفل : يجذبها الردفان الثقيلان، والثديان. وأما العنق الذي ارتفع وحاول أن يتمرد ، صاعداً إلى الأعلى ، فقد بدا يائساً في محاولته : نحيلاً ، وهشاً.

رفعت عزة رأسها وقالت :

ـ قلت إيه ؟

ودون أن تدع مجالاً للرد أضافت :

ـ دي حلوة بجد . كنت متصوراها . . يعني كده . . .

قاطعها جريس :

ـ فوتو إيه .

قال جريس لنفسه : «هذه الفتاة ليست تلقائية . إنها تتصنع ذلك» . بدت عزة لجريس مثيرة للشفقة .

أفطرا في صمت . جريس يستعيد كلمات سلطانة : «أنا فلاحة ، وأشعر بالانتماء إلى الأرض. قد أقبل موتي ، ولكنني لن أقبل أبداً أن أفقد قطعة أرض». لا شك أنها كانت مهرجة رائعة ، وهي تقول ذلك ، ولا شك ، أيضاً ، أن المحرر قد بذل مجهوداً حقيقياً في صياغة عبارات سلطانة . لقد أدارت رأسه فجاهد ليصنع منها شاعرة.

لاحظ جريس أن عزة تلقي نحوه بنظرة خائفة ، وأنها تحاول استرضاءه. سجل ذلك ، دون أن يحاول تفسيره. كان مستغرقاً في تذكر سلطانة. اقترح عليها الخروج ، قالت :

ـ والرواية ؟

قال لها ، وهو يحاول أن يسيطر على أعصابه ، إن الوقت طويل أمامه ، ولا يشعر برغبة في الكتابة. لم يحب ذلك التكريس الأنثوي لمصلحة الرجل . كأنها تقول: «لا أهمية لأي شيء سوى عملك . أنا يمكن الاستغناء عني». لماذا تهين نفسها على هذا النحو؟

نظر إليها ، حاول أن يستعيدها ، ولكنها كانت تمعن في الابتعاد عنه ، تغترب عنه شكلاً ومضموناً . قال :

ـ عزة . أنت غريبة النهارده.

قالت :

ـ ما غريب إلا الشيطان.

قبَّل خدها . بدا ليّناً ومطواعاً أكثر مما توقع .

في الخارج سارا صامتين. ساراً طويلاً صامتين . قال لها :

ـ ساكته ليه؟

قالت :

ـ سايباك تفكر في الرواية .

الرواية مرة أخرى ؟أليس لها حقوق؟

جلسا في مقهى ريش ، ثم انتقلا إلى الأتلييه. ناقشا الثورة الفلسطينية، حرب الشعب ، الأسباب الداخلية للهزيمة. نسي سلطانة تماماً ، ولكن اشتاق أن يعود إلى بيته وحيداً.

عندما عاد فوجئ بصورة سلطانة التي ظهرت فوق مائدة الطعام بمجرد أن أضاء نور الصالة . .

٧

كان مرهقاً . هرب من الصورة وأخذ يخلع ملابسه وارتدى البيجامة. قال لنفسه: سوف أتمدد قليلاً ، حتى يزول هذا الألم من ظهري ، ولكنه استغرق في النوم

على الفور .

كان نوماً بلا أحلام . بلا أحلام يذكرها . رأى وجه أمه فقط ، أو هذا ما يتذكره . كانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة . رأى خارج الشباك الليل وحياة غامضة ، مثيرة ، ومخيفة تولد في الليل . حياة فاتنة ، بالنسبة لجريس ، المغرم حتى الهوس بالمفاجآت ، وذلك المزيج من العنف والجنس الذي تضمره حياة الليل وتومئ إليه .

فيما بعد ، تجسد إحساس جريس بحياة الليل ، بواقعة . كان يسكن في منطقة الجامعة العربية ، في بيروت . كان يجلس ، في الساعات المتأخرة من الليل ، يكتب . ونام في الثالثة بعد منتصف الليل . في الصباح وُجد الرجل الذي يسكن فوقه وزوجته مقتولين . كانا يجلسان على كنبتين متجاورتين ، باسترخاء الموت ، وأمامهما ثلاثة فناجين قهوة .

لسعته الذكرى قبل أن يبدأ مسيرته المعتادة . حين التقت به سلطانة في شارع القرية . يذكر كانت مبهورة الأنفاس وكان وجهها شاحباً ، تمسك بيده . كاد أن يعانقها . قالت له : لماذا لا تزونا؟ وكأنها تقول : ضمني إليك . عاد إلى البيت ، ونام نوماً ثقيلاً . بلا أحلام ، كهذا النوم ، الذي استيقظ منه منذ دقائق .

لم يستعد الذكرى ولكنه أخذ يعيشها . لهذا السبب تجمد في وقفته ، متكئاً بيده على حافة مائدة الطعام ، وصعدت إليه صورة سلطانة . «مهرجة حقيقية» قال لنفسه ، وهو يغوص في الذكرى ، ورغبة هائلة تنبثق في داخله وحب . كان يستعيد المرأة ـ صورة المرأة ـ عندما كانت مزيجاً من السر المغلق ، والوعد بمتعة رائعة يرافقها خوف . . . عندما لم يكن جريس قد عرف المرأة بعد .

يقرأ ـ الآن ـ في عينيها رغبة واستعداداً لمنح نفسها . لهذا السبب كانت تتحدث بصعوبة . قال : «كنت غريبة ، غريبة جداً في ذلك اليوم يا سلطانة» . كان يخاطب تلك المرأة القاعدة بجواره في حجرة الجلوس ، وترتدي الروب الحريري ، وقد رفعت رأسها باعتداد ، وبرز نهداها منفصلين ، بارزين ، محددين ، وهي تقول : «مسعد تحت رجلي» .

وأخذ يخاطبها ، أيضاً :

ـ «في ذلك اليوم كنت غريبة جداً يا سلطانة . كان وجهك ـ ذلك الشحوب ، ولمعة العينين الضارعتين ، المعلقتين بوجهي . والشفتان اللتان هربت منهما الدماء ـ

مبهظاً بتلك الشهوة المحضة التي لا تعرف الحدود أو القيود ، تلك الشهوة التي تعلن عن نفسها ، صريحة ، خالصة ، لا يعوقها شيء . وخفت ، لأنك لا تمنحينني وعداً ، ولكنك تمنحين نفسك في التو ، في الشارع ؛ في زمان ومكان مستحيلين . وعذاب فمك ، وهو يطلق العبارات المختنقة ، المتقطعة . . . وعندما انصرفت ، وعضلاتك تختلج وراء الثوب ، وجسدك يسير ، وكأنه يقفز ، يرتفع . . . كانَ يبعث برسائلَ مشحونة بمغناطيس ، اتلقى موجات المغناطيس حتى ارتميت كالميت في وسط الدار ، وغرقت في غيبوبة ثقيلة . اصبتني في العمق . بحثت في كل النساء عنك . النساء وهماً كنَّ ، وأنت ، أنت الحقيقة التي لا تتكرر ، الباقية» .

اقتربت منه سلطانةَ حتى كادت تلمسه .

وخاطبها :

ـ خذيني إليك ، عبرت عشرات النساء إليك ، كل امرأة كانت منفية ، ملغاة بك . . أحببت ، وتعذبت ، وعشت خيبة الأمل عَشرات المرات . . . أما آن لي أن أصل ؟ أما حان الوقت لكي تمدي يدك إليّ؟ . . . » .

ثم انمسح كل شيء . وأخذ يسرع بين باب الشقة وباب المطبخ ، لا يفكر بشيء . يصغي بعضلاته وهي تتقلص وترتخي في هذا المشي المتعجل . كان يسرع ، هارباً من انبثاقة جديدة للذاكرة . أنهكته الذاكرة ، وأرجعته إلى لحظة حب ورغبة لا شفاء منها .

خلال ذلك كانت سلطانة تتأهب للرد ، يقاطعها بمزيد من الإسراع . تقول سلطانة :

ـ «ولكنك لم تعد . . » .

ـ مانتي خايفة؟

يسألها .

ـ لا . من إيش ؟

تتمدد على جانبها ، كوعها مغروس في الوسادة ، ووجهها يستقر على كفها ، وهي تنظر إليه ، ممدد على ظهره . لا يجيب ، تمد سبابتها وترسم خطوطاً حول عينيه حول شفتيه وبينها . تقول :

ـ من إيش؟

يقول :

ـ من الناس .

تقول :

ـ ما يهمني حدا .

ـ يعني . . يعني . .

تقول :

ـ مسعد؟

ـ مثلاً .

ـ «ومنحتك ، يا جريس ، جسدي . وانتظرتك . . . » .

جريس يلهث :

ـ «انتظرتني قال . وحكمت؟ والشيخ ؟ لن أغفر لك أبداً دموعك على حكمت . . .

قالت سمحة :

ـ والله يا جريس كنت ميتة ، ميتة العادة .

عندما قتلوا حبيبك» .

ـ وأنت ؟ خضت عشرات النساء نحوي؟» .

كان حواراً مضجراً، لن يؤدي إلى شيء ، وعندما أسكته انبثق القرار : قال : «آن لي أن أعود إلى الأردن . . . إليها . . . » . حاول أن يتأمل الكلمات التي صاغ بها ذلك ، أن ينظر إليه بموضوعية . ولكنه رأى نفسه يدخل حجرة الجلوس . ودون أن يشعل ضوءها تمدد على الكنبة ، وعلى التو استغرق في أحلام اليقظة .

يكون نائماً في سريره . يشعر بقبلتها على فمه . يراها جالسة على حافة السرير ، تنظر إليه ، تهمس :

ـ القهوة .

ـ إديني بوسة الأول .

في الأردن لا يقولون ذلك «أعطيني حُبة قبل هيك؟» . . . المهم . . . سلطانة ، ماذا بك؟ تمايزي ! . . .

في أحلام اليقظة كانت سلطانة امرأة أخرى . ومع كل حلم يقظة كان ينبت وعي : عالمه في الأردن معادٍ لسلطانة . . سمحة ، الشيوعيون، والعائلة . . . لقد نبتت قرون لجريس . .

ولكنه يلغي ذلك ويستغرق في حلم يقظة جديد . في ذلك البيت ـ بيتهما ـ الواسع جداً . يجلس على مكتبه الواسع جداً . وتدخل سلطانة ، تقول بوجه جاد :

ـ قهوة ؟

ولكن الصوت ، والنظرة الجافة لعزة . سلطانة تقول : «قهوة» لا «أهوه»! بتخفيف القاف . يجاهد لأن يستعيد صوتها . لا يستطيع . كل ذكرياته مع سلطانة بلا صوت . يستعيد صوراً ثابتة فقط .

وفي داخله انفجر صوت : عالم الطفولة ، الأردن التي تحلم بها لم تعد موجودة حتى حين كنت فيها . سلطانة ليست آمنة ، ولكنها متعاملة مع إسرائيل ، ومهربة حشيش ، حتى جسدها الحرم امتهنه الشيخ الذي قتل حكمت واستباحها . حتى حين قالت ، بكل ذلك الاعتداد والثقة ، إن مسعد تحت قدميها . . . هل كانت تضرب بسيفها ؟

الإنفعالات المتضاربة في داخله جعلته عاجزاً عن النوم ، أو مواصلة التمشية داخل الشقة ، أو الاستمرار في التمدد وممارسة أحلام اليقظة . كان توتراً محضاً، شعر بأنه مفرغ من الداخل .

٨

لا يدري متى وكيف نام . استيقظ ، وقد كانت عزة تقبّله ، وتهمس :

ـ «القهوة» .

حدث ذلك من قبل . وعانقها . قالت :

ـ حاتخنقني .

ـ حبيبتي .

كل ذلك حدث من قبل.

Abdul Abdo Al Bagl

قالت :

ـ قبل السيجارة والقهوة خد حتة شيكولاته .

وضعت قطعة الشيكولاته في فمه . أحس بدسمها وهي تذوب في فمه، قال :

ـ عزة ، أنت أروع وأجمل هبلة في التاريخ المعاصر .

ـ مرسي .

ـ أعظم هبلة وعبيطة في الشرقين الأوسط والأدنى .

كانت تعرف إنه يتكلم هكذا عندما يكون عاشقاً . قالت :

ـ مرسي .

ـ بدال مرسي ، مرسي ، بوسيني .

قالت :

ـ القهوة .

أخذ يشرب القهوة ببطء ، ودخّن سيجارتين معها . كانت عزة تجلس على طرف السرير ، طاوية ذراعيها المتصالبتين على صدرها ، ورأسها محني قليلاً . لم تكن مستغرقة في التفكير ، بل حدس أنها ، على نحو ما ، ألقت سؤالها ، وتجلس منتظرة الإجابة عليه . قال :

ـ ما عملتيش إلك قهوة ؟

قالت ، وهي تمد سبابتها ، وذراعها كلها ، نحو فنجانها الموضوع على الطرف البعيد من الكومودينو :

ـ شربت .

قالت ذلك بهدوء شديد وصمتت محنية الرأس وكأنها تقول : لنعد إلى موضوعنا . قال ، دون تدبر :

ـ عرفت الجواب على سؤالك : ليش ما رجعت للأردن ؟

ابتسمت : لقد تكلم باللهجة الأردنية . قالت :

ـ نسيت اللهجة المصرية؟

ولكنها لم تفقد هدوءها . ما زالت تنتظر الجواب على سؤال لم تطرحه بوضوح . ماذا يقول ؟

كان بإمكانه أن يقول لها إن المسألة خاصة بتقنية الكتابة الروائية . وهي كذلك بالفعل ، في وجه من وجوهها . فأن يكون للروائي مثل هذه العلاقة بإحدى شخصياته الروائية يعني أنه لا يستطيع أن يصورها بشكل موضوعي ، وبالتالي ، فالعمل الروائي سيخضع لغنائية تدمر وحدته ، وقدرته على الإقناع .

يستطيع أن يقول لها ذلك ، وسوف تقتنع ، أو ستتظاهر بالاقتناع . فمن العيب على المثقف ألا ينحني إجلالاً لمصطلحات مثل التقنية الروائية . ولكنها ، في أعماقها ، سوف تعلم أنه يخدعها . فذلك النفور الذي أبداه نحوها بالأمس ، وذلك الاستغراق في صورة امرأة أخرى ، هي خيانة ، وإن انتهت الآن ، فلسوف تكمن في داخلها كجرح ينفتح كلما استعادت ذكراه .

قالت :

ـ سلطانة ؟

أي سؤال هو هذا؟ قرّر أن يحكي لها الحلم الذي رآه ، وأن يجعله مضحكاً . حكى لها عن ذلك الأتوبيس الذي يتوقف عندما يدق الراكب جرساً . كان وجهها جاداً . قالت :

ـ أوتوبيس . . .

كيف نسي ذلك؟ إنه بالفعل أتوبيس يعمل على خط مصر الجديدة ـ الجيزة ، من تلك الأتوبيسات الجديدة ، السريعة ، التي تقف على المحطات الرئيسية ، والذي يطلقون عليه اسم (الطوالي) .

استمر يحكي لها الحلم . لم تكن تضحك ، كان هو يزداد غضباً كلما تَذكر تلك الفتاة التي قالت : «إنه يدق جرس عصرنا» . قال :

ـ كانت سخيفة بشكل . .

قالت :

ـ زعلان للدرجة دي منها ؟

ـ أيوه .

قالت :

ـ بس دا كان حلم .

قال :

ـ عارفة مين كانت الأخت دي؟

قالت :

ـ أنا ؟

كانت خائفة بالفعل . قال :

ـ لا ، حبيبتي . كانت سلطانة .

أغرقت عزة في الضحك . بعد قليل شاركها في ضحك استغرق فيه الاثنان حتى سالت دموعهما . قالت :

ـ مش معقول .

واستمرت تضحك .

قال جريس لنفسه : ليت سمحة كانت معنا ، لتشاركنا هذا الضحك .

ويتذكر جريس في تلك اللحظة سمحة وهي تريه الصورة ، قالت :

ـ هذه صورة الشيخ .

قال بفزع حقيقي :

ـ الشيخ ؟

وأخذ يتأمله . كان يستولي على ثلاثة أرباع الصورة بشعره القصير ، ورأسه الضخم ، ولغده الهائل ، وذلك الكرش الذي يستقر على فخذيه . كان جالساً على كنبة ، وسلطانة تقف بجوار الكنبة نحيلة ، مستقيمة ، تضع يدها اليسرى على كتفه الأيمن . كانت تبتسم .

قال لسمحة :

ـ إن بلزاك شاب رقيق بالمقارنة .

قالت :

ـ لو شفته على الطبيعة . . .

ـ أكثر من هيك ؟

قالت بالعربية الفصحى :

Abu Abdo Al Bagl

ـ حيوان حقيقي .

قال :

ـ لكن . . .

نظرت إليه سمحة وضحكت . قالت :

ـ اسكت .

قال :

ـ عارفة إيش كنت رايح أقول ؟

قالت وقد تورد وجهها :

ـ كيف . في السرير يعني . . .

هذا بالفعل ما خطر له : كيف تحتمل هذا الوزن فوقها في السرير؟

يخطر له ، الآن ، أن امرأة تتمدد تحت هذه الكتلة الهائلة لن تكون سلطانة التي بناها في خياله ، امرأة تمنح نفسها لمن تحب ، أو لمن ترغب فيه . أصبحت مومساً تبيع جسدها لتثري .

قال جريس :

ـ حكيت لك عن الشيخ ؟

ـ لا .

قال :

ـ وزنه حوالي ميتين كيلو .

قالت عزة :

ـ مش فاهمة ؟ ماله؟

Abu Abdo Al Bagl

١

ترى حجرتها في المرآة. تبدو غريبة في المرآة. تبدو أكثر فخامة ، ولكنها ليست حجرتها . حجرة فخمة في فندق فخم .

تتأمل وجهها . كل يوم تتوقع أن ترى سنها مكتوباً على وجهها ، في شعرها ، ولكن الوجه الصبوح والشعر الكستنائي يطالعانها .

تقول أميرة: تلاتين يا ماما ؟

أقول : والا قديش ؟

نظرة تحذير في وجه حكمت ، إشارة خفية لأميرة .

ـ إذا كان عمري ، أنا بنتك ، ستة وعشرين سنة .

أرى وجه حكمت في المرآة يحمر ، يقول :

ـ سلطانة أختك مش أمك .

التفتت إليه بغضب :

ـ الله يجبر في خاطرك .

كأنني عمياء لا أرى ولا أعرف ما بينهما . «ولك ، مع جوز أمك؟» تقول :

ـ إلك جوز غير أبوي؟

يوتوتان. العجوز عرفت إن بيننا علاقة يا أميرة . «وقفتها عند حدها» تقول أميرة .

ورغم مقتل حكمت ، وأميرة قد عادت إليها ، فإن الألفة بين الاثنين ، ذلك التفاهم الضمني على كل شيء ، تلك الجبهة التي يكوّنانها كلما اجتمع الثلاثة ، ما زالت حتى الآن تثير جنونها .

Abu Abdo Al Bagl

على باب حجرتها تقول :

ـ الليلة بدي أنام وحدي .

تلك العينان الزرقاوان ، زرقتهما فاتحة تكاد تمتزج ببياض ، تلك العينان البلهاوان، كأنهما عينا طفل ، بدا فيهما الخوف . تقول بحزم :

ـ الأم وبنتها ؟ مابدي تدخل أوضة أميرة .

انتفخ أنفه الدقيق وأخذ يعرق . تفاحة آدم تصعد وتهبط في عنقه الطويل، ترى أميرة في المرآة حاملة صينية القهوة ، وفي فمها سيجارة . تلتفت إليها :

ـ الدخان على الصبح .

ـ صباح الخير يمه . نمتِ منيح ؟

تضحك أميرة وتقول :

ـ صابحة مثل الوردة .

ـ إحسديني ياختي .

يبدو الذهول على وجه أميرة . تضحك سلطانة :

ـ بمزح معاك يا حبيبتي .

تدخنان وتحتسيان القهوة في صمت . قالت سلطانة :

ـ في إيش بتفكري ؟

قالت أميرة :

ـ أنا بكبر وأنت بتزغري .

تميل على أمها وتقول وهي تريها شعرها :

ـ لدّي . فيه شيب في شعري . شايفة؟

تلومني كأنني السبب . أعرف ما تقوله لنفسها : «ما دمت حية فسوف تظل قادرة على خطف عشاقي مني» .

ـ أنت اليوم مش طبيعية يا أميرة .

ـ حلمت حلم غريب . شفت حكمت في الحلم .

وتخرج .

نفس الغضب كان في وجهها عندما قالت لها كيف تكونين تحت هذا الغول ؟ فيه واحدة تكلم أمها هكذا ؟ هذا الغول بعد حكمت؟ وهل تركت لي حكمت؟ «فيه واحدة بتكلم بنتها هيك؟» وتقول ، وتتنهد «مسكين عمي مسعَد» وهل تعرف شيئاً عن مسعد ؟

تتمدد في السرير وتغطي وجهها .

وجه الشيخ يبدو كبيراً ، كثيفاً بالشعر . ينصت ويلهث . مسعد تقول ؛ يلهث الشيخ :

ـ بضايقك؟ بدبره .

أمسكت ملقط الشعر وأخذت تنزع الشعرات النابتة في أنفه . يئن :

ـ أي .

كانا عائدين من الشاطئ ؛ يلهث ويتصبب عرقاً . في الطرف الآخر أضواء ايلات . مسعد؟ ما قلت إلك؟ ويغرق في الضحك . إيش ؟ قول ! رايحة تشوفي بعينك . هنالك أغنية ، تاراراتم . . . شفت بعيني ماحدش قال لي .

تبعد الغطاء عن وجهها وتشعل سيجارة .

هذه البنت تكرهني . منذ تلك الليلة . سأنام وحدي ، قلت له ، ودخلت الحجرة . كان السرير فارغاً ؛ لم استطع النوم . هبطت من السرير . سأقول له : تعال نام جنبي ولكن لا تلمسني . ضوء حجرته ما زال مشتعلاً . دفعت الباب ودخلت . كانا عاريين . عيناه شاخصتان كأن لقمة تقف في حلقه . غطته أميرة بالشرشف ، ووقفت أمامي عارية . قالت :

ـ أنا دخلت عليه .

غطّي حالك . قلت لها . ألا يقول شيئاً ؟ كان يخفي رأسه وجسده في الشرشف . وأميرة تقول بشراسة :

ـ أنا الغلطانة . كلميني أنا .

ـ غطّي حالك . بدي أكلمه كلمة .

ـ كلميني أنا .

قلت :

ـ أنا سلطانة يا حكمت .

قالت :

ـ سلطانة ، سلطانة ، إيش يعني سلطانة!

كان للصفعة على وجهها رنين . رأيت بقعة حمراء على خدها الأيسر . خرجت . تتذكر ، مندهشة ، إنها لم تستطع النوم تلك الليلة . كانت تصغي ، تصغي حتى أنها كادت تختنق وهي تحبس أنفاسها ، تريد أن تسمع صوت باب أميرة يفتح ، ويخرج منه حكمت . كانت تريد مواجهة أخيرة معه . ودت لو تستطيع النوم ، ثم تصحو وتجده بجوارها .

هل سمعت صرخة؟ خرجت من الحجرة حافية . سارت إلى باب حجرة أميرة . وضعت أذنها على الباب . لا تسمع شيئاً . تسمع صوت حكمت يهمس . تضحك أميرة . تتكلم أميرة . صوتها هادئ ، رائق . «ماذا لو رآني أحد!» تعود إلى حجرتها لاهثة .

٢

عندما دخلت حجرة مسعد كانت مضاءة . كان ممدداً على ظهره . مستغرقاً في النوم . فمه مفتوح قليلاً . لحيته لم تحلق منذ أيام . الشعرات البيض فيها تبرق في النور .

ـ مسعد ، مسعد .

ـ هاه .

وهو نائم .

ـ اصحى ، اصحى .

هي تمسك باستدارة كتفه .

حجرة الشيخ أيضاً . كان الشيخ يأكل دجاجاً ويلهث . دخلت وتبعها مسعد . أشار بيده إلى الباب . وقال لمسعد :

ـ انت انقلع .

Abu Abdo Al Bagl

قالت سلطانة :

ـ لا خلّيه .

ما قالته للشيخ كان من وحي اللحظة : حكمت وصلته بالوزير ، وكيف يعد لهم مكيدة . لقد حكى لأميرة كل شيء . قال الشيخ :

ـ بدبره . خليك أنت يا مسعد .

خرجت .

داهمها نوم ثقيل لم تستيقظ إلا عند العصر . أسرعت إلى الشاطئ . كان القارب البخاري يستعد للإقلاع . كان الشيخ يقف قرب المركب . عندما رآها ابتسم :

ـ سلطانة :

قالت :

ـ عديت الحجار ؟

وهي تنظر بقوة في عينه . قال وهو يبتسم :

ـ كل شي محسوب حسابه .

مسعد يطالعها بنظرة بيضاء فارغة . كان خائفا . تعرف أنه كان خائفاً . حكمت كان يتجنب نظراتها . نادته ، وعندما اقترب كانت عيناه فارغتين . وقف محتاراً . قالت :

ـ قرب .

أمسكت وجهه بين كفيها ونظرت في عينيه . قبلته على خده . قالت :

ـ ما حلقت لحيتك اليوم .

كان الشيخ ينظر بحدة إليها . قالت لحكمت :

ـ دير بالك على نفسك .

كان يحاول أن يقول شيئاً . تفاحة آدم تصعد وتهبط في عنقه الطويل . ولكن الكلام لا يخرج من فمه . قالت :

ـ ليش ساكت؟

وألحت :

ـ انخرست؟

كانت الدموع تتجمع في عينيه . قال بصوت كالفحيح :

ـ بحبك انت .

شعرت برغبَة في الهرب . قبلته ، وانصرفت . كان الشيخ ومسعد ينظران إليها بدهشة . انفجر الشيخ ضاحكاً وقال :

ـ حنيّنة يا سلطانة .

وأمسك كوعها .

استدارت وأخذت تنظر إلى المركب المبتعد . كانت الشمس تهبط في الأفق ، والماء له لون الصدأ . كان وجه الشيخ كبيراً ، صامتاً . بدا لها حزيناً وهو يطالع القارب يذوب في عتمة الماء . عيناها تتابعان كثافة معتمة ، غير محددة . عندما أضاء القارب اكتشفت أنه لم يكن تلك الكتلة السوداء التي تتابعها . تقلص وجه الشيخ وقال :

الله يسبعكوا .

نظرت إليه سلطانة . كان وجهه غاضباً . قالت :

ـ علامك ؟

قال :

ـ عيني عينك يخشوا إيلات .

قالت :

ـ ما حدا فاطن .

نظر إليها بحدة . تكرمش أنفه وهو يرمقها غاضباً . تذكرت إنها هي التي قالت إن هنالك من يتابعون حركاتهم . قالت :

ـ يا للّه نعاود . الدنيا ليّلت .

كانت خائفة . الشيخ كان يعرف أنها تكذب ، قالت لنفسها . وسار بجوارها ، كتلة لاهثة ، هائلة الحجم . مالت نحوه ـ كان قصيراً ، رأسه يحاذي كتفها ـ وبحثت عن بقعة في وجهه خالية من الشعر ، فقبّلته في تلك المساحة الواقعة بين وجنتيه و . . . ابتلت شفتاها بالعرق ، وأحسّت بمعدتها تتقلص ، وأمسكت نفسها . كانت على وشك التقيؤ . مسحت شفتيها بظاهر كفها .

Abu Abdo Al Bagl

كانت تعلم أن تلك كانت لحظة سقوطها . لقد انتقم منها حكمت قبل أن يُقتل . سارت بجواره وهي تدرك أنها ستدفع الثمن طيلة حياتها . لقد تظاهر الشيخ بتصديقها ، ثم كشف أوراقه ـ وأوراقها ـ مرة واحدة .

تمد سلطانة يدها وتشعل السيجارة . ترى نفسها في المرآة ، وهي تمد يدها ، تشعل السيجارة . تخرج الدخان من أنفها لترى نفسها تفعل ذلك في المرآة . تطالع وجهها وجسدها في المرآة . من خلال إعجابها بجسدها تستثار الرغبة لتشيع في جسدها كالدفء . تحس بجسدها مفرغاً ، بحاجة إلى جسد آخر يملؤه ، وتحس بجسدها كموضوع رغبة . تمد ذراعها إلى التليفون . تتوقف الرغبة بمجرد أن تلمسه . تطفئ السيجارة وتحلم .

لم يكن الشيخ كما توقعت . فاجأها بعريه . لم تكن تتوقع ذلك ؟ليس ذلك بالضبط . ولكنها شعرت أن كل ما تم ، منذ أن دخلت هي ومسعد حجرة الشيخ ، ليلة الأمس ، حتى الآن ، كان أشبه بالحلم . كأنه يحدث لامرأة أخرى . وإنها ، الآن ، استيقظت . خطر لها ، للوهلة الأولى ، أن تغادر الحجرة هاربة . ولكنها كانت تعلم أنها هي التي اختارت هذا الموقف ، اختارت هذه الكتلة الهائلة من اللحم ، اختارتها عارية مبلولة ، ذات رائحة حرّيفة ، ولا تستطيع أن تتراجع .

كان يبتسم مرتبكاً . قال وكأنه يتساءل بأدب :

ـ تشلحي .

نهضت وأمسكت يده . قالت بوجه جاد :

ـ تعال .

ضحك ، وقال :

ـ وين ؟

قالت :

ـ نتحمم .

كان الرجل مستسلماً لها . منحها ثقة بالذات ورغبة في الإيذاء . قالت بحسم :

ـ يالله . قدامي .

ضحك ، وقال بلهجة رخوة ، مستسلمة :

ـ والله تحممت .

قالت بعنف لم تقصده :

ـ قدامي بقول لك .

وسار أمامها يترجرج ككتلة من الجيلي . خطر لها ، وهي تتأمله ، أن هذا الجسد هو جسد امرأة سمينة جداً ، وقبيحة جداً . الجزء الأسفل من الساق نحيل ، وعجيزة هائلة . وكان له خصر . وهذه الأثداء ، ثديا امرأة يستقران على كرش هائل .

فركت جسده بالليفة . فعلت ذلك بعنف . أحست بعضلات ذراعها تؤلمها ، ولكنها لم تستطع أن تتوقف . كان يتأوه :

ـ آخ بتوجعيني ياخيه .

لطمته بقبضة يدها بين عظمتي كتفيه وقالت :

ـ بطّل وحوحة !

انغرست قبضتها في كتلة اسفنجية أغرتها بأن تعاود الكرة ، وتلطمه في نفس الموضع المرة بعد المرة . لم تستطع أن تتوقف ، والشيخ يتلقى ضرباتها بضحكات قصيرة وأنين متصل ، تتخلله ضراعة أن تتوقف . لم تستطع أن تتوقف . فتماسكا وتعاركا وانتهيا إلى عملية جنسية كاملة مارساها فوق أرض الحمام .

شعرت وكأنها تمارس الجنس لأول مرة في حياتها . قبل ذلك ، كانت ممارسة الجنس امتداداً لحنان يملأ قلبها ، يتحول عند نقطة محددة إلى رغبة ، كأن ذلك الحنان تكثّف وازداد حدة . وعندما ينتهيان، تراه ممدداً بجوارها، مغمض العينين ، كان الحنان يتحول إلى شفقة فتشعر برغبة في البكاء، أمومة نادرة غريبة تجتاحها فتشعر كأن يداً رقيقة ، ناعمة ، تداعب برقة احشاءها وقلبها . تلك الحركة في داخلها تصعد إلى حلقها توقاً إلى البكاء. ذلك الولد؟ ما اسمه؟ جريس؟ قال لها إنه لن يذهب إلى الجامعة ، لن يبتعد ، سيتزوجها . كان له وجه يجعلها ترغب في الكباء والضحك معاً. عندما تتذكره الآن تشعر برغبة في الضحك .

قال سأتزوجك ، قال ذلك وكأنه سيد الموقف ، ما عليه إلاّ أن يعلن عن إرادته حتى ينحني الآخرون . يتكلم كالرجال ولحيته لم تنبت بعد. في تلك اللحظة شعرت برغبة في الضحك ، ولكنها وهي تصعد من أحشائها تحولت إلى دموع في عينيها .

تستعيد في فمها طعم اللحم؛ مزيج من ملوحة العرق ، وصنة الجسد العرقان ، والدم ، فتجتاحها الرغبة كلطمة مفاجئة . تستعيد أسنانها ذلك الملمس وهي تغوص في لحم الكتف ، تكاد ، الآن ، تستعيد صرخته واختلاجة جسده . كانت تشتعل كلها . سمعته يقول :

ـ موّتيني!

وتتحول تلك الكتلة الهلامية إلى عنف . وعندما انتهيا رأت فوق كتفه تلك الجروح الصغيرة تكوّن شكلاً بيضاوياً . نهضت وسارت إلى الحمام . كانت تختنق برغبتها في التقيؤ . كانت في تلك الليلة ترسي أسساً لممارسات المستقبل : العنف ، الدم ، التقيؤ ، ثم استعادة الرغبة من خلال العنف .

يأتيها صوت أميرة قريباً :

ـ مابدك تقومي يا ست الستات ؟

مجنونة هذه البنت والله . حنونة ومجنونة ، كما يقول المثل . تقول سلطانة :

ـ قديش الساعة يا حبيبتي ؟

ـ تسعة ونص .

ـ معقولة ؟

تقول أميرة :

ـ من الصبح قهوة وسكاير . قومي افطري .

تشعر بأميرة تجلس على طرف السرير . مدت يدها وجذبت الشرشف عن وجه أمها ، وقالت :

ـ قومي يا أختي .

أمسكت سلطانة يدها وقبّلتها ، وقالت :

ـ حنونة ومجنونة .

انحنت عليها أميرة وقبّلت شفتيها . قالت :

ـ انت زعلانة مني ؟

وتمددَت بجوارها وضمتها . قالت :

ـ لو كنت زلِة . . .

فقاطعتها سلطانة ضاحكة :

ـ يا بياختك ياختي .

قالت أميرة :

ـ شوفوا وجهها صار أحمر .

وتضحك .

أخفت سلطانة وجهها في صدر ابنتها . هذه البنت تفتقد اللياقة . تجرحها وهي تضحك . تقول :

ـ بعدكي زعلانة مني؟

ـ أنا ما بزعل منك .

٣

انتهت سلطانة من الإفطار .

ـ ارحمي نفسك .

قالت لأميرة . لا فائدة . سوف تظل على نهمها حتى تصبح كالفيلة . مثل الشيخ .

قال : بندبره . السرير يدعوها إليه بإغواء . تعبت من الناس . من الخروج ، من الرغبة في عيون الرجال ، الرغبة المهذبة في عيونهم ، ويصبحون كلهم متشابهين . تعبت من احتقار النساء ، ذلك التهذيب البارد .

ـ قاعدة؟

ـ تعبانة يا أميرة ؟

ـ تعبانة من الكسل . اطلعي شمي شوية هوا .

ـ يمكن اطلع بعد شويه . طالعة؟

كانت أميرة ترتدي تنورة فوق الركبة . تجيد العهر . تجلس ، ركبتاها منفرجتان، تتسلل نظرات الرجال بين الفخذين ، لتستغرق في عتمة النهاية . يصبحون نصف مجانين ، يتنارعهم الخوف والرغبة .

Abu Abdo Al Bagl

تقول بجرس صوتها الشاكي ، المنغم :

ـ فسطانك قصير يا أميرة .

رغم أن رد فعل البنت متوقع . تنظر إليها ضاحكة ، وتعبير بذيء يطل من وجهها وتقول :

ـ اللي بسمعك بقول عنك حجّية .

وتستقر كلماتها كالطعنة في قلب الأم . وتخرج ، فتتنفس سلطانة بعمق . كابوس زال عن صدرها . كلهم إلا أنا . حجّية علي بس! يهددها . بأي شيء يهددها؟ هو القاتل . مسعد متعبني . تقول للشيخ .

ـ مسعد؟

يقول . جلس على الأرض أمامها ، وضع ذقنه على ركبتيها وأخذ يبوح برغبته . رفسته فانقلب على ظهره .

قالت :

ـ بهددني .

قال الشيخ :

ـ بندبره .

بعد أيام سألته :

ـ ومسعد ؟

قال :

ـ ما عرفتي؟

ـ لا .

ـ دبرناه .

ـ كيف ؟

ضحك وقال :

ـ اسألي عليّان .

ـ بسألك أنت .

همس في أذنها :

ـ سوّيناه مرة مثلك .

مسعد؟ نظرت إلىَ المخيم الصغير ، إلى الصحراء المحيطة به ، إلى البحر يلمع بوهج معمٍ ، وكأنها ترى ذلك للمرة الأولى . كان الشيخ يقهقه :

ـ أنتِ واياه خوات .

قالت بغضب :

ـ أسكت .

نظر إليها الشيخ وقال :

ـ يا سبحان الله . صار وجهها أصفر .

تنهض متثاقلة ، مرهقة «صرت عجوزاً» . ياختي أنت يتزغري وأنا بكبر . تتجه إلى حجرة النوم «سيقتلني هذا النوم» وتتمدد على السرير . «تركنا القرية يا مسعد تنصير أغنياء ومحترمين . فماذا أصبحت يا مسعد؟ زوجة عليّان ؟ لماذا لم نبق في القرية؟ دموع تسيل ، تنساب في تجاعيد وجهه «وأنت يا سلطانة؟ دماء في رقبتك . . . لا ، لا ، يا مسعد . . . الموت ، ولا حياة الذل . زوجةَ عليّان تصير؟ . . .» .

فلأفكر في شيء آخر، قالت لنفسها .

٤

عادت إلى البيت في الثامنة مساء . لم تكن أميرة قد عادت بعد . كان البيت خالياً وكبيراً . أرهقتها الوجوه الكثيرة التي رأتها . لم تكن بحاجة إلى مجهود كبير لتسيير الأعمال . عندما تصل إلى حد معين من الثراء، وعندما تخلّف لدى الآخرين انطباعاً بالحذق والقسوة فإن كل شيء يسير من تلقاء نفسه . والنقود تأتي وحدها . تزور إنساناً لمجرد أنها لم تره منذ فترة طويلة . تجد أنها خرجت بمكاسب نقدية . يراها الناس فيعتقدون أنها تريد شيئاً . يبحثون عما يمكن أن تريده منهم، فيقدمون خدماتهم دون أن تطلب منهم ذلك أو تتوقعه .

لا أحد من هؤلاء يعاملها كامرأة جميلة ومشتهاة، الكل يفكر أنها بلا عواطف

ولا رغبات ، ويتصور أنها قادرة على الإيذاء . يتصورون أنها تملك قوة تستطيع أن تسحق بها من يقف في وجهها .

أن تقضي يومها في مقابلة أناس كهؤلاء ، وأن تقضيه في تحصيل مكاسب لم تتوقع أن تكون بهذا الحجم، يجعلها عاجزة عن تحديد مشاعرها : هل هي سعيدة أم لا؟ هل هي راضية عن نفسها أم لا؟ تشعر فقط أنها مرهقة، وأن العدد الكبير من فناجين القهوة التي شربتها، والسجاير التي دخنتها خلّف إحساساً بالغثيان ، وشعوراً بالذنب .

تدخل الحمام لتغسل هذه المشاعر ، لتستعيد إحساساً بطزاجة الأشياء . الماء الدافئ يجعلها تشعر بذلك . وعندما يسيل الماء على جسدها الذي يغطيه الصابون كانت تحس بالصابون السائل مشبعاً بالعرق والتراب والغثيان . وحين يصبح جسدها نظيفاً ناعماً، يزول إحساسها بالذنب .

الإحساس بالطزاجة يقترن برائحة عطر الليمون ، وبالرغبة في ضم جسد سيف الدين :

جلست في حجرة نومها تجفف شعرها . دق جرس التليفون . ودت ألاّ يكون سيف الدين . تحب أن تستعيده كحلم يقظة أكثر من رغبتها في حضوره . ترفع السماعة . كان هو، قالت :

ـ تعال بسرعة ، بسرعة .

قال :

ـ بسرعة؟ بسرعة؟

وأعادت السماعة إلى مكانها . لم تكن تحب أن تطيل معه الحديث في التليفون ، أو عموماً . كان يرهقها بخوفه، وبتكراره : هل ضجرت مني؟ أمشي ؟ كما كان يضحك لكل كلمة تقولها . يضحك ضحكة صغيرة عصبية، ثم يخرج صوتاً من أنفه . في السرير كان مختلفاً . كان شاباً ولا يرتوي .

٥

بعد انصراف سيف الدين بقليل جاءت أميرة . قالت :

ـ وأنا داخلة لقيت البوي فرند طالع .

تضحك أميرة ، وتضيف :

ـ كان بده يهرب مني .

كانت سلطانة منكسة الرأس ، تتحاشى أن تلتقي عيناها بعيني ابنتها . مدت أميرة رأسها وقالت :

ـ لدي عليي . مستحية؟

كانت البنت تقهرها . منذ حادثة حكمت وهي تعاملها بهذه الفظاظة . حتى حادثة حكمت تبدلت لتصبح حكاية مختلفة . لقد كان حكمت ، تقول أميرة ، خطيبها . فحاولت أمها أن تخطفه منها ولما فشلت دبرت قتله . جعلت عمها مسعد يقوم بذلك . لم تكن تحب هذه السيرة ، فأخذت أميرة تصوغها على مزاجها .

جلست أميرة بجوارها وقالت :

ـ لطيف الشاب .

كانت رائحة الوسكي تفوح من فمها . ما زال في قلبها تلك الخشية الريفية من الخمر . ولكنها تجيب على سؤالها : لن يحدث أكثر مما هو حادث الآن . قالت أميرة :

ـ ليش ما بتردي عليي؟

قالت سلطانة :

ـ ارد على إيش ؟

ـ بقول سيف شاب لطيف .

ـ عجبك ؟

تقهقه أميرة :

ـ خايفة ؟ عندي غيره يامدام . وإذا بدك . . .

نظرت إليها سلطانة وقالت :

ـ انت سكرانة .

فقالت أميرة بعربدة :

ـ أهلين حجية . كنت بتصلي انت وسيف الدين؟

نهضت سلطانة وقالت بحدة :

ـ ربنا أرسلك تشقيني .

جذبتها إليها أميرة وقالت :

ـ ماما . أنا مبسوطة . وما بدي ازعلّك .

تستطيع هذه البنت أن تلعب بها ، كأنها طفلة . قالت سلطانة :

ـ ولا أنا يا حبيبتي .

جلستا متعانقتين .

قالت أميرة فجأة :

ـ بيه نسيت .

ـ خير؟

ـ البوي فرند ، معشوقك إجا .

ـ ما انت بتقولي شفتيه . . .

قاطعتها أميرة :

ـ لا البوي فرند الثاني . أبوي

نظرت سلطانة إلى وجه ابنتها لتتأكد إن كانت جادة فقالت أميرة :

ـ مسعد شافه .

ـ وإيش بده ؟

ـ مصاري .

ـ ليش ما إجا ؟

تقلص وجه أميرة وقالت :

ـ خلّيت مسعد يسكّنه في أوتيل فلسطين . قلت لمهعد يقول له ماما مسافرة ، وبترجع بكره .

ـ ليس عملت هيك؟

ـ رايح يملا الدَار قمل .

تنهدت سلطانة ولم تقل شيئاً . قالت أميرة :

Abu Abdo Al Bagl

ـ إيش جايبه؟ مصاريه بتصل له .

كانت أميرة تشعر بالذنب فمضت في شكواها . لم تكن سلطانة تصغي إليها . حين هدأ صوت أميرة في أذنها قالت :

ـ نفسي يا أميرة أسافر .

ـ ومين سامعك . اطش . ابعد .

ـ أسافر وأعيش على شط بحر . في كوخ زغير . أعيش طول عمري فيه .

قالت أميرة بوجه محتج :

ـ من حالك؟

ـ من حالي .

قرصتها في كتفها وقالت :

ـ من حالك ، من حالك ؟

ـ من حالي من حالي . أنا والطبيعة و . . .

قالت أميرة :

ـ أنا بكمل عنك . الطبيعة وسيف الدين . . .

احمر وجه سلطَانة . قالت :

ـ ولا واحد من الناس اللي هون .

ـ وسيف الدين؟

ـ ولا واحد ؟

اقتربت أميرة بوجهها منها وقالت :

ـ والكذابة تروح النار ؟

قالت سلطانة :

ـ رايحة النار ، رايحة النار .

ـ وليش وجهك صار أحمر ؟

دفعتها سلطانة بقوة :

ـ من غير بياخة ولك .

دق جرس التليفون . رفعت أميرة سماعة التليفون قالت :

ـ هالو . . .

ثم بلهجة محايدة :

ـ أهلاً .

ثم مدت السماعة إلى أمها بوجه ثقيل جهم، وقالت :

ـ سمحة .

كانت أميرة تراقب وجه أمها وهي تتكلم بالتليفون والغيرة تنهشها . هذا الفرح الذي يشيع في وجه سلطانة كلما التقت بسمحة كان يملؤها بغضب حقيقي ، لأنه دليل تواطؤ مع إنسانة تبادلها الكراهية . كما كانت ترى في الحب الذي تكنّه أمها لسمحة نوعاً من إهانة الذات . وإلا فما معنى هذا الإلحاح على قرابة ، إن صحت ، جاءت نتيجة لعلاقة غير شرعية؟

كانت سلطانة تقول إنها سوف تأتي في الحال ، بعد دقائق سوف تكون عندها . فقالت أميرة بحدة :

ـ فيه حدا بزور حدا الساعة عشرة في الليل ؟

وسواء كان تأجيل الزيارة إلى صباح اليوم بسبب غضب أميرة، أولشيء قالته سمحة ، فإن المكالمة استمرت طويلاً ، ووجه سلطانة يزداد تألقاً . عندما انهت سلطانة المكالمة ، وهي ما زالت مستغرقة في سعادة احتفالية، قالت أميرة :

ـ انت بتذلي حالك .

وأدارت وجهها إلى الجانب الآخر بعيداً عن أمها . كان تنفسها ثقيلاً . قالت سلطانة :

ـ بذل حالي ؟

مرت فترة صمت . ثم قالت أميرة :

ـ ما كان ناقص عليك غير تبوسي التليفون .

قالت سلطانة :

ـ أنا متحيرة مع هالبنت .

عندما تتكلم سلطانة عن أميرة بضمير الغائب كانت أميرة تدرك أن أمها غاضبة .

Abu Abdo Al Bagl

قالت :

ـ متحيّرة؟ تحيّري .

قالت سلطانة :

ـ سمحة كلمتني بتقول إنه أبوك نايم عندهم . كله من عمايلك (وأخذت تقلّد صوت أميرة بتخشين صوتها وتعبير وَجهها برسم تكشيرة هزلية عليه) أمي مسافرة ومش رايحة تيجي إلا بكره ، وقلت لعمي مسعد يسكّنه في أوتيل فلسطين .

ـ وإيش وداه بيت سمحة؟

ـ كلمها بالتليفون من الأوتيل فنزل جوزها وجابه .

اندفعت أميرة تزعق . اتهمت سمحة وزوجها إنهما فعلا ذلك بقصد التشهير والإحراج . نهضت سلطانة وقالت :

ـ أنا داخلة أنام .

فأخذت أميرة تزعق خلفها :

ـ هذا اللي شاطره فيه . أنا داخلة أنام . أنا داخلة أنام. وكل الزعلة لأني قلت كلمة حق عن سيدة الحسن . . .

دخلت سلطانة حجرة نومها، وأغلقت الباب خلفها . كانت ترتعش من الغضب. انفتح باب حجرة النوم وأطل رأس أميرة . كان رأسها وعنقها الطويل وكتفاها ينحنيان ، وهي تزعق :

ـ ليش ما قلت للشرموطة هيه اللي تجيبه بكره ، والا بيجي من حاله. غير تروحي له انت يعني؟

قَالت سلطانة بصوت هادئ ، مشحون بالغضب :

ـ سمحة الشرموطة ؟

ـ انت وهيه . . .

ثم أصَبح كلامها غيرمفهوم . تحوّل إلى صراخ متشنج ، ثم أخذت تجذب شعرها، وتلطم خديها. تصاعد ذلك حتى سقطت على الأرض. نهضت سلطانة ملهوفة وسحبت أميرة إلى السرير وتمددت بجوارها . كانت أميرة في حالة إغماء . أخذت سلطانة تمسح العرق عن وجهها بالفوطة، واللعاب الذي تجمع على زاويتي

فمها . ثم تناولت زجاجة كولونيا ، سكبت منه في كفها وبللت به وجه ابنتها ، ثم وضعت فتحة الزجاجة قرب أنف أميرة . جذبت نفساً عميقاً ، وفتحت عينين صارمتين ، ثم أغمضتهما بعناد .

همست سلطانة :

ـ أميرة ، حبيبتي أميرة .

سرى تحت جلد الوجه تيار صاعد حتى العينين ، ولكنها لم تفتح عينيها ولم تقل شيئاً . قالت سلطانة :

ـ أجيب الِك دكتور؟

رفعت أميرة حاجبيها إلى أعلى معلنة الرفض . قالت سلطانة :

ـ يقطعني .

وأخذت دموعها تسيل . فتحت أميرة عينيها ، نظرت في وجه أمها ، فاستدارت بجسدها . وضعت رأسها في صدر أمها ، وأخذت تبكي .

قالت سلطانة :

ـ بكفّي يا بنتي ، بكفّي .

واستمرت تبكي . قالت :

ـ بكفّي يا حبيبتي . . .

فقالت أميرة بصوت مختنق :

ـ البكا بريّحني يمه .

٦

كان النوم بعيداً . لم تكن أميرة في نومها تكف عن الحركة . لم يذلّها أحد كما أذلتها هذه البنت ، ولم يكن أحد يخيفها مثلها . لم يكن الحب هو الذي يحرك عواطفها نحو بنتها ، بل الشفقة . رأتها تندفع نحو شيخوخة مبكرة ، لا أحد يحميها ، وليست عندها معرفة كيف تأتي النقود . تعرف كيف تنفقها بسرعة وغباء . ماذا سوف يحدث لها ، عندما تصبح وحيدة ، عندما تذوب النقود ، عندما يزهد فيها

الرجال ؟ لا حياة لها إلا بالشرب والرجال . كان بإمكانها أن تتزوج ، أن توازن بين متعتها والعمل . ولكن الرجال الذين رغبوا في الزواج ، ابتعدوا عندما عرفوا بعض المعلومات . حاولت إغراءها بالعمل، ولكنها أصبحت تهديداً حقيقياً للعمل . الرجال يملأون رأسها . عندما يعجبها رجل كانت تنسى كل شيء عدا عضوه التناسلي .

عندما أخبرها سيف الدين أن أميرة دعته قائلة إن لها شقة خاصة بها ، قالت له سلطانة :

ـ ليش مارحت معها ؟ الأم وبنتها .

قال لها :

ـ لكن أنا بحبك انتِ .

قالت له :

ـ كذاب .

ـ والله العظيم .

الشفقة منعتها أن تقول له إنه لم يذهب بسبب خوفه . ثم خطرلها بحدس وخبرة امرأة رأت الكثير أن هنالك علاقة بين أميرة وسيف الدين . لن تفلت أميرة عشيقاً من عشاق أمها . وكأن أميرة استجابت لخواطر أمها . همست :

ـ ماما .

ـ ايوه يا حبيتي .

ـ بدي أقول لك إشي .

كانت تنظر لأمها بوجه جعله الإجهاد والبكاء رقيقاً حساساً ، وديعاً . قالت سلطانة :

ـ لا تقولي . اني عارفة .

ـ عارفة؟

قالت سلطانة :

ـ عارفة . ولا يهمك .

نهضت أميرة قليلاً واتكأت على كوعها وقالت :

ـ يعني عارفة عني وعن . . .

ترددت قليلاً ، فقالت سلطانة :

ـ وعن سيف الدين .

صمتتا . كانتا متواجهتين، الواحدة تطالع وجه الأخرى . أرخت سلطانة جفنيها. قالت أميرة :

ـ بتحبيه ؟

قالت سلطانة :

ـ لا .

وهي مندهشة لهذه الغيرة التي تنهش احشاءها. قالت أميرة :

ـ طيب . ليش مسوية علاقة معاه ؟

ـ الواحدة محتاجة زلمة أحياناً .

قالت أميرة :

ـ قال إلي إنك بتحبيه وبتعطيه مصاري .

غضبت سلطانة وقالت :

ـ الكلب . قال إلك هيك؟

ـ ما بتعطيه مصاري ؟

قالت سلطانة إنها أعطته مرة واحدة . طلب منها نقوداً لدفع قسط السيارة، ووعد بردها .

ـ رجّعها ؟

ـ ما رجّعها ، وأنا نسيتها .

ثم أضافت :

ـ رايحة أطلبها منه ، وبعدين أطرده .

قالت أميرة :

ـ تطرديه ؟

ـ رايحة أطرده .

Abu Abdo Al Bagl

قالت أميرة بعد فترة صمت :

ـ وأنا رايحة أطرده . البنت وأمها!

قالت سلطانة لنفسها لقد بدأت تحوّل ما حدث لصالحها . لن يمر وقت طويل قبل أن تجعلني أنا التي خطفت حبيبها . ضحكت أميرة وقالت :

ـ قال بده يتجوزني .

ـ إيش قلتِ إله ؟

قالت :

ـ ما رديت عليه .

طال الصمت بينهما . كل واحدة منهما كانت تحتشد ضد الأخرى ، ولكنهما كانتا تدركان أن الوقت غير ملائم للمعركة . قالت أميرة :

ـ بدي أروح أنا أوضتي .

ـ نامي هون .

ـ ما بتتضايقي ؟

ـ لا ، حبيبتي .

أدارت لها أميرة ظهرها ، وغطت رأسها ونامت .

٧

ستكرر البنت حكايتها مع حكمت في كل مرة . ولكن سلطانة لم تعد تكترث . كانت هي والشيخ عند الشاطىء منذ الفجر . كان يتأوه طيلة الوقت وهما يسيران نحو الشاطىء .

ـ ذبحتيني يامعودة . لديت على جسمي في المراية لقيته منقرش أبيض وأسمر وأحمر وأزرق . . .

كان من الواضح أنه ليس سعيداً فقط بما يحدث ولكنه فخور با مرأة لا تمنح نفسها بسهولة . قالت :

ـ اسكت .

Abu Abdo Al Bagl

كانت تكرهه بالفعل.

قال :

ـ زعلانة ؟

قالت :

ـ لا . بس اسكت.

أصبح طفلاً مزعجاً . قال :

ـ وإذا ما سكت ؟

ضحكت وقالت :

ـ أنت عارف.

قال وهو يضحك :

ـ إيه والله ، إني عارف.

عندما اقتربا من البحر رأت المركب راسياً ومسعد واقفاً على الشاطئ قربه . عندما اقتربا قال مسعد :

ـ البقية في حياتكو .

كان يبتسم وهو يطالعهما بنظرة بيضاء ثابتة . قال الشيخ :

ـ من؟

بدا مقنعاً في دهشته وتساؤله . فقال مسعد :

ـ حكمت أعطاك عمره .

قال الشيخ :

ـ اليهود سوّوها ملاعين الوالدين.

اتسعت ابتسامة مسعد وقال :

ـ اليهود .

بدا الغضب واضحاً على وجه الشيخ . قال :

ـ ليش تضحك ؟ وينه؟

قال مسعد وقد أصبح وجهه كالقناع :

ـ في المركب .

كان وجه سلطانة أصفر ، وقد هرب الدم من شفتيها . صعدت إلى المركب ، وتبعها الشيخ . كانت تتصور المركب من الداخل مجرد مكان محاط بجدار المركب الخارجي . ولكن تبين لها أنه مجموعة من الحجرات الصغيرة جداً ، والممرات الضيقة ، والسراديب . بل اكتشفت طابقاً آخر ، تحت . هبطت إليه ، والشيخ يتبعها . أشار لهما رجل يلبس بنطلوناً أصفر ، وقميصاً أزرق ، ووجهاً أحمر ، ملتهباً ، كأنه مسلوخ . عندما اقتربا منه همس :

ـ هانا .

وفتح لهما باباً صغيراً . تهيبت سلطانة الدخول . كانت خائفة من حدوث مفاجأة غير متوقعة ، مفاجأة مقترنة بالعنف . كما أن اهتزاز المركب المتصل أحدث دواراً خفيفاً جعلها تشعر أنها ستسقط . التفتت نحو الشيخ . رأته مبهور الأنفاس يلهث . الرعب الذي في وجهها انتقل إليه كصرخة استغاثة .

قال لها :

ـ علامك؟

همست :

ـ خايفة .

قال :

ـ نطلع .

قالت :

ـ لا .

دخلت الحجرة الضيقة جداً . لم تستطع أن ترى شيئاً . قالت :

ـ مش شايفة!

لعبارتها جرس استغاثة . مد الرجل الذي كان يقف في الخارج ذراعه عبر فتحة الباب فأضاء الحجرة ضوء أصفر ، معتم ، مرتعش . رأته ، رأت حكمت هناك ، ممدداً على دكة خشبية . شعرت أن ساقيها تخونانها . فاتكأت على الحائط . قال لها الرجل :

ـ استريحي .

لم تفهم ما يقول . دفع كرسياً خشبياً جعل طرفه يلمس فخذيها ، وهمس :

ـ اقعدي .

استجابت لكلمته كأنها تطيع أمراً لا تستطيع عصيانه . وعيناها معلقتان بوجه حكمت . من الواضح أن الرصاصة قد أزالت شفته العليا والجزء الأسفل من أنفه . بدا وكأنه مستغرق في ضحك شرير . همست :

ـ كيف صار . . . ؟

قال الرجل وهو يقترب :

ـ الرصاصة الأولانية . . .

وأدار الجسد ليريها مؤخرة رأسه ، ثم أشار بإصبعه إلى كتلة سوداء في أسفل الجمجمة ، وقال :

ـ صابته هانا .

ثم أشار بإصبعه إلى كتلة سوداء أخرى ، وقال :

ـ والثانية هانا . .

ثم أعاده إلى وضعه القديم وأشار إلى الدائرة السوداء في الوجه ، مقترباً بإصبعه حتى لمسها، وقال :

ـ وطلعن من هانا .

في نفس اللحظة صرخت :

ـ لا تصيبه .

لأنها تصورت أن لمس الجرح سوف يسبب ألماً لحكمت في مناطق اللحم العارية .

قال الرجل :

ـ ما صبته .

كان يتكلم بهدوء . قالت :

ـ مين طخه؟

قال :

ـ اليهود .

قالت :

- كيف؟ إيش صار ؟

نادى الشيخ :

- يا عزيز .

خرج الرجل دون أن يرد على سؤالها .

أخذت تنظر إلى حكمت، تراه من خلال دوارها، من خلال إحساس بأنها تسير في عالم كله يهتز ويترجرج، عالم مصاب بالدوار . وأخذت تهذي : «لقد قلت لك احترس، كن يقظاً، ولكن كعادتك نسيت ما قلته لك . دائماً تنسى ما أقوله لك، وعندما أذكرك به تبتسم . . . » . ورغم أن الكلام استمر في رأسها، كانت في أعماقها تعتقد أن كل ما يحدث هي مزحة - كابوس - وستنتهي بعد حين . كانت تحدّق في حكمت، في واقع الأمر، لترى متى تنتهي المزحة . ولكنها كانت تعلم أيضاً أنه ميت، وأنه شبع موتاً . فعندما قلبه الرجل على وجهه، ورأته يتحرك كله قطعة واحدة، كأنه لوح خشب خطر لها أن هذا هو الموت . ولكن ذلك لم يبدُ لها متعارضاً مع حدسها بأن ما يحدث هو مجرد مزحة .

ثم ازدادت الأمور أختلاطاً أمامها . تصورت حكمت يعض على شفته السفلى، وكأنه، في سياق ذلك المزاح الأسود الكابوسي، يشير لأحد يقف خلفها أن لا يكشف المزحة . مدت يدها وأمسكت يده فأطلقت صرخة خافتة؛ كانت اليد باردة، يابسة، ذلك النوع من البرودة التي يجعل القشعريرة تنتشر على الجلد كله، شعرت في تلك اللحظة أن موته لمسها في العمق . فأخذت تنتحب .

سمعت اسمها ينادى . منذ فترة ليست بالقصيرة كانت تسمع اسمها ينادى، وتسمع أصواتاً تتحدث دون انقطاع، ولكنها لم تكن تربط بين تلك الأصوات وبين ما هي فيه . سمعت :

- سلطانة، يالّه يا بنت أخي .

كانت تعرف الصوت، ولكنها تفتقد معرفة دلالة توجهه إليها . ازداد نحيبها ارتفاعاً لتغرق ذلك الصوت، لتظل وحدها . وفي داخلها كان الصوت الآخر مستمراً: «قلت لك احترس لنفسك . حين قلت ذلك كنت أعرف أنك مهدد، كان عليك أن تصغي لي . لم تصغ لكلامي حين قلت لك ابتعد عن أميرة . أكبر منك

دمرتهم . ولكنك لم تصغ لكلامي» . وسيل من الكلمات يتدفق دون توقف .

ـ بكفّي يا سلطانة .

جاء الصوت من الخارج . تبعته حركة . اهتز المركب تحت أقدام الشيخ ، أمسك بيدها ، وقال :

ـ عمر البكا ما رد ميت يا سلطانة .

كان صوته عميقاً . استسلمت ليده ونهضت . قال لها :

ـ امسحي دموعك .

غادرا المركب دون أن يكلما أحداً . لاحظت عبوراً ، ودون أن تبني على ذلك أية نتيجة ، مسعد وهو ينظر إليها بدهشة .

انتبهت سلطانة إلى وجود أميرة بجوارها . شعرت كأنها فضحت نفسها أمام هذه البنت المتربصة بها دائماً لتحاسبها على أبسط حركة تقوم بها . هذه البنت عقاب حقيقي لها، عقاب من الرب ينتقم لحكمت ولكثيرين غيرهم . ثم أخذت تحلم بذلك الكوخ على شاطئ البحر . ارتسمت صورة بحر أسود صاخب ، وسماء رمادية ، وأشجار كثيرة جداً ، ساكنة ، وفروعها محملة بالثلج . وهي وحيدة . بل هنالك سمحة . خطرت لها سمحة كرفيقة عندما سمعت صوتها في سماعة التليفون الليلة . ومن أيضاً؟ لماذا لا أحقق هذا الحلم؟ قالت لنفسها . إنها قادرة على ذلك .

صوت سيارة تمر في الشارع . سوف تكون سيارتها معها . وتجولت في داخل ذلك الكوخ . كانت متعة الحياة فيه مضاعفة بسبب هذا الجو البارد الرمادي في الخارج .

يبدو أنها عاشت في قلب ذلك الكوخ أكثر مما يجب . بعد أن استعادت تفاصيله أكثر من مرة، شعرت بالرغبة إلى الرجل تنبثق في أحشائها كالنار . تريده الآن ، هذا الولد سيف الدين . الآن . كانت ناراً يجب اطفاؤها . كادت يدها تمتد للتليفون . ثم تذكرت أن أميرة قد اختطفته منها .